صفوة التفاسير

تفسير للقرآن العظيم، جامع بين المأثور والمعقول

مستمد من أوثق الكتب التفسيرية

(الطبري، الكشاف، القرطبي، الألوسي، ابن كثير، البحر المحيط) وغيرها

بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

نسخة منقحة ومصححة

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

الجزء الثاني

تفسير سورة هود

بين يدي السورة

* سورة هود مكية، وهي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية "التوحيد، الرسالة، البعث والجزاء" وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من أذى المشركين، لا سيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة، فكانت الآيات تتنزل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء ليتأسى بهم في الصبر والثبات.

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم الذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا نقص، لأنه تنزيل الحكيم العليم الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد.

* ثم عرضت لمناصر الدعوة الإسلامية من طرح الحجج العقلية، مع الموازنة بين الفريقين: فريق الهدى، وفريق الضلال، وضربت مثلاً للفريقين ووضحت به الفارق الهائل بين المؤمنين والكافرين، وذكرت أن بينهما كالفارق بين الظلمات والنور ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون﴾.

* ثم تحدثت عن الرسل الكرام بادئة بقصة نوح عليه السلام أبي البشر الثاني، إذ لم ينج من الطوفان إلا من آمن به وركب معه في السفينة، وغرق كل من على وجه الأرض، وهو أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم محنة وصبراً.

* ثم تلتها قصة هود عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم عاد: العتاة المتجبرين، الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمكذبين والمتجبرين ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ إلى قوله ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾.

* ثم تلتها قصة نبي الله صالح، ثم قصة لوط، ثم قصة شعيب، ثم قصة موسى وهارون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* ثم جاء التعقيب المباشر بما في هذه القصص من العبر والعظات في هلاك الله تعالى للعاصين ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾ إلى قوله تعالى ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين، وذلك للاعتبار بما حل بالمكذبين في العصور السالفة، وتسلية فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم أمام ذلك التكذيب

والأحوال ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ... إلى قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدأت به ليتناسق البدء مع الختام!!

اللغة: ﴿أُحْكِمَتْ﴾ الإحكام: المنع من الفساد يقال: أحكم الأمر إذا أتى به على وجه لا يتطرق إليه خلل أو فساد ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ المكان الذي تأوي إليه في الدنيا ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المكان الذي تصير إليه بعد الموت ﴿أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ الأمة هنا بمعنى: المدة من الزمن، أي: مدة محدودة من السنين. قال القرطبي: والأمة: اسم مشترك يطلق على ثمانية أوجه: الجماعة، المدة، الرجل الجامع للخير، الحين والزمن، أتباع الأنبياء[1] ... إلخ ﴿مِرْيَةٍ﴾ شك وارتياب ﴿حَبِطَ﴾ ضاع وتلاشى ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة واحدة بمعنى حقاً، وهو قول الخليل وسيبويه ﴿وَأَخْبَتُوا﴾ خشعوا وخضعوا، والإخبات: الذل والخضوع ﴿وَالْأَصَمِّ﴾ الذي لا يسمع وبه صمم.

سبب النزول: ذكر القرطبي عن ابن عباس أن «الأخنس بن شريق» كان رجلاً حلو الكلام وحلو المنطق، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي له بقلبه على ما يسوء، فأنزل الله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ الآية[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا

(١) كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي جماعة، وقوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي حين من الزمن، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي ملة ودين ... إلخ.

(٢) القرطبي (٩/٥).

هو فهل أنتم مسلمون ﴿١٤﴾ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴿١٥﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿١٦﴾ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿١٧﴾ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴿١٨﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ﴿١٩﴾ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴿٢٠﴾ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿٢١﴾ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴿٢٢﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿٢٣﴾ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون﴾

التفسير ﴿الر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية، وعن ابن عباس أن معناه: أنا الله أرى. ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ أي: هو كتابٌ جليل القدر، نظمت آياته نظمًا محكمًا، لا يلحقه تناقض ولا خلل ﴿ثم فصلت﴾ أي: بينت فيه أمور الحلال والحرام، وما يحتاج إليه العباد في أمور المعاش والمعاد ﴿من لدن حكيم خبير﴾ أي: من عند الله محكمها ومبينها الخبير العالم بكيفيات الأمور، ولهذا كانت محكمة أحسن الإحكام ومفصلة أحسن التفصيل ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: لئلا تعبدوا إلا الله ﴿إنني لكم منه نذير وبشير﴾ أي: إنني مرسل إليكم من جهته تعالى، أنذركم عقابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ أي: استغفروه من الذنوب، وأخلصوا التوبة واستقيموا عليها بالطاعة والإنابة ﴿يمتعكم متاعا حسنا﴾ أي: يمتعكم في هذه الدنيا بالمنافع الجليلة من سعة الرزق، ورغد العيش ﴿إلى أجل مسمى﴾ أي: إلى وقت محدد هو انتهاء أعماركم ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي: ويعطي كل محسنٍ في عمله جزاء إحسانه ﴿وإن تولوا﴾ أي: وإن تتولوا عن الإيمان وتُعرضوا عن طاعة الرحمن ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ أي: أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، ووصف العذاب بأنه كبير لما فيه من الأهوال الشديدة ﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي: إليه جل وعلا رجوعكم بعد الموت ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي: قادر على إماتتكم ثم إحيائكم وعلى معاقبة من كذّب، لا يعجزه شيء، وفي الآية تهديد عظيم. ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾ قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف إنه ليحبه ويضمر خلاف ما يظهر[1]، وقال القرطبي: أخبر عن معاداة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين، ويظنون أنه تخفى

(١) البحر ٥/٢٠٢.

على الله أحوالهم[1]. والمعنى: إنهم يطوون صدورهم على عداوة النبي والمؤمنين ويريدون بذلك أن يستخفوا من الله حتى لا يفتضح أمرهم ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: حين يتغطون بثيابهم ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم تعالى ما يُخفون وما يُظهرون؛ وكأن الآية تقول: لا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله يعلم سرائركم وظواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: عالم بما في القلوب ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي: ما من شيء يدبُّ على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفّل الله برزقه تفضلاً منه تعالى وكرماً، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قال ابن عباس: مستقرها: حيث تأوي إليه من الأرض، ومستودعها: الموضع الذي تموت فيه فتدفن[2] ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي كلٌّ من الأرزاق، والآجال، والأعمال مسطّرٌ في اللوح المحفوظ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: خلقها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، وفيه الحث للعباد على التأني في الأمور، فإن الإله القادر على خلق الكائنات بلمح البصر خلقها في ستة أيام ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أي: وكان العرش قبل خلقهما على الماء. قال الزمخشري: أي: ما كان تحته خلق، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض[3] ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلقهن لحكمة بالغة ليختبركم فيظهر المحسن من المسيء، ويجازيكم حسب أعمالكم ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ أي: ولئن قلت يا محمد لأولئك المشركين من كفار مكة: إنكم ستبعثون بعد موتكم للحساب ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ليقولن الكفار المنكرون للبعث والنشور: ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح مكشوف ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى مدة من الزمن قليلة ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي: ليقولُن استهزاءً: ما يمنعه من النزول؟! ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: ألا فليعلموا أنه يوم يأتيهم العذاب ليس مدفوعاً عنهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة، والأمن، والرزق وغيرها من النعم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي: ثم سلبنا تلك النعمة منه ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ أي: قنوط من رحمة الله، شديد الكفر به ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد ما نزل به من الضر، وما أصابه من البلاء، كالفقر والمرض والشدة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: انقطع الفقر والضيق والمصائب ولن تصيبني بعد اليوم ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: بطرٌ بالنعمة مغترٌ بها، متعاظم على الناس بما أوتي، والآية ذمٌّ لمن ييأس عند الشدائد، ويبطر عند النعم ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذه عادة الإنسان إلا المؤمنين الذين

---

(١) القرطبي (٩/ ٥). (٢) البحر (٥/ ٢٠٢).
(٣) الكشاف (٢/ ٢٨٠).

يصبرون على الضراء، ويعملون الخير في النعماء، فهم في حالتي المحنة والنعمة محسنون ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة لهم مغفرة لذنوبهم، وأجرٌ كبيرٌ في الآخرة هو الجنة. قال في البحر: ووصف الثواب بأنه كبير، وذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، والأمن من العذاب، ورضا الله عنهم، والنظر إلى وجهه الكريم[1] ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ كان المشركون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك، وكانوا يستهزئون بالقرآن فقال الله تعالى له: فلعلك يا محمد تاركٌ بعض ما أُنزل إليك من ربك فلا تبلغهم إياه لاستهزائهم ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ أي: ويضيق صدرك من تبليغهم ما نزل عليك من ربك خشية التكذيب، والغرض تحريضُه ﷺ على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بمن عاداه ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: لأجل أن يقولوا: هلَّا أُنزل عليه مالٌ كثير ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ أي: جاء معه ملك يصدِّقه كما اقترحنا. قال تعالى مخاطبًا نبيه عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي: لست يا محمد إلا منذرًا تخوِّف المجرمين من عذاب الله ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: قائم على شئون العباد يحفظ عليهم أعمالهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من عند نفسه؟ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي: إن كان الأمر كذلك فأتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات، فأنتم عرب فصحاء ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: استعينوا بمن شئتم غير الله سبحانه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنَّ هذا القرآن مفترى ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعارضة وعجزوا عن ذلك، فاعلموا أيها المشركون أنما نزل هذا القرآن بوحي من الله ﴿وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا رب ولا معبود إلا الله الذي أنزل هذا القرآن بوحي من الله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمرٌ، أي: فأسلموا بعد ظهور هذه الحجة القاطعة، إذ لم يبق لكم عذر مانع من ذلك. قال في التسهيل: الاستفهام معناه: استدعاء إلى الإسلام، وإلزامٌ للكفار أن يسلموا لما قام الدليل على صحة الإسلام لعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن[2] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: من كان يقصد بأعماله الصالحة نعيم الدنيا فقط، لأنه لا يعتقد بالآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوفِّ إليهم أجور أعمالهم بما يحبون فيها من الصحة والأمن والرزق ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي وهم في الدنيا لا يُنقصون شيئًا من أجورهم. قال قتادة: من كانت الدنيا همَّه ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يُفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها، وأما المؤمن فيُجازى بحسناته في الدنيا ويُثاب عليها في الآخرة[3]. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ أي: هؤلاء الذين هدفهم الدنيا ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم وعذابها المخلَّد ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا

(١) البحر (٥/٢٠٦). (٢) التسهيل (٢/١٠٣).
(٣) مختصر ابن كثير (٢/٢٠٩).

فيها﴾ أي بطل ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تأكيدٌ لما سبق أي : باطلٌ ما كانوا يعملونه في الدنيا من الخيرات ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي : أفمن كان على نورٍ واضح ، وبرهانٍ ساطع من الله تعالى ، وهم النبي والمؤمنون ، وجوابه محذوف ، أي : كمن يريد الحياة الدنيا ؟ بينهما تفاوتٌ كبير ، وتباينٌ بعيد ، فلا يستوي من أراد الله ، ومن أراد الدنيا وزينتها ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي : ويتبعه شاهد من الله يصدقه . قال ابن عباس : هو جبريل عليه السلام ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة الذي أنزله الله على موسى قدوةً في الخير ورحمة لمن نزل عليهم ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي : أولئك المتصفون بأنهم على نور من ربهم يصدقون بالقرآن حق التصديق ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي : ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان فمصيره نار جهنم يردها لا محالة ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي : فلا تكن في شكٍ من هذا القرآن ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي : إنه الحق الثابت المنزل من عند الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي : لا يصدقون أنه تنزيل رب العالمين ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي : لا أحد أعظم ظلماً ممن اختلق الكذب على الله بنسبة الشريك والولد إليه ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أي : يعرضون يوم القيامة في جملة الخلق على خالقهم ومالكهم ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أي : ويقول الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم : هؤلاء الذين كذبوا على الله وافتروا فيفضحهم في الدار الآخرة على رءوس الأشهاد ، ويشهرون بهم خزياً ونكالاً ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ لظلمهم وافترائهم على الله ، واللعنة : الطرد من رحمة الله ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يمنعون الناس عن اتباع الحق ، وسلوك سبيل الهدى الموصل إلى الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي : ويريدون أن تكون السبيل معوجة ، أي يريدون أن يكون دين الله معوجاً على حسب أهوائهم ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي : جاحدون بالآخرة منكرون للبعث والنشور ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : ليسوا مفلتين من عذاب الله وإن أمهلهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي : ليس لهم من نصراء يمنعونهم من عذاب الله ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ جملة مستأنفة ، أي : يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم وتكذيبهم ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي : سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم أن الله جعل لهم سمعاً وبصراً ، ولكنهم كانوا صُمّاً عن سماع الحق ، عُمياً عن رؤيته فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواس ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي : خسروا سعادة الدنيا والآخرة ، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي : وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ أي : حقاً إنهم يوم القيامة أخسر الناس ، ولا ترى أحداً أبين خسراناً منهم ، لأنهم آثروا الفانية على الباقية ، واستعاضوا عن الجنان بلظى النيران . ثم لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء ، ذكر حال المؤمنين السعداء فقال :

المناسَبَة: لما ذكر تعالى عناد الكافرين من أهل مكة، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامهم له بافتراء القرآن، ذكر هنا قصة نوح مع قومه الكافرين، لتكون كالعظة والعبرة لمن كذّب وعاند، وتسلية للرسول ﷺ بسرد قصص المرسلين وما جرى لهم مع أقوامهم.

اللغَة: ﴿الْمَلَأُ﴾: أشراف القوم وسادتهم ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ الأراذل هنا: المراد بهم: الفقراء والضعفاء والسّفلة، وهو جمع أرذل بمعنى: السافل الذي لا خَلاق له ولا يبالي بما يفعل ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ عمي عن كذا، وعمي عليه كذا، بمعنى التبس عليه ولم يفهمه، وخفي عليه أمره ﴿جَادَلْتَنَا﴾ الجدال في كلام العرب: المبالغة في الخصومة ﴿تَزْدَرِي﴾ تحتقر ﴿الْفُلْكَ﴾ السفينة، ويطلق على المفرد والجمع ﴿التَّنُّورُ﴾: مستوقد النار ﴿وَمُرْسَاهَا﴾ رسا الشيء يرسو: ثبت واستقر ﴿عَاصِمَ﴾ مانع يقال: عصمه: إذا منعه، ومنه الحديث "فقد عصموا مني دماءهم" ﴿وَغِيضَ﴾ غاض الماء: نقص بنفسه، وغِضْته: أنقصته ﴿الْجُودِيِّ﴾ جبل قرب الموصل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم ، وتظنون أنكم خير منهم ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ أي : من يدفع عني عذاب الله إن ظلمتهم وطردتهم؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي : أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه؟ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي : لا أقول لكم عندي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لغناي ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي : ولا أقول لكم : إني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي : ولا أقول لكم إني من الملائكة أرسلت إليكم فأكون كاذبًا في دعواي ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي : ولا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي واحتقرتموهم لفقرهم : لن يمنحهم الله الهداية والتوفيق ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي : أعلم بسرائرهم وضمائرهم ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي : إني إن قلت ذلك أكون ظالمًا مستحقًا للعذاب ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أي : قال قوم نوح لنوح عليه السلام : قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي : ائتنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقًا فيما تقول ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ أي : أمر تعجيل العذاب إليه تعالى لا إليَّ فهو الذي يأتيكم به إن شاء ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي : ولستم بفائتين الله هربًا ، لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ أي : ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي : إن أراد إضلالكم ، وهو جواب لما تقدم ، والمعنى : ماذا ينفع نصحي لكم إن أراد الله غوايتكم وإضلالكم؟ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي : هو خالقكم والمتصرف في تدبيركم ، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على أعمالكم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي : أيقول كفار قريش : اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه؟[1] ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي : قل لهم يا محمد : إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليَّ وزري وذنبي ، ولا تؤاخذون أنتم بجريرتي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي : وأنا بريء من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم ، والآية اعتراضٌ بين قصة نوح للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة كموقف المشركين من قوم نوح في العناد والتكذيب ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ أي : أوحى الله إلى نوح أنه لن يتبعك ويصدِّق برسالتك إلا من قد آمن من قبل ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي : فلا تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي : اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي : وتعليمنا لك . قال مجاهد : أي : كما نأمرك ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي : لا تشفع فيهم فإني مهلكهم لا محالة ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي : هالكون غرقًا بالطوفان ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية لاستحضارها في الذهن ، أي : صنع نوحٌ السفينة كما علَّمه ربُّه ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي : كلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزءوا به وضحكوا وقالوا : يا نوحُ كنت

---

[1] هذا رأي أكثر المفسرين ، وذهب ابن عطية وأبو حيان إلى أن الآية من تتمة قصة نوح ، وأن الضمير عائد إلى قوم نوح ، والمعنى : أيقولون : افترى نوح هذه الأخبار ... إلخ

بالأمس نبياً، وأصبحت اليوم نجاراً!! ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ أي: إن تهزءوا منا اليوم ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي: فإنا سنسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون مثل سخريتكم منا الآن، فأنتم أولى بالسخرية والاستهزاء ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد وتهديد، أي: سوف تعلمون عاقبة تكذيبكم والاستهزاء ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: عذاب يذله ويهينه وهو الغرق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب جهنم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: جاء أمرنا الموعود بالطوفان ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي: فار الماء من التنور الذي يوقد به النار. قال العلماء: جعل الله ذلك علامة لنوح وموعداً لهلاك قومه. وعن ابن عباس: التنور وجهُ الأرض، قال الطبري: والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض، فقيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك في السفينة. وقال ابن كثير: التنور وجه الأرض أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماءً، وهذا قول جمهور السلف والخلف (٢) ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: احمل في السفينة من كل صنف من المخلوقات اثنين ذكراً وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: واحمل قرابتك أيضاً: أولادك ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه، والمراد به: ابنه الكافر «كنعان» وامرأته «واعلة» ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: واحمل معك من آمن من أتباعك ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: وما آمن بنوح إلا نفر يسير مع طول دعوته ليهم، وهي مدة تسعمائة وخمسين سنة. قال ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل: كانوا عشرة (٣). ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي: وقال نوح لمن آمن به: اركبوا في السفينة باسم الله يكون جريها على وجه الماء، وباسم الله يكون رسوُّها واستقرارها. قال الطبري: المعنى: باسم الله حين تجري، وحين ترسي، أي: حين تسير وحين تقف (٤) ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ساتر للذنوب للتائبين، رحيمٌ بالمؤمنين حيث نجاهم من الغرق ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: والسفينة تسير بهم وسط الأمواج التي هي كالجبال في العظم والارتفاع، بإذن الله وعنايته وحفظه. قال الصاوي: روي أن الله أرسل المطر أربعين يوماً وليلة، وخرج الماء من الأرض ينابيع كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعاً حتى أغرق كل شيء (٥) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي: ونادى نوح ولده «كنعان» قبيل سير السفينة وكان في ناحية منها لم يركب مع المؤمنين ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ أي: اركب معنا ولا تهلك نفسك بالغرق ﴿وَلَا تَكُن

---

(١) بعد أن ذكر الطبري أقوال السلف في المراد بالتنور قال: وأولى هذه الأقوال عندنا قول من قال: هو التنور الذي يخبز فيه، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر. انظر الطبري (١٢/٤٠).

(٢) مختصر ابن كثير (٢/٢٠٢)　　(٣) مختصر ابن كثير (٢/٢٢٠)

(٤) الطبري (١٢/٤٥)　　(٥) حاشية الصاوي على الجلالين (٢/٢٠١)

مَعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فتغرق كما يغرقون ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: سأصعد إلى رأس جبل أتحصن به من الغرق؛ ظنًّا منه أن الماء لا يصل إلى رؤوس الجبال ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: قال له أبوه نوح: لا معصوم اليوم من عذاب الله ولا ناجٍ من عقابه إلا من رحمه الله ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ أي: حال بين نوح وولده موج البحر فغرق ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ أي: انشفي وابلعي ما على وجهك من الماء ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أي: أمسكي عن المطر ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: ذهب في أغوار الأرض. قال مجاهد: نقص الماء ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: تمّ أمر الله بإغراق من غرق، ونجاة من نجا ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي: استقرت السفينة على جبل الجودي بقرب الموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكًا وخسارًا لمن كفر بالله، وهي جملة دعائية. قال الألوسي: ولا يخفى ما في الآية من الدلالة على عموم هلاك الكفرة، بل على عموم هلاك أهل الأرض ما عدا أهل السفينة. ويدل عليه ما روي أن الغرق أصاب امرأة معها صبيٌّ لها فوضعته على صدرها، فلما بلغها الماء وضعته على منكبيها، فلما بلغها الماء رفعته بيديها، فلو رحم الله أحدًا من أهل الأرض لرحمها(١) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: نادى نوح ربّه متضرعًا إليه فقال: ربِّ إن ابني كنعان من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وعدك حقٌّ لا خُلف فيه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: وأنت يا الله أعدل الحاكمين بالحق ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: قال له ربه: يا نوحُ إنَّ ولدك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم؛ لأنه كافر ولا ولاية بين المؤمن والكافر ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: إنَّ عمله سيئ غير صالح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تطلب مني أمرًا لا تعلم أصوابٌ هو أم غير صواب؟ ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: إني أنبهك وأنصحك خشية أن تكون من الجاهلين. قال في التسهيل: وليس في ذلك وصفٌ له بالجهل، بل فيه ملاطفة وإكرام(٢) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: قال نوح معتذرًا إلى ربه عمّا صدر عنه: ربِّ إني أستجير بك من أن أسألك أمرًا لا يليق بي سؤاله ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: وإلا تغفر لي زلتي، وتتداركني برحمتك، أكن ممن خسر آخرته وسعادته ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي: اهبط من السفينة بسلامة وأمن ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: وخيرات عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة. قال القرطبي: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة(٣) ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي: وأمم أخرى من ذرية من معك نمتعهم متاع الحياة الدنيا وهم الكفرة المجرمون ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ثم نذيقهم في الآخرة العذاب الأليم وهو عذاب جهنم ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: هذه القصة وأشباهها من أخبار الغيوب الماضية التي لم تشهدها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ أي: نُعلمك بها بالوحي

(١) روح المعاني (١٢/٦٣).
(٢) التسهيل (٢/١٠٦).
(٣) القرطبي (٩/٤٨).

محمد بواسطة الوحي ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحدٍ من قومك علمٌ بها من قبل هذا القرآن ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة كما صبر نوح، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله. وفيه تسلية له ﷺ على أذى المشركين.

البلاغة:

١- ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ شبه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه بمن سلك مفازة لا يعرف طرقها ومسالكها، واتبع دليلاً أعمى فيها، على سبيل الاستعارة التمثيلية.

٢- ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

٣- ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ الأمر يراد به التهكم والاستهزاء.

٤- ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ مجاز بالحذف، أي: عقوبة إجرامي وجزاؤه. ﴿إِنْ﴾ الدالة على الشك ليدل أنه على سبيل الفرض ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ بخلاف إجرامهم فإنه محقق ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

٥- ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الأعين كناية عن الرعاية والحفظ، يقال للمسافر: صحبتك عين الله أي: رعاية الله وحفظه.

٦- ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ بين الأرض والسماء طباقٌ، وبين ابلعي وأقلعي جناسٌ ناقص، وكلاهما من المحسنات البديعية.

فائدة: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: كان ابنه من صلبه، ولكنه لم يكن مؤمناً، وما بغت امرأة نبيٍّ قط، ومعنى الآية: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك(١).

فائدة: دلت الآية على أن أهله هم الصلحاء، أهل دينه وشريعته، ومن لا صلاح له لا نجاة له، ومدار الأهلية: القرابة الدينية لا القرابة البدنية

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

لطيفة: روي أن أعرابياً سمع هذه الآية ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ .. الآية فقال: هذا كلام القادرين لا يشبه كلام المخلوقين. ويروى أن ابن المقفع - وكان أفصح أهل زمانه - رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً، وجعله مفصلاً، وسماه سوراً، فمر يوماً بصبي فسمعه يقرأ الآية فرجع إلى بيته ومحا ما كان قد بدأه، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبداً، وما هو من كلام البشر(٢).

تنبيه: هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يقصر عنه نطاق البيان، وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان حيث قال رحمه الله وطيب ثراه: في هذه الآية أحدٌ وعشرون نوعاً

(١) الطبري (١٢/ ٥١). (٢) روح المعاني (١٢/ ٦٣).

من البديع: المناسبة في قوله: ﴿ابلعي﴾ ﴿أقلعي﴾ والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في ﴿ماءك﴾ المراد مطر السماء، والاستعارة في ﴿ابلعي﴾ والإشارة في ﴿وغيض الماء﴾ فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة، والتمثيل في ﴿وقضي الأمر﴾ عبّر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف في ﴿واستوت على الجودي﴾ فلفظ ﴿واستوت﴾ كلام تامّ أردفه بلفظ ﴿على الجودي﴾ قصداً للمبالغة في التمكن بهذا المكان، والتعليل في ﴿وغيض الماء﴾ فإنه علة للاستواء، والاحتراس في ﴿بعداً للقوم الظالمين﴾ وهو أيضاً ذمّ لهم، والإيجاز وهو ذكر القصة بلفظ قصير مستوعب للمعاني الجمّة. وعدّد بقية الوجوه وهي: الإيضاح، والمساواة، وحسن النسق، وصحة التقسيم، وحسن الائتلاف، والتمكين، والتجنيس، والتسهيم، والمقابلة، والتهذيب، والوصف.

مقتطفات من تفسير سيد قطب في ظلال القرآن

وننقل هنا فقرات من تفسير شهيد الإسلام «سيد قطب» عليه الرحمة والرضوان حيث قال ما نصه: «وعند هذا المقطع من قصة نوح يلتفت السياق لفتة عجيبة إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ﷺ وزعمهم أن محمداً يفتري هذا القصص ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ فالافتراء إجرام وتعاطيه منكر، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعد أن أرتكبه، وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة في القرآن، لأنها إنما جاءت تأدية لغرض معين، ثم يمضي السياق في قصة نوح يعرض مشهداً ثانيًا: مشهد نوح يتلقى وحي ربه وأمره ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ۝ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ أي برعايتنا وتعليمنا ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ فقد تقرر مصيرهم، وانتهى الإنذار، وانتهى الجدل.

والمشهد الثالث من مشاهد القصة: مشهد نوح يصنع الفلك ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ والتعبير بالمضارع هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدّته، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير، وقومه المتكبرون يمرون به فيسخرون، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول، ثم إذا هو ينقلب نجارًا يصنع مركبًا.

والمشهد الرابع: مشهد التعبئة عندما حانت اللحظة المرتقبة ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ ...

ثم يأتي المشهد الهائل المرعوب: مشهد الطوفان ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ إن الهول هنا هولان: هول في الطبيعة الصامتة، وهول في النفس البشرية يلتقيان، وإنّا بعد آلاف السنين لنمسك أنفاسنا - ونحن نتابع السياق - والهول

(١) الظلال في الجزء (٥/ ٢٢٧)

بأبصارنا كأننا نشهد المشهد ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة وحاسمة ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب، وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن، وتهدأ العاصفة، ويخيم السكون، ويقضى الأمر، ويوجه الخطاب إلى الأرض والسماء بصيغة العاقل، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل، فتبلع الأرض وتكف السماء ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا...﴾ إلى ... ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ من آية (٥٠) إلى نهاية آية (٧٣).

المناسبة: هذه هي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة، وهي قصة هود مع قومه عاد، وقد ذكرها تعالى بالإسهاب، ولهذا سميت السورة «سورة هود» ثم أعقبها بالحديث عن ثمود، وهي القصة الثالثة في هذه السورة، ثم قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له بإسحاق، وهي القصة الرابعة.

اللغة: ﴿مِدْرَارًا﴾ كثيرًا متتابعًا من: درَّت السماء تدرُّ إذا سكبت المطر بسخاء، والمدرار: الكثير الدرّ، وهو من أبنية المبالغة ﴿اعْتَرَاكَ﴾: أصابك ﴿نَاصِيَتِهَا﴾ الناصية: منبت الشعر في مقدم الرأس ﴿جَبَّارٍ﴾ الجبار: المتكبر ﴿عَنِيدٍ﴾ العنيد: الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له. قال أبو عبيدة: العنيد والعاند: المعارض بالخلاف ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ جعلكم عمارها وسكانها ﴿تَخْسِيرٍ﴾ تضليل وإبعاد عن الخير ﴿حَنِيذٍ﴾: مشوي، يقال: حنذتُ الشاة أحنذها حنذًا، أي: شويتها ﴿نَكِرَهُمْ﴾: أنكرهم يقال: نكره وأنكره واستنكره بمعنى واحد، وهو أن يجده على غير ما عهده، قال الشاعر:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا[1]

فجمع الشاعر بين اللغتين ﴿وَأَوْجَسَ﴾ استشعر وأحس ﴿بَعْلِي﴾ زوجي.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ۝ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ۝

(1) القرطبي (٩/٦٦)

إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴿٥٦﴾ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ ﴿٥٧﴾ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴿٥٨﴾ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴿٥٩﴾ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴿٦٠﴾ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴿٦١﴾ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴿٦٢﴾ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير ﴿٦٣﴾ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴿٦٤﴾ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴿٦٥﴾ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ﴿٦٦﴾ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿٦٧﴾ كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴿٦٨﴾ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴿٦٩﴾ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴿٧٠﴾ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿٧١﴾ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب ﴿٧٢﴾ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴿٧٣﴾

التفسير: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد نبياً منهم اسمه هود ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: اعبدوا الله وحده دون الآلهة والأوثان ﴿ما لكم من إله غيره﴾ أي: ليس لكم معبود غيره يستحق العبادة ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ أي: ما أنتم في عبادتكم غير الله إلا كاذبون عليه جل وعلا لأنه لا إله سواه ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجرا﴾ أي: لا أطلب منكم على النصح والإبلاغ جزاءً ولا ثواباً ﴿إن أجري إلا على الذي فطرني﴾ أي: ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أتغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاءٍ منكم هو لكم ناصح أمين؟ والاستفهام للإنكار والتقريع ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ أي: استغفروه من الكفر والإشراك ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه والتمسك بالإيمان والتوحيد ﴿يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ أي: يرسل عليكم المطر غزيراً متتابعاً. روي أن عاداً كان حُبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون، فأمرهم هودٌ بالتوبة والاستغفار، ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر، وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سببٌ للرحمة، ونزول الأمطار ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ أي: يزدكم عزاً وفخراً فوق عزكم وفخاركم. قال مجاهد: شدةً إلى شدتكم(١)، فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش

(١) الطبري ١٢/٥٨

حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ؟ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ أي: لا تعرضوا عما أدعوكم إليه مصرّين على الإجرام، وارتكاب الآثام ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: ما جئتنا بحجة واضحة تدل على صدقك. قال الألوسي: وإنما قالوه لفرط عنادهم، أو لشدة عماهم عن الحق[1]. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك، والجملة تفيد اليأس من دخولهم في دينه، ثم نسبوه إلى الخبل والجنون فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي: ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون لما سببتها ونهيتنا عن عبادتها. قال الزمخشري: دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة، غلاظ الأكباد، لا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد، وقد دلَّ قولهم الأخير على جهل مفرط، وبله متناهٍ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم[2]. ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ أي: قال هود: إني أُشهد الله على نفسي ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: واشهدوا أنتم أيضاً أيها القوم بأني بريء مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: فاحتالوا في هلاكي أنتم وآلهتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين. قال أبو السعود: وهذا من أعظم المعجزات، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير من عتاة عاد الغلاظ الشداد، وقد حقرهم وهيّجهم بانتقاص آلهتهم، وحثهم على التصدي له فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً[3]. وقال الزمخشري: من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجلٌ واحد أمةً عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة، وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم، ومثله قول نوح: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[4]. ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي: إني التجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى مالكي ومالككم ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: ما من نسمة تدبّ على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت قهره، والأخذ بالناصية تمثيلٌ للملك والقهر، والجملة تعليلٌ لقوة توكله على الله وعدم مبالاته بأعدائه ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إن ربي عادل، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحداً شيئاً ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: فإن تُعرضوا عن قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: سوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم، وهذا وعيدٌ شديد ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ أي: لا تضرون الله شيئاً بإشراككم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: إنه سبحانه رقيبٌ على كل شيء، وهو يحفظني من شركم ومكركم ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: ولما جاء أمرنا بالعذاب، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: نجينا من العذاب هوداً والمؤمنين

(1) الألوسي (12/84). (2) الكشاف (2/403).
(3) أبو السعود (3/16). (4) الكشاف (2/404).

بفضلٍ عظيم ونعمة منا عليهم ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: وخلصناهم من ذلك العذاب الشديد وهي الريح المدمرة التي كانت تهدم المساكن، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخلٍ خاوية ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الإشارة لآثارهم؛ أي: تلك آثار المكذبين من قوم عاد، انظروا ماذا حلّ بهم، حين كفروا بالله، وأنكروا آياته في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته؟ ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي: عصوا رسوله هوداً، وجمعه تفظيعاً لحالهم، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم، ولبيان أن عصيانهم له عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين؛ لاتفاق كلمتهم على التوحيد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: أطاعوا أمر كل مستكبر على الله، معاندٍ عن الحق، لا يُذعن له ولا يقبله، يريد به الرؤساء والكبراء ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وأُلحقوا باللعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ويوم القيامة أيضاً تلحقهم اللعنة. قال الرازي: جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة، ومعنى اللعنة: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير[1]. ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ هذا تشنيع لكفرهم، وتهويل بحرف التنبيه، وتكرار اسم عاد، أي: ألا فانتبهوا إن عاداً كفروا ربهم؛ إذ عبدوا غيره، وجحدوا نعمته، إذ كذبوا رسوله، فاستحقوا اللعنة في الدنيا واللعنة في الآخرة ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: أبعدهم الله من الخير، وأهلكهم عن بكرة أبيهم، وهي جملة دعائية بالهلاك واللعنة ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود نبيًّا منهم وهو صالح عليه السلام ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أي: اعبدوا الله وحده ليس لكم ربٌّ معبود سواه ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: هو تعالى ابتدأ خلقكم من الأرض، فخلق آدم من تراب ثم ذريته من نطفة ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عمّارها وسكانها تسكنون بها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: استغفروه من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: إنه سبحانه قريب الرحمة مجيب الدعاء ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيداً قبل تلك المقالة فلما قلتها انقطع رجاؤنا فيك ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: أتنهانا يا صالح عن عبادة الأوثان التي عبدها آباؤنا؟ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: وإننا لشاكون في دعوتك، وأمرك مريب يوجب التهمة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: أخبروني إن كنت على برهان وحجة واضحة من ربي ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: وأعطاني النبوة والرسالة ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ أي: فمن يمنعني من عذاب الله إن عصيت أمره؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: فما تزيدونني بموافقتكم وعصيان أمر الله غير تضليل وإبعاد عن الخير. قال الزمخشري: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يعني: تخسرون أعمالي وتبطلونها[2]. ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أضاف الناقة إلى الله تشريفاً لها؛ لأنها خرجت من صخرة صمّاء بقدرة الله حسب طلبهم، أي: هذه

(١) تفسير الرازي (١٨/١٦). (٢) الكشاف (٢/٤٠٨).

لا تخف، فقد أُرسلنا لإهلاك قوم لوط ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ أي: وامرأة إبراهيم واسمها سارة قائمة وراء الستر تسمع كلامهم، فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بشرتها الملائكة بإسحاق وأنها تلده، ويأتيه مولود هو يعقوب ابناً لولده ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أي: قالت سارة متعجبة: يا لهفي ويا عجبي أألد وأنا امرأة مسنة وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً؟ فكيف يأتينا الولد؟! ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجر به العادة. قال مجاهد: كانت يومئذ بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة (١) ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين؟ ليس هذا بمكان عجب على قدرة الله ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: إنه تعالى محمود ممجد في صفاته وذاته، مستحقٌ للحمد والتمجيد من عباده، وهو تذييل بديع لما سبق من البشارة.

البلاغة

١ - ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ المراد بالسماء المطر، فهو مجاز مرسل؛ لأن المطر ينزل من السماء، ولفظ «مدراراً» للمبالغة أي: كثير الدرّ.

٢ - ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أمرٌ بمعنى التعجيز.

٣ - ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ استعارة تمثيلية، شبه الخلق وهم في قبضة الله وملكه وتحت قهره وسلطانه بالمالك الذي يقود المقدور عليه بناصيته كما يقاد الأسير والفرس بناصيته.

٤ - ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ استعارة تمثيلية عن كمال العدل في ملكه تعالى، فهو مطلع على أمور العباد لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

٥ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الأمر كناية عن العذاب.

٦ - ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ ... ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ التكرار في لفظ الإنجاء لبيان أن الأمر شديد عظيم لا سهل يسير، ويسمى هذا: الإطناب.

٧ - ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي: عصوا رسولهم هوداً؛ وفيه تعظيم لحالهم، وبيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين، وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض.

٨ - ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا﴾ ... ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ تكرير حرف التنبيه وإعادة لفظ «عاد» للمبالغة في تهويل حالهم.

تنبيه: لم يقل هود عليه السلام: إني أشهد الله وأشهدكم، وإنما قال ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا

(١) البيضاوي (٢/ ٤٣).

أي يرونه ﴿وما تشركون﴾ وذلك لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما، وأين شهادة الله تعالى الكبير من شهادة العبد الحقير؟!

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ... إلى ... وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٩).

المناسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين مروا عليه وهم في طريقهم لإهلاك قوم لوط، وبشروه بالبشارة السارة بولادة غلام له، وقد ذكرت الآيات مرورهم على لوط وما حلّ بقومه من النكال والدمار، وهي القصة الخامسة، ثم ذكرت قصة شعيب مع أهل مدين، وقصة موسى مع فرعون، وفي جميع هذه القصص عبرٌ وعظات.

اللغَة: ﴿الرَّوْعُ﴾ الخوف والفزع ﴿مُنِيبٌ﴾ الإنابة: الرجوع والتوبة ﴿عَصِيبٌ﴾ شديد في الشر، قال الشاعر:

وإنك إلاّ ترضَ بكرَ بن وائلٍ ... يكنْ لك يومٌ بالعراق عصيبُ

﴿يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون، قال الفراء: الإهراع: الإسراع مع رعدة، يقال: أُهرع الرجل إهراعاً أي أسرع في رعدة من برد أو غضب[1] ﴿تُخْزُونِ﴾ أخزاه: أهانه وأذله، قال حسان:

فأخزاك ربي يا عُتيبَ بنَ مالكٍ ... ولقّاك قبل الموت إحدى الصواعق

﴿سِجِّيلٍ﴾ السجيل والسجين: الشديد من الحجر، قاله أبو عبيدة، وقال الفراء: طين طبخ حتى صار كالآجر ﴿مَنْضُودٍ﴾ متتابع بعضه فوق بعض في النزول ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلَّمة من السيما وهي العلامة ﴿شِقَاقِي﴾ الشقاق: العداوة، قال الشاعر:

ألا من مبلغٌ عني رسولاً ... فكيف وجدتم طعم الشقاق[2]

﴿رَهْطُكَ﴾ رهط الرجل: عشيرته التي يتقوى بهم ﴿الْوِرْدُ﴾ المدخل ﴿الرِّفْدُ﴾ العطاء والإعانة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ

---

(١) القرطبي ٩/٧٤.

(٢) الرسول هنا بمعنى الرسالة، والبيت للأخطل، ذكره القرطبي.

لوطًا أصابه سوء وضجر؛ لأنه ظن أنهم من البشر فخاف عليهم من قومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق صدره بمجيئهم خشية عليهم من قومه الأشرار ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد في الشر ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: جاءه قومه يسرعون إليه لطلب الفاحشة بأضيافه كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعًا ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة؛ فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين. قال القرطبي: وكان سبب إسراعهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها فقالت لهم: إن لوطًا قد أضاف الليلة فتية ما رأيت مثلهم جمالاً، فحينئذٍ جاءوا يهرعون إليه[1]. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي: قال لهم لوط: هؤلاء نساء البلدة أزوجكم بهن، فذلك أطهر لكم وأفضل، وإنما قال: بناتي؛ لأن كل نبيٍّ أبٌ لأمته في الشفقة والتربية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: اخشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيفي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ استفهام توبيخ أي: أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح؟! ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: قال له قومه: لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من أرب، وليس لنا رغبة فيهن ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور، صرحوا له بغرضهم الخبيث قبحهم الله ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ألجأ إلى عشيرة وأنصار تنصرني عليكم، وجواب «لو» محذوف تقديره: لبطشت بكم، وفي الحديث: «رحم الله أخي لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[2] يريد ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده، فهو ركنه الشديد وسنده القوي. قال قتادة: وذُكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبيًا بعد لوط إلا في منعة من عشيرته[3]، وحين سمع رسل الله تعالى تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي: قالت الملائكة للوط: إنا رسل ربك أرسلنا لإهلاكهم وإنهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: اخرج بهم بطائفة من الليل. قال الطبري: أي: اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل[4]. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ أي: لا ينظر أحدٌ منكم وراءه إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا، نُهوا عن الالتفات لئلا تتفطر أكبادهم على قريتهم. قال القرطبي: إن امرأة لوط لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت: واقوماه! فأدركها حجر فقتلها[5]. ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي: إنه سيصيب امرأتك من العذاب ما أصاب قومك ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ أي: موعد عذابهم وهلاكهم الصبح ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه فقالوا له: أليس وقت الصبح قريبًا؟

(١) القرطبي ٩/٧٥.
(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعًا.
(٣) روح المعاني ١٢/١٠٩.
(٤) الطبري ١٢/٨٩.
(٥) القرطبي ٩/٨١.

قال المفسرون: إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هُرعوا نحوه، فأغلق بابه وأخذ يحاذر قومه عنهم من وراء الباب، فتسوّروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما بلوطٍ من الكرب قالوا: يا لوط افتح الباب ودعنا وإياهم!! ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاءَ النجاء!! كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ثم إن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر، ولما حان وقت عذابهم أمر الله جبريل فاقتلع مدائن قوم لوط - وهي خمس - من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة، ونباح الكلاب، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: فلما جاء وقت العذاب قلبنا بهم القرى فجعلنا أعاليَها سافلَها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: أرسلنا على أهل تلك المدن حجارة صُلْبة شديدة من نار وطين، شبّهها بالمطر لكثرتها وشدتها ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: متتابعة بعضُها في إثر بعض ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلَّمة بعلامة، قال الربيع: قد كتب على كل حجر اسم من يُرمى به. قال القرطبي: وقوله ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليلٌ على أنها ليست من حجارة الأرض[1]. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: ما هذه القرى المهلكة[2] ببعيدة عن قومك كفار قريش، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون؟ قال المفسرون: وقد صار موضع تلك المدن بحراً أجاجاً يعرف بـ «البحر الميت»؛ لأن مياهه لا تغذي شيئاً من الحيوان، وقد اشتهر باسم «بحيرة لوط» والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة، أي: وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً، وقد كان شعيب من نفس القبيلة، ولهذا قال: «أخاهم» ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أي: اعبدوا الله وحده فليس لكم ربٌّ سواه ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان، وقد اشتهروا بتطفيف الكيل والوزن ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: إني أراكم في سعةٍ تغنيكم عن نقص الكيل والميزان. قال القرطبي: أي: في سعة من الرزق، وكثرة من النعم[3]. ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: إني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلك، لا يفلت منه أحد، والمراد به: عذاب يوم القيامة ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: أتموا الكيل والوزن للناس بالعدل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تُنقصوهم من حقوقهم شيئاً ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تسعوا بالفساد في الأرض، والعثيُّ: أشد الفساد ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: ما أبقاه الله لكم من الحلال خيرٌ مما تجمعونه من الحرام، إن كنتم مصدّقين بوعد الله ووعيده.

---

(١) القرطبي ٩/ ٨٣.

(٢) وقيل: الضمير يعود إلى الحجارة أي: وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم.

(٣) القرطبي ٩/ ٨٥.

وقال مجاهد . أي : طاعة الله خير لكم[1] . ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي : ولست برقيب أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها ، وإنما أنا ناصح مبلّغ ، وقد أعذر من أنذر ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ لما أمرهم شعيب -عليه السلام- بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان ، وبإيفاء الكيل والميزان ، ردّوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا : أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤنا؟ إن هذا لا يصدر عن عاقل ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أي . وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان . قال الإمام الفخر : إن شعيبًا أمرهم بشيئين . بالتوحيد ، وترك البخس . فأنكروا عليه أمره بهذين النوعين فقوله . ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله . ﴿نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا﴾ إشارة إلى ترك البخس ، وقد يراد بالصلاة : الدين ، والمعنى : دينك يأمرك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة ؛ لأنها أظهر شعار الدين ، وروي أن شعيبًا كان كثير الصلاة ، وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدوا بقولهم : ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ السخرية والهزء ، كما إذا رأيت معتوهًا يطالع كتبًا ثم يذكر كلامًا فاسدًا فتقول : هذا من مطالعة تلك الكتب[2] ؟ ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي : إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشد؟!! قال الطبري : يستهزئون به وإنهم أعداء الله قالوا له ذلك استهزاء ، وإنما سفّهوه وجهّلوه بهذا الكلام[3] ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي قال لهم شعيب : أخبروني إن كنت على برهانٍ من ربي وهو الهداية والنبوة ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي : أعطاني المال الحلال ، فقد كان عليه السلام كثير المال . قال الزمخشري : والجواب محذوف دل عليه المعنى ، أي : أخبروني إذا كنت على حجة واضحة ، ويقين من ربي ، وكنت نبيًا على الحقيقة أيصح لي ألا آمركم بترك عبادة الأوثان ، والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك[4] . ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي : لست أنهاكم عن شيء وأرتكبه ، وإنما آمركم بما آمر به نفسي ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي . لا أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم بقدر استطاعتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي . ليس التوفيق إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي : على الله سبحانه اعتمدت في جميع أموري ، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي : لا يكسبنكم عداوتي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ أي : بأن يصيبكم العذاب كما أصاب قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح ، وقوم صالح بالرجفة . وقال الحسن : المعنى : لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار[5] . ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي : وما ديار الظالمين من قوم لوط بمكان بعيد ، أفلا تتعظون وتعتبرون؟!

---

(١) الطبري (١٢/ ١٠١)
(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٤٢)
(٣) الطبري (١٢/ ١٠٣) .
(٤) الكشاف (٢/ ٤٢٠) .
(٥) القرطبي (٩/ ٩٠) .

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي استغفروا ربكم من جميع الذنوب، ثم توبوا إليه توبة نصوحاً ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي إنه جل وعلا عظيم الرحمة، كثير الود والمحبة لمن تاب وأناب ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أي قالوا لنبيهم شعيب على وجه الاستهانة: ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به. قال الألوسي: جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحِكَم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يُفهم معناه، ولا يُدرك فحواه، مع أنه كما ورد في الحديث الشريف «خطيب الأنبياء»[1] ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي لا قوة لك ولا عزيمة بيننا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي ولولا مراعاة عشيرتك لرميناك بالحجارة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي لست عندنا بمكرَّم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ ؟ هذا توبيخ لهم أي: أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى؟ فهل عشيرتي أعز عندكم من الله وأكرم؟! قال ابن عباس: إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز عليهم من الله وصغر شأن الله عندهم، عز ربنا وجل ثناؤه[2] ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي جعلتم أمر الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعبأ به، وهذا مثل. قال الطبري: يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها وأعرض عنها[3] ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي إنه جل وعلا قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ تهديد شديد أي: اعملوا على طريقتكم إني عامل على طريقتي، كأنه يقول: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي سوف تعلمون الشقي منا الذي يأتيه عذاب الله ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي وتعلمون من هو الكاذب ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي انتظروا عاقبة أمركم إني منتظر معكم ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيباً والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي وأخذت أولئك الظالمين صيحة العذاب. قال القرطبي: صاح بهم جبريل صيحةً فخرجت أرواحهم من أجسادهم[4] ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي موتى هامدين لا حراك بهم. قال ابن كثير: وذكر هاهنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه[5] ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي كأن لم يعيشوا ويقيموا في ديارهم قبل ذلك ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ قال الطبري: أي ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم[6] ﴿وَلَقَدْ

---

(١) روح المعاني ١٢/١٢٣.
(٢) الطبري ١٢/١٠٤.
(٣) الطبري ١٢/١٠٦.
(٤) القرطبي ٩/٩٢.
(٥) مختصر ابن كثير ٢/٢٣١.
(٦) الطبري ١٢/١٠٩.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ هذه هي القصة السابعة وهي آخر القصص في هذه السورة، والمعنى: لقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف إلهية، وأيدناه بمعجزات قاهرة، وبينات باهرة، كالعصا واليد ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: إلى فرعون وأشراف قومه ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فأطاعوا أمر فرعون وعصوا أمر الله ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: وما أمر فرعون بسديد؛ لأنه ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يتقدم أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي: أدخلهم نار جهنم ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس المدخل المدخول هي ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ أي: ألحقوا فوق العذاب الذي عجله الله لهم لعنة في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: وأردفوا بلعنة أخرى يوم القيامة ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس العون المعان والعطاء المعطى لهم، وهي اللعنة في الدارين.

البلاغة:

١- ﴿ذَهَبَ... الرَّوْعُ﴾ و ﴿وَجَاءَتْهُ﴾ بينهما طباق، وهو من المحسنات البديعية.

٢- ﴿جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ كناية عن العذاب الذي قضاه الله لهم.

٣- ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ

٤- ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه استعارة والمراد بها: قومه وعشيرته، جعلهم ركنًا له؛ لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته، ويستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرصين، وجاء جواب «لو» محذوفًا تقديره: لحلت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد، والحذف هاهنا أبلغ؛ لأنه يوهم بعظيم الجزاء وغليظ النكال[١].

٥- ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ بينهما طباق.

٦- ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ فيه مجاز عقلي: أسند الإحاطة لليوم مع أن اليوم ليس بجسم باعتبار أن العذاب يكون فيه، فهو إسنادٌ للزمان.

٧- ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ فيه استعارة تمثيلية، كالشيء الذي يلقى وراء الظهر ولا يكترث به.

٨- ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ فيه استعارة مكنية؛ لأن الورود في الأصل يقال للمرور على الماء للاستسقاء منه، فشبه النار بماء يورد، وحذف ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورود، وشبه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ليكسر العطش، وقوله: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ تأكيد له؛ لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش، وتبريد الأكباد وفي النار إلهابٌ للعطش وتقطيع للأكباد، نعوذ بالله من نار جهنم.

□ □ □

(١) تلخيص البيان (١٦٣)

السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴿١٠٨﴾ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴿١٠٩﴾ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب ﴿١١٠﴾ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴿١١١﴾ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴿١١٢﴾ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴿١١٣﴾ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴿١١٤﴾ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿١١٥﴾ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴿١١٦﴾ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴿١١٧﴾ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴿١١٨﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿١١٩﴾ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿١٢٠﴾ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ﴿١٢١﴾ وانتظروا إنا منتظرون ﴿١٢٢﴾ ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ .

التفسير: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ أي: ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرسل، نقصه عليك يا محمد ونخبرك عنه بطريق الوحي ﴿منها قائم وحصيد﴾ أي: من هذه القرى ما هو عامر قد هلك أهله وبقي بنيانه، ومنها ما هو خراب قد اندثر بأهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ أي: وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمته ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾ أي: ما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله، ولا دفعت عنهم شيئًا من عذاب الله وعقابه ﴿لما جاء أمر ربك﴾ أي: حين جاء قضاء الله بعذابهم ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ أي: وما زادتهم تلك الآلهة غير تخسير وتدمير ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ أي: مثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين، يأخذ تعالى بعذابه الفجرة الظلمة. قال الألوسي: وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى، كما قال عليه السلام: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ الآية[1] ﴿إن أخذه أليم شديد﴾ أي: إن عذابه موجع شديد، وهذه مبالغة في التهديد والوعيد ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ أي: إن في هذه القصص والأخبار لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾ أي: يجتمع فيه الخلائق للحساب والثواب والعقاب ﴿وذلك يوم مشهود﴾ أي: يشهده أهل السماء والأرض، والأولون والآخرون. قال ابن عباس: يشهده البر والفاجر[2] ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ أي: وما

(١) روح المعاني ١٢/١٣٧. (٢) القرطبي ٩/٩٥.

وسنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص. وقال ابن عباس: ما قُدِّر لهم من الخير والشر[1] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ قال الطبري: يقول تعالى مسلياً نبيه في تكذيب مشركي قومه له: لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك، فلقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك القرآن، فاختلف في ذلك الكتاب، فكذّب به بعضهم، وصدّق به بعضهم، كما فعل قومك[2]. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا حكم الله السابق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقُضي بينهم في الدنيا فجوزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولكن سبق القدر بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وإنّ كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مُريب لهم؛ إذ لا يدرون أحقٌّ هو أم باطل؟ ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: وإنّ كلاً من المؤمنين والكافرين لما يلاقوا جزاء أعمالهم وسيوفيهم ربُّك جزاءها في الآخرة ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليمٌ بأعمالهم جميعًا، صغيرها وكبيرها، وسيجازيهم عليها ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: استقم يا محمد على أمر الله، واثبُت ودُم على الاستقامة كما أمرك ربُّك ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: ومن تاب من الشرك والكفر وآمن معك ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي: لا تجاوزوا حدود الله بارتكاب المحارم ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: إنه تعالى مطّلع على أعمالكم ويجازي عليها ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي: لا تميلوا إلى الظلمة من الولاة وغيرهم من الفسقة الفجرة فتمسكم نار جهنم. قال البيضاوي: الركونُ: هو الميل اليسير، أي: لا تميلوا إليهم أدنى ميل فتمسكم النار بركونكم إليهم، وإذا كان الركونُ اليسير إلى من وجد منه ما يسمى ظلمًا كذلك، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم، والميل إليهم كلَّ الميل[3]؟! ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لكم من يمنعكم من عذابه ثم لا تجدون من ينصركم من ذلك البلاء. قال القرطبي: والآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي، فإن صحبتهم كفرٌ أو معصية، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة، وأما صحبة الظالم على التقية فمستثناة من النهي بحال الاضطرار[4]. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ أي: أتم الصلاة المكتوبة على تمامها وكمالها أول النهار وآخره، والمراد: صلاة الصبح والعصر، لأنهما طرفا النهار[5]. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: ساعات منه قريبة من النهار، والمراد منهما: المغرب والعشاء ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: إن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفّر الذنوب الصغائر، لحديث «الصلواتُ الخمسُ كفارةٌ لما بينها ما اجتُنبت الكبائر» قال المفسرون: المراد بالحسنات: الصلواتُ الخمسُ، واستدلوا على ذلك بسبب

(١) الطبري (١٢/ ١٢٢)
(٢) الطبري (١٢/ ١٢٣)
(٣) البيضاوي (٢٥٨).
(٤) القرطبي (٩/ ١٠٨)
(٥) هذا قول الحسن وقتادة واختار الطبري أنها الصبح والعصر، وهو مروي عن ابن عباس.

الزوال، وهذا قول الجمهور، والأظهر: أنه لم يرد بها العموم وهو اختيار ابن كثير حيث قال: المعنى: إن فعل الخيرات يكفّر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث «ما من مسلم يذنب ذنبًا فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له»(1) ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي: ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة على الصلاة عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشدين ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: اصبر يا محمد على ما تلقى من المكاره ومن أذى المشركين، فإن الله معك وهو لا يضيع ثواب المحسنين ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فهلّا كان من الأمم الماضية قبلكم أولو عقل وفضل، وجماعة أخيار ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن قليلاً منهم نهوا عن الفساد فنجوا. قال في البحر: «لولا» في الآية للتحضيض صحبها معنى التفجع والتوبيخ، مثل قوله ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ والغرض التأسف على تلك الأمم التي لم تهتد كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكرهم(2) ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: واتبع أولئك الظلمة شهواتهم، وما نعموا به من الاشتغال بالمال واللذات وآثروها على الآخرة ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: وكانوا قومًا مصرين على الإجرام ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: ما جرت سنة الله تعالى أن يهلك القرى ظلمًا وأهلها مصلحون في أعمالهم، لأنه تعالى منزه عن الظلم، وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لو شاء الله لجعل الناس كلهم مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام، ولكنه لم يفعل ذلك لحكمة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: ولا يزالون مختلفين على أديان شتى، وملل متعددة ما بين يهودي، ونصراني، ومجوسي إلا ناسًا هداهم الله من فضله وهم أهل الحق ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اللام لام العاقبة، أي: خلقهم لتكون العاقبة اختلافهم ما بين شقي وسعيد. قال الطبري: المعنى: وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم، فريق في الجنة، وفريق في السعير(3). ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: تم أمر الله ونفذ قضاؤه بأن يملأ جهنم من الجن والإنس من الكفرة الفجرة جميعًا. قال الألوسي: والجملة متضمنة معنى القسم؛ ولذا جيء بجوابه في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾(4) وكأنه قال: والله لأملأن جهنم من أتباع إبليس من الإنس والجن أجمعين ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: كل هذه الأخبار التي نقصها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين، إنما هي بقصد تثبيت قلبك على الرسالة، وتطمين قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة فتصبر كما صبروا ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: جاءك في هذه الأنباء التي قصها الله عليك النبأ اليقيني

---

(1) مختصر ابن كثير ٢/٢٢٥.
(2) البحر ٥/٢٦٩.
(3) الطبري (١٢/١٤٤).
(4) روح المعاني ١٢/١٦٥.

الصادق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما فيه عظة وعبرة للمعتبرين، وخصَّ المؤمنين بالذكر؛ لانتفاعهم بمواعظ القرآن ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أي: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا، وهو أمرٌ، ومعناه: التهديد والوعيد ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديدٌ آخر، أي: انتظروا ما يحلُّ بنا إنا منتظرون ما يحل بكم من عذاب الله ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: علمُ ما غاب وخفي فيهما، كلُّ ذلك بيده وبعلمه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي: إليه يردُّ أمر كل شيء، فينتقم ممن عصى، ويثيب من أطاع، وفيه تسلية للنبي ﷺ، وتهديد للكفار بالانتقام منهم ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: اعبد ربك وحده، وفوِّض إليه أمرك، ولا تعتمد على أحدٍ سواه، فإنه كافٍ من توكَّل عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، ويجازي كلاً بعمله.

البَلاغَة:

١ - ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ شبّه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه، وشبَّه ما هلك مع أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمناجل، على طريق الاستعارة المكنية.

٢ - ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فيه طباق السلب.

٣ - ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ﴾ مجازٌ عن الأهل، أي: أخذ أهل القرى.

٤ - ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ بينهما طباق وهو من المحسنات البديعية.

٥ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ . ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ فيه لفٌّ ونشر مرتب.

٦ - ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر.

٧ - ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ بينهما طباقٌ.

٨ - ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

تنبيه: خلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار ثابتٌ مقطوعٌ به بالنصوص العديدة، وأما الاستثناء بالمشيئة في هذه السورة فقد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار، والنكتة في ذكره: بيان أنَّ هذه الأمور إنما كانت بمشيئته تعالى ولو شاء لغيَّرها، وليس شيء خارج عن مشيئته، فالإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والخلود والخروج كلها بمشيئته تعالى.

فائدة: أشار الشهاب إلى لطيفةٍ من البلاغة القرآنية، وهي أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ وإن كانت عامة في المعنى «فاستقم كما أمرت، وأقم الصلاة، واصبر» وفي المنهيات جمعت للأمة «ولا تطغوا، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا» كذا في الحاشية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة هود»

تفسير سورة يوسف

بين يدي السورة

* سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله «يوسف بن يعقوب» وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته ومن الآخرين، في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تآمر النسوة، حتى نجاه الله من ذلك الضيق، والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما مرَّ عليه من الكروب والشدائد، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد.

* والسورة الكريمة أسلوب فذٌّ فريد في ألفاظه، وتعبيره، وأدائه، وفي قصصها الممتع اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري - برقتها وسلاستها - في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكية، التي تحمل في الغالب طابع الإنذار والتهديد، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية، في أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جو الأنس والرحمة، والرأفة والحنان، ولهذا قال بعض العلماء: «سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة» وقال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلا استراح إليها»[1].

* نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة «هود» في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيريه: زوجه الطاهرة الحنون «خديجة» وعمه «أبا طالب» الذي كان له خير نصير، وخير معين، وبفقدهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، حتى عُرف ذلك العام بـ «عام الحزن».

* في تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون الوحشة، والغربة، والانقطاع في جاهلية قريش، شاء الله سبحانه أن ينزّل على نبيه الكريم هذه السورة، تسليةً له، وتخفيفاً لآلامه، بذكر قصص المرسلين، وكأنَّ الله تعالى يقول له عليه السلام: لا تحزن يا محمد ولا تتألم لتكذيب قومك، وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجاً، وإن بعد الضيق مخرجاً، انظر إلى أخيك يوسف وتمعّن ما حدث له من صنوف البلايا والمحن، وأنواع الشدائد والكروب، وما ناله من ضروب المحن: محنة حسد إخوته وكيدهم له، ومحنة رميه في الجب، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له، ثم مراودته عن نفسه بشتى طرق الفتنة والإغراء، ثم محنة السجن بعد ذلك العزِّ ورغد العيش، انظر إليه كيف

---

(1) حاشية الصاوي على الجلالين (٢/ ٢٣٢).

ثم إنه صبر على الأذى في سبيل العقيدة، وصبر على الفتنة والبلاء، فنقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزاً في أرض مصر، وملّكه الله خزائنها، وكان السيد المطاع، والعزيز المكرّم. وهكذا أمر الداعية، ومن صبر على بلائه، فلا بدّ أن يوطّن النفس على تحمل البلاء، اقتداءً بمن سلفك من المرسلين ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾

* وهكذا جاءت قصة يوسف الصدّيق تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه، وحافزاً لتحمل الأذى والأسى، والراحة، وإشارة أنه لمن سار على درب الأنبياء، فلا بدّ من الفرج بعد الضيق، ومن اليسر بعد العسر، وفي السورة دروس وعبر، وعظات بالغات، حافلات بروائع الأخبار العجيبة، والأنباء الغريبة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

* هذا هو مغزى السورة، وهذه إيحاءاتها ورموزها، تُشعر بقرب النصر لمن تمسك بالصبر، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين، والدعاة المخلصين، فهي سلوى للقلوب، وبلسمٌ للجروح، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواضع عديدة بقصد العظة والاعتبار، لكنْ بإيجاز دون توسيع، لاستكمال جميع حلقات القصة، ولتشويق إلى سماع الأخبار دون سآمة أو ملل، وأما سورة يوسف فقد ذُكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل، لتشير إلى إعجاز القرآن في المجمل والمفصّل، وفي حالتي الإيجاز والإطناب، فسبحان الملك العلي الوهاب.

قال العلامة القرطبي: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل، وصدق الله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ اهـ.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ... إلى قوله ... آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢).

اللغَة: ﴿الْمُبِينِ﴾ الظاهر الجلي ﴿الْقَصَصِ﴾ إتباع الخبر بعضه بعضاً، وأصله في اللغة: المتابعة ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره، والمراد بالقصص: الأخبار التي قصها علينا الله في كتابه العزيز ﴿رُؤْيَا﴾ خاصة بالمنام، وأما بالبصر فهي بالتاء (الرؤية)، قال الألوسي: مصدر رأى الحلمية: الرؤيا، ومصدر البصرية: الرؤية؛ ولهذا خُطّئ المتنبي في قوله: ورؤياك أحلى في العيون من الغمض[1] ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ الاجتباء: الاصطفاء والاختيار، وأصله: من جبيت

(١) روح المعاني (١٢/١٠٩).

الشيء، أي: حفظه ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة، قال الفراء: ما زاد على العشرة، والعصبة والعصابة: العشرة فصاعداً ﴿اطْرَحُوهُ﴾ الطرح: رمي الشيء وإلقاؤه ﴿غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ قعره وغوره؛ سمي به لغيبته عن عين الناظر ﴿يَرْتَعْ﴾ يتسع في أكل ما لذّ وطاب. قال الراغب: الرتع حقيقته في أكل البهائم، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير، قالت الخنساء:

ترتعُ ما رتعتْ حتّى إذا ادّكرتْ فإنّما هي إقبالٌ وإدبارُ[1]

﴿السَّيَّارَةِ﴾ المسافرين ﴿سَوَّلَتْ﴾ زيّنت ﴿وَارِدَهُمْ﴾ الوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم.

سَبَبُ النُّزُولِ: روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وما حصل له مع إخوته من أولاد يعقوب فنزلت السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

التفسير: ﴿الٓر﴾ إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب

---

(١) تصف بقرة فقدت ولدها، فكلما غفلت عنه رتعت فإذا ذكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت، وهو مثل لفقدها أخاها صخراً.

المعجز[1]. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك يا محمد هي آيات الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، الواضح في معانيه، الذي لا تشتبه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلغة العرب كتابًا عربيًّا مؤلفًا من هذه الأحرف العربية ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا وتدركوا أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز ليس بشرًا، وإنما هو إله قدير، وهذا الكلام وحيٌ منزل من رب العالمين ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي: نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام، وأحسن بيان ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: وإنَّ الحال والشأن أنك كنت من قبل أن نوحي إليك هذا القرآن من الغافلين عن هذه القصة، لم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك؛ لأنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ هنا بداية القصة، أي: اذكر حين قال يوسف لأبيه يعقوب: يا أبي إني رأيت في المنام هذه الرؤيا العجيبة: رأيت أحد عشر كوكبًا من كواكب السماء خرَّت ساجدةً لي ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ أي: ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدةً لي مع الكواكب، قال ابن عباس: كانت الرؤيا فيهم وحيًا[2]. قال المفسرون: الكواكب الأحد عشر كانت إخوته، والشمس والقمر أبواه، وكان سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته في مصر أربعون سنة[3]. ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ أي: قال له يعقوب: لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمة لا تقدر على ردها ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة. قال أبو حيان: فهم يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى يبلِّغه مبلغًا من الحكمة، ويصطفيه للنبوة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه من حسد إخوته فنهاه أن يقصَّ رؤياه عليهم[4]. ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: يعلمك تفسير الرؤيا المنامية ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: يتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي: كما أكمل النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحاق بالرسالة والاصطفاء ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بمن هو أهل للفضل، حكيم في تدبيره لخلقه ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: لقد كان في خبر يوسف وإخوته الأحد عشر عبرٌ وعظاتٌ للسائلين عن أخبارهم ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ هذه هي المحنة الأولى ليوسف عليه السلام، أي: حين قالوا: والله ليوسف وأخوه «بنيامين» أحبُّ منَّا

---

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة والتحقيق الدقيق حول الموضوع في أول سورة البقرة.
(٢) الطبري ١٢/١٥١.
(٣) الصاوي على الجلالين ٢/٢٣٤.
(٤) البحر ٥/٢٨٠.

عند أبينا، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابتٌ لا شبهة فيه، وإنما قالوا: ﴿وَأَخُوهُ﴾ وهم جميعًا إخوة؛ لأن أمهما كانت واحدة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: والحال نحن جماعة ذوو عدد، نقدر على النفع والضر، بخلاف الصغيرين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: إنه لفي خطأ وخروج عن الصواب بيّن واضح؛ لإيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبة. قال القرطبي: لم يريدوا ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه في خطأ بيّن في إيثار اثنين على عشرة[1] ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: اقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض بعيدة مجهولة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: فعند ذلك يخلصُ ويصفو لكم حبُّ أبيكم، فيُقبل عليكم. قال الرازي: المعنى: إن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه، فإذا فقده أقبل علينا بالمحبة والميل[2] ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي: وتتوبوا من بعد هذا الذنب وتصبحوا قومًا صالحين ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي: قال لهم أخوهم «يهوذا»[3] وهو أكبر ولد يعقوب: لا تقتلوا يوسف بل ألقوه في قعر الجب وغوره ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: يأخذه بعض المارّة من المسافرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كان لا بدّ من الخلاص منه فاكتفوا بذلك، وكان رأيه فيه أهون شرًا من رأي غيره ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ المعنى: أيُّ شيء حدث لك حتى لا تأمنا على أخينا يوسف، ونحن جميعًا أبناؤك؟! ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أي: ونحن نشفق عليه ونريد له الخير. قال المفسرون. لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف، وفي غاية الشفقة عليه؛ ليستنزلوه عن رأيه في تخوفه منهم، وكأنهم قالوا: لمَ تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به؟! ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي: أرسله معنا غدًا إلى البادية، يتسع في أكل ما لذّ وطاب، ويلهو ويلعب بالاستباق وغيره ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه، أكدوا كلامهم بإنّ واللام؛ وهم كاذبون ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: قال لهم يعقوب: إنه ليؤلمني فراقه لقلة صبري عنه ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: وأخاف أن يفترسه الذئب في حال غفلتكم عنه، وكأنه لقنهم الحجة[4] قال الزمخشري. اعتذر إليهم بشيئين. أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة. والثاني: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم[4]. ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ اللام للقسم، أي: والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء إنا لمستحقون أن يُدعى علينا بالخسار والدمار ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ في الكلام محذوف، أي: فأرسله معهم فلما أخذوه وابتعدوا به عن أبيه ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي: عزموا واتفقوا على إلقائه في قعر الجب ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

---

(١) القرطبي (٩/ ١٣١). (٢) الرازي (١٨/ ٩٤).
(٣) هذا قول ابن عباس وقيل: هو روبيل وهو قول قتادة.
(٤) الكشاف (٢/ ٤٤٨).

أي: أوحينا إلى يوسف: لتخبرنَّ إخوتك بعملهم هذا الذي فعلوه بك وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف. قال الرازي: وفائدة هذا الوحي تأنيسُه، وتسكينُ نفسه، وإزالةُ الغم والوحشة عن قلبه، بأنه سيخلص له الخلاص من هذه المحنة[1]. ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ أي: رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يبكون، روي أنه لما سمع يعقوب بكاءهم فزع، وقال: ما لكم يا بَنيّ، وأين يوسف؟ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: نتسابق في العَدْو أو في الرمي ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ أي: تركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها فجاء الذئب فافترسه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي: لست بمصدِّق لنا في هذه المقالة ولو كنا في الواقع صادقين، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا؟ وهذا القول منهم يدل على الارتياب، وكما قيل: يكاد المريبُ يقول: خذوني ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ أي: جاءوا على ثوبه بدمٍ كاذب، وُصِف بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الكذب وعينه. قال ابن عباس: ذبحوا شاةً ولطخوا بدمها القميص فلما جاءوا يعقوب قال: كذبتم، لو أكله الذئب لخرق القميص[2]، وروي أنه قال: ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشقَّ قميصه! ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ أي: زيّنت لكم أنفسكم أمراً في يوسف وليس كما زعمتم أن الذئب أكله ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ أي: أمري صبرٌ جميل لا شكوى فيه ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ أي: قوم مسافرون مروا بذلك الطريق. قال ابن عباس: جاء قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق، فانطلقوا يهيمون حتى هبطوا على الأرض التي فيها جب يوسف، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران[3] ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ أي: بعثوا من يستقي لهم الماء ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ أي: أرسل دلوه في البئر. قال المفسرون: لما أدلى الواردُ دلوه وكان يوسف في ناحيةٍ من قعر البئر تعلّق بالحبل فخرج، فلما رأى حسنه وجماله نادى ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ قاله على سبيل السرور والفرح، لتبشير نفسه وجماعته. قال أبو السعود: كأنه نادى البشرى وقال: تعالَيْ فهذا أوانك حيث فاز بنعمة جليلة[4]. ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ أي: أخفوا أمره عن الناس ليبيعوه في أرض مصر متاعاً كالبضاعة، والضمير يعود على الوارد وجماعته ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه سبحانه أسرارهم، وما عزموا عليه في أمر يوسف ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ هذه هي المحنة الثانية في حياة يوسف الصدِّيق، وهي محنة الاسترقاق أي: باعه أولئك المارة الذين استخرجوه من البئر بثمن قليل منقوص هو عشرون درهماً، كما قال ابن عباس. ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: وكانوا في يوسف من الزاهدين الذين لا يرغبون فيه، لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون عبداً آبقاً فينتزعه سيده من أيديهم، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن

---

(١) التفسير الرازي (١٨/ ١٠٠).

(٢) القرطبي (١٢/ ١٩٤).

(٣) الرازي (١٨/ ١٠٥).

(٤) أبو السعود (٣/ ٥٩).

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي: وقال الذي اشتراه من مدينة مصر لزوجته: أكرمي إقامته عندنا. قال ابن عباس: كان اسم الذي اشتراه قطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر [1]. ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: عسى أن يكفينا بعض المهمات إذا بلغ أو نتبناه، حيث لم يكن يولد لهما ولد ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وكما نجيناه من الجب جعلناه متمكنًا في أرض مصر يعيش فيها بعز وأمان ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: لا يعجزه تعالى شيء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: بلغ منتهى شدته وقوته، وهو ثلاثون سنة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: أعطيناه حكمةً وفقهًا في الدين ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المحسنين في أعمالهم.

البلاغة:

١ - ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ الإشارة بالبعيد لبعد مرتبته في الكمال وعلو شأنه.

٢ - ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

٣ - ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة؛ لأن الكواكب والشمس والقمر مما لا يعقل فكان الوجه أن يقال: ساجدة، ولكنه لما أطلق عليها فعل من يعقل جاز أن توصف بصفة من يعقل؛ لأن السجود من فعل العقلاء [2].

٤ - ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الدم لا يوصف بالكذب، والمراد: بدم مكذوب فيه أو دمٍ ذي كذب، وجيء بالمصدر على طريق المبالغة.

لطيفة: روي أن امرأة تحاكمت إلى شريح فبكت فقال الشعبي: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟! فقال الشعبي: لقد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمةٌ كذبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق [3].

تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أن إخوة يوسف أنبياء، واستدلوا على ذلك بأنهم الأسباط المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ والصحيح: أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب، وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب كما نبَّه عليه المحققون، ولو كان إخوة يوسف أنبياء لما أقدموا على مثل هذه الأفعال الشنيعة، فالحسد، والسعي بالفساد، والإقدام على القتل، والكذب، وإلقاء يوسف في الجب، كل ذلك من الكبائر التي تنافي عصمة الأنبياء، فالقول بأنهم أنبياء - مع هذه الجرائم - لا يقبله عقل حصيف، وانظر ما قاله العلامة ابن كثير -رحمه الله- في هذا الشأن؛ فإنه لطيف ودقيق.

□ □ □

(١) الطبري (١٢/ ١٧٥).

(٢) تلخيص البيان (١٦٩).

(٣) الفخر الرازي (١٨/ ١٠١).

قال الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ... إلى ... فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٢).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر، ذكر هنا ما تعرّض له عليه السلام من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز، وصموده أمام تلك الفتنة العاتية، وما ظهر منه من العفة والنزاهة حتى آثر دخول السجن على عمل الفاحشة، وكفى بذلك برهاناً على عفته وطهارته.

اللغَة: ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ المراودة: الطلب برفق ولين، مأخوذة من راد يرود إذا جاء وذهب، ومنه الرائد لطلب الكلأ، يقال في الرجل: راودها عن نفسها، وفي المرأة: راودته عن نفسه أي طلبت منه مقصداً بعينها ﴿هَيْتَ﴾ اسم فعل أمر بمعنى تعال وهلُمّ ﴿مَثْوَايَ﴾ مقامي، والثواء: الإقامة مع الاستقرار ﴿هَمَّتْ﴾ الهمُّ يأتي بمعنى العزم والقصد، ومنه ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ويأتي بمعنى الخاطر وحديث النفس دون عزم، قال الشاعر:

هممتُ بِهَمٍّ من بُثَيْنَةَ لو بدا ... شفيتُ غليلاتِ الهوى من فؤاديا[1]

فالهمُّ من امرأة العزيز كان همَّ عزمٍ وتصميم، والهمُّ من يوسف كان مجرد حديث نفس ﴿السُّوءَ﴾ المنكر والفجور والمكروه ﴿الْفَحْشَاءَ﴾ ما تناهى قبحه، والمراد به الزنى ﴿وَقَدَّتْ﴾ القدُّ: الشق والقطع، وأكثر ما يستعمل في الطول، والقطُّ يستعمل في العرض ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا ﴿كَيْدَكُنَّ﴾ الكيد: المكر والحيلة ﴿الْخَاطِئِينَ﴾ المتعمدين للذنب. قال الأصمعي: خطئ الرجل فهو خاطئ: إذا تعمد الذنب، وأخطأ يخطئ: إذا غلط ولم يتعمد[2] ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ وصل حبه إلى سويداء قلبها قال الزجاج: الشغاف سويداء القلب ﴿أَصْبُ﴾ أمِلْ يقال: صبا إلى اللهو إذا مال إليه.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۝ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۝ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ

(١) القرطبي ٩/١٦٦ (٢) غريب القرآن لابن قتيبة (٢١٥)

يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ .

التفسير: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ هذه هي المحنة الثالثة بعد محنة الجب والاسترقاق، والمراودة: الطلب برفق ولين كما يفعل المخادع بكلامه المعسول، والمعنى: طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها منه أن يضاجعها، ودعته برفق ولين أن يواقعها، وتوسّلت إليه بكل وسيلة ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ أي: غلّقت أبواب البيت عليها وعلى يوسف وأحكمت إغلاقها. قال القرطبي: كانت سبعة أبواب غلّقتها ثم دعته إلى نفسها(١). ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلمّ وأسرع إلى الفراش فليس ثمة ما يُخشى. قال في البحر: أمرته بأن يسرع إليها(٢). ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: عياذًا بالله من فعل السوء. قال أبو السعود: وهذا إشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه؛ لما أراه الله من البرهان النيّر على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء(٣). ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: إن زوجك سيدي العزيز الذي أكرمني وأحسن تعهدي فكيف أسيء إليه بالخيانة في حرمته؟! ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومنهم الخائنون المجازون الإحسان بالسوء، ثم أخبر تعالى أن امرأة العزيز حاولت إيقاعه في شراكها، وتوسّلت إليه بكل وسائل الإغراء، ولولا أن الله جلّ وعلا حفظه من كيدها لهلك، فقال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ أي: همّت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم عزمًا جازمًا على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف، وقصدت إجباره على مطاوعتها بالقوة، بعد أن استحكمت من تغليق الأبواب، ودعوته إلى الإسراع؛ مما اضطره إلى الهرب إلى الباب ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: مالت نفسه إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وحدثته نفسه بالنزول عند رغبتها حديث

---

(١) القرطبي (٩/ ١٦٣). (٢) البحر (٥/ ٢٩٣).
(٣) أبو السعود (٣/ ٦٢).

نفسٍ، دون عزمٍ وقصد، فبين الهمَّين فرق كبير[1]. قال الإمام الفخر: الهمُّ: خطورُ الشيء بالبال أو ميلُ الطبع، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسُه على الميل إليه وطلب شربه، ولكنْ يمنعه دينُه عنه[2]. ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جوابه محذوفٌ أي: لولا حفظ الله ورعايته ليوسف، وعصمتُه له لخالطها وأمضى ما حدثته نفسه به، ولكنَّ الله عصمه بالحفظ والتأييد فلم يحصل منه شيء البتة. قال في البحر: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفُسّاق، والذي أختاره: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ البتة، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان كما تقول: «قارفتَ الذنب لولا أن عصمك الله» وكقول العرب: «أنت ظالمٌ إن فعلت» وتقديره: إن فعلت فأنت ظالم، وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ولكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمّ. وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيء من ذلك، لأنها أقوالٌ متكاذبة يناقضُ بعضها بعضاً مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة[3]. وقال أبو السعود: إن همّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميلاً جبلياً، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمّ منه تسجيلاً محكماً؟ ومن قيل: إنه حلَّ الهميان، وجلس مجلس الختان، فإنما هي خرافات وأباطيل، تمجُّها الآذان، وتردُّها العقول والأذهان[4]. ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي لنثبته على العفة أمام دواعي الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور، وهذه آية بيّنة، وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية، ولو كان كما زعموا لقال: لنصرفه عن السوء والفحشاء فلما قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾ دلَّ على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة صرفه الله عنه بما منحه من موجبات العفة والعصمة ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي لنصرف عنه الزنى الذي تدعوه إليه ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (بفتح اللام) أي الذين أخلصهم الله لطاعته، واصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته، فلا يستطيع أن يغويهم الشيطان.. ثم أخبر تعالى عما حصل من المفاجأة العجيبة بقدوم زوجها وهما يتسابقان نحو الباب، ولا تزال هي في هياجها الحيواني ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي تسابقا نحو باب القصر، هو للهرب، وهي للطلب ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أي شقت ثوبه من خلفه، لأنها كانت تلحقه تجذبه لتمنعه، فشقت قميصه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي وجدا العزيز عند باب القصر فجأة وقد حضر في غير أوان حضوره، وبمهارة فائقة تشبه مهارة إبليس انقلب الوضع فأصبح الظالم مظلوماً، والبريء متهماً ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾

---

(1) هذا من باب المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، فالهمُّ منها كان مع عزمٍ وقصد، والهمُّ منه كان حديث نفس.

(2) الفخر الرازي (18/118). (3) البحر (5/295).

(4) أبو السعود (3/63).

إلا أن يُسجن أو عذابٌ أليم﴾ أي: ما جزاؤه إلا السجن أو الضرب ضربًا مؤلمًا موجعًا ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ أي: قال يوسف مكذبًا لها: هي التي دعتني إلى مقارفة الفاحشة لا أني أردت بها السوء ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها﴾ قال ابن عباس: كان طفلاً في المهد أنطقه الله، وكان من خاصّته (١)، قال في البحر: وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة (٢) ﴿إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين﴾ أي: إن كان ثوبه قد شُقَّ من أمام فهي صادقة وهو كاذب ﴿وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين﴾ أي: وإن كان ثوبه قد شُقَّ من ورائه فهي كاذبة وهو صادق؛ لأن الأمر المنطقي أن يُشق الثوب من خلف إن كانت هي الطالبة له وهو الهارب ﴿فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُرٍ﴾ أي: فلما رأى زوجها أن الثوب قد شُقَّ من الوراء ﴿قال إنه من كيدكن﴾ أي: إن هذا الأمر من جملة مكركن واحتيالكن أيتها النسوة ﴿إن كيدكن عظيم﴾ تأكيد لما سبق ذكره، أي: مكركن معشر النسوة واحتيالكن للتخلص مما دبرتن شيء عظيم ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ أي: يا يوسف اكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد، يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان: وهكذا نبدو صورةٌ من الطبقة الراقية في المجتمع الجاهلي: رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية، وميلٌ إلى كتمانها عن المجتمع، فيلتفت العزيز إلى يوسف البريء ويأمره بكتمان الأمر وعدم إظهاره لأحد. ثم يخاطب زوجته الخائنة بأدنى المبالغة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق ﴿واستغفري لذنبك﴾ أي: توبي واطلبي المغفرة من هذا الذنب القبيح، وكأن هذا هو المهم محافظة على الظواهر (٣) ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾ أي: من القوم المتعمدين للذنب، وفي هذه إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة، حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانته، وتدنيس فراشه بالإثم والفجور. قال ابن كثير: كان لينًا سهلاً، أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه (٤) ﴿وقال نسوةٌ في المدينة﴾ أي: قالت جماعة من النساء في مدينة مصر - روي أنهن خمس نسوة: امرأة ساقي العزيز، وامرأة الخادم، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، قاله ابن عباس وغيره. والأظهر: أن تلك الواقعة شاعت في البلد، واشتهرت وتحدث بها النساء ﴿امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ أي: امرأة عزيز مصر تطلب من خادمها وعبدها أن يواقعها وتخادعه لتتوصل إليه لتقضي وطرها منه. قال أبو حيان: وتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع؛ لأن النفوس أميل لسماع أخبار ذوي الجاه، وعبّرن بـ ﴿تراود﴾ للدلالة على أن ذلك صار سجيةً لها فهي دائمًا تخادعه عن نفسه؛ لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار (٥) ﴿قد شغفها حبًّا﴾ أي: بلغ حبه شغاف قلبها - وهو حجابه - وشقّه حتى وصل إلى فؤادها ﴿إنا لنراها في

---

(١) الطبري (١٢/١٩٣).
(٢) البحر (٥/٢٩٧).
(٣) الظلال.
(٤) مختصر ابن كثير (٢/٢٤٧).
(٥) البحر (٥/٣٠١).

﴿مُبِينٍ﴾ أي: إنا لنعتقد أنها في ضلال عن طريق الرشد واضح بسبب حبها إياه ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: فلما سمعت بحديثهن، وسماه مكرًا؛ لأنه كان في خفية، كما يخفي الماكر مكره ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أرسلت إليهن تدعوهن إلى منزلها لحضور وليمة. قال المفسرون: دعت أربعين امرأة من الشريفات منهن النساء الخمس المذكورات ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي: هيأت لهن ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد[1]. ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ في الكلام محذوف، أي: قدمت لهن الطعام وأنواع الفاكهة ثم أعطت كل واحدة منهن سكينًا لتقطع به ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: وقالت ليوسف وهن مشغولات بتقشير الفاكهة والسكاكين في أيديهن: اخرج عليهن، فلم يشعرن إلا ويوسف يمرُّ من بينهن ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: فلما رأين يوسف أعظمنه وأجللنه، وبُهتن من جماله ودُهشن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جرحن أيديهن بالسكاكين لفرط الدهشة والمفاجئة ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي. تنزّه الله عن صفات العجز، وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أي: ليس هذا من البشر ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ما هو إلا مَلَك من الملائكة؛ فإن هذا الجمال الفائق، والحسن الرائع مما لا يكاد يوجد في البشر ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ صرّحت عند ذلك بما في نفسها من الحب ليوسف؛ لأنها شعرت بأنها انتصرت عليهن فقالت قولة المنتصرة: هذا الذي رأيتموه، هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنّني في محبته، فانظرن ماذا لقيتنّ منه من الافتتان والدهش والإعجاب!! ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: أردت أن أنال وطري منه، وأن أقضي شهوتي معه، فامتنع امتناعًا شديدًا، وأبى إباءً عنيفًا. قال الزمخشري: والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد[2]. ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: ولئن لم يطاوعني ليعاقبنّ بالسجن والحبس وليكوننّ من الأذلاء المهانين. قال القرطبي: عاودته المراودة بمحضر منهن، وهتكت جلباب الحياء، وتوعدته بالسجن إن لم يفعل، ولم تعد تخشى لومًا ولا مقالًا، خلاف أول أمرها؛ إذ كان ذلك سرًا بينها وبينه[3]. ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ لجأ يوسف إلى ربه وجعل يناجيه في خشوع وتضرع فقال: ربِّ السجن آثرُ عندي وأحبُّ إلى نفسي من اقتراف الفاحشة، وأسند الفعل إليهن؛ لأنهن جميعًا مشتركات في الدعوة بالتصريح أو التلويح، وقيل: إنهن لما توعدته نصحنه وزيّنّ له مطاوعتها، ونهينه عن إلقاء نفسه في السجن ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

---

(١) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة والرضوان: لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها، وندرك من هذا أنهن كن نساء الطبقة الراقية، فهن اللواتي يُدعين إلى المآدب في القصور، وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر، ويبدو أنهن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا، وأعدت لهن هذا المتكأ وآتت كل واحدة منهن سكينًا تستعملها في الطعام، ويؤخذ من هذا صورة الترف والحضارة المادية التي كان عليها أهل القصور، وبينما هنّ مشغولات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة فاجأتهن بيوسف فلما رأينه بُهتن لطلعته ودُهشن وجرحن أيديهن بالسكاكين. ظلال القرآن (١٢/ ٢٣٢).

(٢) الكشاف (٢/ ٤٦٧). (٣) القرطبي.

والإيمان بدار الجزاء؛ لأنهما أعظم أركان الإيمان، وكرر لفظة ﴿هُمْ﴾ على سبيل التأكيد ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي اتبعت دين الأنبياء لا دين أهل الشرك والضلال، والغرض إظهار أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق بكلامه ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما ينبغي لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئاً مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي ذلك الإيمان والتوحيد من فضل الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يشكرون نعم الله عليهم فيشركون به غيره .. ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذي هو دين الرسل، تلطف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام فقال ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: يا صاحبيَّ في السجن آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام، خيرٌ أم عبادة الواحد الأحد، المتفرد بالعظمة والجلال؟! ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة سميتموها آلهة وهي لا تملك القدرة والسلطان؛ لأنها جمادات ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما أنزل الله لكم في عبادتها من حجة أو برهان ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم في أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: أمر سبحانه بإفراده بالعبادة؛ لأنه لا يستحقها إلا من له العظمة والجلال ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع .. تدرج عليه السلام في دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بيّن لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله لا تستحق الألوهية والعبادة، ثم نصّ على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، وذلك من الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله، حيث قدّم الهداية والإرشاد، والنصيحة والموعظة، ثم شرع في تعبير رؤياهما فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ أي: يا صاحبيَّ في السجن أما الذي رأى أنه يعصر خمراً فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر، وأما الآخر الذي رأى على رأسه الخبز فيُقتل ويُصلب على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه، قال المفسرون: روي أنه لما أخبرهما بذلك جحدا وقالا: ما رأينا شيئاً! فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: انتهى وتمّ قضاء الله صدقتما أو كذبتما فهو واقع لا محالة ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ أي: قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الساقي ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكرني عند سيدك وأخبره عن أمري لعله يخلصني مما ظُلمتُ به ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: أنسى الشيطان الساقي أن

بذكر أمر يوسف للملك ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي: مكث يوسف في السجن سبع سنين. قال المفسرون: وإنما لبث في السجن بضع سنين، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جل وعلا. قال القرطبي: قال وهب بن منبه: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

البلاغة:

١- بين «صدقت» و«كذبت» و﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ و﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ طباق وهو من المحسنات البديعية.

٢- ﴿مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ﴾ من باب تغليب الذكور على الإناث.

٣- ﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ استعير المكر للغيبة لشبهها له في الإخفاء.

٤- ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فيه استعارة، حيث استعار لفظ القطع عن الجرح، أي: جرحن أيديهن.

٥- ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يكون أي: عنبًا يئول إلى خمر.

فائدة: رُوي أن جبريل جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتبًا له فقال له: يا يوسف من خلصك من القتل على أيدي إخوتك؟ قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجب؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف تركت ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق؟! قال: يا رب كلمةٌ زلّت مني، أسألك يا إله إبراهيم وإله الشيخ يعقوب -عليهم السلام- أن ترحمني! فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين[1].

تنبيه: قال العلماء في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾: هذا من اختصار القرآن المعجز، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وذلك أنها لما راودته عن نفسه وأبى، عزمت على أن تجبره بالقسر والإكراه، فهرب منها فسابقته نحو الباب في الرده إلى نفسها وهو يهرب منها، فاختصر القرآن ذلك كله بتلك العبارة البليغة ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾.

شطحات بعض المفسرين في تفسير الهم

لقد شطّ القلم، وزلّت القدم ببعض المفسرين حين زعموا أن يوسف عليه السلام قد هم بمقارفة الفاحشة، وشُحنت بعضُ كتب التفسير بكثير من الروايات الإسرائيلية الواهية، بل المنكرة الباطلة في تفسير «الهم» و«البرهان» حتى زعم بعضهم أن يوسف حلّ رباط السراويل، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، ثم رأى صورة أبيه يعقوب عاضًّا على أصبعه، فقام عنها وتركها خجلاً من أبيه إلى غير ما هنالك من أقوال واهية، لا زمام لها ولا خطام. ولست أدري

(١) القرطبي (٩/ ١٦٦).

كيف دخلت تلك الروايات المنكرة في بعض كتب التفسير، ونقلها بعضهم بحسن نية، وكلُّها - كما يقول العلامة أبو السعود - خرافات وأباطيل، تمجّها الآذان، وتردها العقول والأذهان؟! ثم كيف غاب عن أولئك المفسرين أن يوسف الصديق نبيٌّ كريم، ابن نبي كريم، وأن العصمة من صفات الأنبياء! يا قوم اعقلوا وفكروا، ونزّهوا هذه الكتب عن أمثال هذه التُرّهات والأباطيل، فإن الزنى جريمة من أبشع الجرائم، فكيف يرتكبها نبيٌّ من الأنبياء المكرمين؟!

وهاكم الأدلة أسوقها من كتاب الله فقط على عصمته - عليه السلام - من عشرة وجوه:

الأول: امتناعه الشديد ووقوفه أمامها بكل صلابة وعزم ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...﴾.

الثاني: فراره منها بعد أن غلّقت الأبواب وشددت عليه الحصار ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾

الثالث: إيثاره السجن على الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾...

الرابع: ثناء الله تعالى عليه في مواطن عديدة ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فهل يكون مخلَصًا لله من همّ بفاحشة الزنى؟

الخامس: شهادة الطفل الذي أنطقه الله وهو في المهد بالحجة الدامغة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾... الآية

السادس: اعتراف امرأة العزيز ببراءته وعفته ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾

السابع: استغاثته بربه لينجيه من كيد النساء ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ...﴾

الثامن: ظهور الأمارات الواضحة والبراهين الساطعة على براءته، وإدخاله السجن لدفع مقالة الناس ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

التاسع: عدم قبوله الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته من التهمة ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ...﴾.

العاشر: الاعتراف الصريح من امرأة العزيز والنسوة ببراءته ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وكفى بذلك برهانًا على عفته ونزاهته!! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ... إلى... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من آية (٤٣) إلى نهاية آية (٦٨).

المناسبة: لما أراد الله الفرج عن يوسف وإخراجه من السجن، رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، فجمع السحرة والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويلها

فأعجزهم الله جميعًا؛ ليكون ذلك سببًا في خلاص يوسف من السجن.

اللغة: ﴿عِجَافٌ﴾ هزيلة ضعيفة، جمع أعجف، والأنثى عجفاء ﴿تَعْبُرُونَ﴾ التعبير: معرفة تفسير الرؤيا المنامية ﴿أَضْغَاثُ﴾ جمع ضغث وهو الحزمة من الحشيش اختلط فيها اليابس بالرطب ﴿أَحْلَامٍ﴾ جمع حُلم، وهو ما يراه النائم، ومعناه: أخلاط منامات اختلط فيها الحق بالباطل ﴿وَادَّكَرَ﴾ تذكر بعد النسيان ﴿دَأَبًا﴾ الدأب: الاستمرار على الشيء، يقال: دأب على عمله فهو دائب أي: استمر عليه ﴿تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون وتدخرون ﴿حَصْحَصَ﴾ ظهر وبان ﴿مَكِينٌ﴾ ذو مكانة رفيعة ﴿رِحَالِهِمْ﴾ جمع رحل وهو ما على ظهر المركوب من متاع الراكب وغيره ﴿وَنَمِيرُ﴾ نأتي لهم بالميرة وهي الطعام ﴿يُحَاطَ بِكُمْ﴾ تهلكوا جميعًا.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۝ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ۝ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۝ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

التفسير: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: قال ملك مصر: إني رأيت في منامي سبع بقرات سمان خرجت من نهر يابس، وفي أثرهن سبع بقرات هزيلة في غاية الهزال فابتلعت العجافُ السمانَ ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ هذا من تتمة الرؤيا أي: ورأيت أيضًا سبع سنبلات خضر قد انعقد حبُّها وسبعًا أُخر يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر فأكلتهن ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ أي: يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي أخبروني عن تفسير هذه الرؤيا ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: إن كنتم تجيدون تعبيرها وتعرفون مغزاها ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي: أخلاط رؤى كاذبة لا حقيقة لها. قال الضحاك: أحلام كاذبة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الكاذبة[1] ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: وقال الذي نجا من السجن وهو الساقي وتذكر ما سبق له مع يوسف بعد مدة طويلة ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فأرسلوني إليه لآتيكم بتأويلها، خاطب الملك بلفظ التعظيم. قال ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة[2] ولهذا قال: فأرسلون ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ في الكلام محذوف دلّ عليه السياق، وتقديره: فأرسلوه فانطلق الساقي إلى السجن ودخل على يوسف وقال له: يا يوسف يا أيها الصديق، وسماه صديقًا؛ لأنه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن، والصديق مبالغةٌ من الصدق ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي: أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محنتك. قال الإمام الفخر: وإنما قال: ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾؛ لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضًا عنها، فلهذا السبب قال: لعلي[3] ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: تزرعون سبع سنين دائبين بجدٍّ وعزيمة ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ أي: فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوس ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: ثم يأتي بعد سني الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: ثم يأتي بعد سني القحط والجدب المصيبة عام رخاء، فيه يمطر الناس

(١) وقيل: المعنى: لسنا نعرف تأويل الأحلام على الإطلاق.

(٢) الطبري (١٢/٢٢٩). (٣) الرازي (١٨/١٥٤).

ويُغاثون، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه. قال الزمخشري: تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركًا خصيبًا، كثير الخير، غزير النعم، وذلك من جهة الوحي(١) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ أي: ولما رجع الساقي إلى الملك وعرض عليه ما عبَّر به يوسف رؤياه استحسن ذلك فقال: أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسي ولأبصره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أي: فلما جاءه رسول الملك يوسف ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: قال يوسف للرسول ارجع إلى سيدك الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: سله عن قصة النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن هل يعلم أمرهن؟ وهل يدري لماذا حُبست ودخلت السجن؟ وأني ظُلمت بسببهن؟ أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة، وأن يعلم الناس جميعًا أنه حُبس بلا جرم ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دبَّرن من كيدٍ لي ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ جمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن عن أمر يوسف، وقال لهن: ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟(٢) ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي: معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء، وهو تنزيهٌ له وتعجبٌ من نزاهته وعفته ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: أنا التي أغريته ودعوته إلى نفسي وهو بريءٌ من الخيانة وصادقٌ في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وهذا اعترافٌ صريحٌ ببراءة يوسف على رؤوس الأشهاد ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ الأظهر: أن هذا من كلام يوسف قاله لمّا وصله براءة النسوة له والمعنى: ذلك الأمر الذي فعلته من ردّ الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لا يوفق الخائن ولا يسدد خطاه ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: لا أزكي نفسي ولا أنزهها؛ فإن النفس البشرية ميالة إلى الشهوات. قاله يوسف على وجه التواضع قال الزمخشري: أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه؛ لئلا يكون لها مزكيًا، وبحالها معجبًا ومفتخرًا(٣) ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من رحمه الله بالعصمة ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي

---

(١) الكشاف [٢/ ٤٧٧].

(٢) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة: رجع الرسول فأخبر الملك، وأحضر الملك النسوة يستجوبهن، والخطب: الأمر الجلل، فكأن الملك يستقصي تعلم أمرهن، فهو يواجههن مقررًا الاتهام، ومشيرًا إلى أمر لهن جلل وشأن لهن خطير ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾؟ ومن هنا نعلم شيئًا مما دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز، وما قالته النسوة ليوسف وما أشرن إليه من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة، ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط وحتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ. فالجاهلية دائمًا هي الجاهلية، إنه حيثما كان الترف، وكانت القصور والحاشية، كان التميع والتخنث، والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية! ظلال القرآن [١٢/ ٢٤٨].

(٣) الكشاف [٢/ ٤٨٠].

عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أي: ائتوني بيوسف أجعله من خاصتي وخلصائي، قال ذلك لما تحقق براءته وعرف علمه وشهامته وعفته ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي: فلما أتوا به وكلَّمه يوسف وشاهد الملك فضله، ووفور عقله، وحسن كلامه قال: إنك اليوم لدينا المنزلة رفيع المرتبة، مؤتمنٌ على كل شيء ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: قال يوسف للملك: اجعلني على خزائن أرضك ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ أي: أمين على ما استودعتني، عليمٌ بوجوه التصرف، وإنما طلب منه الولاية رغبةً في العدل، وإقامة الحق والإحسان، وليس هو من باب التزكية للنفس، وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام وزارة المالية ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: وهكذا مكّنا ليوسف في أرض مصر، وجعلنا له العزَّ والسلطان بعد الحبس والضيق ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ أي: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء ويتصرف في المملكة كما يريد ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ أي: نختص بإنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: لا نضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربه بل نضاعفه له ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أجر الآخرة وثوابها خيرٌ للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا، وفيه إشارة إلى أن المقصد الأسمى هو ثواب الآخرة، وأنّ ما يُدّخر لهؤلاء المحسنين أعظم وأجلُّ من هذا النعيم العاجل في الدنيا ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: دخلوا على يوسف فعرف أنهم إخوته ولكنهم لم يعرفوه لهيبة المُلْك، وبُعْد العهد، وتغيّر الملامح. قال ابن عباس: كان بين إلقائه في الجب وبين دخولهم عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه[1]. وكان سبب مجيئهم: أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم بسبب القحط الذي عمَّ البلاد، فخرجوا إلى مصر ليشتروا من الطعام الذي ادخره يوسف، فلما دخلوا على يوسف قال كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: جئنا للميرة، قال: لعلكم عيونٌ جواسيس علينا؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيُّ الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا وهلك في البرية - وكان أحبّنا إليه - وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلّى به عنه وجئنا نحن العشرة، فأمر بإنزالهم وإكرامهم[2] ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ أي: هيَّأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ أي: ائتوني بأخيكم من أبيكم لأصدقكم ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: ألا ترون أني أتم الكيل من غير بخس ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ أي: خير من يكرم الضيفان وخير المضيفين لهم، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ أي: إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية، رهبهم ثم رغبهم. قال في البحر: والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام

---

(١) حاشية الصاوي (٢/٢٤٩). (٢) تفسير الجلالين (٢/١٩٩).

تبارك الله، فألقي عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ... إلى ... وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من آية (٦٩) إلى نهاية آية (٩٣)

المناسبة: تتحدث الآيات عن مجيء إخوة يوسف المرة الثانية إلى مصر ومعهم "بنيامين" الأخ الشقيق ليوسف، وما كان من شأنه حين ظهر الصواع في رحله، فاحتجزه يوسف عنده بحكم شريعة يعقوب، ثم ما كان من تمام المحنة على يعقوب عليه السلام بفقد ولديه حتى ذهب الحزن ببصره.

اللغة: ﴿تَبْتَئِسْ﴾ تحزن ﴿الْعِيرُ﴾ الإبل التي عليها الأحمال ثم كثر الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير ﴿صُوَاعَ﴾ الصواع: الصاع الذي يكال به، يذكر ويؤنث وهو السقاية ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل ﴿سَوَّلَتْ﴾ زينت وسهلت ﴿كَظِيمٌ﴾ ممتلئ من الحزن يكتمه ولا يبديه ﴿تَفْتَأُ﴾ لا تفتأ: لا تزال من أخوات كان الناقصة ﴿حَرَضًا﴾ الحرض: المرض الذي يشفي على الهلاك، قال الشاعر:

سرى همّي فأمرضني ... وقِدْماً زادني مرضا
كذاك الحب قبل اليو ... م مما يورث الحرضا

وأصل الحرض: الفساد في الجسم أو العقل ﴿بَثِّي﴾ البث: أشد الغم والهم ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ التحسس: طلب الشيء بالحواس، والتعرف عنه مع الاستقصاء البليغ، ويستعمل في الخير كما أن التجسس يستعمل في الشر، وقيل: يستعمل في الخير والشر ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ التثريب: التأنيب والتوبيخ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا

لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

التفسير: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: وحين دخل أولاد يعقوب على يوسف ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضمَّ إليه أخاه الشقيق بنيامين ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ أي: أنا أخوك يوسف، أخبره بذلك واستكتمه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تحزنْ بما فعلوا بنا فيما مضى؛ فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير. قال المفسرون: لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين في بيت، وبقي «بنيامين» وحيدًا فقال: هذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه، وقال له: أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا، ثم أعلمه أنه سيحتال لإبقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: ولما قضى حاجتهم وحمَّل إبلهم بالطعام والميرة ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي: أمر يوسف بأن تجعل السقاية - وهي صاع من ذهب مرصّع بالجواهر - في متاع أخيه بنيامين ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ أي: يا أصحاب الإبل ويا أيها الركب المسافرون ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ أي: إنكم قوم سارقون، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ قال المفسرون: لما وصل المنادي إليهم قال: ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم؟ ونوفِّ إليكم الكيل؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، وما ذاك؟ قال: فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي: التفتوا إليهم وسألوهم: ماذا ضاع منكم وماذا افتقدتم؟ وفي قولهم ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ بدل «ماذا سرقنا» إرشادٌ لهم إلى مراعاة حسن الأدب، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة؛ ولهذا التزموا الأدب معهم فأجابوهم ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي: ضاع منا مكيال الملك المرصّع بالجواهر ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: ولمن جاءنا بالمكيال وردَّه إلينا حِمْلُ بعير من الطعام كجائزة له ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: أنا كفيلٌ وضامنٌ لذلك ﴿قَالُوا

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ قسمٌ فيه معنى التعجب، أي: قالوا متعجبين: والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد الفساد في أرضكم ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي: وما نحن بموصوفين بالسرقة قط، لأننا أولاد أنبياء، ولا نفعل مثل هذا العمل القبيح! قال البيضاوي: استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كردّ البضاعة التي جُعلت في رحالهم، وككمّ أفواه الدواب لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد[1] ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعاء البراءة؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسترق ويصبح مملوكاً لمن سرق منه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: كذلك نجازي من تعدّى حدود الله بالسرقة وأمثالها، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب، وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلامية ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي: بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين. قال المفسرون: هذا من تمام الحيلة ودفع التهمة؛ فإنهم لما ادعوا البراءة قالوا لهم: لا بدّ من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً، فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين. قال قتادة: ذُكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاءً إلا استغفر الله مما قذفهم به، حتى بقي أخوه - وكان أصغر القوم - فقال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً فقالوا: والله لا نتركُك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا! فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي: استخرج الصواع من متاع أخيه بنيامين؛ فلما أخرجها منه نكّس الإخوة رءوسهم من الحياء، وأقبلوا عليه يلومونه، ويقولون له: فضحتنا وسوّدت وجوهنا يا ابن راحيل!! ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر؛ لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويُغرّم ضعف ما سَرَق ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا بمشيئته تعالى وإذنه، وقد دلّت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ أي: نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فوق كل عالم من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو رب العالمين. قال الحسن: ليس عالمٌ إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله. وقال ابن عباس: الله العليم الخبير فوق كل عالم[2]. ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: إن سرق فقد سرق أخوه الشقيق من قبله! يعنون يوسف، تنصّلوا من السرقة ورموا بها يوسف وأخاه ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: أخفى تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يُظهرها لإخوته تلطفاً معهم ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: أنتم شرٌّ منزلةً حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

(١) البيضاوي ٢/٣٦٤. (٢) الطبري (١٣/٢٤)

أي: أعلم بما تقولون وتفترون ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ استرحام واستعطاف، أي: قالوا مستعطفين: يا أيها السيد المبجّل إنَّ أباه شيخ كبير في السن لا يكاد يستطيع فراقه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي: خذ بدله واحدًا منا فليس عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أتمم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أي: نعوذ بالله من أن نأخذ أحدًا بجرم غيره ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ أي: نكون ظالمين إن فعلنا ذلك. قال الألوسي: والتعبير بقوله: ﴿مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ بدل «من سرق» لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب[1]. ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي: فلما يئسوا من إجابة طلبهم يأسًا تامًا، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء، اعتزلوا جانبًا عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: قال أكبرهم سنًا وهو «روبيل»: ألستم قد أعطيتم أباكم عهدًا وثيقًا برد أخيكم؟ ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي: ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في يوسف؟ فكيف ترجعون إليه الآن؟! ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ أي: فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أي: يحكم لي بخلاص أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: وهو سبحانه أعدل الحاكمين، لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ أي: ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى، وقولوا له: إن ابنك بنيامين سرق ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي: ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا الصواع في رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي: واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث. قال البيضاوي: أي: أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة[2]. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: واسأل أيضًا القافلة التي جئنا معهم وهم قوم من كنعان كانوا بصحبتهم في هذه السفرة ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي: زينت وسهلت لكم أنفسكم أمرًا ومكيدة فنفذتموها، اتهمهم بالتآمر على بنيامين لما سبق منهم في أمر يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: لا أجد سوى الصبر محتسبًا أجري عند الله ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي: عسى أن يجمع الله شملي بهم، ويقرّ عيني برؤيتهم جميعًا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: العالم بحالي الحكيم في تدبيره وتصريفه ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: يا لهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي: فقد بصره وعمي[3] من شدة البكاء حزنًا على ولديه ﴿فَهُوَ

---

(١) روح المعاني (٣٤/١٣). (٢) البيضاوي (٢٦٨).

(٣) عمي البصر: ضعف حتى كاد لا يرى من شدة البكاء كأن غشاوة صارت عليه، قال الشاعر: «ضعفت عيناي من طول البكاء». قال المفسرون: إن يعقوب فقد بصره من شدة حزنه على يوسف وبقي لا يبصر ست سنوات حتى كشف الله عنه الغم بقميص يوسف واستدلوا بقوله تعالى: ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

كَظِيمٌ﴾ أي: مملوء القلب كمدًا وغيظًا، ولكنه يكتم ذلك في نفسه، وهو مغموم ومكروب بتلك الداهية الدهياء. قال أبو السعود: وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه؛ لأن ذكر يوسف كان آخذًا بمجامع قلبه لا ينساه، ولأنه كان واثقًا بحياتهما طامعًا في إيابهما، وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله(١). وقال الرازي: الحزن الجديد يقوّي الحزن القديم الكامن في النفس، والأسى يبعث الأسى ويثير الأحزان، قال الشاعر:

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك(٢)

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تفتأ ولا تزال تتذكر يوسف وتتفجع عليه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي: حتى تكون مريضًا مشرفًا على الهلاك أو تهلك بالغم والحسرة وتموت ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: قال لهم يعقوب: لست أشكو غمي وحزني إليكم وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي تنفع الشكوى إليه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون أنتم فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه فالتمسوا يوسف، وتعرفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي: لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرته جلّ وعلا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ في الكلام محذوف، أي: فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا: يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة من الجدب والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي: وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارًا(٣). قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام(٤)، أظهروا له الذل والانكسار استرحامًا واستعطافًا ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: أتمم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي: بردّ أخينا(٥) أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: يثيب المحسنين أحسن الجزاء. ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار أدركته الرأفة فباح لهم بما كان يكتمه من أمره ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾؟ أي: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه حال شبابكم وطيشكم؟ والغرض تعظيم الواقعة، كأنه يقول: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف، وما أقبح ما أقدمتم عليه! قال أبو السعود: وإنما قاله نصحًا لهم، وتحريضًا على التوبة، وشفقة عليهم(٦). ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أي: قال إخوته متعجبين

---

(١) أبو السعود (٣/ ٨٨). (٢) تفسير الرازي (١٨/ ١٩٢).

(٣) التفسير الكبير للرازي (١٨/ ٢٠١).

(٤) هذا قول ابن جريج واختار الطبري أن المراد المسامحة لرداءة البضاعة.

(٦) أبو السعود (٣/ ٩٠).

مستغربين. أأنت يوسف حقاً؟! ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾ أي: قال: نعم أنا يوسف وهذا أخي الشقيق ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: منَّ علينا بالخلاص من البلاء، والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: إنه من يتق الله فيراقبه ويصبر على البلايا والمحن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء. قال البيضاوي: ووضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر[1]. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اعترافٌ بالخطيئة وإقرار بالذنب، أي: والله لقد فضَّلك الله علينا بالتقوى والصبر، والعلم والحلم ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي: وحالُ وشأننا أنَّا كنا مذنبين بصنيعنا الذي صنعنا بك، ولذلك أعزك الله وأذلنا، وأكرمك وأهاننا ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: قال لهم يوسف: لا عتب عليكم اليوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفو ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دعاءٌ لهم بالمغفرة، وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: هو جلَّ وعلا المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة، أرحم بعباده من كل أحد ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ قال الطبري: ذُكر أن يوسف لمَّا عرَّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن، فعند ذلك أعطاهم قميصه[2]. وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يرجع إليه بصره ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: وجيئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب.

البلاغة:

١ - ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ فيه جناس الاشتقاق، وكذلك في ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾.

٢ - ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ بينهما طباق.

٣ - ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ فيه إطناب للاستعطاف.

٤ - ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية.

٥ - ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ بين لفظي الأسف ويوسف جناس الاشتقاق.

٦ - ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ إيجاز بالحذف، أي: تالله لا تفتأ.

٧ - ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ فيه استعارة، استعير الرَّوْح وهو نسيم الريح الذي يلذُّ شميمها ويطيب نسيمها للفرج الذي يأتي بعد الكربة، واليُسر الذي يأتي بعد الشدة.

لطيفة: ذكر القاضي عياض في كتابه «الشفاء» أن أعرابيًّا سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام[3]، وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم عن غيرهم، وتقليبهم الآراء ظهرًا لبطن،

---

(١) البيضاوي (٢٦٩) (٢) الطبري (١٣/ ٥٧)

(٣) كتاب الشفاء بحث إعجاز القرآن.

تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴿١٠٧﴾ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴿١٠٨﴾ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ﴿١٠٩﴾ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴿١١٠﴾ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴿١١١﴾.

التفسير: ﴿ولما فصلت العير﴾ أي: خرجت منطلقة من مصر إلى الشام ﴿قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف﴾ أي: قال يعقوب لمن حضر من قراباته: إني لأشم رائحة يوسف. قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمان ليال[1] ﴿لولا أن تفندون﴾ أي: تسفهوني وتنسبوني إلى الخرف، وهو ذهاب العقل، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره: لأخبرتكم أنه حي ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي: قال حفدته ومن عنده: والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب لقديم إفراطك في محبة يوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه، قال المفسرون: وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿فلما أن جاء البشير﴾ أي: فلما جاء المبشر بالخبر السار. قال مجاهد: كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم فقال: أفرحه كما أحزنته[2] ﴿ألقاه على وجهه﴾ أي: طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿فارتد بصيرا﴾ أي: عاد بصيرا لما حدث له من السرور والانتعاش ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي: قال يعقوب لأولاده: ألم أخبركم بأني أعلم من الله ما لا تعلمونه من حياة يوسف وأن الله سيرده علي لتتحقق الرؤيا؟ قال المفسرون: ذكّرهم بقوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ روي أنه سأل البشير: كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، فقال: ما أصنع بالملك؟! على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة[3] ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا﴾ طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترفوا بخطئهم بقولهم: ﴿إنا كنا خاطئين﴾ أي: مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ وعدهم بالاستغفار. قال المفسرون: أخر ذلك إلى السحر ليكون أقرب إلى الإجابة، وقيل: أخرهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة[4] ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: الساتر للذنوب الرحيم بالعباد ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ أي: فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلوهم على يوسف ضمّ إليه أبويه واعتنقهما ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ أي: ادخلوا بلدة مصر آمنين من كل مكروه، وإنما قال: ﴿إن شاء الله﴾ تبركًا

---

(١) القرطبي ٩/٢٥٩. (٢) الطبري ١٣/٦٣.

(٣) التفسير الكبير للرازي ١٨/٢٠٩.

(٤) يقول سيد قطب عليه رحمة الله: وكأنه عتب في كلمة ﴿سوف﴾ لا تخلو من إشارة إلى قلب إنسان مكلوم فإنه يعدهم بالاستغفار بعد أن يصفو ويسكن ويستريح.

وبنيه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: أجلسهما على سرير الملك بجانبه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه. قال المفسرون: كان السجود عندهم تحية وكرامة لا عبادة ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وأنا صغير ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صدقًا حيث وقعت كما رأيتها في النوم ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي: أنعم عليّ بإخراجي من السجن. قال المفسرون: ولم يذكر قصة الجب تكرمًا منه؛ لئلا يُخجل إخوته ويذكّرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي: جاء بكم من البادية؛ لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين، ذكّرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر، وجمع شمل الأسرة بمصر. قال الطبري: ذُكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف[1] ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء. قال ابن عباس: وذكر هذا القدر من أمر إخوته؛ لأن النعمة إذا جاءت إثر بلاء وشدة كانت أحسن موقعًا[2] ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: لطيف التدبير يحقق مشيئته بلطف، وبدقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بخلقه، الحكيم في صنعه. قال المفسرون: إن يعقوب -عليه السلام- أقام مع يوسف في مصر أربعًا وعشرين سنة ثم مات وكان قد أوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فمضى يوسف بنفسه ودفنه ثمة، ثم لما عاد إلى مصر عاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق فقال ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: أعطيتني الملك والجاه والسلطان، وذلك من نعمة الدنيا ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: علمتني تفسير الرؤيا، وذلك من نعمة العلم ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يا مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: أنت يا رب متولي أموري وناصري في الدارين ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: اقبضني إليك مسلمًا، وألحقني بالصالحين، يبتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه. وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصدّيق، ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف وقصته من الأخبار الغيبية التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما نُعلمك بها على أبلغ وجه وأدق تصوير، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: وما كنت حاضرًا مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، فإنك يا محمد لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي: ليس أكثر الناس

(١) الطبري ١٣/ ١٧٣. (٢) البحر (٥/ ٣٤٩).

ولو حرصت على إيمانهم وبالغت في إرشادهم بمصدقين لك لتصميمهم على الكفر ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: وما تطلب منهم على هذا النصح، والدعاء إلى الخير والرشد أجرة حتى يثقل عليهم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير للعالمين، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كم من الآيات والعلامات الدالة على وجود الله جل وعلا ووحدانيته، الكائنة في السموات والأرض كالشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار والأشجار، وسائر ما فيهما من العجائب ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي: يشاهدونها ليلَ نهار، ويمرون عليها بالعشي والإبكار ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون، فلا تعجب من إعراضهم عنك؛ فإن إعراضهم عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته أغرب وأعجب ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يؤمن أكثر هؤلاء المكذبين من قومك إلا إذا أشركوا مع الله غيره؛ فإنهم يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون معه الأصنام. قال ابن عباس: ومن ذلك قولهم في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»[1]. ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أفأمن هؤلاء المكذبون عقوبةً من عذاب الله تغشاهم وتشملهم؟ ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أو تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟ والاستفهام إنكاري، وفيه معنى التوبيخ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: قل يا محمد: هذه طريقتي ومنهاجي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي: أدعو إلى عبادة الله وطاعته على بيان وحجة واضحة أنا ومن آمن بي ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وأنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد، فأنا مؤمن موحِّد ولست من المشركين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً من البشر لا ملائكة من السماء. قال الطبري: أي رجالاً لا نساءً ولا ملائكة نوحي إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا[2]، والآية ردٌّ على من أنكر أن يكون النبي من البشر، أو زعم أن في النساء نبيات ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: من أهل المُدن والأمصار لا من أهل البوادي. قال الحسن: لم يبعث الله نبيًا من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن[3]. قال المفسرون: وإنما كانوا من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: أفلم يسر هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر ما حلَّ بالأمم السابقين ومصارع المكذبين فيعتبرون بذلك؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: الدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعقلون فتؤمنون؟! ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ أي: يئس الرسل من إيمان قومهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ أي: أيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي:

---

(١) القرطبي ٩/ ٢٧٣.
(٢) الطبري ١٣/ ٨٠.
(٣) القرطبي ٩/ ٢٧٤.

أتاهم النصر عند اشتداد الكرب، ففي اللحظة التي تستحكم فيها الشدة، ويأخذ فيها الكرب بالمخانق، ولا يبقى أملٌ في غير الله، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسمًا فاصلاً ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ أي: فنجينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولا يُردّ عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأولي العقول النيّرة ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: ما كان هذا القرآن أخبارًا تُروى أو أحاديث تُختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولكن كان هذا القرآن مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية المنزّلة من قبل ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تبيين كل ما يُحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام، والشرائع والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهداية من الضلالة ورحمة من العذاب لقوم يصدّقون به ويعملون بأوامره ونواهيه.

البلاغة:

١ - ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أكدوا كلامهم بالقسم وإنّ واللام، وهذا الضرب يسمى «إنكاريًّا» لتتابع أنواع المؤكدات.

٢ - ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ جملة ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ دعائية جيء بها للتبرك، وفي الآية تقديم وتأخير تقديره: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله.

٣ - ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أبويه: المراد به الأب والأم، فهو من باب التغليب، والرفع مؤخر عن الخرور وإن تقدم لفظًا للاهتمام بتعظيمه لهما، أي: سجدوا له ثم أجلس أبويه على عرش الملك.

٤ - ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ جملة ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضية بين اسم ﴿مَا﴾ الحجازية وخبرها، وجيء بهذا الاعتراض لإفادة أن الهداية بيد الله جل وعلا وحده.

٥ - ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ هذا على حذف مضاف، أي: وما تسألهم على تبليغ القرآن من أجر.

٦ - ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ هو من المحسنات البديعية «السجع» وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير.

تنبيه: دلّ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ على أن الغرض من ذكر هذه القصص والأخبار العظة والاعتبار، ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه، وإخراجه من السجن، وتمليكه مصر بعد العبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع – قادرٌ على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء شأنه، وإظهار دينه، وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جارٍ مجرى الإخبار عن الغيوب، فكان ذلك معجزة لرسول الله ﷺ.

انتهى بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف.

تفسير سورة الرعد

بين يدي السورة

* سورة الرعد من السور المدنية، التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المكية، من تقرير «الوحدانية» و«الرسالة» و«البعث والجزاء» ودفع الشُّبه التي يثيرها المشركون.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته، فمع سطوع الحق ووضوحه، كذَّب المشركون بالقرآن، وجحدوا وحدانية الرحمن، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى، وعجيب خلقه في السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزروع والثمار، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع.

* ثم تلتها الآيات في إثبات البعث والجزاء، ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على انفراده جل وعلا بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والنفع والضر، ضرب القرآن مثلين للحق والباطل، أحدهما: في الماء ينزل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم هو يجرف في طريقه الغثاء، فيطفو على وجهه الزَّبد الذي لا فائدة فيه، والثاني: في المعادن التي تذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث، الذي لا يلبث أن يذهب جفاءً ويضمحل ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ الآيات فذلك مثل الحق والباطل.

* وذكرت السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة وأهل الشقاوة، وضربت لهم المثل بالأعمى والبصير، وبيَّنت مصير كلٍّ من الفريقين، ثم ختمت بشهادة الله لرسوله بالنبوة والرسالة وأنه مرسل من عند الله.

التسمية: سميت «سورة الرعد» لتلك الظاهرة الكونية العجيبة، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه، فالماء جعله الله سببٌ للحياة، وأنزله بقدرته من السحاب، والسحابُ جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء، وجمع النقيضين من العجائب كما قال القائل: جمعُ النقيضين من أسرار قدرته: هذا السحاب به ماء به نار. فما أجلَّ وأعظم قدرة الله!!

اللغة: ﴿عَمَدٍ﴾ العَمَد: الدعائم، وهو اسم جمع، وقيل: جمع عمود ﴿صِنْوَانٌ﴾ جمع صنو وهو الغصن الخارج عن أصل الشجرة، وأصله المِثْل، ومنه قيل للعم: صنو لمماثلته للأب، فإذا كان للشجرة عدة فروع فهي صنوان ﴿الأَغْلاَلُ﴾ جمع غل، وهو طوق تُشدُّ به اليد إلى العنق ﴿الْمَثُلاَتُ﴾ جمع مَثُلة وهي العقوبة، وسميت بذلك لما بين العقاب والمُعَاقب من المماثلة ﴿تَغِيضُ﴾ غاض الماء: نقص أو غار ﴿سَارِبٌ﴾ السارب: الذاهب في سربه أي: طريقه بوضح

النهار لا يستخفي من الأنظار ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ ملائكة يعقب بعضهم بعضاً أي: يأتي بعضهم عقب بعض ﴿الْمِحَالِ﴾ القوة والإهلاك والنقمة.

سَبَبُ النُّزُول: عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى جبَّار من فراعنة العرب فقال: «اذهب فادعه لي» فقال: يا رسول الله إنه جبارٌ عاتٍ قال: «اذهب فادعه لي» فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ فقال: أخبرني عن إله محمد أمن ذهب هو؟ أو من فضة؟ أو من نحاس؟ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما قال الرجل، وقال له: ألم أخبرك أنه أعتى من ذلك؟ فقال: «ارجع إليه الثانية فادعه لي» فرجع إليه فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يجادله إذ بعث الله عليه سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه فأنزل الله ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ۝ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۝ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ

---

(١) أسباب النزول (١٥٦).

فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

التفسير: ﴿المر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن[1]. وقال ابن عباس معناه: أنا الله أعلم وأرى[2] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المعجز، الذي فاق كل كتاب ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي: والذي أوحي إليك يا محمد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحتمل الشك والتردد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ومع وضوحه وجلائه كذب به أكثر الناس ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: خلقها مرتفعة البناء، قائمة بقدرته لا تستند على شيء، حال كونكم تشاهدونها وتنظرونها بغير دعائم، وذلك دليل وجود الخالق المبدع الحكيم ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: علا فوق العرش علواً يليق بجلاله من غير تجسيم ولا تكييف ولا تعطيل[3]. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: ذلّل الشمس والقمر لمصالح العباد، كلٌّ يسير بقدرته تعالى إلى زمنٍ معيّن، هو زمن هذه الدنيا ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يصرّف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشئون الملكوت من إيجاد وإعدام، وإحياء وإماتة وغير ذلك ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: يبيّنها ويوضحها ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: لتصدقوا بلقاء الله، وتوقنوا بالمعاد إليه، فإن من قدر على ذلك كله فهو قادر على إحياء الإنسان بعد موته ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: هو تعالى بقدرته بسط الأرض وجعلها ممدودة فسيحة، وهذا لا ينافي كرويتها، فإن ذلك مقطوع به، والغرض أنه تعالى جعلها واسعة فسيحة ممتدة الآفاق ليستقر عليها الإنسان والحيوان، ولو كانت كلها جبالاً ووديانًا لما أمكن العيش عليها. قال في التسهيل: ولا يتنافى لفظ البسط والمدّ مع التكوير، لأن كل قطعة من الأرض ممدودة على حدتها، وإنما التكوير لجملة الأرض[4]. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: وخلق في الأرض جبالاً ثوابت رواسخ لئلا تضطرب بأهلها كقوله: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي: وجعل فيها الأنهار الجاريات ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى، تنبت بينهما أسباب الإخصاب والإثمار طبق سننه الحكيمة[5]. قال أبو السعود: أي: جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين، إما في اللون كالأبيض والأسود، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في القدر كالصغير والكبير، أو

---

(1) انظر توضيح الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة.

(2) الطبري (13/ 91).

(3) انظر أقوال السلف في سورة الأعراف من هذا الكتاب.

(4) التسهيل في علوم التنزيل (2/ 130).

(5) قال في الظلال: هذه حقيقة لم يعرفها البشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريباً وهي أن كل الأحياء تتألف من ذكر وأنثى، حتى النباتات التي كان المظنون أن ليس لها من جنسها ذكر، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة أو متفرقة في العود. الظلال (13/ 71).

في الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك (١) ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يُلبسه إياه فيصير الجو مُظلماً بعد ما كان مضيئاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إنَّ في عجائب صنع الله لدلالات وعلامات باهرة على قدرته ووحدانيته لمن تأمل وتفكر. وخصَّ المتفكرين بالذكر لأنَّ ما احتوت عليه هذه الآيات من الصنع العجيب لا يُدرك إلا بالتفكر ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: في الأرض بقاعٌ مختلفةٌ متلاصقات قريبٌ بعضها من بعض. قال ابن عباس: أرضٌ طيبة، وأرضٌ سَبِخة، تُنبتُ هذه، وهذه إلى جنبها لا تُنبت (٢). ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: بساتين كثيرة من أشجار العنب ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل والرطب، منها ما ينبت منه من أصلٍ واحدٍ شجرتان فأكثر، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ أي: الكل يسقى بماءٍ واحد، والتربة واحدة، ولكنَّ الثمار مختلفات الطعوم. قال الطبري: الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ، والكمثرى، والعنب الأبيض والأسود، بعضها حلوٌ، وبعضها حامض، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شربٍ واحد (٣). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: علامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتدبَّر، وفي ذلك ردٌّ على القائلين بالطبيعة ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إن تعجب يا محمد من شيء، فليس ما هو أعجب من قول الكفار: أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد؟ فإن إنكارهم للبعث حقيقٌ أن يُتعجب منه، فإن الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض، والأشجار والثمار، والبحار والأنهار قادرٌ على إعادتهم بعد موتهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: هؤلاء الذين أنكروا البعث هم الجاحدون لقدرة الله ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: يُغلُّون بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: وهم في جهنم مخلدون فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يُخرجون ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: يستعجلك المشركون يا محمد بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، استعجلوا ما هُدِّدوا به من عذاب الدنيا استهزاءً ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي: وقد مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون ولا يتعظون؟! ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي: وإن ربك لذو صفحٍ عظيم للناس، لا يعجّل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: شديد العقاب لمن أصرَّ على المعاصي ولم يتب من ذنوبه، فقرن تعالى بين سعة حلمه وشدة عقابه ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة، والرجاء والخوف ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: ويقول المشركون من كفار قريش: هلا أُنزل على محمد معجزة تدل على صدقه مثل معجزات موسى وعيسى!! قال في البحر: لم يعتدّوا بالآيات

---

(١) أبو السعود (٣/ ٩٧) (٢) الطبري (١٣/ ٩٧)

(٣) نفس المرجع السابق (١٣/ ٩٨).

الخارقة المعجزة كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع، وأمثال هذه المعجزات، فاقترحوا عنادًا آيات أخرى[1]. ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ جواب لما اقترحوا، أي: لست أنت يا محمد إلا مخوِّف ومبشِّر، شأنك شأن كل رسول قبلك، فلكل قوم نبيٌّ يدعوهم إلى الله، وأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبِّر الكون والعباد ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: الله وحده الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها هل هو ذكرٌ أم أنثى؟ تامٌّ أم ناقص؟ حسنٌ أو قبيح ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي: وما تنقصه الأرحامُ بإلقاء الجنين قبل تمامه ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: وما تزداد على الأشهر التسعة. قال ابن عباس: ما تغيضُ بالوضع لأقلَّ من تسعة أشهر، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر، وعنه: المراد بالغيض السقط الناقص، وبالازدياد المولدُ التام[2]. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: كلُّ شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدود لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ما غاب عن الحسِّ وما كان مشاهدًا منظورًا، فعلمهُ تعالى شاملٌ للخفيِّ والمرئيِّ لا يخفى عليه شيء ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ أي: العظيم الشأن الذي كل شيء دونه، المستعلي على كل شيء بقدرته، المنزَّه عن المشابهة والمماثلة ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ أي: يستوي في علمه تعالى ما أضمرته القلوب وما نطقت به الألسنة ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: ويستوي عنده كذلك من هو مستترٌ بأعماله في ظلمات الليل وهو في غاية الاختفاء، ومن هو ذاهبٌ في طريقه بوضح النهار مستعلنٌ لا يستخفي فيما يعمل وهو في غاية الظهور ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أي: لهذا الإنسان ملائكة موكلةٌ به تتعقب في حفظه، يأتي بعضهم عقيب بعض كالحرس في الدوائر الحكومية ﴿مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: يحفظونه من الأخطار والمضارّ بأمره تعالى. قال مجاهد: ما من عبدٍ إلا وملَكٌ موكلٌ به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام[3]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: لا يزيل نعمته عن قوم ولا يسلبهم إياها إلا إذا بدّلوا أحوالهم الجميلة بأحوال قبيحة، وهذه من سنن الله الاجتماعية أنه تعالى لا يبدّل ما بقوم من عافية ونعمة، وأمن وعزة إلا إذا كفروا تلك النعم وارتكبوا المعاصي، وفي الأثر «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون»[4]. ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي: وإذا أراد تعالى هلاك قوم أو عذابهم ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا يقدر على ردِّ ذلك أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ أي: ليس لهم من دون الله وليٌّ يدفع عنهم العذاب والبلاء ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ

(1) البحر (5/367). (3) زاد المسير (4/308).
(2) الطبري (13/109).
(4) أخرجه ابن أبي حاتم كما في مختصر ابن كثير (2/272).

الْبَرْقَ﴾ هذا بيانٌ لآثار قدرته تعالى العجيبة في الكون، أي: يريكم أيها الناس البرق الخاطف من خلال السحاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال ابن عباس: خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث[1]، فإن البرق غالبٌ ما يعقبه صواعق مدمرة، وقد يكون وراءه المطر المدرار الذي به حياة البلاد والعباد ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: وبقدرته كذلك يخلق السحب الكثيفة المحمّلة بالماء الكثير ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: يسبّح الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده وثنائه عليه، وتسبّح له الملائكة خوفاً من عذابه، وتسبيح الرعد حقيقةٌ دلَّ عليها القرآن، نؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات، فهو تعالى لا يحصر الإسماع في حيٍّ كما قال ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يرسل الصواعق المدمرة نقمةً يهلك بها من يشاء ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: وكفار مكة يجادلون في وجود الله ووحدانيته وفي قدرته على البعث ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي: وهو تعالى شديد القوة والبطش والنكال، القادر على الانتقام ممن عصاه ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: لله تعالى تتجه الدعوة الحق، فهو الحقيق بأن يُعبد وحده بالدعاء والالتجاء ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: والآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي: لا يستجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداءً ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ أي: إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد يدعوه ويناديه ليصل الماء إلى فمه، والماء جمادٌ لا يحسّ ولا يسمع. قال أبو السعود: شبّه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيءٍ أصلاً بحال عطشانٍ هائمٍ لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه، وليس الماء ببالغ فمه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه[3] ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: ما دعاؤهم والتجاؤهم لآلهتهم إلا في ضياع وخسار؛ لأنه لا يُجدي ولا يفيد ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ولله وحده يخضع وينقاد أهل السموات وأهل الأرض ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: طائعين وكارهين، قال الحسن: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرهاً[2] أي: في حالة الفزع والاضطرار ﴿وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: وتسجد ظلالهم أيضاً لله في أول النهار وأواخره، والغرض: الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميين، والآية في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: مَنْ خالق السموات والأرض ومدبر أمرهما؟ والسؤال للتهكم والسخرية بمن عبدوا من دون الله ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي: قل لهم تقريعاً وتبكيتاً: اللهُ خالقهما ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: قل لهم إلزاماً وإقامةً للحجة عليهم: أجعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضر عنها، فكيف

---

(١) زاد المسير (٤/٣١٣).
(٢) القرطبي (٩/٣٠١).
(٣) أبو السعود (٣/١٠٩).

يستطيعونه لغيرهم؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ هذا تمثيل لضلالهم في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى: الكافر وبالبصير: المؤمن، وبالظلمات: الضلالة، وبالنور: الهدى أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء!! فالفارق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام. ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم، أي: أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم؟ وهو تهكم لاذع؛ فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئًا ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين، ولما أقام الحجة عليهم جاء بهذا البيان الواضح ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره، وهو المنفرد بالألوهية والربوبية، الغالب لكل شيء، وجميع الأشياء تحت قدرته وقهره.

البلاغة: في الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي:

١ - الإشارة بالبعيد عن القريب في ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ تنزيلًا لها منزلة البعيد؛ للدلالة على علو شأنها ورفعة منزلتها، و«ال» في «الكتاب» للتفخيم، أي: الكتاب العجيب الكامل في إعجازه وبيانه.

٢ - الاستعارة التبعية في ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ شبه إزالة نور النهار بواسطة ظلمة الليل بالغطاء الكثيف، واستعار لفظ ﴿يُغْشِي﴾ المشير إلى تغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية الحسية للأمور المعنوية.

٣ - الطباق في «تغيض.. وتزداد» وفي «الغيب والشهادة» وفي «أسر.. وجهر» وفي «مستخف.. وسارب»؛ لأن السارب: الظاهر، وفي «خوفًا وطمعًا» وفي «طوعًا وكرهًا» وكلها من المحسنات البديعية اللفظية.

٤ - الإيجاز بالحذف في ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي: الله خالق السموات والأرض.

٥ - التشبيه التمثيلي في ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ شبه عدم استجابة الأصنام للداعي لها بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بعد، فوجه الشبه منتزع من متعدد.

٦ - الاستعارة في ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ استعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان، وكذلك لفظ الأعمى للمشرك الجاهل، والبصير للمؤمن العاقل.

تنبيه: سميت الملائكة معقبات؛ لأنهم يتعاقبون على أعمال العباد بالليل والنهار كما في البخاري «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة الفجر والعصر..» الحديث

الناس به من الماء الصافي، والمعدن الخالص، فيبقى ويثبت في الأرض ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: مثل هذين المثلين السابقين يبيّن الله الأمثال للحق والباطل، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا [1]. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ أي: للمؤمنين الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة المثوبةُ الحسنى، وهي الجنة دار النعيم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي: لم يجيبوا دعوته إلى الإيمان به وهم الكافرون ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي ومثلَ جميع ما في الدنيا ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أي لبذلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي لهم الحساب السيئ قال الحسن: يُحاسبون بذنوبهم كلها لا يُغفر لهم منها شيء. ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة نار جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: بئس هذا المستقر والفراش الممهد لهم في النار ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: هل يستوي من آمن وصدّق بما نزل عليك يا محمد ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال لا لبَّ له كالأعمى؟ والمراد به عمى البصيرة. قال ابن عباس: نزلت في حمزة وأبي جهل ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول السليمة. ثم عدّد تعالى صفاتهم فقال ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي: يتمّون عهد الله الذي وصّاهم به، وهي أوامره ونواهيه التي كلّف بها عباده ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ أي: لا يخالفون ما وثّقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله وبين العباد ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي: يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أي: يخافون الحساب الشديد المؤدي لدخول النار، فهم لرهبتهم جادّون في طاعة الله، محافظون على حدوده ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: صبروا على المكاره طلباً لمرضاة الله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدّوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: أنفقوا بعض أموالهم التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون الجهل بالحلم والأذى بالصبر. وقال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح السيئ من الأعمال [2] بمعنى يعملون الحسنات ليدرءوا بها

---

(1) يقول الشهيد سيد قطب في تفسيره الظلال ما نصه: "ثم نمضي مع السياق يضرب مثلاً للحق والباطل. للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح. إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلمّ في طريقه غثاء فيطفو على وجهه في صورة الزبد، حتى ليحجب الزبد أحياناً الماء، هذا الزبد نافش رابٍ منتفخ ولكنه بعدُ غثاء، والماء من تحته سارب ساكن هادئ ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة، كذلك يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة أو آنية كالحديد والرصاص، فإن الخبث يطفو ولكنه بعدُ خبث يذهب، ويبقى المعدن في نقاء. ذلك مثل الحق والباطل. فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رابياً منتفخاً ولكنه بعدُ زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جفاءً مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئاً ساكناً ولكنه الباقي في الأرض كالماء المحيي، والمعدن الصريح"
(2) القرطبي (٩/ ٣١٠).

بالسيئات، وفي الحديث «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾ أي لهم العاقبة المحمودة في الدار الآخرة وهي الجنة، وقد فسرها بقوله ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي جنات إقامة خالدة يدخلونها مع الأبرار، ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم، ليأنسوا بهم ويتم بهم سرورهم، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل لقلة أعمالهم، فترفع منازل هؤلاء إكراماً لأولئك وذلك فضل الله، ثم إن لهم إكراماً آخر بيّنه بقوله ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ أي والملائكة تدخل عليهم للتهنئة من كل باب من أبواب الجنة يقولون لهم ﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾ أي سلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا، ولئن تعبتم فيما مضى فلقد استرحتم الساعة، وهذه بشارة لهم بدوام السلامة ﴿فنعم عقبى الدار﴾ أي نعمت هذه العاقبة الحسنة عاقبتكم وهي الجنة بدل النار، ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين السعداء أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الأشقياء فقال ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي يقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها ﴿ويفسدون في الأرض﴾ ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح لهم البعد من رحمته والطرد من جنته ﴿ولهم سوء الدار﴾ أي ولهم ما يسوءهم في الدار الآخرة وهو عذاب جهنم وبئس المصير ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسع على من يشاء من عباده ويضيق على من يشاء حسب الحكمة والمصلحة ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ أي وفرح هؤلاء المشركون بنعيم الدنيا فرح أشر وبطر، وهو إخبار في ضمنه ذم وتعجب لمن فرح بالدنيا، ولذلك حقرها بقوله ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي قليل ولذة عابرة بالنظر إلى الآخرة ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أي ويقول كفار مكة: هلا أنزل على محمد معجزة من ربه مثل معجزة موسى في فلق البحر، ومعجزة عيسى في إحياء الموتى ونحو ذلك ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي قل لهم يا محمد: الأمر بيد الله وليس إليّ، يُضل من يشاء إضلاله فلا تغني عنه الآيات والنذر شيئاً، ويرشد إلى دينه من أراد هدايته لأنه رجع إليه بالتوبة والإنابة. قال في التسهيل: جرى الكلام مجرى التعجب من طلبهم آية والمعنى: قد جاءكم محمد ﷺ بالقرآن وبآيات كثيرة فعميتم عنها، وطلبتم غيرها، وتماديتم على الكفر فإنه تعالى يضل من يشاء مع ظهور الآيات، ويهدي من يشاء دون ذلك[1] ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ هذا بدل والمعنى: يهدي تعالى للإنابة وهم الذين آمنوا وتسكن وتستأنس قلوبهم بذكر الله وتوحيده، وجيء بصيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم فإن بذكر الله تعالى تسكن قلوب المؤمنين، فلا يشعرون بقلق واضطراب [illegible]

---

(١) التسهيل ١٣٤/٢

والأعمى الجاهل الكافر.

٦- ﴿يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق وكذلك بين "الحسنة والسيئة" و "يبسط ويقدر" و "يوصل" و "يهدي" لتضاد بين اللفظين.

٧- ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي إلا مثل المتاع الذي يستمتع به الإنسان في الحاجات المؤقتة، فيه تشبيه بليغ لحذف الأداة ووجه الشبه.

فائدة: بيّن تعالى في قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أن النسب لا ينفع إذا لم يحصل معه العمل الصالح، وفيه قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب.

تنبيه: قال الإمام الطيبي في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان أولها: التوبيخ لهم على قياسهم الفاسد في عبادة غير الله. ثانيها: وضع الظاهر موضع الضمير ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ تنبيهًا على ضلالهم في جعل شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه. ثالثها: إنكار لوجود الشركاء على وجه برهاني ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾. رابعها: نفي الشيء بنفي لازمه ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾. خامسها: الاحتجاج عليهم بطريق التدرج لبعثهم على التفكر ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ أي: أتقولون بأفواهكم من غير روية ولا تفكر بطلان ما تقولون؟ فكان هذا الاحتجاج مناديًا على نفسه بالإعجاز وأنه ليس من كلام البشر(١).

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... إلى ... وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ من آية (٣٥) إلى نهاية السورة الكريمة.

المناسبة: لما ذكر تعالى ما أعد للكافرين في الآخرة ذكر ما أعده للمؤمنين في جنات النعيم، ثم توعد المشركين بالعذاب الأليم، وختم السورة الكريمة ببيان صدق رسالته عليه السلام بشهادة الله تعالى وشهادة المؤمنين من أهل الكتاب.

اللغة: ﴿الْأَحْزَابِ﴾ الطوائف المتحزبة من أحزاب اليهود والنصارى، سموا بذلك لأنهم جماعات متفرقة لا تجمعهم عقيدة واحدة ﴿مَتَابِ﴾ أي مآبي بمعنى مرجعي ﴿يَمْحُو﴾ المحو: إزالة الأثر من كتابة أو غيرها، وعكسه الإثبات ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل كل الكتب، والمراد منه علم الله أو اللوح المحفوظ ﴿الْبَلَاغُ﴾ اسم بمعنى التبليغ ﴿مُعَقِّبَ﴾ المكر: تدبير أمر في خفاء، وقد يكون في الخير وقد يكون في الشر.

سبب النزول: قال الكلبي: عيّرت اليهود رسول الله ﷺ وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيًا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾(٢).

---

(١) نقلاً عن حاشية الصاوي على الجلالين. (٢) أسباب النزول (١٩٨).

فيها، وهذا ردٌّ على الذين اقترحوا الآيات ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مدةٍ مضروبة كتابٌ كتبه الله في اللوح المحفوظ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. قال الطبري: لكل أمرٍ قضاه الله كتابٌ قد كتبه فهو عنده ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: ينسخ الله ما يشاء نسخه من الشرائع والأحكام وصحف الملائكة الكرام، ويثبتُ ما يشاء منها دون تغيير. قال ابن عباس: يبدِّل الله ما يشاء فينسخه إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فإنه قد فرغ منها[2]. وقيل: إن المحو والإِثبات عامٌّ في جميع الأشياء؛ لما روي أن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت ويبكي ويقول: اللهمَّ إن كنتَ كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمُّ الكتاب، واجعله سعادةً ومغفرة، ورجحه أبو السعود، وهو قول ابن مسعود أيضاً. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصل كل كتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: وإِذا أريناك يا محمد بعض نعمنا وعذابنا من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: نقبضك قبل أن نقر عينك بعذاب هؤلاء المشركين ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي: ليس عليك إلا تبليغ الرسالة وعلينا حسابهم وجزاؤهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: أولم ير هؤلاء المشركون أنا نمكِّن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإِسلام؟ وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجزٌ وعده لرسوله عليه السلام[4]. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي: ليس يتعقب حكمه أحد بنقض ولا تغيير ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: سريع الانتقام ممن عصاه ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مكر الكفار الذين خلَوْا بأنبيائهم كما مكر كفار قريش بك ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: لله تعالى أسباب المكر جميعاً لا يضر مكرهم إلا بإِرادته، فهو يوصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: من خير وشر فيجازي عليه ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: لمن تكون العاقبة الحسنة في الآخرة ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: يقول كفار مكة: لستَ يا محمد مرسلاً من عند الله ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: حسبي شهادة الله بصدقي بما أيدني من المعجزات ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أي: وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب.

البلاغة: في الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - التشبيه في قوله: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ وفي ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ويسمى مرسلاً مجملاً.

---

(١) الطبري ١٣/١٦٥.

(٢) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال: إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران.

(٣) الطبري ١٣/١٦٧.

(٤) قال سيد قطب: إن يد الله القوية تأتي الأمم الفتية حين تبطر وتكفر وتفسد فتنقص من قوتها وقدرها وثرائها وتحصرها في رقعة ضيقة من الأرض بعد أن كانت ذات امتداد وسلطان. أقول: هذا التفسير جديد وفيه إشراقة من إشراقات تفسيره، ولمحة من لمحات إيمانه.

٢- الإيجاز بالحذف في ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: وظلها دائم فحذف منه الخبر لدلالة السابق.

٣- المقابلة في ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٤- جناس الاشتقاق في ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾.

٥- الطباق في ﴿يَمْحُو ... وَيُثْبِتُ﴾.

٦- القصر في ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وفي ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وكلاهما قصر إضافي من باب قصر الموصوف على الصفة، أي: ليس لك من الصفات إلا صفة التبليغ.

٧- التهييج والإلهاب ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

٨- المجاز المرسل في ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي: يأتيها أمرنا وعذابنا.

لطيفة: فسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أن نقصها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير والصلاح، وهذا مرويٌّ عن مجاهد وابن عباس في رواية عنه وأنشد بعضهم:

الأرضُ تحيا إذا ما عاشَ عالمُها ... متى يمتْ عالمٌ منها يمتْ طَرَفُ
كالأرض تحيا إذا ما الغيثُ حلَّ بها ... وإن أبى عاد في أكنافها التلفُ[1]

«تمّ بعونه تعالى تفسير سورة الرعد»

---

(١) مختصر ابن كثير (٢/ ٢٨٧).

من أجساد أهل النار ﴿يتجرعه﴾ أي يتحساه ويتكلف بلعه بمرارة ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ يبتلعه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ .

التفسير: ﴿الر﴾ هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف المقطعة فأتوا بمثله إن استطعتم ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي هذا القرآن كتاب أنزلناه عليك يا محمد، لم تنشئه أنت وإنما أوحيناه نحن إليك ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي لتخرج البشرية من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان ﴿بإذن ربهم﴾ أي بأمره وتوفيقه ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي لتهديهم إلى طريق الله العزيز الذي لا يُغالب، المحمود بكل لسان، الممجد في كل مكان ﴿الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي المالك لما في السماوات والأرض، الغني عن الناس، المسيطر على الكون وما فيه ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ قال الزجاج:

﴿وويلٌ﴾ كلمة تقال للعذاب والهلكة(١) أي هلاك ودمار للكافرين وويلٌ لهم من عذاب الله الأليم، ثم وضّح صفات أولئك الكفار بقوله: ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أي يفضلون ويؤثرون الحياة الفانية على الحياة الآخرة الباقية ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي يصرفون الناس ويمنعونهم عن دين الإسلام ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي يطلبون أن تكون دين الله معوجة لتوافق أهواءهم ﴿أولئك في ضلال بعيد﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلال عن الحق مبين، لا يُرجى لهم صلاح ولا نجاح ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ أي وما أرسلنا في الأمم الخالية رسولاً من الرسل إلا بلغة قومه ﴿ليبين لهم﴾ أي ليبين لهم شريعة الله ويفهمهم مراده، لتتم الغاية من الرسالة ﴿فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي وليست وظيفة الرسل إلا التبليغ وأما أمر الهداية والإضلال فذلك بيد الله يضلُّ من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته على ما سبق به قضاؤه المحكم ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أنْ تفسيرية بمعنى أي، والمعنى أي أخرج بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد. قال أبو حيان: وفي قوله: ﴿قومك﴾ خصوصٌ لرسالة موسى إلى قومه بخلاف قوله لمحمد: ﴿لتخرج الناس﴾ مما يدل على عموم الرسالة(٢) ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أي ذكّرهم بأياديه ونعمه عليهم ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي في التذكير بأيام الله لعبراً ودلالات لكل عبد منيب صابر على البلاء، شاكر للنعماء ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿إذ أنجاكم من آل فرعون﴾ أي حين نجاكم من الذل والاستعباد من فرعون وزبانيته ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب ﴿ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث على قيد الحياة مع الذل والصغار ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي وفي تلك المحنة ابتلاء واختبار لكم من ربكم عظيم. قال المفسرون: وكان سبب قتل الذكور أن الكهنة قالوا لفرعون: إنّ مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل كل مولود ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ هذا من تتمة كلام موسى أي واذكروا أيضاً حين أعلم ربكم إعلاماً لا شبهة فيه: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ أي ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي شديد، وعد بالعذاب على الكفر، كما وعد بالزيادة على الشكر ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ أي وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن أيس من إيمانهم: إن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروا الله شيئاً ﴿فإن الله لغني حميد﴾ أي هو غنيٌّ عن شكر

---

(١) القرطبي (٩/٣٣٩). (٢) البحر (٥/٤٠٤).

عبادة، مستحق للحمد في ذاته، وهو المحمود وإن كفره من كفره ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي ألم يأتكم أخبار من قبلكم من الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ماذا حلّ بهم لما كذبوا بآيات الله؟ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي والأمم الذين جاءوا بعدهم ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج الواضحات، والدلائل الباهرات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيبًا لهم، وقال ابن مسعود: عضوا أصابعهم غيظًا[1] ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي في شك عظيم من دعوتكم، وقلق واضطراب من دينكم ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم: أفي وجود الله ووحدانيته شك؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ لأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة، ولهذا لفتوا الأنظار إلى براهين وجوده بقولهم: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم ذنوبكم ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إن آمنتم أمدَّ في أعماركم إلى منتهى آجالكم ولم يعاقبكم في العاجل فيهلككم ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي ما أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل لكم علينا ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي تريدون أن تصرفونا عن عبادة الأوثان التي كان عليها آباؤنا ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي فأتونا بحجة ظاهرة على صدقكم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي قالت الرسل: نحن كما قلتم بشر مثلكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي يتفضل على من يشاء بالنبوة والرسالة. قال الزمخشري: لم يذكروا فضلهم تواضعًا منهم واقتصروا على قولهم إنهم بشر مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم[2] ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وما ينبغي لنا أن نأتيكم بحجة وآية مما اقترحتموه علينا إلا بمشيئة الله وإذنه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي على الله وحده فليعتمد المؤمنون في جميع أمورهم ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي قالت الرسل: أيُّ شيء يمنعنا من التوكل على الله؟ ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي والحال أنه قد بصّرنا طريق النجاة من عذابه ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي ولنصبرنَّ على أذاكم. قال ابن الجوزي: وإنما قُصَّ هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقتدي بمن قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهم[3]. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ليس هذا تكرارًا وإنما معناه الثبات على التوكل أي فليدوموا وليثبتوا على التوكل عليه وحده، وهنا يسفر الطغيان عن وجهه متبجحًا بالقوة المادية التي يملكها المتجبرون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

---

(١) معنى القول الثاني على المجاز ومثله ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ والقول الأول محمول على الحقيقة وتوضيحه: أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه.

(٢) الكشاف (٢/ ٥٤٤). (٣) زاد المسير (٤/ ٣٥٠).

كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ أي قال الكفار للرسل الأطهار: والله لنطردنكم من ديارنا أو ترجعنَّ إلى ديننا ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ أي أوحى الله إلى الرسل لأهلكنَّ أعداءك الكافرين المتجبرين ﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ أي ولأمكننكم سكنى أرضهم بعد هلاكهم ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ أي ذلك النصر للرسل وإهلاك الظالمين لمن خاف مقامه بين يدي وخاف عذابي ووعيدي. قال في البحر: ولما أقسموا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم أقسم تعالى على إهلاكهم، وأي إخراج أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً(١) ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾ أي واستنصر الرسل بالله على قومهم وخسر وهلك كل متجبر معاند للحق ﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم ويسقى فيها من ماء صديد هو ما يسيل من قيح ودم ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ أي يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته، ولا يكاد يبتلعه لقبحه وكراهته ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ أي يأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ولكنه لا يموت ليستكمل عذابه ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي ومن بين يديه عذاب أشد مما قبله وأغلظ.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الاستعارة في ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ حيث استعار الظلمات للكفر والضلال، والنور للهدى والإيمان، وكذلك ﴿ويأتيه الموت﴾ استعارة عن عوارض الكروب وشدائد الأمور، فقد وصف المعذب بأنه في غمرات الموت مبالغة في عظيم ما يعانيه وأليم ما يكابده.

٢- الطباق بين "يضل ويهدي" وبين "شكرتم وكفرتم" وبين "لنخرجن ولتعودن".

٣- صيغة المبالغة في ﴿صبار شكور﴾ وفي ﴿جبار عنيد﴾.

٤- جناس الاشتقاق في ﴿أرسلنا من رسول﴾ وفي ﴿فليتوكل المتوكلون﴾.

٥- السجع في "الشديد، بعيد، عنيد... الخ".

فائدة: ذكر تعالى في البقرة ﴿يذبحون﴾ بغير واو وهنا ﴿ويذبحون﴾ بالواو، والسر في ذلك أنه في سورة البقرة جاء اللفظ تفسيراً لما سبق من قوله ﴿سوء العذاب﴾ فكأنه قال: يسومونكم سوء العذاب، ثم فسره بقوله ﴿يذبحون أبناءكم﴾ أما في هذه السورة فهو غير تفسير، لأن المعنى أنهم يعذبونهم بأنواع من العذاب وبالتذبيح أيضاً فهو نوع آخر من العذاب غير الأول، والله أعلم.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد... إلى... إن الإنسان لظلوم كفار﴾ من آية (١٨) إلى نهاية آية (٣٤).

(١) البحر ٥/٤١١.

المناسبة: لما حكى تعالى استهزاء الكفار بالرسل، وما أعدّ لهم من العذاب والنكال في الآخرة، ضرب مثلاً لأعمالهم، ثم ذكر المناظرة بين الرؤساء والأتباع، وعقّبها بالتذكير بنعم الله على العباد ليعبدوه ويشكروه.

اللغة: ﴿عَاصِفٍ﴾ شديد الريح ﴿وَبَرَزُوا﴾ البروز: الظهور بعد الخفاء، والبَراز: المكان الواسع لظهوره، وامرأة بَرْزة أي تظهر للناس ﴿مَحِيصٍ﴾ منجى ومهرب، يقال: حاص عن كذا أي فرّ وزاغ يهرب منه ﴿أَجَزِعْنَا﴾ الجزع: عدم احتمال الشدة وهو نقيض الصبر ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ مغيثكم والصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث قال أمية:

فلا تجزعوا إني لكم غيرُ مُصرخٍ ... وليس لكم عندي غناءٌ ولا نصرُ[1]

﴿اجْتُثَّتْ﴾ اقتلعت من أصلها ﴿الْبَوَارِ﴾ الهلاك ﴿خِلَالٌ﴾ جمع خُلّة وهي الصحبة والصداقة قال امرؤ القيس:

صرفتُ الهوى عنهنّ من خشية الردى ... فلستُ بمَقْلِيّ الخِلال ولا قالي[2]

﴿دَائِبَيْنِ﴾ الدؤوب في اللغة: مرور الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب دؤوباً.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ۝ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۝ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۝ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا

(١) القرطبي ٩/٣٥٦ (٢) البحر ٥/٤٢٧

إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

التفسير: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ أي مثل أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر من صدقةٍ وصلة رحم وغيرها مثل رمادٍ عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي في يوم شديد هبوب الريح، قال القرطبي: ضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى(١) ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي لا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البرّ في الدنيا لإحباطه بالكفر، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيرته الريح ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي الخسران الكبير ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي ألم تر أيها المخاطب بعين قلبك وتتأمل ببصيرتك أنّ الله العظيم الجليل انفرد بالخلق والإيجاد، وأنه خلق السماوات والأرض ليستدلّ بهما على قدرته؟ قال المفسرون: أي لم يخلقهن عبثاً وإنما خلقهن لأمرٍ عظيم ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هو قادر على الإفناء كما قادر على الإيجاد والإحياء، قال ابن عباس: يريد يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع(٢) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ليس ذلك بصعب أو متعذرٍ على الله، فإنّ الخلق القادر لا يصعبُ عليه شيء ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي خرجوا من قبورهم يوم البعث، وظهروا للحساب لا يسترهم عن الله ساتر. قال الإمام الفخر: وإنما ذكره بلفظ الماضي ﴿وَبَرَزُوا﴾ وإن كان معناه الاستقبال، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صادقٌ وحقٌّ، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود، ونظيره ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾(٣) ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي قال الأتباع والعوام للسادة الكبراء والقادة الذين أضلوهم في الدنيا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي كنا أتباعاً لكم نأتمر بأمركم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي فهل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ أي قال القادة معتذرين: لو هدانا الله للإيمان لهديناكم إليه، ولكن ضللنا فأضللناكم فلا ينفعنا العتاب ولا الجزع ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ أي يستوي علينا الجزع والصبر. قال الطبري: إن أهل النار يجتمعون فيقول بعضهم لبعض: إنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله، فبكوا فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا نصبر فصبروا صبراً لم يُرَ مثله، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾(٤) وقال مقاتل: جزعوا خمسمائة عام، وصبروا خمسمائة عام(٥) ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي ليس لنا من مهربٍ أو ملجأ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ هذه هي الخطبة البتراء

(١) القرطبي ٩/٣٥٤.
(٢) زاد المسير ٤/٣٥٥.
(٣) الفخر الرازي ١٩/١٠٧.
(٤) الطبري ١٣/٢٠٠.
(٥) زاد المسير ٤/٣٥٦.

التي يخطب بها إبليس في محفل الأشقياء في جهنم، أي لما فرغ من الحساب ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي وعدكم وعداً حقاً بإثابة المطيع وعقاب العاصي فوفّى لكم وعده ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي وعدتكم ألا بعث ولا ثواب ولا عقاب فكذبتكم وأخلفتكم الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي لم تكن لي قدرة وتسلط وقهر عليكم فأقهركم على الكفر والمعاصي ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بالوسوسة والتزيين فاستجبتم لي باختياركم ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ أي لا ترجعوا باللوم عليَّ ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي ما أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثيَّ من عذاب الله ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي كفرت بإشراككم لي مع الله في الطاعة ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي إن الكافرين لهم عذاب مؤلم. قال المفسرون: هذه الخطبة إنما تكون إذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فيأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم فيما بينهم خطيباً بما أخبر عنه القرآن(١). وقال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً(٢) ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لما ذكر تعالى أحوال الأشقياء، ذكر بعده أحوال السعداء، ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة، وبين الخوف والرجاء أي أدخلهم الله تعالى جنات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً بأمره تعالى وتوفيقه وهدايته ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي تحييهم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لكلمة الإيمان وكلمة الإشراك، فمثّل لكلمة الإيمان بالشجرة الطيبة، ولكلمة الإشراك بالشجرة الخبيثة. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» والشجرة الطيبة المؤمن(٣) ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي أصلها راسخ في الأرض وأغصانها ممتدة نحو السماء ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي تعطي ثمرها كل وقت بتيسير الخالق وتكوينه، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعمله يصعد إلى السماء، ويناله بركته وثوابه في كل وقت ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يبيّن لهم الأمثال لعلهم يتعظون فيؤمنون ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي ومثل كلمة الكفر الخبيثة كشجرة الحنظل الخبيثة ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ أي استؤصلت من جذورها واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي ليس لها استقرار وثبات، كذلك كلمة الكفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة. قال ابن الجوزي: شُبّه بها المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين، فالمؤمن كلما قال: «لا إله إلا الله» صعدت إلى السماء ثم جاء خيرها ومنفعتها، والكافر

---

(١) الفخر الرازي ([illegible]).
(٢) القرطبي (٩/٣٥٦).
(٣) مختصر ابن كثير (٢/٢٩٥).

مسرعين، يقال: أهطع إهطاعاً: إذا أسرع قال الشاعر:

بدجلة دارهم ولقد أراهم ... بدجلة مهطعين إلى السماع[1]

﴿مُقْنِعِي﴾ المقنع: الرافع رأسه المقبل ببصره على ما بين يديه ﴿هَوَاءٌ﴾ خالية ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مشدودين ﴿الْأَصْفَادِ﴾ الأغلال والقيود، واحدها صفد ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ جمع سربال وهو القميص والثوب ﴿تَغْشَى﴾ تجلل وتغطي.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۝ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ۝ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ۝ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ۝ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ۝ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أي اجعل مكة بلد أمن يأمن أهله وساكنوه ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي احمني يا رب وجنبني وأولادي عبادة الأصنام، والغرض تثبيته على ملة التوحيد والإسلام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي يا رب إنَّ هذه الأصنام أضلت كثيرًا من الخلق عن الهداية والإيمان ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي فمن أطاعني وتبعني على التوحيد فإنه من أهل ديني ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ومن خالف أمري فإنك يا رب غفار الذنوب رحيمٌ بالعبد ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ كرر النداء رغبةً في الإجابة وإظهارًا للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى، أي يا ربنا إني أسكنت من أهلي - ولدي إسماعيل وزوجي هاجر -[2] ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أي بوادٍ ليس فيه زرع في جوار بيتك

(١) القرطبي (٩/ ٣٧٦).

(٢) روي أن هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها سارة زوجة إبراهيم فأمره الله تعالى أن يحمل ولده إسماعيل مع

المحرَّم، وهو وادي مكة شرّفها الله تعالى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي يا ربّ لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادي فاجعل قلوب الناس تحنُّ وتسرع إليهم شوقاً. قال ابن عباس: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فهم المسلمون[1] ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي وارزقهم في ذلك الوادي القفر من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نعمك، وقد استجاب الله دعاءه فجعل مكة حرماً آمناً يجبى إليها ثمرات كل شيء رزقاً من عند الله ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي يا ربنا إنك العالم لما في القلوب تعلم ما نسرُّ وما نظهر ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء من الكائنات، سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء، فكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدها؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإسحاق. قال ابن عباس: وُلد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثني عشرة سنة[2]. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي مجيبٌ لدعاء من دعاه ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل عليه السلام، أي يا رب اجعلني ممن حافظ على الصلاة واجعل من ذريتي من يقيمها أيضاً، وهذه خير دعوة يدعو بها المؤمن لأولاده فلا أحسن له من أن يكون مقيماً للصلاة هو وذريته لأنها عماد الدين ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي تقبّل واستجب دعائي فيما دعوتك به ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ هذه هي الدعوة السابعة وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين، يوم يقوم الناس لرب العالمين. قال المفسرون: استغفر لوالديه قبل أن يتبيّن له أنّ أباه عدوٌّ لله. قال القشيري: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة، لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه[3]. ثم ينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأهوال حين تتزلزل القلوب والأقدام ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا تظنَّ يا محمد أنّ الله ساهٍ عن أفعال الظلمة، فإن سنة الله إمهال العصاة ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. قال ميمون بن مهران: هذا وعيدٌ للظالم، وتعزيةٌ للمظلوم[4]. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي إنما يؤخرهم ليوم رهيب عصيب، تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظلُّ مفتوحة مبهوتة لا تطرف ولا تتحرك. قال أبو السعود: تبقى أبصارهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه[5]. ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء، رافعي رؤوسهم مع إدامة

أنه من الشام إلى مكة ووضعهم عند دوحة هناك. انظر نص الحديث.

(1) القرطبي (9/373). (2) زاد المسير (4/368).
(3) القرطبي (9/376). (4) الطبري (13/236).
(5) أبو السعود (3/133).

لتفكر. قال الحسن: وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد[1] ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي لا يطرفون بعيونهم من الخوف والجزع ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي قلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ أي خوّف يا محمد الكفار من هول يوم القيامة حين يأتيهم العذاب الشديد ﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ أي فيتوجه الظالمون يومئذٍ إلى الله بالرجاء يقولون: يا ربنا أمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات ﴿نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾ أي نجب دعوتك إلى الإيمان ونتبع رسلك فيما جاءونا به ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي يقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى؟ والمراد إنكارهم للبعث والنشور ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناهم، فهلا اعتبرتم بمساكنهم؟! ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ أي تبين لكم بالإخبار والمشاهدة كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أي بيّنا لكم الأمثال في الدنيا فلم تعتبروا ﴿وقد مكروا مكرهم﴾ أي مكر المشركون بالرسول وبالمؤمنين حين أرادوا قتله ﴿وعند الله مكرهم﴾ أي وعند الله جزاء هذا المكر فإنه محيط بهم وبمكرهم ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ أي وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال، لكنّ الله عاصم وواقٍ منه ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ أي لا تظننَّ أيها المخاطب أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من النصر وإهلاك الظالمين المكذبين ﴿إن الله عزيز ذو انتقام﴾ أي إنه تعالى غالبٌ لا يعجزه شيء منتقم ممن عصاه ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ أي ينتقم من أعدائه يوم الجزاء، يوم تبدل هذه الأرض أرضاً أخرى، وتبدل السماوات سماوات أخرى. قال ابن مسعود: تُبدل الأرض بأرضٍ كالفضة نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة[2] ﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم، ومثلوا أمام أحكم الحاكمين، لا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واقٍ، ليسوا في دورهم ولا في قبورهم، وإنما هم في أرض المحشر أمام الواحد القهار ﴿وترى المجرمين يومئذٍ مقرنين في الأصفاد﴾ أي وترى في ذلك اليوم الرهيب المجرمين مشدودين مع شياطينهم بالقيود والأغلال. قال الطبري: أي مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغلال والسلاسل ﴿سرابيلهم من قطران﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهي مادة يسرع فيها اشتعال النار، تُطلى به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحره وحدته، وهو أسود اللون منتن الريح ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار جزاء الكفر والاستكبار ﴿ليجزي الله كل

---

(١) القرطبي ٩/٣٧٧.

(٢) الطبري (١٣/٢٥٠) وعن ابن عباس هي تلك الأرض وإنما تغير صفاتها فتسوى نجادها وتقطع الأشجار وتشق الأنهار، وتتناثر الكواكب، وأنشد:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت تعلم

لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي برزوا يوم القيامة لأحكم الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي لا يشغله شأن عن شأن، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان، في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا كما ورد به الأثر ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن بلاغٌ لجميع الخلق من إنس وجان، أنزل لتبليغهم بما فيه من فنون العبر والعظات ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لكي ينصحوا به ويخوّفوا من عقاب الله ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ولكي يتحققوا بما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة، على أنه تعالى واحد أحدٌ، فردٌ صمد ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة، وهم السعداء أهل النهى والصلاح.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي

١- التشبيه البليغ ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه أي قلوبهم كالهواء لفراغها من جميع الأشياء، فأصبح التشبيه بليغًا.

٢- الإيجاز بالحذف﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ حذف منه والسموات تبدل غير السموات لدلالة ما سبق.

٣- الطباق في ﴿يُخْفِى﴾ ... و ﴿نُعْلِنُ﴾ وفي ﴿غَنِىٌّ﴾ .. و﴿فَقِيرٌ﴾ وفي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ .. و ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤- جناس الاشتقاق في ﴿مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾.

٥- العدول عن المضارع إلى الماضي ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ بدل (ويبرزون) للدلالة على تحقق الوقوع مثل ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فكأنه حدث ووقع فأخبر عنه بصيغة الماضي

٦- الاستعارة في ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه من محاسن الاستعارة، وحقيقة الهوي النزول من علوّ إلى انخفاض كالهبوط والمراد تسرع إليهم شوقًا وتطير إليهم حبًا، ولو قال: تحنُّ إليهم لم يكن فيه من الفائدة ما في التعبير بـ ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، لأن الحنين قد يكون من المقيم بالمكان [١].

لطيفة: حكمة تعريف البلد هنا ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وتنكيره في البقرة ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أنه تكرر الدعاء من الخليل، ففي البقرة كان قبل بنائها فطلب من الله أن تجعل بلدًا، وأن تكون آمنًا، وهنا كان بعد بنائها فطلب من الله أن تكون آمنًا أي بلد أمن واستقرار [٢]. وهذا هو السرّ في التفريق بين الآيتين، اللهم ارزقنا فهم أسرار كتابك العظيم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم»

---

(١) تلخيص البيان (١٨٤).

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٢/ ٢٨٦).

بين يدي السورة

* سورة الحجر من السور المكية، التي تستهدف المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية «الوحدانية، النبوة، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد، ملفعاً بظلٍّ من التهويل والوعيد ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

* وعرضت السورة لدعوة الأنبياء، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام، فما من نبيٍّ إلا سخر منه قومه الضالون، من لدن نوح شيخ الأنبياء عليه السلام، إلى محمد خاتم المرسلين، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين في كل زمان وحين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الآيات.

* وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات، المبثوثة في صفحة هذا الكون العجيب، الذي ينطق بآثار قدرة الله المبدعة، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير، بدءاً بمشهد السماء، فمشهد الأرض، فمشهد الرياح اللواقح، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وكلها ناطقة بعظمة الله وجلاله، وشاهدة بوحدانيته وقدرته ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ الآيات.

* وعرضت السورة إلى قصة البشرية الكبرى «قصة الهدى والضلال» ممثلة في خلق آدم عليه السلام، والعداوة الأبدية لإبليس اللعين، وما جرى من سجود الملائكة لآدم، واستكبار إبليس عن السجود، وعتوه على أمر الله وتوعده لذرية آدم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ الآيات.

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء، تسلية لرسول الله عليه السلام، وتثبيتاً لقلبه الشريف لئلا يتسرب إليه اليأس والقنوط، فتذكر قصة لوط، وشعيب، وصالح عليهم السلام، وما حل بأقوامهم المكذبين.

* وتختم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه، بإنزال هذا الكتاب المجيد المعجز، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى المشركين، وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة الحجر» لأن الله تعالى ذكر فيها ما حدث لقوم صالح، وهم قبيلة ثمود، وديارهم في الحجر بين المدينة والشام، فقد كانوا أشداء ينحتون

الجبال ليسكنوها ، وكأنهم مخلدون في هذه الحياة ، لا يعتريهم موت ولا فناء ، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

اللغة : ﴿رُّبَمَا﴾ ربَّ للتقليل و ﴿ما﴾ نكرة موصوفة أي ربَّ شيء ﴿لَّوْ مَا﴾ للتحضيض كلو لا وهلاَّ ﴿شِيَعِ﴾ جمع شيعة وهي الفرقة والطائفة من الناس ﴿نَسْلُكُهُ﴾ ندخله ، والسَّلْك : إدخال الشيء في الشيء ﴿يَعْرُجُونَ﴾ عَرَج : صعد ، والمعارج المصاعد ﴿سُكِّرَتْ﴾ سُدَّت ومنعت ﴿بُرُوجًا﴾ البروج : منازل الكواكب السيارة ، وأصله الظهور ، ومنه تبرج المرأة ، هو إظهار زينتها ﴿لَوَاقِحَ﴾ جمع لاقح وهي الريح التي تحمل المطر ، والتي لا تأتي بخير تسمى الريح العقيم ، أو ملقحة للشجر أي تحمل اللقاح له ﴿صَلْصَالٍ﴾ طين يابس يسمع له صلصلة إذا يبس ﴿حَمَإٍ﴾ الحمأ : الطين الأسود ﴿مَّسْنُونٍ﴾ منتن متغير . قال الفراء : هو المتغير وأصله من سننت الحجر : إذا حككته به ﴿السَّمُومِ﴾ الريح الحارة القاتلة .

سَبَبُ النُّزُول : عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه فنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [1] .

﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا

(١) أسباب النزول (١٥٨) والقرطبي (١٠/١٩) .

إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

التفسير: ﴿الر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن أي هذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية الألف واللام والراء ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه آيات الكتاب الكامل في الفصاحة والبيان، المتعالي عن الطاقة البشرية ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ أي قرآن عظيم الشأن، واضح بيّن، لا خلل فيه ولا اضطراب ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ربما تمنى الكفار ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي لو كانوا في الدنيا مسلمين، وذلك عند معاينة أهوال الآخرة ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ أي دعهم يا محمد يأكلوا كما تأكل البهائم، ويستمتعوا بدنياهم الفانية ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي يشغلهم الأمل بطول الأجل عن التفكر فيما ينجيهم من عذاب الله ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة أمرهم إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهو وعيد وتهديد ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي إلا ولها أجل محدود لهلاكها ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أوانه ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي ولا يتأخر عنهم. قال ابن كثير: وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك(١) ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ قال كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم: يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي إنك حقاً لمجنون، أكدوا الخبر بإنّ واللام مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء بمقامه الشريف عليه السلام ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي هلّا جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله! قال تعالى رداً عليهم: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما ننزل الملائكة إلا بالعذاب لمن أردنا هلاكه ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي وما كانوا عند إنزالهم بمؤخرين لا إمهال ولا تأجيل، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال، وهو لا يريد ذلك مع قومك لعلمه تعالى أنه يخرج من أصلابهم من يعبد الله، فقد ردّ عليهم فيما اقترحوا ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي ونحن الحافظون لهذا القرآن، نصونه عن الزيادة والنقصان والتبديل والتغيير. قال المفسرون: تكفل الله بحفظ هذا القرآن، فلم يقدر أحد على

(١) المختصر ٢/٣٠٨.

من العيال والمماليك والأنعام من لستم له برازقين؛ لأننا نحن نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه، وعلى حسب المصالح، كما نشاء ونريد ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أي تلقّح السحاب فيدر ماءً، وتلقح الشجر فيتفتّح عن أوراقه وأكمامه، فالريح كالفحل للسحاب والشجر ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي فأنزلنا من السحاب ماءً عذبًا، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي لستم بقادرين على خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار، ولو شئنا لجعلناه غورًا في الأرض فهلكتم عطشًا كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ ؟ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي الحياة والموت بيدنا ونحن الباقون بعد فناء الخلق، نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ أي أحطنا علمًا بالخلق أجمعين، الأموات منهم والأحياء. قال ابن عباس: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة[١]. وقال مجاهد: المستقدمون: الأمم السابقة، والمستأخرون أمة محمد ﷺ، والغرضُ أنه تعالى محيطٌ علمه بمن تقدم وبمن تأخر، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو يجمعهم للحساب والجزاء ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه، ولما ذكر تعالى الموت والفناء، والبعث والجزاء، نبّههم إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفس واحدة، ليشير إلى أن القادر على الإحياء قادر على الإفناء والإعادة، وذكّرهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم ليحذروه فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ أي خلقنا آدم من طين يابس يسمع له صلصلة أي صوت إذا نُقر ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي من طين أسود متغيّر ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ أي ومن قبل آدم خلقنا الجانّ - أي الشياطين ورئيسهم إبليس - من نار السموم، وهي النار الحارة الشديدة التي تنفذ في المسام فتقتل بحرّها. قال المفسرون: عني بالجانّ هنا «إبليس» أبا الجنّ؛ لأن ما تناسل منه فهو أصل لها كما أن آدم أصل للإنس ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين يابس، أسود متغيّر. قال ابن كثير: فيه تنويهٌ بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسدًا وكفرًا[٢]. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي سويت خلقه وصورته، وجعلته إنسانًا كاملاً معتدل الأعضاء

---

(١) هذا اختيار الطبري، وقد فسرت الآية بمعان وتأويلات ذكرها في البحر ثم قال: الأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر. البحر ٥/٤٥٦.

(٢) المختصر ٢/٣١١.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أي أفضت عليه من الروح التي هي خلقٌ من خلقي فصار بشراً حياً ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي خروا له ساجدين، سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة. قال المفسرون: وإِنما أضاف الروح إِليه تعالى على سبيل التشريف والتكريم كقولهم: بيت الله، ناقة الله، شهر الله، وهي من إِضافة المخلوق إِلى الخالق، والصنعة إِلى الصانع ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي سجد لآدم جميع الملائكة لم يمتنع منهم أحد ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ الاستثناء منقطع؛ لأن إِبليس خلقٌ آخر غير الملائكة[1]، فهو من نار وهم من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى؛ فليس هو من الملائكة بيقين، ولكنه كان بين صفوفهم فتوجه إِليه الخطاب، والمعنى: سجد جميع الملائكة لكنَّ إِبليس امتنع من السجود بعد أن صدر له الأمر الإِلهي ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي ما المانع لك من السجود؟ وأيُّ داعٍ دعاك إِلى الإِباء والامتناع؟ وهو استفهام تبكيت وتوبيخ ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي قال إِبليس: لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طين يابس متغير، فهو من طين وأنا من نار فكيف يسجد العظيم للحقير، والفاضل للمفضول؟ ورأى عدوُّ الله نفسه أكبر من أن يسجد لآدم، فمنعه كبره وحسده عن امتثال أمر الله ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي اخرج من السموات فإِنك مطرودٌ من رحمتي ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي وإِن عليك نقمتي إِلى يوم الجزاء والعقوبة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي قال اللعين: أمهلني وأخرني إِلى يوم البعث ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي قال له الله: إِنك من المؤخَّرين إِلى حين موت الخلائق. قال القرطبي: أراد بسؤاله الإِنظار -إِلى يوم يبعثون- ألا يموت؛ لأن البعث لا موت بعده، فأجابه المولى بالإِنظار إِلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم موت الخلائق، فيموت إِبليس ثم يُبعث[2]. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بسبب إِغوائك وإِضلالك لي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لأزينن لذرية آدم المعاصي والآثام ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولأضلنهم عن طريق الهدى أجمعين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي إِلا من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك فلا قدرة لي على إِغوائه ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي قال تعالى: هذا طريق مستقيم وصحيح، وسنة أزلية لا تتخلف وهي ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي إِن عبادي المؤمنين لا قدرة لك على إِضلالهم ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع؛ لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين، والمعنى لكنَّ من غوى وضل من الكافرين فلك عليهم تسلط؛ لأن الشيطان إِنما يتسلط على الشاردين عن الله، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي موعد إِبليس وأتباعه جميعاً ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي لجهنم

---

(١) تقدم ذلك في سورة البقرة والأعراف، وتقدم قول الحسن البصري: والله ما كان إِبليس من الملائكة طرفة عين، وانظر كتابنا النبوة والأنبياء ص (١٢٨) طبعة [illegible].
(٢) القرطبي ١٠/٢٧.

سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم. وروي عن علي أنها أطباق، طبق فوق طبق، وأنها مركانت بعضها أشد من بعض ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي لكل جماعة من أتباع إبليس بابٌ معينٌ معلوم، قال ابن كثير: كلٌّ يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرْكٍ بقدر عمله[1].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - المجاز المرسل في ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ فالمراد أهلها، وهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحالّ.

٢ - الاستعارة التمثيلية في ﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُ﴾ فهو تمثيل لكمال قدرته، شبّه قدرته على كل شيء بالخزائن الموضوعة فيها الأشياء، وإخراج كل شيء بحسب ما اقتضته حكمته على طريق الاستعارة.

٣ - الطباق بين ﴿نُحْيِي﴾ ... ﴿وَنُمِيتُ﴾ وبين ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ .. و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿خَزَآئِنُهُ﴾ .. و﴿بِخَـٰزِنِينَ﴾

٥ - السجع الذي له وقع على السمع مثل «المجرمين، الأولين، المنظرين» ... إلخ.

لطيفة: ذكر أن رجلاً أراد أن يمتحن الأديان أيها أصح وأحسن؟ فعمد إلى التوراة والإِنجيل والقرآن - وكان خطاطاً - فنسخ من كل كتاب نسخة بخط جميل وزاد فيها ونقص، ثم عرض التوراة على علماء اليهود فقبلوها وتصفحوها وأكرموه بالمال، ثم عرض الإِنجيل الذي نسخه بيده على القسس فاشتروه بثمن كبير وأكرموه، ثم عرض نسخة القرآن على شيوخ المسلمين فنظروا فيه فلما رأوا فيه بعض الزيادة والنقص أمسكوا به فضربوه ثم رفعوا أمره إلى السلطان تحكم بقتله، فلما أراد قتله أشهر إسلامه وأخبرهم بقصته وأنه امتحن الأديان فعرف أن الإِسلام دين حق[2].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ .. إلى .. وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٩٩)

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم، ثم ذكر قصص بعض الرسل مع أقوامهم «لوط، وشعيب، وصالح»؛ تسلية لرسول الله ﷺ ليتأسى بهم في الصبر، ثم ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وختم السورة ببشارته عليه السلام بإهلاك أعدائه المستهزئين.

اللغَة: ﴿نَصَبٌ﴾ تعب وإعياء ﴿وَجِلُونَ﴾ خائفون فزعون ﴿ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب ﴿ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ القنوط: كمال اليأس ﴿تَفْضَحُونِ﴾ الفضيحة: أن يُظهر من أمره ما يلزمه به العار،

---

(١) المختصر (٢/ ٣١٤). (٢) انظر تفسير القرطبي (١٠/ ٦)

يقال: فضحه الصبح: إذا أظهره للناس قال الشاعر:

ولاح ضوءُ هلالٍ كاد يفضحنا ... مثل القلامة قد قُدَّت من الظُّفُر[1]

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسم بحياة محمد ﷺ أي وحياتك ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ السكرة: الغواية والضلالة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيرًا أو يعمون عن الرشد، والعمه للقلب مثل العمى للبصر ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ التوسُّم من الوسم وهي العلامة التي يستدل بها على المطلوب، يقال: توسَّمت فيه الخير إذا رأى فيه أثرًا منه، قال ابن رواحة في رسول الله ﷺ:

إني توسَّمتُ فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أني ثابت البصر[2]

وأصله التثبتُ والتفكر مثل التفرس، وفي الحديث "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"[3] ﴿الْأَيْكَةِ﴾ الشجرة الملتفَّة وجمعها أيك ﴿الْحِجْرِ﴾ اسم وادٍ كانت تسكنه ثمود ﴿عِضِينَ﴾ أجزاء متفرقة من التعضية وهي التجزئة والتفريق ﴿الْيَقِينُ﴾ الموت؛ لأنه أمر متيقن.

سبب النزول: روي أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال: أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار؟ فشق ذلك عليهم فنزلت ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[4]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ۝ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۝ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ۝ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۝ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ۝ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ۝ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا

(1) البحر (٥/ ٤٥٦).
(2) القرطبي (١٠/ ٤٣).
(3) رواه الترمذي.
(4) القرطبي (١٠/ ٣٤).

بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ ۝ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُلْ إِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ ۝ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّاجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾

التفسير: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر والعسل ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ آمِنِينَ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي حال كونهم إخوة متحابين لا يكدر صفوهم شيء، على سرر متقابلين وجهاً لوجه. قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض زيادة في الأنس والإكرام، وقال ابن عباس: على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد[1] ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي لا يخرجون منها ولا يُطردون، نعيمهم خالد، وبقاؤهم دائم، لأنها دار الصفاء والسرور ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي أخبر يا محمد عبادي المؤمنين بأني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أي وأخبرهم أنَّ عذابي شديد لمن أصرَّ على المعاصي والذنوب. قال أبو حيان: وجاء قوله ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة (وأني المعذب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة[2] ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي وأخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وكانوا عشرة على صورة غلمان حسان معهم جبريل ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فسلموا عليه ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي قال إبراهيم إنا خائفون منكم، وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي قالت الملائكة لا تخف فإنا نبشرك بغلام واسع العلم، عظيم الذكاء، هو إسحاق ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي قال إبراهيم أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم، فبأي شيء تبشروني؟ قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد ﴿قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ أي بشرناك باليقين الثابت فلا تستبعده ولا تيأس من رحمة الله ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط من رحمة الله إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب، الجاهلون برب الأرباب، أما القلب العامر بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط. قال البيضاوي: وكأن تعجب

---

(١) زاد المسير (٤/٤٠١). (٢) البحر (٥/٤٥٧).

٢ - المقابلة اللطيفة في ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ مع الآية بعدها ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ فقد قابل بين العذاب والمغفرة، وبين الرحمة الواسعة والعذاب الأليم، وهذا من المحسنات البديعية.

٣ - الكناية في ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ كنى به عن عذاب الاستئصال.

٤ - المجاز في ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مجازاً وهو لله وحده، وذلك لما لهم من القرب والاختصاص؛ لأنهم رسل الله أرسلوا بأمره تعالى.

٥ - الجناس الناقص في ﴿الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ﴾.

٦ - صيغة المبالغة في ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وفي ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

٧ - الطباق في ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾

٨ - السجع بلا تكلف في مواطن عديدة مثل آمنين، مصبحين، معرضين.

٩ - عطف العام على الخاص في ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

١٠ - الاستعارة التبعية في ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث شبه إلانة الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقة في كلٍ؛ واستعير اسم المشبه به للمشبه. وهذا من بليغ الاستعارات، لأن الطائر إذا كف عن الطيران خفض جناحيه.

تنبيه: الجمع بين هذه الآية ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وبين قوله ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أن القيامة مواطن، فموطنٌ يكون فيه سؤال وكلام، وموطنٌ لا يكون ذلك فيه، هذا قول عكرمة. وقال ابن عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام، هل عملتم كذا وكذا، لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم: لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه[1]؟.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر»

---

(١) القرطبي ١٠ / ٦١.

بين يدي السورة

* سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى «الألوهية ، والوحي ، والبعث والنشور» وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح في السموات والأرض ، والبحار والجبال ، والسهول والوديان ، والماء الهاطل ، والنبات النامي ، والفلك التي تجري في البحر ، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل ، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته ، ويدركها بسمعه وبصره ، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة ، دالةٌ على وحدانية الله جلَّ وعلا ، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم ، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة ، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوفهم به ، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالاً وزادوا استهزاءً واستهتارًا .

* ولقد ساقت السورة الكريمة إلى تقرير مبدأ الوحدانية لله جلَّ وعلا بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار ، فخاطبت كل حاسةٍ في الإنسان ، وكل جارحةٍ في كيانه البشري ؛ ليتجه بقلبه إلى ربه ، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله على عظمة الله سبحانه .

* ثم تتابعت السورة الكريمة تذكِّر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله ، وعدم القيام بشكرها ، وتحذرهم تلك العاقبة الوخيمة التي تؤول إليها مصيرُ كل معاندٍ وجاحد .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والعفو عمَّا يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله .

التسمية : سميت هذه السورة الكريمة «سورة النحل» لاشتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدلُّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب .

اللُّغَة : ﴿نُّطْفَةٍ﴾ النطفة الماء المهين الذي يتكون منه الإنسان ، من نطف ، إذا قطر ﴿دِفْءٌ﴾ الدفء : ما يستدفئ به الإنسان من البرد ﴿تُرِيحُونَ﴾ الرَّواح : رجوع المواشي بالعشي من المرعى ﴿تَسْرَحُونَ﴾ السَّراح : الخروج بها صباحًا إلى المرعى ﴿أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقال : الأمتعة جمع ثقل ، سميت أثقالاً ؛ لأنها ثقيلة الحمل ﴿جَآئِرٌ﴾ مائل عن الحق ﴿تُسِيمُونَ﴾ أسام الماشية تركها ترعى ، وسامت هي : إذا رعت حيث شاءت فهي سائمة ﴿ذَرَأَ﴾ خلق وأبدع ﴿مَوَاخِرَ﴾ أصل المخر شقُّ الماء عن يمين وشمال ، يقال : مخرت السفينةُ : إذا جرت تشق الماء مع صوت ﴿تَمِيدَ﴾ تضطرب .

سَبَبُ النُّزُول : قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قال الكفار بعضهم لبعض : إنَّ محمدًا يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ، فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئًا مما تخوفنا به فأنزل الله تعالى ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾

تستعجلوه﴾ الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۞ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۞ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۞ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۞ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۞ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۞ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

التفسير: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ أي قرب قيام الساعة فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد، وإِنما أتى بصيغة الماضي لتحقق وقوع الأمر وقربه. قال الرازي: لما كان واجب الوقوع لا محالة عبّر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث: جاءك الغوث فلا تجزع(٢) ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزّه الله عما يصفه به الظالمون، وتقدّس عن إِشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان ﴿ينزّل الملائكة بالروح من أمره﴾ أي ينزّل الملائكة بالوحي والنبوة

(١) زاد المسير (٤/٤٢٩). (٢) الرازي (١٩/٢١٨).

عليهم من الأنعام، شرع في ذكر سائر النعم العظام وآياته المثبتة في الكائنات فقال ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل المطر بقدرته القاهرة من السحاب ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي أنزله عذبًا فراتًا لتشربوه فتسكن حرارة العطش ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرًا ترعون فيه أنعامكم ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ومن كل الفواكه والثمار يخرج لكم أطايب الطعام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إنزال الماء وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يتدبرون في صنعه فيؤمنون. قال أبو حيان: ختم الآية بقوله ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل، واستعمال فكر، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وُضعت في الأرض ومرّ عليها زمن معيّن لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيُشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق، ثم ينمو الأصل ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع وذلك بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى[1] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذلل الليل والنهار يتعاقبان لمنامكم ومعاشكم، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي والنجوم تجري في فلكها بأمره تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في ذلك التسخير لدلائل باهرة عظيمة، لأصحاب العقول السليمة ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من الأمور العجيبة، من الحيوانات والنباتات، والمعادن والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وخواصها ومنافعها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعبرة لقوم يتعظون ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ أي وهو تعالى - بقدرته ورحمته - ذلّل لكم البحر المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي لتأكلوا من البحر السمك الطري الذي تصطادونه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي وتستخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي وترى السفن العظيمة تشق عُباب البحر جاريةً فيه تحمل الأمتعة والأقوات ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي سخر لكم البحر لتنتفعوا بما ذكر وتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معايشكم بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إحسانه ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي نصب فيها جبالاً ثوابت راسيات؛ لئلا تضطرب بكم وتميل. قال أبو السعود: إن الأرض كانت كرة خفيفة قبل أن تُخلق فيها الجبال، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب، فلما خُلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد لها[2] ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ

---

(1) البحر (٥/٤٧٩).
(2) أبو السعود (٣/١٦٧).

تهتدون﴾ أي وجعل فيها أنهاراً وطرقاً ومسالك لكي تهتدوا إلى مقاصدكم ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ أي وعلامات يستدلون بها على الطرق كالجبال والأنهار، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار. قال ابن عباس: العلامات: معالم الطرق بالنهار وبالنجوم هم يهتدون بالليل[1] ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ الاستفهام إنكاري أي أتسوّون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعم الجليلة، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل؟ وهو تبكيت للكفرة وإبطال لعبادتهم الأصنام ﴿أفلا تذكرون﴾ أي أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله؟ وهو توبيخ آخر ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ أي إن تعدوا نعم الله الفائضة عليكم لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن تطيقوا شكرها ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير، رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ أي يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من السرائر والأعمال وسيجازيكم عليه ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله كالأوثان والأصنام لا يقدرون على خلق شيء أصلاً، والحال أنهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله؟ ﴿أموات غير أحياء﴾ أي وتلك الأصنام أموات لا أرواح فيها، لا تسمع ولا تبصر، لأنها جمادات لا حياة فيها، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها لما فيكم من الحياة؟ ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي ما تشعر هذه الأصنام متى يبعث عابدوها، وفيه تهكم بالمشركين، لأنهم عبدوا جماداً لا يحس ولا يشعر ﴿إلهكم إله واحد﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إله واحد لا شريك له ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ أي فالذين لا يصدقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿وهم مستكبرون﴾ أي منكرون متعظمون عن قبول الحق بعدما سطعت دلائله ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي حقاً إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم يعلم ما يخفون وما يظهرون ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ أي المتكبرين عن التوحيد والإيمان ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾ أي وإذا سئل هؤلاء الجاحدون أي شيء أنزل ربكم على رسوله ﷺ؟ ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء: ما أنزله ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ليس بكلام رب العالمين. قال المفسرون: كان المشركون يجلسون على مداخل مكة ينفّرون عن رسول الله ﷺ فإذا سألهم وفود الحجاج ماذا أنزل على محمد؟ قالوا أباطيل وأحاديث الأولين[2] ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾ أي قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملة من غير أن يكفّر منها شيء ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ أي وليحملوا ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليل أو برهان، فقد كانوا رؤساء يُقتدى بهم في الضلالة ولذلك حملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم ﴿ألا ساء ما يزرون﴾ ألا للتنبيه أي تنبهوا أيها القوم بئس العمل الذي عملتموه

(١) زاد المسير ٤/٤٣٦. (٢) البحر ٥/٤٨٤.

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .

التفسير: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي قيل للفريق الثاني وهم أهل التقوى والإِيمان: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أي ماذا أنزل ربكم على رسوله؟ قالوا: أنزل خيرًا. قال المفسرون: هذا كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون: إنه ساحر وكاهن وكذاب، فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد وعمّا أنزل الله عليه فيقولون: أنزل الله عليه الخير والهدى والقرآن[١]، ثم قال تعالى بيانًا لجزائهم الكريم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي لهؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإِحسانهم ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا لفنائها وبقاء الآخرة ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ولنعم دار المتقين دار الآخرة وهي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات إِقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخلون تلك الجنات التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي لهم في تلك الجنات ما يشتهون بدون كدٍّ ولا تعب، ولا انقطاع ولا نصب ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين لمحارمه، المتمسكين بأوامره ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي هم الذين تقبض الملائكة أرواحهم حال كونهم أبرارًا قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي، طيبةً نفوسهم بلقاء الله ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ أي تسلّم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة. قال ابن عباس: الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله، ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين[٢]. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هنيئًا لكم الجنة بما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عاد الكلام إِلى تقريع المشركين وتوبيخهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا، والمعنى: ما ينتظر هؤلاء إِلا أحد أمرين: إِما نزول الموت بهم، أو حلول العذاب العاجل، أوليس في مصير المكذبين قبلهم عبرةٌ وعظة؟ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي كذلك صنع من قبلهم من الأمم المجرمين حتى حلّ بهم العذاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي وما ظلمهم الله بتعذيبهم وإِهلاكهم ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي أصابهم عقوبات كفرهم وجزاء أعمالهم الخبيثة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي أحاط ونزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب الأليم في دركات الجحيم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي قال أهل الكفر والإِشراك وهم كفار قريش: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا

(١) الرازي ٢٠/ ٢٣ . (٢) الطبري ١٤/ ١٠١ .

اللغَة: ﴿وَاصِبًا﴾ دائماً ولازماً قال الجوهري: وصَبَ الشيءُ وصوباً أي دام ومنه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي دائم، وقال الشاعر: «وهزيمُ رعدِه واصب»(١) ﴿تَجْأَرُونَ﴾ الجؤار: رفع الصوت بالدعاء والتضرع يقال: جأر أي صاح قال الأعشى يصف بقرة:

فطافت ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ ... وكان النكيرُ أن تُضيفَ وتجأرا(٢)

﴿كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غمّاً وغيظاً، والكظم أن يطبق الفم فلا يتكلم من الغيظ ﴿يَتَوَارَى﴾ يختفي ﴿هُونٍ﴾ هوانٍ وذل ﴿فَرْثٍ﴾ الفرث: الزبل الذي ينزل إلى الكرش أو المعى ﴿سَائِغًا﴾ لذيذاً هنيئاً لا يغصُّ به من شربه ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول وهو المنقاد المسخّر بلا عناء ﴿حَفَدَةً﴾ الحفدة: قال الأزهري: أولاد الأولاد، والحفدة: الخدم والأعوان.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(١) أي سحابه، والهزيم: السحاب المتشقق بالمطر كذا في الطبري (١٤/١٢٠).
(٢) القرطبي (١٠/١١٤).

التي هي كالمثل في القبح، فالنقص إنما ينسب إليهم لا إلى الله ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي له جل وعلا الوصف العالي الشأن، والكمال المطلق، والتنزه عن صفات المخلوقين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيزُ في ملكه، الحكيمُ في تدبيره، ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي لو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي ما ترك على الأرض أحداً يدبُّ على ظهرها من إنسان وحيوان ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ولكنْ يؤخرهم إلى وقتٍ معيَّن تقتضيه الحكمة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدد لهلاكهم لا يتأخرون برهةً يسيرة من الزمن ولا يتقدمون عليها كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي يجعلون لله تعالى البنات مع كراهيتهم لهنّ، وهو تأكيد لما سبق للتقريع والتوبيخ ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي يجعلون لله ما يجعلون ومع ذلك يزعمون أنَّ لهم العاقبة الحسنى عند الله وأنهم أهل الجنة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي حقًّا إنَّ لهم مكانين في أسوأ نار جهنم التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ أي معجَّلون إليها ومُقدَّمون[١]. ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل ليتأسى صلوات الله عليه بهم في الصبر على تحمل الأذى فقال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي والله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم فحسَّن الشيطان أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل وردُّوا عليهم ما جاءوهم به من البيانات ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا وبئس الناصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي ما أنزلنا عليك القرآن يا محمد إلا لتبيِّن للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام لتقوم الحجة عليهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وأنزلنا القرآن هداية للقلوب، ورحمة وشفاء لمن آمن به، ثم ذكر تعالى عظيم قدرته الدالة على وحدانيته فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أنزل بقدرته الماء من السحاب فأحيا بذلك الماء النبات والزرع بعد جدب الأرض ويُبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي إنَّ في هذا الإحياء لدلالة واضحة على عظيم قدرته لقوم يسمعون التذكير فيتدبرونه ويعقلونه ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي وإنَّ لكم أيها الناس في هذه الأنعام «الإبل والبقر والضأن والمعز» لعظةً وعبرة يعتبر بها العقلاء، ففي خلقها وتسخيرها دلالة على قدرة الله وعظمته ووحدانيته ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي نسقيكم من بعض الذي في بطون هذه الأنعام ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ أي من بين الروث والدم ذلك الحليب الخالص واللبن النافع[٢] ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي سهل المرور في حلقهم، لذيذاً طيباً لا يغصُّ به من شربه ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ

---

(١) هذا قول قتادة والحسن من الفرط وهو السابق إلى طلب الماء. وقال مجاهد: «مُفرطون» متروكون منسيون في النار.

(٢) قال الزمخشري: والآية بيانٌ للعبرة، فإن الله سبحانه يخلق اللبن وسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون، ولا طعم، ولا رائحة، فسبحان الله ما أعظم قدرته، وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل. الكشاف ٢/ ٤١٥.

وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي ولكم مما أنعم الله به عليكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه خمرًا مسكرًا. قال الطبري: وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حُرّمت بعد(1) ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب، قال ابن عباس: الرزق الحسن: ما أُحلّ من ثمرتها، والسَّكَر: ما حُرّم من ثمرتها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لآية باهرة، ودلالة قاهرة على وحدانيته سبحانه لقوم يتدبرون ويتفكرون. قال ابن كثير: وناسب ذكر العقل هنا لأنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها(2). ولما ذكر تعالى ما يدل على باهر قدرته، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرث ودم، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، ذكر إخراج العسل الذي جعله شفاءً للناس من النحل، وهي حشرة ضعيفة وفيها عجائب بديعة وأمور غريبة، وكل هذا يدل على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ المراد من الوحي: الإلهام والهداية أي ألهمها مصالحها وأرشدها إلى بناء بيوتها المسدسة العجيبة تأوي إليها في ثلاثة أمكنة: الجبال، والشجر، والأكوار التي يبنيها الناس ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلو والمر والحامض، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي ادخلي الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرة لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي يخرج من بطون النحل عسلٌ متنوع منه أحمر، وأبيض، وأصفر، فيه شفاء للناس من كثير من الأمراض. قال الرازي: فإن قال قائل: كيف يكون شفاءً للناس وهو يضر بالصفراء؟ فالجواب أنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس، ولكل داء، وفي كل حال، بل لما كان شفاءً للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأن فيه شفاء(3) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لعبرة لقوم يتفكرون في عظيم قدرة الله، وبديع صنعه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئًا ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي يُردّ إلى أرذأ وأضعف العمر وهو الهرم والخرف ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي لينسى ما يعلم فيشبه الطفل في نقصان القوة والعقل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي عليم بتدبير خلقه، قدير على ما يريده، فكما قدر على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل، فإنه قادر على إحيائه بعد إماتته. قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يُرَدّ إلى أرذل العمر(4) ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق فهذا غنيٌّ وذاك فقير، وهذا مالكٌ وذاك مملوك ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستووا في ذلك مع عبيدهم، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي

---

(1) الطبري (14/134).
(2) المختصر (2/334).
(3) التفسير الكبير (20/72).
(4) زاد المسير (4/468).

في سلطاني؟[1] ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار أي يشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم؟ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي هو تعالى بقدرته خلق النساء من جنسكم وشكلكم ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد، سموا حفدة لأنهم يخدمون أجدادهم ويسارعون في خدمتهم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي أفبعد تحقق ما ذكر من نعم الله يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ وهو استفهام للتوبيخ والتقريع ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون أوثانًا لا تقدر على إنزال مطر، ولا على إخراج زرع أو شجر، ولا تقدر أن ترزقهم قليلًا أو كثيرًا ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي لا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه، فإنه تعالى لا مثل له ولا نظير ولا شبيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي يعلم كل الحقائق، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق.

البَلاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من صنوف البيان والبديع ما يلي:

١- الالتفات من التكلم إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة الحصر أي لا تخافوا غيري.

٢- الطباق في ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ .. و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وفي ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ .. ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾.

٣- الجناس الناقص بين ﴿كُلِي مِن كُلِّ﴾.

٤- الاعتراض ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ فلفظة (سبحانه) معترضة لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح.

٥- صيغة المبالغة في ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ و﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦- السجع ﴿تَتَّقُونَ﴾ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ﴿يَكْفُرُونَ﴾.

٧- التهديد والوعيد ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٨- قوله تعالى ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ قال الشهاب: هذا من بليغ الكلام وبديعه أي ألسنتهم كاذبة كقولهم: عينها تصف السحر أي ساحرة، وقدُّها يصف الهيف أي هيفاء.

□□□

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ .. إلى .. ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٠).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى سفاهة المشركين في عبادتهم لغير الله، أعقبه بذكر مثلين توضيحًا

(١) المختصر ٢/٣٢٨.

لبطلان عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تستجيب ولا تسمع، ثم ذكَّر الناس ببعض النعم التي أفاضها عليهم ليعبدوه ويشكروه، ويخلصوا له العمل طائعين منيبين.

اللغة: ﴿أَبْكَمُ﴾ الأبكم: الأخرس الذي لا ينطق ﴿كَلٌّ﴾ الكَلُّ: الثقيل الذي هو عيال على الغير وقد يسمى اليتيم كلاً لثقله على من يكفله. قال الشاعر:

أكولٌ لمالِ الكَلِّ قبلَ شبابه ... إذا كانَ عظمُ الكَلِّ غيرَ شديدِ[1]

﴿كَلَمْحِ﴾ اللمح: النظر بسرعة مثل الخطفة يقال: لمحه لمحًا ولمحانًا ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ الظَّعْن: السفر والرحيل لطلب الكلأ، والظعينة المرأة المسافرة ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ الوبر للإبل كالصوف للغنم ﴿ظِلَالًا﴾ الظلال: كل ما يستظل به من البيوت والشجر ﴿أَكْنَانًا﴾ جمع كِنّ مثل حِمل وأحمال وهو كل ما يحفظ ويقي من الريح والمطر وغيرهما ﴿سَرَابِيلَ﴾ جمع سربال. قال الزجاج: كلُّ ما لبسته من قميص أو درع فهو سربال[2].

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ۝ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ۝ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ

(١) البحر المحيط (٥/٨: ٥).

(٢) قال الإمام ابن القيم: ذكر الله تعالى مثلين. فالمثل الأول ضربه لنفسه سبحانه وللأوثان، فالله هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده، سرًا وجهرًا، وليلاً ونهارًا، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركائي ويعبدونها من دوني مع التفاوت العظيم والفرق المبين؟ وأما المثل الثاني، فالصنم الذي يُعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة، وأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حيّ قادر، متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم. وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد. أعلام الموقعين لابن القيم

سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

التفسير: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله جل وعلا، أي مثلُ هؤلاء في إشراكهم مثلُ من سوّى بين عبدٍ مملوك عاجزٍ عن التصرف، وبين حرٍّ مالك يتصرف في أمره كيف يشاء، مع أنهما سيّان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى، فما الظنُّ بربِّ العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات؟ ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضرب لهم المثل، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والله تعالى له المُلك، وبيده الرزق، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء، فكيف يُسوّى بينه وبين الأصنام؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي شكرًا لله على بيان هذا المثال ووضوح الحق فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة، ولكنَّ المشركين بسفههم وجهلهم يسوّون بين الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ هذا هو المثل الثاني للتفريق بين الإِله الحق والأصنام الباطلة، قال مجاهد: هذا مثلٌ مضروبٌ للوثن والحقِّ تعالى[1]، فالوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير، ولا يقدر على شيء بالكلية؛ لأنه إما حجرٌ أو شجر، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أي ثقيل عالةٌ على وليه أو سيده ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي حيثما أرسله سيده لم ينجح في مسعاه؛ لأنه أخرس، بليد، ضعيف ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي هل يتساوى هذا الأخرس، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان، وهو على طريق الحق والاستقامة، مستنيرٌ بنور القرآن؟ وإذا كان العاقل لا يسوّي بين هذين الرجلين، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر[2]، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم، الهادي إلى الصراط المستقيم؟ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو سبحانه المختص بعلم الغيب، يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي ما شأن الساعة في سرعة المجيء إلا كنظرة سريعة بطرف العين، بل هو أقرب، لأنه تعالى يقول للشيء: كن فيكون، وهذا تمثيل لسرعة مجيئها؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادرٌ على كل الأشياء، ومن جملتها القيامة التي يكذب بها الكافرون ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي أخرجكم من أرحام الأمهات لا تعرفون شيئًا أصلاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون

(١) الرازي (٢٠/ ٩٣).   (٢) مختصر ابن كثير (٢/ ٣٤٠).

وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ هذا من الأدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته والمعنى، ألم يشاهدوا الطيور مذللات للطيران في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي ما يمسكهن عن السقوط عند قبض أجنحتهن وبسطها إلا هو سبحانه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنَّ فيما ذكر لآياتٍ ظاهرة، وعلامات باهرة على وحدانيته تعالى لقوم يصدِّقون بما جاءت به رسل الله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ هذا تعداد لنعم الله على العباد، أي جعل لكم هذه البيوت من الحجر والمدر لتسكنوا فيها أيام مقامكم في أوطانكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أي وجعل لكم بيوتاً أخرى وهي الخيام والقباب المتخذة من الشعر والصوف والوبر ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم، وهي خفيفةٌ عليكم في أوقات السفر والحضر ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا﴾ أي وجعل لكم من صوف الغنم، ووبر الإبل، وشعر المعز ما تلبسون وتفرشون به بيوتكم ﴿وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ أي تنتفعون وتتمتعون بها إلى حين الموت[1]. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ أي جعل لكم من الشجر والجبال والأبنية وغيرها ظلالاً تتقون بها حرَّ الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي وجعل لكم في الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون. قال الرازي: لما كانت بلادُ العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة، فلهذا ذكر تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة[2]. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي جعل لكم الثياب من القطن والصوف والكتان لتحفظكم من الحر والبرد ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ أي ودروعاً تشبه الثياب تتقون بها شر أعدائكم في الحرب ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فإنه يُتم نعمة الدنيا والدين عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي لتخلصوا لله الربوبية، وتعلموا أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحدٌ سواه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان ولم يؤمنوا بما جئتهم به يا محمد فلا ضرر عليك، لأن وظيفتك التبليغ وقد بلَّغت الرسالة وأديت الأمانة ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أي يعرف هؤلاء المشركون نعم الله التي أنعم بها عليهم، ويعترفون بأنها من عند الله ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم. وقال السُّدي: نعمةُ الله هي محمد ﷺ عرفوا نبوته ثم جحدوها وكذَّبوه[3]. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي أكثرهم يموتون كفاراً، وفيه إشارة إلى أن بعضهم يهتدي للإسلام، وأما أكثرهم فمصرُّون على الكفر والضلال ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي ويوم القيامة نحشر الخلائق للحساب ونبعث في كل أمة نبيَّها يشهد عليها بالإيمان والكفر ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا يُؤذن للذين كفروا في الاعتذار، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يُطلب

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقال مقاتل: تنتفعون به إلى أن يبلى.
(٢) التفسير الكبير (٢٠/ ٩٣). (٣) ومثله اختيار الطبري.

منهم أن يسترضوا ربهم بقول أو عمل، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب. قال القرطبي: العُتبى هي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب، وأصل الكلمة من العتب وهي الموجدة فإذا وجد عليه يقال: عتب، وإذا رجع إلى مسرّتك فقد أعتب[1] ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي وإذا رأى المشركون عذاب جهنم فلا يُفتَّر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يؤخرون ولا يمهلون ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي وإذا أبصر المشركون شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويزعمون أنهم شركاء الله في الألوهية ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ أي هؤلاء الذين عبدناهم من دونك قال البيضاوي: وهذا اعترافٌ بأنهم كانوا مخطئين في ذلك والتماس لتخفيف العذاب[2] ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب فيما قالوا في تقرير وتوكيد، وذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي استسلم أولئك الظالمون لحكم الله تعالى بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بطل ما كانوا يؤملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. ثم أخبر تعالى عن مآلهم بعد أن أخبر عن حالهم فقال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي كفروا بالله ومنعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي زدناهم عذاباً في جهنم فوق عذاب الكفر، لأنهم ارتكبوا جريمة صدّ الناس عن الهدى فوق جريمة الكفر، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقاً ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ أي بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي اذكر للناس ذلك اليوم وهوله حين نبعث في كل أمة نبيّها ليشهد عليها ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي وجئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ونزلنا عليك القرآن المنير بياناً شافياً بليغاً لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين، فلا حجة لهم ولا معذرة. قال ابن مسعود: قد بُيّن لنا في هذا القرآن كلُّ علم، وكل شيء[3] ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي هداية للقلوب، ورحمة للعباد، وبشارة للمسلمين المهتدين ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ أي يأمر بمكارم الأخلاق بالعدل بين الناس، والإحسان إلى جميع الخلق ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي مواساة الأقرباء، وخصّه بالذكر اهتماماً به ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ أي ينهى عن كل قبيح من قولٍ أو فعلٍ أو عمل. قال ابن مسعود: هذه أجمعُ آيةٍ في القرآن لخيرٍ يُمتثل، ولشرٍّ يُجتنب[4]. والفحشاء: كل ما تناهى قبحه كالزنى والشرك، والمنكر: كل ما تنكره الفطرة، والبغي هو الظلم وتجاوز الحق والعدل ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بكلام الله.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

---

(١) القرطبي (١٦٣/١٠).
(٢) البيضاوي (٣٩٦).
(٣) المختصر (٣٤٣/٢).
(٤) القرطبي (١٦٥/١٠).

١ - الاستعارة التمثيلية في ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ .. الآية تمثيل للوثن بالأبكم الذي لا ينتفع منه بشيء أصلاً، مع القادر السميع البصير، وشتان بين الرب والصنم.

٢ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾.

٣ - الطباق بين «سراً وجهراً» وبين «يعرفون... وينكرونها» وبين «ظعنكم... وإقامتكم».

٤ - الإيجاز بالحذف في ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي والبرد، حذف الثاني استغناءً بذكر الأول.

٥ - المقابلة اللطيفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة، وهو من المحسنات البديعية.

٦ - ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بعد لفظ الإحسان الذي هو عام.

لطيفة: ذُكر أن «أكثم بن صيفي» لما بلغه خبر الرسول ﷺ انتدب رجلين فأتياه فقالا: من أنت؟ وما أنت؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسول الله ثم تلا عليهما هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ .. الآية فرجعا على أكثم فلما قرءا عليه الآية قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا أذناباً[1].

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ... إلى ... إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من آية (٩١) إلى نهاية آية (١١٠).

المناسبة: لما استقصى تعالى في الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وذكر جملة المكارم والفضائل، حذَّر تعالى هنا من نقض العهود والمواثيق وعصيان أوامر الله تعالى؛ لأن العصيان سبب البلاء والحرمان، ثم ذكر تعالى ما أعده لأهل الإيمان من الحياة الطيبة الكريمة.

اللغة: ﴿تَنقُضُوا۟﴾ النقض: ضدُّ الإبرام وهو فك أجزاء الشيء بعضها من بعض ﴿تَوْكِيدِهَا﴾ التوكيد: التثبيتُ يقال: توكيد وتأكيد ﴿أَنكَٰثًا﴾ أنقاضاً، والنكث: النقضُ بعد الفتل ﴿دَخَلًۢا﴾ الدخل: الغش والخديعة والفتن قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل ﴿يَنفَدُ﴾ نفد الشيء ينفد فني ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ الأعجمي الذي لا يتكلم العربية. وقال الفراء: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والعجمي الذي أصله من العجم ﴿يُلْحِدُونَ﴾ الإلحاد: الميل يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد والاستقامة.

سبب النزول:

أ - روي أن النبي ﷺ كان يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له «جبر» وكان يقرأ

(١) مختصر ابن كثير (٢/ ٣٤٤).

الكتب، فقال المشركون: والله ما يعلّمه ما يأتي به إلا جبر الرومي فأنزل الله عز وجل ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾(١) الآية.

ب - عن ابن عباس أن المشركين أخذوا عمّار بن ياسر وأباه ياسراً وأمه سمية وصهيباً وبلالاً فعذبوهم، وربطت سمية بين بعيرين ووُجئ قُبُلها بحربة فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكرهاً، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول الكريم: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنٌ بالإيمان، فقال رسول الله ﷺ: فإن عادوا فعُد، وأنزل الله ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾(٢) الآية.

﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ۝ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ۝ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ۝ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ۝ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ۝ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ۝ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ۝ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ۝ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ۝ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ۝ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ۝ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ۝ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ۝ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ۝ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ۝ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ۝ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ۝ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ۝ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ۝ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾.

التفسير: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ أي حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها الرسول أو الناس وأدوها على الوفاء والتمام ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ أي ولا تنقضوا أيمان

(١) القرطبي ١٠/١٧٧.
(٢) القرطبي ١٠/١٨٠-١٨١ وأسباب النزول ١٦٢.

اليمين بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي جعلتم الله شاهداً ورقيباً على تلك البيعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي عليم بأفعالكم وسيجازيكم عليها ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لمن نكث عهده[1]، شبّهت الآية الذي يحلف ويعاهد ويُبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكمًا ثم تحلّه أنكاثًا أي أنقاضًا. قال المفسرون: كان بمكة امرأة حمقاء تغزل غزلاً ثم تنقضه، وكان الناس يقولون: ما أحمق هذه! ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكرًا تخدعون بها الناس ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي لأجل أن تكون أمة أكثر عددًا وأوفر مالاً من غيرها. قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزّ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك[2]. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهد لينظر المطيع من العاصي ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله من خير وشرّ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي لو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد، وجعلهم أهل ملةٍ واحدة، لا يختلفون ولا يفترقون ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي ولكنْ اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم، ناسٌ للسعادة وناسٌ للشقاوة، فيضلّ من يشاء بخذلانه إياهم عدلاً، ويهدي من يشاء بتوفيقه إياهم فضلاً ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم على القليل والقطمير ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ كرره تأكيدًا ومبالغة في تعظيم شأن العهود، أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة ومكرًا تغرّون بها الناس لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية[3]. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي فتزلّ أقدامكم عن طريق الاستقامة وعن محجّة الحق بعد رسوخها فيه. قال ابن كثير: هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصدّ عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فيصدّ بسببه عن الدخول في الإسلام[4]. ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يصيبكم العقاب الدنيوي العاجل الذي يسوءكم بصدّكم غيركم عن اعتناق الإسلام بسبب نقض العهود ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولكم في الآخرة عذاب كبير في نار جهنم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تستبدلوا عهد الله وعهد رسوله بحطام الدنيا الفاني ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما عند الله من الأجر والثواب خير لكم من متاع

---

(١) هذا قول مجاهد وقتادة. (٢) مختصر ابن كثير (١٤/ ١٧٦)

(٣) قال في الظلال: واتخاذ الأيمان غشًا وخداعًا يزعزع العقيدة في الضمير، ويشوّه صورتها في ضمائر الآخرين، فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قسمه لا يمكن أن تثبت له عقيدة ولا أن تثبت له قدم على صراطها، وهو في الوقت نفسه يشوّه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل، ومن ثمّ يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيئ الذي يضربه للمؤمنين بالله.

(٤) المختصر (٢/ ٣٤٥).

الدنيا العاجل إذا كنتم تعلمون الحقيقة، ثم علّل ذلك بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي ما عندكم أيها الناس فإنه فانٍ زائل، وما عند الله فإنه باقٍ دائم، لا انقطاع له ولا نفاد، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنثيبنَّ الصابرين بأفضل الجزاء، ولنعطينهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال مع التجاوز عن السيئات، وهذا وعدٌ كريم بمنح أفضل الجزاء على أفضل العمل، فيكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه، وكل ذلك بفضل الله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي من عمل الصالحات ذكرًا كان أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ أي فلنحيينَّه في الدنيا حياةً طيبة بالقناعة والرزق الحلال، والتوفيق لصالح الأعمال. وقال الحسن: لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وسعادة بلا شقاوة(١) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنجزينَّهم في الآخرة بجزاء أحسن أعمالهم، وما أكرمه من جزاء! ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي إذا أردت تلاوة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان وخطراته، كيلا يوسوس لك عند القراءة فيصدك عن تدبر القرآن والعمل بما فيه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليس له تسلطٌ وقدرة على المؤمنين بالإغواء والكفر لأنهم في كنف الرحمن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يعتمدون على الله فيما نابهم من شدائد ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي إنما تسلطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم وليًا ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عباداتهم وذبائحهم، ومطاعمهم ومشاربهم ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ أي وإذا أنزلنا آيةً مكان آية وجعلناها بدلاً منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملةٌ اعتراضية سيقت للتوبيخ، أي والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم، فإنّ مثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل للشفاء، ثم يستبدل بما يصلح له من أنواع أخرى من الأطعمة ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أي قال الكفرة الجاهلون: إنما أنت يا محمد متقوِّلٌ كاذبٌ على الله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثرهم جهلة لا يعلمون حكمة الله فيقولون ذلك سفهًا وجهلاً قال ابن عباس: كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت قال كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم غدًا عنه، وإنه لا يقول ذلك إلا من عند نفسه فنزلت(٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنما نزّله جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليثبت المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين فيزدادوا إيمانًا ويقينًا ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وهداية وبشارة لأهل الإسلام الذين انقادوا لحكمه تعالى. وفيه تعريضٌ بالكفار الذين لم يستسلموا لله تعالى

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٢/٣٤٧) والقول الأول لابن عباس وهو الأظهر.
(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٠/١١٦).

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أي قد علمنا مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن هذا القرآن من تعليم «جبر الرومي» وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي لسان الذي يزعمون أنه علَّمه وينسبون إليه التعليم أعجمي ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي وهذا القرآن عربيٌّ في غاية الفصاحة، فكيف يمكن لمن لسانه أعجمي أن يُعلِّم محمدًا هذا الكتاب العربيَّ المبين؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه؟! ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ أي إن الذين لا يُصدِّقون بهذا القرآن لا يوفقهم الله لإصابة الحق، ولا يهديهم إلى طريق النجاة والسعادة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة عذابٌ موجعٌ مؤلم، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد على كفرهم وافترائهم ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا يكذب على الله إلا من لم يؤمن بالله ولا بآياته، لأنه لا يخاف عقابًا يردعه، فالكذب جريمة فاحشة لا يُقْدِمُ عليها مؤمن، وهذا ردٌّ لقولهم ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة لا محمد الرسول الأمين ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ أي من تلفَّظ بكلمة الكفر وارتد عن الدين بعد ما دخل فيه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ أي إلا من تلفَّظ بكلمة الكفر مكرهًا والحال أن قلبه مملوء إيمانًا ويقينًا، والآية تتعلق بجريمة المرتد لأنه عرف الإيمان وذاقه ثم ارتدَّ إيثارًا للحياة الدنيا على الآخرة. قال المفسرون: نزلت في عمار بن ياسر أخذه المشركون فعذبوه حتى أعطاهم ما أرادوا مكرهًا فقال الناس: إن عمارًا كفر، فقال رسول الله ﷺ: إن عمارًا مُلئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، قال: إن عادوا فعُدْ[1] ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي طابت نفسه بالكفر وانشرح صدره له ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم غضبٌ شديد مع عذاب جهنم، إذْ لا جرم أعظم من جرمهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم آثروا الدنيا واختاروها على الآخرة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يوفقهم إلى الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ والضلال ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فجعل عليها غلافًا بحيث لا تدعي للحق ولا تسمعه ولا تبصره ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة إذ أغفلتهم الدنيا عن تدبر العواقب ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي حقًا ولا شك ولا ريب في أنهم الخاسرون في الآخرة لأنهم ضيَّعوا أعمارهم في غير منفعة تعود عليهم قال المفسرون[2]: وصفهم تعالى بست صفات هي: الغضب من الله، والعذاب العظيم، واختيارهم الدنيا على الآخرة، وحرمانهم من الهدى، والطبع على قلوبهم، وجعلهم من

(١) التفسير الكبير (٢٠/١٢٦).
(٢) حاشية الصاوي (٢/٣٩٩).

من خير، وما رغبهم من رزق ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ أي سلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف، والجوع والحرمان ﴿بما كانوا يصنعون﴾ أي بسبب كفرهم ومعاصيهم. قال الرازي: وهذا مثل أهل مكة، لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فابتلاهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام[1] ﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه﴾ أي ولقد جاءهم محمد بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وهو رسول منهم يعرفون أصله ونسبه فلم يصدقوه ولم يؤمنوا برسالته، والآية دالة على أن المراد بهم أهل مكة وهو قول ابن عباس. ﴿فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾ أي فأصابتهم الشدائد والنكبات وهم ظالمون بارتكاب المعاصي والآثام ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي كلوا من نعم الله التي أباحها لكم حال كونها حلالاً طيباً ﴿واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي واشكروا الله على نعمه الجليلة إن كنتم مخلصين في إيمانكم لا تعبدون أحداً سواه، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فقال ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي لم يحرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي وما ذبح على اسم غير الله تعالى فإن فيه أذى للنفس والعقيدة ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن اضطر لأكل ما حرم الله من المذكورات من غير بغي ولا عدوان فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة لا يؤاخذ من كان مضطراً، ثم وبخ تعالى المشركين الذين حللوا وحرموا من تلقاء أنفسهم فقال ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ أي لا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه ألسنتكم من الكذب هذا حلال وهذا حرام من غير دليل ولا برهان ﴿لتفتروا على الله الكذب﴾ أي لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي إن الذين يختلقون الكذب على الله لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾ أي انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل لأنه زائل، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم، ثم ذكر تعالى ما حرم على اليهود فقال ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمنا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد مما سبق ذكره في سورة الأنعام عقوبة لهم وهي شحوم البقر والغنم وكل ذي ظفر ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي وما ظلمناهم بذلك التحريم ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا ذلك، كقوله ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين ارتكبوا تلك القبائح بجهل وسفه ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أي ثم رجعوا إلى ربهم وأنابوا وأصلحوا العمل بعد ذلك الزلل ﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ أي إنه تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة، والآية تأنيس لجميع الناس وفتح لباب التوبة ﴿إن

(١) التفسير الكبير [٢٠/١٢٨]

إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي إنَّ إبراهيم كان إمامًا قدوةً جامعًا لخصال الخير ولذلك اختاره الله لخلته ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي مطيعًا لربه قائمًا بأمره ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق ، دين الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيد لما سبق وردٌّ على اليهود والنصارى في زعمهم أن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي قائمًا بشكر نعم الله ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي اختاره واصطفاه للنبوة وهداه إلى الإسلام وإلى عبادة الواحد الأحد ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات الرفيعة ، وفي أعلى مقامات الصالحين ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [1] لما وصف تعالى إبراهيم بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يتبع ملته والمعنى ثم أمرناك يا محمد باتباع دين إبراهيم وملته الحنيفية السمحة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وما كان يهوديًا أو نصرانيًا ، وإنما كان حنيفًا مسلمًا ، وهو تأكيد آخر لرد مزاعم اليهود والنصارى أنهم على دينه ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي لم يكن تعظيم يوم السبت وترك العمل فيه من شريعة إبراهيم ولا من شعائر دينه ، وإنما جعل تغليظًا على اليهود لاختلافهم في الدين وعصيانهم أمر الله ، حيث نهاهم عن الاصطياد فيه فاصطادوا فمسخهم قردةً وخنازير ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي وسيفصل الله تعالى بينهم يوم القيامة ، فيجازي كلاً بما يستحق من الثواب أو العقاب ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي ادع يا محمد الناس إلى دين الله وشريعته المقدسة بالأسلوب الحكيم ، واللطف واللين ، بما يؤثر فيهم وينجع ، لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين ، والرفق واللين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين ، فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم ، وليس عليك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ أي وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا قال المفسرون : نزلت في شأن حمزة بن عبد المطلب لما مثّل المشركون بجثته يوم أحد ، فقال النبي ﷺ : لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ أي ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل ، وهذا ندبٌ إلى الصبر ، وترك عقوبة من أساء ، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي واصبر يا محمد على ما ينالك من الأذى في سبيل الله ، فما تنال هذه

---

(١) قال المفسرون : العطف بثم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فيه تعظيم منزلة الرسول ﷺ وإجلال محله فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال : وههنا ما هو أجل من ذلك كله قدرًا ، وأرفع رتبة ، وهو أن النبي ﷺ الأمي الذي هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم ، مقتدٍ بشريعته ، وكفى بذلك فخرًا

المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوفيقه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي ولا يضيق صدرك بما يقولون من السفه والجهل، ولا بما يدبرون من المكر والكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي مع المتقين بمعونته ونصره، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية، ومن كان الله معه فلن يضره كيد الكائدين.

البلاغة: تضمنت الآيات من صنوف البيان والبديع ما يلي:

١ - الاستعارة المكنية ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ شبه ذلك باللباس من حيث الكراهية بالطعم المر البشع وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية.

٢ - الطباق بين ﴿حلال.. وحرام﴾.

٣ - الالتفات ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ التفت من الغيبة إلى التكلم إشارة إلى زيادة الاعتناء بشأنه وتفخيم أمره.

٤ - التشبيه البليغ ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي كان بمفرده كالأمة والجماعة الكثيرة لجمعه أوصاف الكمالات التي تفرقت في الخلق كما قال الشاعر:

وليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

تنبيه: في قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ حض الحث على الإنصاف في المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل، لا نصرة الرأي وهزيمة الرأي الآخر.

تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة.

بين يدي السورة

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشؤون العقيدة، شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين «الوحدانية، والرسالة، والبعث» ولكنَّ العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو «الشخصية الرسول ﷺ» وما أيده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام.

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء، التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي لخاتم الأنبياء والمرسلين، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب.

* وتحدثت عن بني إسرائيل، وما كتب الله عليهم من التشرد في الأرض مرتين، بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ...﴾ الآيات.

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية، التي تدل على العظمة والوحدانية، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار، ويسير وفق ناموس ثابت لا يتبدل ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ...﴾ الآيات.

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية، والأخلاق الفاضلة الكريمة، فحثت عليها، ودعت إلى التحلي بها ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل بدءاً من قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ الآيات.

* وتحدثت عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير، المنزه عن الشبيه والنظير ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ الآيات.

* وتحدثت عن البعث والنشور، والمعاد والجزاء الذي كثر حوله الجدل، وقدمت الأدلة والبراهين على إمكانه، ثم تحدثت عن القرآن العظيم معجزة محمد ﷺ الخالدة، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاتهم، حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن، أن يفجر لهم الأنهار، ويجعل مكة حدائق وبساتين ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا...﴾ الآيات.

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد، وعن صفات النقص ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة الإسراء» لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم.

اللغَة: ﴿سُبْحَانَ﴾ اسمٌ للتسبيح ومعناه تنزيه الله تعالى من كل سوء ونقص وهو خاصٌ به سبحانه ﴿أَسْرَى﴾ الإسراء: السيرُ ليلاً يقال: أسرى وسرى لغتان قال الشاعر:

سريتَ من حَرَمٍ ليلاً إلى حَرَمٍ ... كما سرى البدرُ في داجٍ من الظُلَمِ

﴿فَجَاسُوا﴾ قال الزجاج: طافوا، والجوسُ: طوافٌ بالليل والتردد والطلب مع الاستقصاء وقال الواحدي: الجوسُ هو التردد والطلب ﴿الْكَرَّةَ﴾ الدولة والغلبة ﴿تَتْبِيرًا﴾ هلاكًا ودمارًا ﴿فَمَحَوْنَا﴾ طمسنا قال علماء اللغة: المحوُ إذهاب الأثر يقال محوتُه فامّحى أي ذهب أثره ﴿طَائِرَهُ﴾ عمله المقدّر عليه سمي الخير والشر بالطائر لأن العرب كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير إذا طار جهة اليمين أو الشمال ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ المترفُ: المتنعّمُ الذي أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿يَصْلَاهَا﴾ يدخلها ويذوق حرّها ﴿مَدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا من رحمة الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾

التفسِير: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ أي تنزّه وتقدّس عما لا يليق بجلاله: الله العليُّ الشأن، الذي نقل عبده ونبيه محمد ﷺ في جزء من الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الأقصى﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وسُمّي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام قال المفسرون: وإنما قال ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء، وأنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل وكانت مسيرة أربعين ليلة، وذلك أبلغ في القدرة والإعجاز ولهذا كان بدء السورة بلفظ ﴿سُبْحَانَ﴾ الدال على كمال القدرة، وبالغ الحكمة، ونهاية تنزهه تعالى عن صفات المخلوقين، وكان الإسراء بالروح والجسد، يقظة لا منامًا ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي الذي باركنا ما حوله بأنواع البركات الحسية والمعنوية، بالثمار والأنهار التي خصَّ الله بها بلاد الشام، وبكونه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة الأطهار ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي لنري محمدًا ﷺ آياتنا العجيبة العظيمة، ونطلعه على ملكوت السموات والأرض، وقد رأى صلوات الله عليه السموات العُلى والجنة والنار، وسدرة المنتهى، والملائكة والأنبياء وغير ذلك من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، فلهذا خصَّه بهذه الكرامات والمعجزات اصطفاءً وتكريمًا ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة هدايةً لبني إسرائيل يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ أي لا تتخذوا لكم ربًا تكلون إليه أموركم سوى الله الذي خلقكم قال المفسرون: لما ذكر المسجدُ الأقصى وهو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل جاء الحديث عنهم في مكانه المناسب من سياق السورة ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي يا ذرية من أنجينا من المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة، فقد نجينا آباءكم من الغرق فاشكروا الله على إنعامه ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي إن نوحًا كان كثير الشكر يحمد الله على كل حال فاقتدوا به، وفي النداء لهم تلطفٌ وتذكير بنعمة الله ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم وأوحينا إليهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي ليحصلن منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين[1] قال ابن عباس: أول الفساد قتل زكريا والثاني قتل يحيى عليهما السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تطغون في الأرض المقدسة طغيانًا كبيرًا بالظلم والعدوان وانتهاك محارم الله ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي أولى المرتين من الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ أي سلطنا عليكم من عبيدنا أناسًا جبارين للانتقام منكم ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أصحاب قوة وبطش في الحرب شديد قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء سلّط الله عليهم بختنصر ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفًا حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وذلك أول الفسادين ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ أي كان

---

(١) القضاء الإلهي من باب العلم لا الإلزام، فليس معناه القهر والإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الإلهي الأزلي فتنبّه.

ويسرع لكل ما يخطر بباله، دون النظر في عاقبته. ثم أشار تعالى إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود، التي كلٌّ منها برهانٌ نيّر على وحدانية الله فقال ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي علامتين عظيمتين تدلان على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي طمسنا نور الليل فجعلناه مظلمًا لتسكنوا فيه ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا النهار مضيئًا مشرقًا بالنور ليحصل به الإبصار ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي لتطلبوا في النهار أسباب معيشتكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام، بتعاقب الليل والنهار، فالليل للراحة والسكون، والنهار للكسب والسعي ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ أي وكلَّ أمرٍ من أمور الدنيا والدين، بيّناه أحسن تبيين، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكٌ للمصادفة والجزاف، وإنما هو بتقدير وتدبير حكيم ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي أن الإنسان مرهون بعمله مجزيٌّ به، وعمله ملازم له لزوم القلادة للعنق لا ينفك عنه أبدًا ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ أي نظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحًا فيه حسناته وسيئاته فيرى عمله مكشوفًا لا يملك إخفاءه أو تجاهله ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي اقرأ كتاب عملك كفى أن تكون اليوم شهيدًا بما عملت، لا تحتاج إلى شاهد أو حسيب ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي من اهتدى فثواب اهتدائه له، ومن ضل فعقاب كفره وضلاله عليه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي وما كنا معذبين أحدًا من الخلق حتى نبعث لهم الرسل مذكرين ومنذرين لتقوم عليهم الحجة ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتنعمين فيها والقادة والرؤساء بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان فأهلكناهم إهلاكًا مريعًا. قال ابن عباس: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي سلطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب(١) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين للرسل أهلكناهم من بعد نوح كقوم عاد وثمود وفرعون قال ابن كثير: والآية إنذار لكفار قريش والمعنى: إنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى(٢) ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي كفى يا محمد أن يكون ربك رقيبًا على أعمال العباد مدركًا لبواطنها وظواهرها ومجازي عليها ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا فقط ولها يعمل ويسعى ليس له همٌّ إلا الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله من نعيمها لا كلَّ ما يريد ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي ثم جعلنا له في الآخرة جهنم يدخلها مهانًا حقيرًا مطرودًا من رحمة الله ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من

---

(١)، (٢) المختصر (٢/ ٣٦١)

السعي لتحصيلها، وعمل لها عملها اللائق بها من الطاعات وهو مؤمن صادق الإيمان ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص، والعمل الصالح، والإيمان، فإن عملهم مقبول عند الله أحسن القبول، مثاب عليه ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا، والذين أرادوا الآخرة نعطيه من عطائنا الواسع تفضلاً منا وإحساناً، فنعطي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي ما كان عطاؤه تعالى ممنوعاً محجوباً عن أحد ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي انظر يا محمد كيف فاوتنا بينهم في الأرزاق والأخلاق في هذه الحياة الدنيا فهذا غني وذاك فقير، وهذا شريف وذاك حقير ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أعظم من تفاوتهم في هذه الدار لأن الآخرة دار الخلود وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً ولا تعبد غيره إلهاً تعبده ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ أي فتصبح ملوماً عند الله محتقراً ولا ناصر لك ولا معين.

■ البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - براعة الاستهلال ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ لأنه لما كان أمراً خارقاً للعادة بدأها بما يشير إلى كمال القدرة وتنزيه الله عن صفات النقص.

٢ - إضافة التكريم والتشريف ﴿بِعَبْدِهِ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا﴾ ﴿[illegible]﴾.

٤ - الطباق بين ﴿أَحْسَنتُمْ ... أَسَأْتُمْ﴾ وبين ﴿ضَلَّ ... اهْتَدَىٰ﴾

٥ - إيجاز بالحذف ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أي يقال له يوم القيامة اقرأ كتابك ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي أمرناهم بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا وفسقوا فيها.

٦ - المجاز العقلي ﴿وَآيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ لأن النهار لا يُبصر بل يُبصر فيه فهو من إسناد الشيء إلى زمانه.

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ استعير للعمل الذي يعمله الإنسان، ولما كان العرب يتفاءلون ويتشاءمون بالطير سموا نفس الخير والشر بالطائر بطريق الاستعارة.

لطيفة: الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس ثم عروجه من بيت المقدس إلى السموات العلى أنه مجمع أرواح الأنبياء وموضع تنزل الوحي، فأظهر علو قدره الكريم، ولما كانت هذه الرحلة رحلة تكريم أراد تعالى أن يشرفهم بزيارته، ولهذا صلى بهم إماماً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

تنبيه: وصفه تعالى في هذه السورة بالعبودية ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ لأنه أشرف المقامات وأسمى المراتب العلية، كما وصفه في مقام الوحي فقال ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ وفي مقام الدعوة

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ ولهذا قال القاضي عياض:

ومما زادني شرفًا وتيهًا ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن صيّرت أحمد لي نبيا

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. إلى .. فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٨).

المناسبة: لما جعل تعالى الإيمان والعمل الصالح أساسًا للفوز بالسعادة الأبدية، وبيّن حال المؤمن الذي أراد بعمله الدار الآخرة، ذكر هنا طائفة من الأوامر والزواجر التي يقوم عليها بناء المجتمع الفاضل، ثم ذكر تعالى موقف المشركين المكذبين من هذا القرآن العظيم.

اللغة: ﴿أُفٍّ﴾ كلمة تضجر وتبرّم قال ابن الأعرابي الأفّ: الضجر، وأصلها أنه إذا سقط تراب أو رماد فنفخ الإنسان ليزيله، فالصوت الحاصل هو أُفّ ثم توسعوا في الكلمة حتى أصبحت تقال لكل مكروه ﴿تَنْهَرْهُمَا﴾ النهر: الزجر والغلظة ﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾ جمع أوّاب وهو كثير التوبة والإنابة من الأوْب بمعنى الرجوع ﴿مَحْسُورًا﴾ منقطعًا عن النفقة والتصرف قال الفراء: تقول العرب: البعير هو محسور إذا انقطع سيره، وحسرت الدابة إذا انقطعت عن السير لذهاب قوتها، فشبّه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته[1] ﴿إِمْلَاقٍ﴾ فقر وفاقة، أملق الرجل إذا افتقر ﴿خِطْئًا﴾ قال الأزهري: خطئ يخطأ خِطْئًا إذا تعمّد الخطأ، وأخطأ إذا لم يتعمد[2] ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ الميزان مأخوذ من القسط وهو العدل ﴿تَقْفُ﴾ تتبع مأخوذ من قفوت أثر فلان إذا اتبعت أثره، وأصله البهت والقذف بالباطل ﴿مَرَحًا﴾ المرح: شدة الفرح والمراد به هنا التكبر والخيلاء ﴿صَرَّفْنَا﴾ بيّنا ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كِنان وهو الغطاء الذي يستر الشيء ﴿وَقْرًا﴾ صممًا وثقلًا.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٠/١٩٥).
(٢) القرطبي (١٠/٢٥٤).

كالمرتد، والقاتل عمداً، والزاني المحصن ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ أي ومن قُتل ظلماً بغير حقٍّ يوجب قتله فقد جعلنا لوارثه سلطةً على القاتل بالقصاص منه، أو أخذ الدية، أو العفو ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي فلا يتجاوز الحدَّ المشروع بأن يقتل غير القاتل أو يُمثِّل به، أو يقتل اثنين بواحد كما كان أهل الجاهلية يفعلون، فحسبُه أنَّ الله قد نصره على خصمه فليكن عادلاً في قصاصه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن وهي حفظه واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يبلغ اليتيم سن الرشد ويحسن التصرف في ماله ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي وفوا بالعهود سواء كانت مع الله أو مع الناس لأنكم مسئولون عنها يوم القيامة ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي أتموا الكيل إذا كلتم لغيركم من غير تطفيف ولا بخس ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي زنوا بالميزان العدل السوي بلا احتيال ولا خديعة ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي لا تتَّبع ما لا تعلم ولا يعنيك بل تثبَّتْ من كل خبر، قال قتادة: لا تقل رأيتُ ولم تره، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله[1] ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي إن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن جوارحه، عن سمعه، وبصره، وقلبه وعما اكتسبته جوارحه ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي لا تمش في الأرض مختالاً مشية المعجب المتكبر ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ هذا تعليل للنهي عن التكبر والمعنى أنت أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر! كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقاً؟ وكيف تتطاول وتتعظم على الجبال ولن تبلغها طولاً؟ فأنت أحقر وأضعف من كل واحدٍ من الجمادين فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحاً ومحرماً عند الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أي ذلك الذي تقدم من الآداب والقصص والأحكام بعضُ الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة، والحِكم الفريدة ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من ولي أو بشر فتلقى في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك الله والخلق مطروداً مبعداً من كل خير قال الصاوي: ختم به الأحكام كما بدأها إشارة إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها، وهو رأس الأشياء وأساسها، والأعمال بدونه باطلة لا تفيد شيئاً[2] ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ خطابٌ على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله والمعنى أفخصكم ربكم وأخلصكم بالذكور واختار لنفسه - على زعمكم - البنات؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى؟! ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي إنكم لتقولون قولاً عظيماً في شناعته

---

(1) المختصر (٢/ ٣٧٨).   (2) حاشية الصاوي على الجلالين (٢/ ٣٥٠).

وبشاعته حيث تنسبون إليه البنات وتجعلون لله ما تكرهون ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ولقد بيّنا للناس في هذا القرآن العظيم الأمثال والمواعظ، والوعد والوعيد، ليتذكروا بما فيه من الحجج النيّرة والبراهين القاطعة، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والضلال ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي وما يزيدهم هذا البيان والتذكير إلا تباعداً عن الحق، وغفلة عن النظر والاعتبار ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون إذاً لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال ليسلبوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض(١) ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تنزّه تعالى وتقدّس عما يقول أولئك الظالمون، وتعالى ربنا عما نسبوه إليه من الزور والبهتان تعالياً كبيراً، فإن مثل هذه الفرية مما يتنزه عنه مقامه الأسمى قال الشهاب: وذكر العلوّ بعد عنوانه بـ ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾ في أعلى مراتب البلاغة لأنه المناسب للعظمة والجلال ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي تسبح له الكائنات: وتنزهه وتقدسه الأرض والسموات، ومن فيهن من المخلوقات ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته جلّ وعلا(٢)، فالسموات تسبّح الله في زرقتها، والحقول في خضرتها، والبساتين في نضرتها، والأشجار في حفيفها، والمياه في خريرها، والطيور في تغريدها، والشمس في شروقها وغروبها، والسحب في إمطارها، والكلُّ شاهد بالوحدانية لله.

وفي كل شيء له آية ... تدلّ على أنه واحد

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي ولكن لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء لأنها ليست بلغاتكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه تعالى حليم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، غفورٌ لمن تاب وأناب، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالآخرة جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفياً يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسراره وحكمه ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي وجعلنا على قلوب هؤلاء الكفار أغطية لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً يمنعهم من استماعه ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ

---

(١) هذا أحد وجهين في تفسير الآية الكريمة والوجه الآخر أن المعنى: لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يبتغون سبيلاً إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ويطلبون الزلفى لديه، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير، والوجه الأول أظهر كما يقول العلامة أبو السعود وهو المناسب للآية لقوله تعالى بعدها: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فإنه صريح في الإنكار وأن قولهم فيه محذور عظيم.

(٢) قال في الظلال: «وإنه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض، وكل سابحة في الماء والهواء ومعها سكان السماء، كلها تسبح لله وتتوجه إليه في علاه، وحين تنصت الروح وتصغو قد يلمح من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون» الظلال (١٥/ ٣٩).

البنات، أردفه بذكر شبهتهم في إنكار البعث والنشور، وكرّ عليها بالإبطال والتفنيد، ثم ذكر قصة آدم وإبليس للعظة والاعتبار، وأعقبها بذكر نعمه العظيمة على العباد ثم بالوعيد والتهديد إن أصرّوا على الكفر والجحود.

اللغة: ﴿رُفَاتًا﴾ الرفات: ما تكسّر وبلي من كل شيء كالفُتات والحطام والرُّضاض ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ قال الفراء: يقال أنغض فلانٌ رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل كالمتعجب من الشيء[1] قال الراجز: «أنغض نحوي رأسه وأقنعا» ﴿يَنْزَغُ﴾ يفسد ويهيج الشر والنزغ: الإفساد والإغراء ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ الاحتناك الأخذ بالكلية والاستئصال يقال: احتنك الجرادُ الزرع إذا ذهب به كله ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ اخدع واستخف يقال: أفزّه الخوف واستفزّه إذا أزعجه واستخفه ﴿وَأَجْلِبْ﴾ أصل الإجلاب السَّوقُ بجلبة من السائق وهو الصياح، والجلب والجلبةُ الصوت ﴿وَرَجِلِكَ﴾ الرَّجِلُ جمع راجل وهو الذي يمشي على قدميه ﴿يُزْجِي﴾ يسوق ﴿حَاصِبًا﴾ سحاباً بالحصباء والحصباء هي الحصى الصغار ﴿قَاصِفًا﴾ القاصف ما يقصف الشيء أي يكسره، والريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه أي كسره بشدة، ورعد قاصف شديد الأصوات ﴿تَبِيعًا﴾ طالباً يقال تابع وتبيع وهو النصير والمطالب.

سَبَبُ النُّزُول:

أ- عن ابن عباس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم الجبال فيزرعوا فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت نعطيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا، فقال: لا بل أستأني بهم فنزلت ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾[2] الآية.

ب- لما ذكر تعالى شجرة الزقوم في القرآن قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً يخوفكم بشجرة الزقوم؟ ألستم تعلمون أن النار تحرق الشجر؟ ومحمد يزعم أن النار تنبت الشجر، فهل تدرون ما الزقوم؟ هو التمر والزبد، يا جارية ابغينا تمراً وزبداً، فجاءته به فقال: تزقموا من هذا الذي يخوفكم به محمد، فأنزل الله تعالى ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾[3].

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/٢٢٦.
(٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٦٦.
(٣) زاد المسير ٥/٥٥.

ويتلطفون دائمًا بالحسنى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن الشيطان يفسد ويهيج بين الناس الشر ويثير بينهم الفتنة بالكلمة الخشنة يفلت بها اللسان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان، فكم من كلمات ثمانة تُحدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بدخائل نفوسكم إن شاء يرحمكم بالتوفيق للإيمان، وإن شاء يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي وما جعلناك يا محمد حفيظًا على أعمال الكفار كفيلًا عنهم لتقسرهم على الإيمان إنما أرسلناك نذيرًا فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ انتقال من الخصوص على العموم أي ربك جلَّ وعلا أعلم بعبيده بأحوالهم ومقاديرهم فيختص بالنبوة من شاء من خلقه، وهو أعلم بالسعداء والأشقياء، والآية ردٌّ على المشركين حيث استبعدوا النبوة على رسول الله وقالوا: كيف يكون يتيم أبي طالب نبيًا؟ وكيف يكون هؤلاء الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء؟ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي فضلنا بعض الأنبياء على بعض حسب علمنا وحكمتنا وخصصناهم بمزايا فريدة، فاصطفينا إبراهيم بالخُلَّة، وموسى بالتكليم، وسليمان بالمُلْك العظيم، ومحمدًا بالإسراء والمعراج وجعلناه سيد الأولين والآخرين، وكل ذلك فعل الحكيم العليم الذي لا يصدر شيء إلا عن حكمته ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ أي وأنزلنا الزبور على داود المشتمل على الحكمة وفصل الخطاب ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه تعالى قال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعزيرًا لقد كانوا يقولون إنهم يشفعون لنا عند الله ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون القربة إلى الله، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة، فكيف تعبدونهم معه؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ أي يرجون بعبادتهم رحمته تعالى ويخافون عقابه ويتسابقون إلى رضاه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي عذابه تعالى شديد ينبغي أن يُحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي ما من قرية من القرى الكافرة التي عصت أمر الله وكذبت رسله إلا سيهلكها الله إما بالاستئصال الكلي أو بالعذاب الشديد لأهلها ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي كان ذلك حكمًا مسطورًا في اللوح المحفوظ لا يتغير ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ قال المفسرون: اقترح المشركون على رسول الله ﷺ معجزات عظيمة منها أن يقلب لهم الصفا ذهبًا، وأن يزيح عنهم الجبال، فأخبره تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال، وقد اقتضت حكمته تعالى إمهالهم لأنه علم أن منهم من يؤمن وأن من أولادهم من يؤمن فلهذا السبب ما أجابهم إلى ما طلبوا[1] والمعنى ما منعنا من إرسال

---

(١) انظر سبب النزول المذكور سابقًا.

المعجزات والخوارق التي اقترحها قومك إلا تكذيب من سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله ودمرهم ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي وأعطينا قوم صالح الناقة آية ومعجزة ساطعة واضحة فكفروا بها وجحدوا بعد أن سألوها فأهلكهم الله ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل والرعد والخسوف والكسوف إلا تخويفًا للعباد من المعاصي قال قتادة: إن الله تعالى يخوّف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويرجعون[1] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي واذكر يا محمد حين أخبرناك أن الله أحاط بالناس علمًا في الماضي والحاضر والمستقبل فهو تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم وقد علم أنهم لن يؤمنوا ولو جئتهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وما جعلنا الرؤية التي أريناكها عيانًا ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء إلا امتحانًا وابتلاءً لأهل مكة حيث كذبوا وكفروا وارتد بعض الناس لما أخبرهم بها قال البخاري عن ابن عباس: هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به وليست رؤيا منام[2] ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة الزقوم إلا فتنة أيضًا للناس قال ابن كثير: لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم كذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهكمًا: هاتوا لنا تمرًا وزبدًا وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا[3] ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي ونخوّف هؤلاء المشركين بأنواع العذاب والآيات الزاجرة فما يزيدهم التخويف إلا تماديًا وطغيانًا واستمرارًا على الكفر والضلال، فماذا ينفع معهم الخوارق؟ ما زادتهم خارقة الإسراء والمعراج ولا خارقة التخويف بشجرة الزقوم إلا استهزاءً وإمعانًا في الضلال، ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان سببه إغواء الشيطان ولهذا ذكر قصته عقب ذلك فقال ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى السجود لآدم محتقرًا له ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ استفهام إنكاري أي أأسجد أنا العظيم الكبير لهذا الضعيف الحقير الذي خلقته من الطين؟ كيف يصح للعالي أن يسجد للداني؟ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي قال إبليس اللعين جراءة على الرب وكفرًا به أخبرني عن هذا المخلوق الذي فضلته عليّ وجعلته أكرم مني عندك؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لئن أنظرتني وأبقيتني حيًّا إلى يوم القيامة لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال قال الطبري: أقسم عدو الله فقال لربه: لئن أخرت إهلاكي إلى يوم القيامة لأستأصلنهم ولأستميلنهم ولأضلنهم إلا قليلًا منهم[4] ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ

---

(١) الطبري ١٥/١٠٩ . (٢) الطبري ١٥/١١٠ . (٣) المختصر ٢/٣٨٦.
(٤) الطبري ١٥/١١٦ والمراد بالقليل: المخلصون الذين عصمهم الله .

والوثن، والملك والفلك وإنما يفزع إلى الله تعالى ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾ أي فلما نجاكم من الغرق، وأخرجكم إلى البر أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿وكان الإنسان كفورا﴾ أي ومن طبيعة الإنسان جحود نعم الرحمن، ثم خوّفهم تعالى بقدرته العظيمة فقال ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾ أي أفأمنتم أيها الناس حين نجوتم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض فيغيبكم في باطنها؟ إنكم في قبضة الله في كل لحظة فكيف تأمنون بطش الله وانتقامه بزلزلة أو رجفة أو بركان؟ ﴿أو يرسل عليكم حاصبا﴾ أي يمطركم بحجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلا﴾ أي لا تجدوا من يقوم بأموركم ويحفظكم من عذابه تعالى ﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى﴾ أي يعيدكم في البحر مرة أخرى ﴿فيرسل عليكم قاصفا من الريح﴾ أي يرسل عليكم وأنتم في البحر ريحا شديدة مدمرة، لا تمر بشيء إلا كسرته ودمرته ﴿فيغرقكم بما كفرتم﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ أي لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا أو يطالبنا بتبعة إغراقكم.

تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

الاستفهام الإنكاري ﴿أإذا كنا عظاما﴾ وتكرير الهمزة في ﴿أإنا لمبعوثون﴾ لتأكيد الإنكار وكذلك تأكيده بإنّ واللام للإشارة إلى قوة الإنكار.

التعجيز والإهانة في الأمر ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا﴾.

الطباق بين ﴿يرحمكم﴾ و﴿يعذبكم﴾ وبين لفظ ﴿البر .. والبحر﴾

الإيجاز بالحذف ﴿ولا تحويلا﴾ أي ولا تحويل الضر عنكم حذف لدلالة ما سبق.

المقابلة اللطيفة بين الجملتين ﴿ويرجون رحمته﴾ ، ﴿ويخافون عذابه﴾.

الإسناد المجازي ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾ المنع محال في حقه تعالى لأن الله لا يمنعه عن إرادته شيء، فالمنع مجاز عن الترك أي ما كان سبب ترك إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين.

المجاز العقلي ﴿الناقة مبصرة﴾ لما كانت الناقة سببا في إبصار الحق والهدى نسب إليها الإبصار فهو مجاز عقلي علاقته السببية.

الاستعارة التمثيلية ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ مثّل حال الشيطان في تسلطه على من يغويه بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء لاستئصالهم.

التذييل ﴿إنه كان بكم رحيما﴾ لأنه كالدليل لما سبق من تسيير الفلك وتسخيرها في البحر.

الغالب في لفظ ﴿الرؤيا﴾ أن تكون منامية وإذا كانت بالعين يقال فيها رؤية بالتاء، وقوله تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ جاءت على غير الغالب لأن المراد بها الرؤية البصرية التي رآها رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج وقد تقدم قول ابن عباس: هي رؤيا عين

أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ولو كانت رؤيا منام لما كانت فتنة للناس ولما ارتد بعضهم عن الإسلام.

□ □ □

قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ... إلى ... فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ من آية (٧٠) إلى نهاية آية (٨٩).

المناسبة: لما ذكر تعالى ما امتنَّ به على الناس من تسيير السفن في البحر، ومن نجاتهم من الغرق، تمم ذكر النعمة بما أنعم به على النوع الإنساني من تكريمهم، ورزقهم، وتفضيلهم على سائر المخلوقات، ثم ذكر أحوال الناس ودرجاتهم في الآخرة، ثم حذّر الرسول ﷺ من نزغ أهواء المشركين.

اللغَة: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ الإمام في اللغة: كل من يأتم به غيره سواء كان على هدى أو ضلال ويطلق الإمام على كتاب الأعمال لأن الإنسان يكون تابعاً لكتاب أعماله يقوده إلى الجنة أو النار ﴿فَتِيلًا﴾ الفتيل: القشرة التي في شق النواة ويضرب مثلاً للشيء الحقير التافه ومثله القطمير والنقير ﴿تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ الاستفزاز: الإزعاج بسرعة من الأسباب للحمل على الخروج من الوطن وغيره ﴿تَحْوِيلًا﴾ تغييراً وتبديلاً ﴿لِدُلُوكِ﴾ الدلوك: الغروب يقال دلكت الشمس أي غابت قال أبو عبيدة وابن قتيبة: الدلوك الغروب وأنشد لذي الرمة:

مصابيحُ ليست باللواتي تقودها ... نجومٌ ولا بالآفلات الدوالكِ

وقال الأزهري: أصل الدلوك الميل يقال: مالت الشمس للزوال، ومالت للغروب ﴿غَسَقِ﴾ غسقُ الليل: سواده وظلمته يقال: غسق الليل إذا اشتدت ظلمته ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ التهجد: صلاة الليل بعد الاستيقاظ من النوم، والهجود: النوم، قال الشاعر:

ألا طرقتنا والرفاق هجود ... فباتت بعلات النوال تجود[1]

﴿زَهَقَ﴾ زال وبطل ﴿نَأَى﴾ تباعد والنأي: البعد ﴿ظَهِيرًا﴾ معيناً ونصيراً.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ...﴾[2] الآية.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ

(١) القرطبي ١٠/٣٠٨.
(٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٦٨.

إليهم شيئا قليلا ۝ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ۝ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا ۝ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ۝ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ۝ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ۝ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ۝ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ۝ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ۝ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا ۝ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ۝ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ۝ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا ۝ إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا ۝ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ۝ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا﴾

التفسير: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ أي لقد شرّفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل، والعلم، والنطق، وتسخير جميع ما في الكون لهم ﴿وحملناهم في البر والبحر﴾ أي وحملناهم على ظهور الدواب والسفن ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من لذيذ المطاعم والمشارب قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى وجعلنا رزق الحيوان التبن والعظام وغيرها ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ أي وفضلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهائم والدواب والوحش والطير وغير ذلك ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ أي اذكر يوم الحشر حين ننادي كل إنسان بكتاب عمله ليُسلَّم له وينال جزاءه، والإمام الكتاب الذي سُجّل فيه عمل الإنسان بقوله ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ قال ابن عباس: الإمام ما قدّم وأملى فكُتب عليه، فمن بُعث متقيًا لله جُعل كتابه بيمينه فقرأه واستبشر[1] ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ أي فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه وهم السعداء أولو البصائر والنهى المتقون لله ﴿فأولئك يقرءون كتابهم﴾ أي يقرءون حسناتهم بفرح واستبشار لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم ﴿ولا يظلمون فتيلا﴾ أي ولا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئًا ولو كان بمقدار الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير ﴿فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾ أي فهو في الآخرة أشدُّ عمًى وأشدُّ ضلالًا[2] عن طريق السعادة والنجاة قال قتادة: من كان في هذه الدنيا أعمى عمّا عاين من نعم الله وخلقه وعجائبه، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشد عمى

---

(١) الطبري ١٥/١٢٦ وهذا ما رجحه ابن كثير وقيل: إمام هدى أو إمام ضلالة وقيل نبيهم.

(٢) هذا كله من عمى القلب، وقيل المراد أنه يحشر يوم القيامة أعمى البصر لقوله تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما...﴾ الآية.

وأسهلُ طريقًا ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي وإن كاد الضلال والفُجّار من المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحينا إليك يا محمد من بعض الأوامر والنواهي ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي لتختلق علينا غير ما أوحاه الله إليك وتخالف تعاليمه ﴿وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك صاحبًا وصديقًا قال المفسرون: حاول المشركون محاولات كثيرة ليثنوا رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته منها: مساومتهم له أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم حرامًا كالبيت العتيق الذي حرّمه الله، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس الفقراء، فعصمه الله من شرهم وأخبر أنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره[1] ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي لولا أن ثبتناك على الحق بعصمتنا إياك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي كدت تميل إليهم وتتابعهم على ما طلبوا ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي لو ركنت إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لأن الذنب من العظيم عظيم كبير يستحق مضاعفة العذاب، والغرض من الآية بيان فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلّى عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء، و﴿لَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود أي امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له، فليس في الآية ما يُنقص من قدر الرسول ﷺ وإنما هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي لا تجد من ينصرك منا أو يدفع عنك عذابنا ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي وإن كاد المشركون بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمنًا يسيرًا، فتلك سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من أوطانهم قال قتادة: همّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ولكنّ الله تعالى منعهم من إخراجه حتى أمره بالخروج[2] ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي هذه عادة الله مع رسله في إهلاك كل أمة أخرجت رسولها من بين أظهرهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي لن تجد لها تبديلًا أو تغييرًا ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي وأقم صلاة الفجر، وإنما عبّر عنها بقرآن الفجر لأنه تطلب إطالة القراءة فيها ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي تشهده ملائكة الليل والنهار كما في الحديث «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر» الحديث، قال المفسرون: في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة، فدلوك الشمس

---

(١) قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصومًا، ولكنّ هذا تعريض للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه. القرطبي ١٠/٣٠٠.
(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١/٢٣.

زوالها وهو إشارة إلى الظهر والعصر، وغسق الليل ظلمته وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، وقرآن الفجر صلاة الفجر، فالآية رمزٌ إلى الصلوات الخمس (١) ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أي وقم من الليل بعد النوم متهجداً بالقرآن فضيلةً وتطوعاً لك ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ أي لعل ربك يا محمد يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو مقام «الشفاعة العظمى» قال المفسرون: ﴿عَسَىٰٓ﴾ في كلام الله للتحقيق لأنه وعد كريم وهو لا يتخلف ولهذا قال ابن عباس: عسى من الله واجبة أي تفيد القطع ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ أي قل يا رب أدخلني قبري مُدخل صدق أي إدخالاً حسناً ﴿وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ أي أخرجني من قبري عند البعث إخراجاً حسناً هذا قول ابن عباس، وقال الحسن والضحاك: المراد دخوله المدينة المنورة، وخروجه من مكة المكرمة وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تآمروا على قتله صلوات الله وسلامه عليه (٢) ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ أي اجعل لي من عندك قوة ومنعة تنصرني بها على أعدائك وتُعزّ بها دينك، وقد استجاب الله دعاءه فنصره على الأعداء، وأعلا دينه على سائر الأديان ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ أي سطع نور الحق وضياؤه وهو الإسلام، وزهق الباطل وأنصاره وهو الكفر وعبادة الأصنام، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق نور الإيمان ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ أي إن الباطل وأنصاره لا بقاء له ولا ثبوت لأنه يضمحل ويتلاشى، وإن كانت له صولةٌ وجولة فسرعان ما تزول كشعلة الهشيم ترتفع عالياً ثم تخبو سريعاً، روي أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ فما بقي منها صنمٌ إلا خرّ لوجهه ثم أمر بها فكسرت (٣) ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وننزل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والضلال، ويذهب صدأ النفس من الهوى والدنس، والشح والحسد، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان والحكمة والخير والبر ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ أي ولا يزيد هذا القرآن الكافرين به عند سماعه إلا هلاكاً ودماراً لأنهم لا يصدقون به فيزدادون كفراً وضلالاً ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من صحةٍ، وأمنٍ، وغنًى أعرض عن طاعة الله وعبادته، وابتعد عن ربه غروراً وكبراً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ أي وإذا أصابته الشدائد والمصائب أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله، والآية تمثيلٌ لطغيان الإنسان فإن أصابته النعمة بطر وتكبر، وإن أصابته الشدة أيس وقنط كقوله ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾

---

(١) قال القرطبي: وهذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة بإجماع من المفسرين.

(٢) اختار هذا القول الطبري وهو المشهور، والمعنى الأول أظهر لأنه سبقه لفظ البعث والمراد في الدعاء بالموت على الإيمان والبعث على الإيمان.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٢١/٢٣ وأصل الحديث أخرجه البخاري.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ أي كل واحد يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال، فإن كانت نفس الإنسان مشرقة صافية صدرت عنه أعمال كريمة فاضلة، وإن كانت نفسه فاجرة كافرة صدرت عنه أعمال سيئة شريرة ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي ربكم أعلم بمن اهتدى إلى طريق الصواب وبمن ضل عنه وسيجزي كل عامل بعمله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي يسألك يا محمد الكفار عن الروح ما هي؟ وما حقيقتها؟ فقل لهم إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا ربُّ البرية ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا شيئًا قليلاً لأن علمكم قليل بالنظر إلى علم الله ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي لو أردنا لمحونا هذا القرآن الذي هو منبع الوحي من صدرك يا محمد فإن ذلك في قدرتنا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي لا تجد من يتوكل علينا باسترداده وردِّه إليك بعد ذهابه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لكنْ رحمةً من ربك تركناه محفوظًا في صدرك وصدور أصحابك ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن، وأعطاك المقام المحمود، وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين، والمقصود بالآية الامتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه، والخطاب له عليه السلام والمراد أمته ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي لو اتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبيان من الإنس والجان وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما أطاقوا ذلك، ولو تعاونوا وتساعدوا على ذلك جميعًا فإن هذا أمر لا يستطاع وليس بمقدور أحد ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بيَّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحت لهم الحقَّ بالآيات والعبر والترغيب والترهيب ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي ومع البراهين القاطعة والحجج الواضحة أبى أكثر الناس إلا جحودًا للحق وتكذيبًا لله ورسوله.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الاستعارة ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ الإمام الذي يتقدم الناس في الصلاة وقد استعير هنا لكتاب الأعمال لأنه يرافق الإنسان ويتقدمه يوم القيامة.

٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يضرب مثلاً للقلة أي لا ينقصون من ثواب أجورهم ولا بمقدار الخيط الذي في شق النواة.

٣ - الطباق ﴿عَنْ فِتْنَةِ الْمُحْيَا وَيَصْدُقُ الْكَذِبِ﴾

٤ - المجاز المرسل ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أطلق الجزء على الكل أي قراءة الفجر والمراد بها الصلاة لأن القراءة جزء منها فالعلاقة الجزئية.

٥ - الإظهار في مقام الإضمار لمزيد الاهتمام والعناية ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ بعد قوله ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾

٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ بعد ذكر

كتاب الأعمال.

٧- المقابلة اللطيفة بين ﴿أدخلني مُدخل صدق﴾ ﴿وأخرجني مُخرج صدق﴾ وبين ﴿جاء الحق﴾ ﴿وزهق الباطل﴾.

٨- إسناد الخير إلى الله والشر للغير ﴿أنعمنا على الإنسان﴾ ﴿وإذا مسه الشر﴾ تعليمًا للأدب مع الله تعالى.

لطيفة: ذكر أن ملحدًا ممن ينكر المجاز والاستعارة في القرآن الكريم جاء إلى شيخ فاضل عالم منكرًا عليه دعوى المجاز - وكان ذلك الملحد أعمى - فقال له الشيخ: ما تقول في قوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾ هل المراد بالعمى الحقيقة وهو عمى البصر، أم المراد به المجاز وهو عمى البصيرة؟ فبهت الضال وانقطعت حجته.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ... إلى ... ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا﴾ من آية (٩٠) إلى آية (١١١) نهاية السورة الكريمة.

المناسبة: لما ذكر تعالى القرآن وما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدق النبي الأمي، وتحداهم فظهر عجزهم بوضوح إعجازه، ذكر هنا التمادي على عناد الكفار وضلالهم باقتراح خوارق مادية غير القرآن العظيم، ثم ذكر قصة موسى وتكذيب فرعون له مع كثرة الخوارق والمعجزات التي ظهرت على يديه تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيب المشركين، ثم ختم السورة الكريمة بدلائل القدرة والوحدانية.

اللغة: ﴿كِسَفًا﴾ قطعًا جمع كِسْفة كقطعة وزنًا ومعنى يقال: كسفت الثوب أكسفه كسفًا إذا قطعته قطعًا قال الفراء: سمعت أعرابيًا يقول للبزاز أعطني كِسفةً يريد قطعة[1] ﴿قبيلا﴾ معاينة ﴿ترقى﴾ تصعد ﴿خبت﴾ خبت النار: سكن لهبها، وخمدت: سكن جمرها، وهمدت: طفئت جملة[2] ﴿قتورا﴾ بخيلا ﴿مثبورا﴾ الثبور: الهلاك يقال: ثبر الله العدوَّ أهلكه ﴿لفيفا﴾ اللفيف: الجمع من القوم من أخلاط شتى قال الجوهري: اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى يقال: جاء القوم بلفهم ولفيفهم ﴿مُكث﴾ المُكث: التطاول في المدة يقال: مكث إذا أطال الإقامة ﴿تخافت﴾ خافت في الكلام أسرّه بحيث لا يكاد يسمعه أحد ﴿الأذقان﴾ جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين قال الشاعر:

فخرّوا لأذقان الوجوه تنوشهم ... سباعٌ من الطير العوادي وتنتف

سبب النزول:

أ- عن ابن عباس أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه إنَّ أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فجاءهم سريعًا -

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/٥٦ (٢) البحر ٦/٩٦.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي يُسحبون يوم القيامة على وجوههم تجرُّهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم كما يُفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أي يُحشرون حال كونهم عميًا وبكمًا وصمًّا يعني فاقدي الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ثم يردُّ الله إليهم أسماعهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم، عن أنس قيل يا رسول الله: كيف يُحشر النَّاسُ على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[1] ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي مستقرهم ومقامهم في جهنم كلما سكن لهيبها وخمدت نارها زدناهم نارًا ملتهبة وهجًا وجمرًا[2] ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله وتكذيبهم بالبعث والنشور وقولهم أئذا أصبحنا عظامًا نخرة، وذرات متفتتة سنُخلق ونبعث مرة ثانية؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي أولم ير هؤلاء المشركون أن الله العظيم الجليل الذي خلق هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه قادرٌ على إعادة جسد الإنسان بعد فنائه؟ فإن القادر على الإحياء قادر على الإعادة بطريق الأحرى قال في البحر: نبَّههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وهو استفهام إنكار وتوبيخ على استبعادهم الإعادة، واحتجاج عليهم بأنهم قد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التي بعضُ ما تحويه البشرُ، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم ثم ينكرون إعادته[3] ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جعل لهؤلاء المشركين موعدًا محدَّدًا لموتهم وبعثهم، لا شك ولا ريب في مجيئه ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي أبى هؤلاء الكافرون الظالمون - مع وضوح الحق وسطوعه - إلا جحودًا وتماديًا في الكفر والضلال ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين، المقترحين للخوارق والمعجزات: لو كنتم تملكون خزائن رزق الله ونِعَمه التي أفاضها على العباد ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾ أي إذًا لبخلتم به وامتنعتم عن الإنفاق خوفًا من نفادها ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ أي وكان الإنسان شحيحًا مبالغًا في البخل قال ابن عباس: ﴿قَتُورًا﴾ أي بخيلاً منوعًا وقال الزمخشري: ولقد بلغ هذا الوصف بالشُّحّ الغاية التي لا يبلغها الوهم[4] ثم ذكر تعالى أن كثرة الخوارق لا تُنشئ الإيمان في القلوب الجاحدة، وها هو ذا موسى قد أوتي تسع آيات بينات ثم كذَّب بها فرعون وملؤه فحلَّ بهم الهلاك جميعًا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهي «العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم،

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) قال في التسهيل: المراد: كلما أكلت لحومهم فسكن لهبها بُدِّلوا أجسادًا أخر، ثم صارت ملتهبة أكثر مما كانت.

(٣) الكشاف ٢/٦٩٦. (٤) التفسير الكبير ٢١/٦٥.

بين يدي السورة

* سورة الكهف من السور المكية، وهي إِحدى سور خمس بُدئت بـ ﴿الحمدُ لله﴾ وهذه السور هي "الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر" وكلُّها تبتدئ بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء، والجلال والكمال.

* تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة، والإِيمان بعظمة ذي الجلال. أما الأولى فهي قصة "أصحاب الكهف" وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم، ولجئوا إِلى غارٍ في الجبل، ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة.

* والقصة الثانية: قصة موسى مع الخضر، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح "الخضر" ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة، وحادثة قتل الغلام، وبناء الجدار.

* والقصة الثالثة: قصة "ذي القرنين" وهو ملك مكَّن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها، وما كان من أمره في بناء السد العظيم.

* وكما اشتملت السورة - في سبيل هدفها - هذه القصص الثلاث، اشتملت أمثلة واقعية ثلاثة، لبيان أن الحقَّ لا يرتبط بكثرة المال والسلطان، وإِنما هو مرتبط بالعقيدة، المثل الأول: للغني المزهو بماله، والفقير المعتز بعقيدته وإِيمانه، في قصة أصحاب الجنتين. والثاني: للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال، والثالث: مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إِبليس عن السجود لآدم، وما ناله من الطرد والحرمان، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار.

التسمية: سميت "سورة الكهف" لما فيها من المعجزة الربانية، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف.

☐ ☐ ☐

قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ...﴾ إلى ... ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ من آية (1) إلى نهاية آية (26).

اللغة: ﴿بَاخِعٌ﴾ قاتلٌ ومهلكٌ قال الليث: بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً وأصل البخع

الجهد كما قال الفراء ﴿جُرُزًا﴾ الجرز: الأرض التي لا نبات عليها ﴿الْكَهْفِ﴾ النقب المتسع في الجبل وإذا لم يكن متسعًا فهو غار ﴿وَالرَّقِيمِ﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف ﴿شَطَطًا﴾ الشطط: الجور والغلو وتعدي الحد قال الفراء: اشتط في الأمر جاوز الحد، وشطّ المنزل بَعُدَ ﴿تَزَاوَرُ﴾ تتنحى وتميل من الازورار بمعنى الميل قال عنترة: وازورّ من وقع القنا بلبانه «الوصيد» الفناء أي فناء الكهف ﴿فَجْوَةٍ﴾ متسع من المكان ﴿وَرِقِكُمْ﴾ الورِق: اسمٌ للفضة سواءً كانت مضروبة أم لا ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أطلعنا ﴿تُمَارِ﴾ تجادل والمراء: المجادلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾.

التفسير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ أي الثناء الكامل مع التعظيم والإجلال لله الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ أي لم يجعل فيه شيئًا من العوج لا في ألفاظه ولا في معانيه، وليس فيه أي عيبٍ أو تناقض ﴿قَيِّمًا﴾ أي مستقيمًا لا اختلاف فيه ولا تناقض، قال الطبري: هذا من المُقدَّم والمؤخر أي أنزل الكتاب قيّمًا ولم يجعل له عوجًا يعني مستقيمًا لا اختلاف فيه ولا تفاوت، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق[1]، ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكافرين عذابًا شديدًا من عنده تعالى ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي ويبشر المصدقين بالقرآن الذين يعملون الأعمال الصالحة ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي ويخوّف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم قال البيضاوي: خصَّهم بالذكر وكرَّر الإنذار استعظامًا لكفرهم: وإنما لم يذكر المُنذَر به استغناءً بتقدم ذكره[2] ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بذلك الافتراء الشنيع شيء من العلم أصلاً ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ أي ولا لأسلافهم الذين قلّدوهم فتاهوا جميعًا في بيداء الجهالة والضلالة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي عظمت تلك المقالة الشنيعة كلمةً قبيحة ما أشنعها وأفظعها؟ خرجت من أفواه أولئك المجرمين، وهي في غاية الفساد والبطلان ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا كذبًا وسفهًا وزورًا ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ أي مهلك وقاتلٌ نفسك يا محمد ومهلكها غمًّا وحزنًا على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن حسرةً وأسفًا عليهم فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم، والآية تسليةٌ للنبي عليه السلام ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أي جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ومتاع وذهب وفضة وغيرها زينة للأرض كما زينا السماء بالكواكب ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لنختبر الخلق أيهم أطوع لله وأحسن عملاً لآخرته ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي سنجعل ما عليها من الزينة والنعيم حطامًا وركامًا حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة بعد أن كانت خضراء بهيجة. قال القرطبي: الآية وردت لتسلية النبي ﷺ والمعنى: لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحانًا واختبارًا لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظمنَّ عليك كفرهم فإنا سنجازيهم[3] ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾؟ بدء قصة أصحاب الكهف، والكهفُ الغار المتسع

---

(١) الطبري ١٥/١٩٠ (٢) البيضاوي ٣/٢.
(٣) القرطبي ١٠/٣٥٤

في الحمل. والرقيم: اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف على المشهور والمعنى: لا تظنَّ يا محمد أن قصة أهل الكهف ـ على غرابتها ـ هي أعجبُ آيات الله، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف. قال مجاهد: أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم[1] ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾[2] أي اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل وجعلوه مأواهم ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة مغفرة ورزقاً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي أصلح لنا أمرنا كله واجعلنا من الراشدين المهتدين ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي ألقينا عليهم النوم في الغار سنين عديدة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل لنرى أي الفريقين أدقُّ إحصاءً للمدة التي مكثوها في الكهف؟ قال في التسهيل: والمراد بالحزبين: أصحابُ الكهف، والذين بعثهم الله إليهم حتى رأوهم[3] وقال مجاهد: الحزبان من أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا في المدة التي لبثوها في الكهف فقال بعضهم: يومًا أو بعض يوم وقال آخرون: ربكم أعلم بما لبثتم[4]، والقول الأول مروي

---

(١) زاد المسير ٥/١٠٨.

(٢) خلاصة قصة أصحاب الكهف ـ كما ذكرها المفسرون ـ أن ملكاً جباراً يسمى «دقيانوس» ظهر في بلدة من بلاد الروم بعد زمن عيسى عليه السلام، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزناً شديداً، وبلغ خبرهم الملك الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عنده توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ فقال لهم: إنكم شبان حديثة أسنانكم وقد أخرتكم إلى الغد لتروا رأيكم، فهربوا الليلة ومروا براعٍ معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح أووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك: سدّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً، وألقى الله على أهل الكهف النوم فظلوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائة وتسع سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً وطلبوا منه التخفي والحذر، فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت، ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه: لعلي أخطأت الطريق إلى البلدة؟ ثم اشترى طعاماً ودفع النقود للبائع فجعل يقلبها في يده ويقول: من أين حصلت على هذه النقود؟ واجتمع الناس وأخذوا يتعرفون تلك النقود ويتعجبون، ثم قالوا: من أين لك هذه، لعلك وجدت كنزاً؟ فقال: لا والله ما وجدت كنزاً، إنها دراهم قومي، فقالوا له: إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك دقيانوس، قال: وما فعل دقيانوس؟ قالوا: مات من قرون عديدة، قال: والله ما يصدقني أحد بما أقوله، لقد كنا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك ـ وكان مؤمناً صالحاً ـ فلما سمع خبره خرج الملك وأجناده وأهل البلدة معه ووصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجلبة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرآهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكونوا آية للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس: لنتخذن عليهم مسجداً.

(٣) التسهيل ٢/١٨٣.
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجد له من يهديه ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي لو رأيتهم أيها الناظر لحسبتهم أيقاظاً لانفتاح عيونهم وتقلبهم والحال أنهم نيام ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي ونقلبهم من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض أجسادهم ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي وكلبهم الذي تبعهم ماد ذراعيه بفناء الكهف كأنه يحرسهم ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هارباً ولملئت منهم رعباً وذلك بما ألبسهم الله من الهيبة فرؤيتهم تثير الرعب إذ يراهم الناظر كالأيقاظ يتقلبون ولا يستيقظون ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي كما أنمناهم كذلك بعثناهم من النوم وأيقظناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم ولبثهم في الغار ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي قال أحدهم كم مكثتم في هذا الكهف؟ فقالوا: مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم. قال المفسرون: إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت فقالوا: لبثنا يوماً، ثم رأوها لم تغرب فقالوا: أو بعض يوم، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي قال بعضهم: الله أعلم بمدة إقامتكم ولا فائدة من البحث عنها فخذوا بما هو أهم وأنفع لكم فنحن الآن جياع ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي فأرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي فليختر أحل وأطيب الطعام فليشتر لنا منه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي وليتلطف في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي إن يطلعوا عليكم ويظفروا بكم يقتلوكم بالحجارة أو يردوكم إلى دينهم الباطل ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي وإن عدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخير أبداً، وهكذا شأن الفتية بعد يقظتهم خائفين حذرين أن يقف عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان ولذلك فقد أوصوا صاحبهم بالتلطف بالخروج والشراء وأخذ الحيطة والحذر ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي وكما بعثناهم من نومهم كذلك أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها، فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور فإن القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أعثرهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ أي قال بعض الناس: ابنوا على باب كهفهم بنياناً ليكون علماً عليهم ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي قال أصحاب الأمر وهم الأكثرية الغالبة: لنتخذن على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد الله فيه ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ﴾

كَلْبُهُمْ﴾ أي سيقول هؤلاء الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب هم ثلاثة رجال رابعهم كلبهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي ويقول البعض: إنهم خمسة سادسهم الكلب قذفًا بالظن من غير يقين ولا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعة والثامن هو الكلب ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي الله أعلم بحقيقة عددهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة إن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة[1] قال المفسرون: إن الله تعالى لمّا ذكر القول الأول والثاني أردفه بقوله ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء، فكأنه أقر قائله ثم نبّه رسوله إلى الأفضل والأكمل وهو ردُّ العلم إلى علام الغيوب ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في عدتهم إلا جدال متيقن عالم بحقيقة الخبر ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لا تسأل أحدًا عن قصتهم فإن فيما أوحي إليك الكفاية ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي لا تقولنَّ لأمرٍ عزمت عليه إني سأفعله غدًا إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت: إن شاء الله قال ابن كثير: سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال: «غدًا أجيبكم» فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يومًا[2] ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا نسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت فقلها لتبقى نفسك مستشعرة عظمة الله ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي لعلَّ الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة وتسع سنين، وهذا بيانٌ لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي الله أعلم بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى المختص بعلم الغيب وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيم الخبير ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره بكل موجود، وما أسمعه لكل مسموع، يدرك الخفيات كما يدرك الجليات ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي ليس للخلق ناصرٌ ولا معين غيره تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي ليس له شريك ولا مثيل ولا نظير، ولا يقبل في قضائه وحكمه أحدًا لأنه الغني عما سواه.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ .. ﴿وَيُنذِرَ﴾ وبين ﴿يَهْدِ﴾ ... و﴿يُضْلِلْ﴾ وبين ﴿أَيْقَاظًا﴾ .. و﴿رُقُودٌ﴾ وبين ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾.

٢- الطباق المعنوي بين ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ .. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ لأن معنى الأول أنمناهم والثاني أيقظناهم.

٣- الجناس الناقص بين ﴿قَامُوا﴾ .. و﴿فَقَالُوا﴾.

(١) زاد المسير ٥/١٢٦ (٢) مختصر ابن كثير ٢/٤١٥.

٤- الإطناب بذكر الخاص بعد العام ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ لشناعة دعوى الولد لله، وفيه من بديع الحذف وجليل الفصاحة حذف المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأسًا شديدًا، ثم ذكر المفعول الأول وحذف الثاني في قوله: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ عذابًا شديدًا فحذف العذاب لدلالة الأول عليه وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثاني عليه، وهذا من ألطف الفصاحة.

٥- صيغة التعجب ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾.

٦- الاستعارة التمثيلية ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ شبه حاله عليه السلام مع المشركين بحال من فارقته الأحباب فهمّ بقتل نفسه أو كاد يهلك حزنًا ووجداً عليهم.

٧- الاستعارة التبعية ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ شبهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان كما تضرب الخيمة على السكان وكذلك يوجد استعارة في ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لأن الربط هو الشد والمراد شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية.

□□□

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ..﴾ إلى قوله ..﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٥٣).

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة أهل الكهف وهي تمثل صور التضحية والبطولة في سبيل العقيدة والإيمان، أعقبها بذكر قصة صاحب الجنتين وهي نموذج آخر للعقيدة ممثلة في قصة الأخوين من بني إسرائيل. المؤمن المعتز بإيمانه، والكافر وهو صاحب الجنتين، وما فيها من عبر وعظات، وفي ثنايا الآيات جاءت بعض التوجيهات القرآنية الكريمة.

اللغة: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ وأصله من لحد إذا مال، ومن لجأت إليه فقد ملت إليه هكذا قال أهل اللغة ﴿فُرُطًا﴾ مجاوزًا للحد من قولهم فرسٌ فُرُط إذا كان متقدمًا للخيل، قال الليث: الفُرُط الأمر الذي يفرّط فيه قال الشاعر:

لقد كلفتني شططًا   وأمرًا خائبًا فُرُطًا[١]

﴿سُرَادِقُهَا﴾ السُّرادق: السور والحائط ﴿الْمُهْلِ﴾ كل ما أذيب من المعادن قال أبو عبيدة: كل شيء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المُهل ﴿سُندُسٍ﴾ السندس: الرقيق من الحرير ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الإستبرق: الغليظ من الحرير وهو الديباج قال الشاعر:

تراهنّ يلبسن المشاعر مرةً   وإستبرق الديباج طورًا لباسها[٢]

﴿الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة وهي السرير المزيّن بالثياب والستور كسرير العروس ﴿حُسْبَانًا﴾ جمع حسبانة وهي الصاعقة ﴿هَشِيمًا﴾ الهشيم: اليابس المتكسر من النبات ﴿نُغَادِرْ﴾ نترك.

(١) التفسير الكبير ٢١/١١٨.   (٢) البحر ٦/٩٤.

آيات الذكر الحكيم ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يغيّر أو يبدل كلام الله ﴿ولن تجد من دونه ملتحدًا﴾ أي لن تجد ملجأً غير الله تعالى تلجأ إليه ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿يريدون وجهه﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف. قال المفسرون: كان عليه السلام حريصًا على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريدًا لزينة الدنيا قط، فأُمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ أي تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر. قال ابن عباس: لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة[١] ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله، وقد شُغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا. قال المفسرون: نزلت في عُيينة بن حصن وأصحابه أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسي، وعليه شملة صوف قد عرق فيها فقال عيينة للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادة مضر وأشرافها إن أسلمنا يسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء، فنحّهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلسًا ولهم مجلسًا، فهمّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أُمرت أن أصبر نفسي معهم» ﴿واتبع هواه﴾ أي سار مع هواه وترك أمر الله ﴿وكان أمره فرطًا﴾ أي كان أمره ضياعًا وهلاكًا ودمارًا ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ظاهره أمرٌ وحقيقته وعيدٌ وإنذار أي قل يا محمد لهؤلاء الغافلين: لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا، كقوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقها﴾ أي هيأنا للكافرين بالله ورسوله نارًا حامية شديدة أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أغيثوا بماء شديد الحرارة كالنحاس المذاب أو كعكر الزيت المغلي يشوي وجوههم إذا قُرب منهم من شدة حره، وفي الحديث «ماء كعكر الزيت فإذا قُرّب إليه سقطت فروة وجهه فيه»[٢] أي سقطت جلدة وجهه فيه أعاذنا الله من جهنم ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقًا﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يغاثون به وساءت جهنم منزلاً ومقيلاً ومرتفقًا يرتفق به أهل النار ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ لما ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، أي إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه بل نزيده وننميه ﴿أولئك لهم جنات عدن﴾ أي لهم جنات إقامة ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة ﴿يحلون فيها من أساور من

---

(١) المختصر ٢/٤١٤ (٢) أخرجه أحمد والترمذي

ذَهَبٍ﴾ أي يحلون في الجنة بأساور الذهب قال المفسرون: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور: سوارٌ من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، لأن الله تعالى قال: ﴿وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وقال ﴿وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وفي الحديث «تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء» ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي وهم رافلون في ألوان من الحرير، برقيق الحرير وهو السندس، وبغليظه وهو الإستبرق. قال الطبري: معنى الآية أنهم يلبسون من الحلي أساور من ذهب، ويلبسون من الثياب السندس وهو ما رق من الديباج، والإستبرق وهو ما غلظ منه وثخن[1] ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي متكئين في الجنة على السرر المذهبة المزينة بالثياب والستور قال ابن عباس: الأرائك الأسرة من ذهب وهي مكللة بالدر والياقوت عليها الحجال، الأريكةُ ما بين صنعاء إلى أيلة، وما بين عدن إلى الجابية[2] ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي نعم ذلك جزاء المتقين، وحسنت الجنة منزلاً ومقيلاً لهم ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي اضرب لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء هذا المثل قال المفسرون: هما أخوان من بني إسرائيل، أحدهما مؤمن، والآخر كافر، ورثا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بماله حديقتين، وأنفق المؤمن ماله في مرضاة الله حتى نفد ماله فعيَّره الكافر بفقره، فأهلك الله مال الكافر، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله، والكافر الذي أبطرته النعمة ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي جعلنا لأحدهما - وهو الكافر - بستانين من شجر العنب، مثمرين بأنواع العنب اللذيذ ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي أحطناهما بسياج من شجر النخيل ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي جعلنا وسط هذين البستانين زرعًا وينفجر بينهما نهر، وإنه لمنظرٌ بهيجٌ يصوره القرآن أروع تصوير، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكروم، المحفوفتين بأشجار النخيل، تتوسطهما الزروع وتنفجر بينهما الأنهار ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي كلُّ واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها يانعًا في غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئًا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي جعلنا النهر يسير وسط الحديقتين ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يحاوله ويخاصمه ويفتخر عليه ويتعالى: أنا أغنى منك وأشرف، وأكثر أنصارًا وخدمًا ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار وهو ظالم لنفسه بالعُجب والكفر ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي ما أعتقد أن تفنى هذه الحديقة أبدًا ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة، أنكر فناء جنته وأنكر البعث والنشور ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي ولئن كان هناك بعثٌ - على سبيل الفرض والتقدير كما تزعم - فسوف يعطيني الله خيرًا من هذا وأفضل ﴿مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعًا وعاقبة، فكما أعطاني هنا في الدنيا فسيعطيني في الآخرة لكرامتي عنده

(١) الطبري ١٥/٢٤٣.
(٢) القرطبي ١٠/٣٩٨.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي قال ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ أي أجحدت الله الذي خلق أصلك من تراب ثم من مني ثم سوّاك إنساناً سوياً؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي لكنْ أنا أعترف بوجود الله فهو ربي وخالقي ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي لا أشرك مع الله غيره، فهو المعبود وحده لا شريك له ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي فهلا حين دخلت حديقتك وأعجبت بما فيها من الأشجار والثمار قلت: هذا من فضل الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي قال المؤمن للكافر: إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتز عليّ بكثرة مالك وأولادك ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ جواب الشرط أي إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني جنةً خيراً من جنتك لإيماني به، ويسلب عنك نعمته لكفرك به ويخرب بستانك ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي يرسل عليها آفة تجتاحها أو صواعق من السماء تدمرها ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي تصبح الحديقة أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم، جرداء لا نبات فيها ولا شجر ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر، وحينئذٍ لا تستطيع طلبه فضلاً عن إعادته ورده، وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة فيتحقق رجاء المؤمن بزوال النعيم عن الكافر، ويجأة ينقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار إلى مشهد البوار والدمار ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي هلكت جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب. قال القرطبي: أي يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً، لأن هذا يصدر من النادم ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً يباباً ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي وهو نادم على إشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة، تدم حين لا ينفع الندم قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي لم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي وما كان بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافتخر بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال تكون النصرة لله وحده لا يقدر عليها أحد فهو الوليُّ الحق الذي ينصر أولياءه ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وهو خيرٌ عاقبةً لمن اعتمد عليه ورجاه ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ هذا مثلٌ آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها، بماءٍ نزل من السماء فخرج به النبات زاهياً غزيراً، وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً

تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي قادرًا على الإفناء والإحياء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي الأموال والأولاد زينة هذه الحياة الفانية، ذلك مثلها وهذه زينتها والكل إلى فناء وزوال لا يغتر بها إلا الأحمق الجهول ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي أعمال الخير تبقى ثمرتها أبد الآباد فهي خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله، قال ابن عباس: الباقيات الصالحات: هي الصلوات الخمس، وعنه أيضًا: أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة[1] وفي الحديث «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات» ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها ونسيّرها كما تسير السحاب فتجعلها هباءً منبثًا ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان، قد نفضت جبالها وهدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي جمعنا الأولين والآخرين لموقف الحساب فلم نترك أحدًا منهم ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي عُرضوا على رب العالمين مصطفّين، لا يحجب أحدٌ أحدًا وفي الحديث: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفًا» قال مقاتل: يُعرضون صفًا بعد صف كالصفوف في الصلاة كل أمة وزمرة صفًا[2] ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع: لقد جئتمونا حفاة عراة لا شيء معكم من المال والولد كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي زعمتم أن لا بعث ولا جزاء، ولا حساب ولا عقاب ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي وضعت صحائف أعمال البشر وعرضت عليهم ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي فترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها؟! قال تعالى ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ أي مكتوبًا مثبتًا في الكتاب ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي لا يعاقب إنسانًا بغير جرم، ولا ينقص من ثواب المحسن ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي اذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي سجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة[3] ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي أفتتخذونه يا بني آدم وأولاده الشياطين أولياء من دون الله وهم لكم أعداء ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة

---

(١) هذا من ترجيح الطبري قال القرطبي: وهو الصحيح إن شاء الله.

(٢) القرطبي ١٠/٤١٧.

(٣) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتيب «النبوة والأنبياء» عن أن إبليس لم يكن من الملائكة ص ٢٢٨.

الرحمن ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السموات والأرض ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي وما كنت متخذ الشياطين أعواناً في الخلق فكيف تطيعونهم من دوني؟ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي ويوم يقول الله للمشركين: ادعوا شركائي ليمنعوكم من عذابي ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكاً لا يجتازها هؤلاء وهي النار ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي عاينوها وهي تتغيظ حنقاً عليهم فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي لم يجدوا عنها معدلاً وذلك لأنها أحاطت بهم من كل جانب فلم يقدروا على الهرب منها.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وبين ﴿فَلْيُؤْمِن ... فَلْيَكْفُرْ﴾.

٢- المقابلة اللطيفة بين الجنة ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ والنار ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

٣- التشبيه ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ ويسمى مرسلاً مفصلاً لذكر الأداة ووجه الشبه.

٤- التشبيه التمثيلي ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد التشبيه التمثيلي في ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ﴾.

٥- المبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً.

٦- الكناية ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ كناية عن التحسر والندم لأن النادم يضرب بيمينه على شماله.

٧- الإنكار والتعجيب ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾.

تنبيه: الجمهور على أن الباقيات الصالحات هي الكلمات المأثورة: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد ورد بذلك حديث تقدم ذكره، وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «لقيتُ إبراهيم ليلة أسري بي فقال يا محمد: أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» رواه الترمذي.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ... إلى ... مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ من آية (٥٤) إلى نهاية آية (٨٢).

المناسبة: لما ضرب تعالى المثل في قصة صاحب الجنتين، وضرب المثل للحياة الدنيا وما فيها من نعيم خادع ومتاع زائل، نبّه تعالى إلى الغاية من ذكر هذه الأمثال وهي العظة والاعتبار، ثم ذكر القصة الثالثة قصة موسى مع الخضر، وما فيها من أمور غيبية عجيبة.

اللغَة: ﴿قُبُلًا﴾ مقابلة وعياناً ﴿مَوْئِلًا﴾ منجىً وملجأ قال ابن قتيبة: وأل فلان إلى كذا لجأ إليه وألاً ووءولاً والموئل: الملجأ قال الأعشى:

وقد أخالس ربَّ البيت غفلته ... وقد يحاذرُ مني ثم لا يئلُ[1]

﴿حُقُبًا﴾ جمع حقبة وهي السنة والمراد بالحُقُب هنا الزمان الطويل ﴿سَرَبًا﴾ السرب: المسلك في جوف الأرض ﴿نَصَبًا﴾ النصب: التعب والمشقة ﴿إِمْرًا﴾ أمراً عظيماً يقال: أمِر الأمر إذا عظم ﴿نُكْرًا﴾ منكراً فظيعاً جداً.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

---

(١) البحر المحيط ٦/١٣٩.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بيّنا في هذا القرآن الأمثال وكررنا الحجج والمواعظ ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي وطبيعة الإنسان الجدل والخصومة لا يُنيب لحق، ولا ينزجر لموعظة ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي ما منع الناس من الإيمان حين جاءهم الهدى من الله ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي ومن الاستغفار من الذنوب والآثام ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي يأتيهم عذاب الله عيانًا ومقابلة، ومعنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به عيانًا ومواجهة كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لغرض التبشير والإنذار لا للإهلاك والدمار، مبشرين لأهل الإيمان ومنذرين لأهل العصيان ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي ومع وضوح الحق يجادل الكفار بالباطل ليبطلوا به الحق ويطمسوه فهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون العذاب لا يريدون الإيمان وإنما يستهزئون ويسخرون ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أي اتخذوا القرآن وما خُوّفوا به من العذاب سخرية واستهزاء ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي لا أحد أظلم ممن وُعظ بآيات الله البينة، وحججه الساطعة، فتعامى عنها وتناساها ولم يلق لها بالاً ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي نسي ما عمله من الجرائم الشنيعة، والأفعال القبيحة، ولم يتفكر في عاقبتها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقه هذا القرآن وإدراك أسراره، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي وفي آذانهم صممًا معنويًا يمنعهم من سماعه سماع تفهم وانتفاع ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي وإن دعوتهم إلى الإيمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبدًا لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون، فللهدى قلوب متفتحة مستعدة لقبول الإيمان وهؤلاء كالأنعام ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي وربك يا محمد واسع المغفرة عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ أي لو عاقبهم بما اقترفوا من المعاصي والإجرام لعجّل لهم عذاب الدنيا، ولكنه تعالى يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب الذي يستعجلونه به رحمةً بهم، وقد جرت سنته بأن يمهل الظالم ولكن لا يهمله ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أي لهم موعد آخر في القيامة يرون فيه الأهوال لن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكناهم حين ظلموا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي جعلنا لهلاكهم وقتًا محددًا معلومًا، أفلا يعتبر هؤلاء المكذبون المعاندون؟ والآية وعيد وتهديد لكفار قريش. قال ابن كثير: والمعنى احذروا أيها المشركون أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أعظم نبي وأشرف رسول، ولستم بأعز علينا منهم

(١) هذا خلاصة المعنى الذي ذكره ابن كثير، كذا في مختصر ٢/٤٢٥ .

«اللَّدُنّي» يورثه الله لمن أخلص العبودية له، ولا ينال بالكسب والمشقة وإنما هو هبة الرحمن لمن خصّه الله بالقرب والولاية والكرامة ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتي؟ قال المفسرون: هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبي الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي قال الخضر: إنك لا تستطيع الصبر على ما ترى قال ابن عباس: لن تصبر على صنعي لأني علمتُ من غيب علم ربي ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي كيف تصبر على أمر ظاهره منكرٌ وأنت لا تعلم باطنه؟ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي قال موسى ستراني صابرًا ولا أعصي أمرك إن شاء الله ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم، والمعنى لا تسألني عن شيء مما أفعله حتى أبينه لك بنفسي ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعرفوا الخضر فحملوهما بدون أجر فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحًا من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ أي قال له موسى مستنكرًا: أخرقت السفينة لتغرق الركاب؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي فعلت شيئًا عظيمًا هائلاً، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله مكان الخرق ثم قال للخضر: قومٌ حملونا بغير أجرٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل السفينة لقد فعلت أمرًا منكرًا عظيمًا! ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي ألم أخبرك من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صنيعي؟ ذكّره بلطف في مخالفته الشرط ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي لا تكلفني مشقة في صحبتي إياك وعاملني باليسر لا بالعسر ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ أي فقبل عذره وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فمرا بغلمان يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي قال موسى: أقتلت نفسًا طاهرة لم ترتكب جرمًا ولم تقتل نفسًا حتى تُقتل به ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي فعلت شيئًا منكرًا عظيمًا لا يمكن السكوت عنه.. لم يكن موسى ناسيًا في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصدٌ أن ينكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده، وقال هنا ﴿نُّكْرًا﴾ أي منكرًا فظيعًا وهو أبلغ من قوله ﴿إِمْرًا﴾ في الآية السابقة، ذكر القرطبي أن موسى عليه السلام لما قال للخضر ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في عظم كتفه كافرٌ لا يؤمن بالله أبدًا[1] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي ألم أقل لك أنت على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى

---
(١) القرطبي ١١/٢٢.

مني؟ قال المفسرون: وقّره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب فلما خالف في الثاني واجهه بقوله ﴿لَكَ﴾ لعدم العذر هنا، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصة أمامه ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي إن أنكرت عليك بعد هذه المرة واعترضتُ على ما يصدر منك فلا تصحبني معك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي قد أعذرت إليّ في ترك مصاحبتي فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي مشيا حتى وصلا إلى قرية قال ابن عباس: هي أنطاكية فطلبا طعامًا وكان أهلها لئامًا لا يطعمون جائعًا، ولا يستضيفون ضيفًا، فامتنعوا عن إضافتهما أو إطعامهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي وجدا في القرية حائطًا مائلاً يوشك أن يسقط ويقع ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي مسحه الخضر بيده فاستقام، وقيل إنه هدمه ثم بناه وكلاهما مرويٌّ عن ابن عباس ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي قال له موسى: لو أخذت منهم أجرًا نستعين به على شراء الطعام!! أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله، روي أن موسى قال للخضر: قومٌ استطعمناهم فلم يطعمونا، وضفناهم فلم يضيّفونا ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئت لاتخذت عليه أجرًا ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي قال الخضر: هذا وقت الفراق بيننا حسب قولك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرتها عليّ ولم تستطع عليها صبرًا وفي الحديث «رحم الله أخي موسى لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ولو لبث مع صاحبه لأبصر العجب»[1] ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ هذا بيانٌ وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يطق لها صبرًا والمعنى أما السفينة التي خرقتها فكانت لأناسٍ ضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أردت بخرقها أن أجعلها معيبة لئلا يغتصبها الملك الظالم ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي كان أمامهم ملك كافر ظالم ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي وأما الغلام الذي قتلته فكان كافرًا فاجرًا وكان أبواه مؤمنين وفي الحديث «إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا»[2] ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي فخشينا أن يحملهما حبُّه على متابعته في الكفر والضلال ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولدًا صالحًا خيرًا من ذلك الكافر وأقرب برًّا ورحمة بوالديه ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أي وأما الجدار الذي بنيته دون أجر والذي كان يوشك أن يسقط فقد خبئ تحته كنزٌ من ذهب وفضة لغلامين يتيمين ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي وكان والدهما صالحًا تقيًا فحفظ الله لهما الكنز لصلاح[3] أبويهما. قال المفسرون:

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان. (٢) رواه مسلم.

(٣) قيل: إنه الأب السابع، وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح.

إن صلاح الآباء ينفع الأبناء، وتقوى الأصول تنفع الفروع ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي رحمةً من الله بهما لصلاح أبيهما ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي ما فعلت ما رأيت من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار عن رأيي واجتهادي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الطباق بين ﴿تَسْتَطِيعَ ... تَصْبِرُ﴾ وبين ﴿أَعِيبَهَا ... وَأَقْرَبَ﴾.

٢ - اللف والنشر المرتب ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ فقد جاء بها مرتبة بعد ذكر ركوب السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بطريق اللف والنشر المرتب وهو من المحسنات البديعية.

٣ - الحذف بالإيجاز ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي صالحة حذف لدلالة لفظ ﴿أَعِيبَهَا﴾ وكذلك حذف لفظ كافر من ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ لدلالة قوله تعالى ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

٤ - التغليب ﴿أَبَوَاهُ﴾ المراد باللفظ أبوه وأمه.

٥ - الاستعارة ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ لأن الإرادة من صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبديع المجاز كقول الشاعر:

يريد الرمحُ صدرَ أبي براءٍ ... ويرغب عن دماء بني عقيل[1]

٦ - التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾.

٧ - السجع مراعاة لرؤوس الآيات مثل ﴿سَرَبًا﴾ ﴿نَصَبًا﴾ ﴿عَجَبًا﴾.

٨ - تعليم الأدب ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ومثله قول ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ حيث أسند ما ظاهره شر لنفسه وأسند الخير إلى الله تعالى، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله جل وعلا.

قصة موسى والخضر كما في الصحيحين

عن أُبَيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يردَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أنَّ لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتًا فتجعله في مِكْتَل فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فانطلق موسى، ومعه فتاه «يوشع بن نون» حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المِكْتَل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سَرَبًا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ

(١) الطبري ١٥/ ٢٨٩

نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً - قال ولم يجد موسى النَّصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به - فقال فتاه ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال فكان للحوت سرَباً ولموسى وفتاه عجباً فقال موسى ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا هو مسجّى بثوب فسلَّم عليه موسى فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام؟[1] من أنت؟ قال: أنا موسى. قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه علَّمنيه، وأنت على علم من علم الله علَّمكه لا أعلمه، فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْل - أي بدون أجر - فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قومٌ قد حملونا بغير نَوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسياناً، وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمي وعلمكَ من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال سفيان: وهذه أشدُّ من الأولى ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ فانطلقا ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ فقال الخضر بيده هكذا - أي أشار بيده - فأقامه فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال الخضر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما»! أخرجه الشيخان.

تنبيه: قال العلامة القرطبي: الكرامات للأنبياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء، وما ظهر على يدها حيث هزّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهي ليست بنبية، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار اهـ. القرطبي ١١/ ٢٨.

---

(١) يعني من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام؟

آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴿٨٨﴾ ثم أتبع سببا ﴿٨٩﴾ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها
تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ﴿٩٠﴾ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ﴿٩١﴾ ثم أتبع سببا ﴿٩٢﴾ حتى إذا بلغ بين
السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ﴿٩٣﴾ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض
فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ﴿٩٤﴾ قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما
﴿٩٥﴾ آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا ﴿٩٦﴾
فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ﴿٩٧﴾ قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي
حقا ﴿٩٨﴾ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ﴿٩٩﴾ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ﴿١٠٠﴾
الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴿١٠١﴾ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من
دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴿١٠٢﴾ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ﴿١٠٣﴾ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿١٠٤﴾ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا
﴿١٠٥﴾ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴿١٠٦﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات
الفردوس نزلا ﴿١٠٧﴾ خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴿١٠٨﴾ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد
كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴿١٠٩﴾ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه
فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾.

التفسير: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ أي يسألك اليهود يا محمد عن ذي القرنين ما شأنه؟ وما قصته؟ ﴿قل سأتلو عليكم منه ذكرا﴾ أي قل لهم سأقص عليكم من نبأه وخبره قرآنا ووحيا ﴿إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا﴾ أي يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران، وأعطيناه كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف. قال المفسرون: ذو القرنين هو «الإسكندر اليوناني» ملك المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين، وكان ملكا مؤمنا مكن الله له في الأرض فعدل في حكمه وأصلح، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما روي أن الذين ملكوا الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود وبختنصر[1] ﴿فأتبع سببا﴾ أي سلك طريقه الذي يسره الله له وسار جهة المغرب ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي وصل المغرب ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أي وجد الشمس تغرب في ماء وطين - حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة، فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض قال الرازي: إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر[2] ﴿ووجد عندها قوما﴾ أي وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين قوما من الأقوام ﴿قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا﴾ أي قلنا له بطريق

(١) البحر ٦/١٥٧
(٢) التفسير الكبير ٢١/١٦٦

الإلهام: إما أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان. قال المفسرون: كانوا كفرًا فخيَّره الله بين أن يعذبهم بالقتل، أو يدعوهم إلى الإسلام فيحسن إليهم ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي من أصرَّ على الكفر فسوف نقتله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي ثم يرجع إلى ربه فيعذبه عذابًا منكرًا فظيعًا في نار جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ أي وأما من آمن بالله وأحسن العمل في الدنيا وقدَّم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعم فيها ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي نيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق بل بالسهل الميسور. اختار الملك أسهل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة، والمعاملة الطيبة، والمعونة والتيسير، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقًا بجنوده نحو المشرق ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ أي حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي وجد الشمس تشرق على أقوام ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض، وإذا غربت خرجوا إلى معايشهم قال قتادة: مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قومًا في أسراب عراة، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم. وذُكر لنا أنهم كانوا في مكان لا ينبت عليه نبات ويقال إنهم الزنج[1] ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي كذلك فعل بأهل المشرق من أمن تركه ومن كفر قتله كما فعل بأهل المغرب وقد أحطنا علمًا بأحواله وأخباره، وعتاده وجنوده، فأمره من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقًا ثالثًا بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين، منقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان قال الطبري: والسَّدُّ: الحاجز بين الشيئين وهما هنا جبلان سُدَّ ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزًا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم[2] ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي وجد من وراء السدين قومًا متخلفين لا يكادون يعرفون لسانًا غير لسانهم إلا بمشقة وعسر. قال المفسرون: إنما كانوا لا يفقهون القول لغرابة لغتهم، وبطء فهمهم، وبُعدهم عن مخالطة غيرهم، ولم يفهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي قال القوم لذي القرنين: إن يأجوج ومأجوج - قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويه، منهم مفرطٌ في الطول، ومنهم مفرطٌ في القصر[3] - قومٌ مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر قال المفسرون: كانوا من أكلة لحوم البشر، يخرجون في الربيع فلا

---

(١) زاد المسير ٥/١٨٧، والطبري ١٦/١٤ (٢) الطبري ١٦/١٥

(٣) روي ذلك عن علي وابن عباس

يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابسًا إلا احتملوه ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي هل نفرض لك جزءًا من أموالنا كضريبة وخراج ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي لتجعل سدًّا يحمينا من شر يأجوج ومأجوج قال في البحر: هذا استدعاءٌ منهم لقبول ما يبذلون على جهة حسن الأدب[1] ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي ما منحه الله عليَّ من القدرة والمُلك خيرٌ مما تبذلونه لي من المال ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي لا حاجة لي إلى المال فأعينوني بالأيدي والرجال ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي أجعل بينكم وبينهم سدًّا منيعًا، وحاجزًا حصينًا، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوّع ببناء السد واكتفى بعون الرجال ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي أعطوني قطع الحديد واحملوها إلي في ذلك المكان ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي انفخوا بالمنافيخ عليه ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي حتى جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي أعطوني أصب عليه النحاس المذاب قال الرازي: لما أتوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسدُّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافيخ عليها حتى إذا صارت كالنار صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلدًا[2] ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته، وبهذا السد المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي قال ذو القرنين هذا السدُّ نعمةٌ من الله ورحمة على عباده ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي جعله الله مستويًا بالأرض وعاد متهدمًا كأن لم يكن بالأمس ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي كان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائنًا لا محالة. وهنا تنتهي قصة ذي القرنين ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض من كثرتهم، كاضطراب موج البحر ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية فجمعناهم للحساب والجزاء في صعيد واحد جمعًا لم يتخلف منهم أحد ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ أي أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدوها بأهوالها عرضًا مخيفًا مفزعًا ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي هم الذين كانوا في الدنيا عُميًا عن دلائل قدرة الله ووحدانيته فلا ينظرون ولا يتفكرون ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم قال أبو السعود: وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الأدلة السمعية، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عميٌ صمٌّ[3] ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أفظنَّ الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح بن مريم، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم

(١) البحر ٦/ ١٦٤ (٢) التفسير الكبير ٢١/ ١٧٣ (٣) أبو السعود ٣/ ٢٦٧

عذابي؟ قال القرطبي: وجواب الاستفهام محذوف تقديره: أفحسبوا أن ذلك ينفعهم، أو لا أعاقبهم[1] ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافة لهم كالنُّزُل المعد للضيف. قال البيضاوي: وفيه تهكمٌ بهم وتنبيهٌ على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقر جهنم دونه[2] ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين هل نخبركم بأخسر الناس عند الله؟ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا، لأن الكفر لا ينفع معه طاعة قال الضحاك: هم القسيسون والرهبان يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي يظنون أنهم محسنون بأفعالهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي كفروا بالقرآن وبالبعث والنشور فبطلت أعمالهم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي ليس لهم عند الله قيمةٌ ولا وزن، ولا قدرٌ ولا منزلة وفي الحديث «يؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة»[3] ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي ذلك جزاؤهم وعقوبتهم نار جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنوا بالله وعملوا بما يرضيه ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أي لهم أعلى درجات الجنة وهي الفردوس منزلاً ومستقراً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولاً قال ابن رواحة:

في جنان الفردوس ليس يخافون   خروجاً عنها ولا تحويلا

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ هذا تمثيل لسعة علم الله والمعنى لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحكمه وعجائبه ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ أي لفني ماء البحر على كثرته وانتهى، وكلامُ الله لا ينفد لأنه غير متناه كعلمه جل وعلا ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه حتى يكثر فإن كلام الله لا يتناهى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أنا إنسان مثلكم أكرمني الله بالوحي، وأمرني أن أخبركم أنه واحدٌ أحد لا شريك له ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي فليخلص له العبادة ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي لا يرائي بعمله ولا يبتغي بما يعمل غير وجه الله، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿مطلع ... مغرب﴾.

٢- التشبيه البليغ ﴿جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

---

(١) القرطبي ١١/٦٥ (٢) البيضاوي ٢/٢٣
(٣) ذكره الحافظ في الفتح ٨/٤٢٥

٣ ـ الاستعارة ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ شبّههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض بموج البحر المتلاطم واستعار لفظ يموج لذلك ففيه استعارة تبعية.

٤ ـ الاستعارة أيضاً ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي كانوا ينظرون فلا يعتبرون وتُعرض عليهم الآيات الكونية فلا يؤمنون، ولم تكن أعينهم حقيقةً في غطاء وحجاب وإنما هو بطريق التمثيل.

٥ ـ الجناس الناقص ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ لتغيير الشكل وبعض الحروف، ويسمى أيضاً جناس التصحيف.

٦ ـ الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ؟

٧ ـ المقابلة اللطيفة ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ مقابل ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ...﴾ الآية.

تنبيه: كثيراً ما يرد في القرآن لفظ «حبط» وأصل الحبوط من انتفاخ بطن الدابة حين تأكل نوعاً ساماً من الكلأ ثم تلقى حتفها، وهذا اللفظ أنسب شيء لوصف الأعمال فهي تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف»

بين يدي السورة

* سورة مريم مكية، وغرضها تقرير التوحيد، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، ومحورُ هذه السورة يدور حول التوحيد، والإيمان بوجود الله ووحدانيته، وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين.

* عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئة بقصة نبي الله «زكريا» وولده «يحيى» الذي وهبه على الكبر من امرأةٍ عاقر لا تلد، ولكنّ الله قادرٌ على كل شيء، سميع دعاء المكروب، ويستجيب لنداء الملهوف، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه.

* وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب، تلك هي قصة «مريم العذراء» وإنجابها لطفلٍ من غير أب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار، بعظمة الواحد القهار.

* وتحدثت كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه، ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام: «إسحاق، يعقوب، موسى، هارون، إسماعيل، إدريس، نوحًا» وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة، والهدفُ من ذلك إثبات وحدة الرسالة، وأن الرسل جميعًا جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله، ونبذ الشرك والأوثان.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها، ويكونوا وقودًا لها

* وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد، والشريك، والنظير، وردّت على ضلالات المشركين بأنصع بيان، وأقوى برهان.

التسمية: سميت «سورة مريم» تخليدًا لتلك المعجزة الباهرة، في خلق إنسانٍ بلا أب، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام.

اللغة: ﴿وَهَنَ﴾ ضعف يقال: وهَن يهِنُ فهو واهِنٌ والوهْنُ ضعفُ القوة ﴿وَاشْتَعَلَ﴾ الاشتعال انتشار شعاع النار ﴿عَاقِرًا﴾ العاقر: التي لا تلد لكبر سنها ﴿عِتِيًّا﴾ العِتيّ: النهاية في الكبر واليبس والجفاف يقال: عتا الشيخ كبر وولّى قال الشاعر:

إنما يُعذر الوليدُ ولا يُعذر ... من كان في الزمان عتيًّا[1]

---

[1] القرطبي ١١/ ٨٣.

﴿وحنانًا﴾ الحنان: الشفقة والرحمة والمحبة، وأصله من حنين الناقة على ولدها، وحنانيك تريد رحمتك قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

﴿انتبذت﴾ ابتعدت وتنحت ﴿سويًا﴾ مستوي الخلقة ﴿المخاض﴾ الشدة ووجع الولادة والطلق ﴿سريًا﴾ السري: النهر والجدول لأن الماء يسري فيه ﴿فريًا﴾ الفري: العجيب من الأمر.

﴿كهيعص ﴿١﴾ ذكر رحمت ربك عبده زكريا ﴿٢﴾ إذ نادى ربه نداء خفيا ﴿٣﴾ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴿٤﴾ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا ﴿٥﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴿٦﴾ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴿٧﴾ قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ﴿٨﴾ قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴿٩﴾ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴿١٠﴾ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴿١١﴾ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ﴿١٢﴾ وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ﴿١٣﴾ وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ﴿١٤﴾ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴿١٥﴾ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ﴿١٦﴾ فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴿١٧﴾ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴿١٨﴾ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴿١٩﴾ قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا ﴿٢٠﴾ قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ﴿٢١﴾ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ﴿٢٢﴾ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴿٢٣﴾ فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا ﴿٢٤﴾ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ﴿٢٥﴾ فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ﴿٢٦﴾ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا ﴿٢٧﴾ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴿٢٨﴾ فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ﴿٢٩﴾ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ﴿٣٠﴾ وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ﴿٣١﴾ وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا ﴿٣٢﴾ والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴿٣٣﴾ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴿٣٤﴾ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴿٣٥﴾ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿٣٦﴾ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴿٣٧﴾ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴿٣٨﴾ وأنذرهم

البحر ٦/١٧٧

يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

التفسير: ﴿كهيعص﴾ حروفٌ مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] وتقرأ: «كاف، ها، يا، عين، صاد» ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي هذا ذكرُ رحمة ربك لعبده زكريا نقصُّه عليك يا محمد ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ أي حين ناجى ربه ودعاه بصوتٍ خفي لا يكاد يُسمع قال المفسرون: لأن الإخفاء في الدعاء أدخلُ في الإخلاص وأبعدُ من الرياء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي دعا في ضراعة فقال: يا رب لقد ضعف عظمي وذهبت قوتي من الكبر ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي لم تخيب دعائي في وقتٍ من الأوقات بل عودتني الإحسان والجميل فاستجب دعائي الآن كما كنت تستجيب فيما مضى قال البيضاوي: هذا توسلٌ بما سلف له من الاستجابة، وإنه تعالى عوّده بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يخيّب من أطمعه[2] ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيّعوا الدين ولا يُحسنوا وراثة العلم والنبوة ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي لا تلد لكبر سنها أو لم تلد قطُّ ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ أي فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً يتولاني ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة قال البيضاوي: المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورثون المال[3] ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي اجعله يا رب مرضيًّا عندك. قال الرازي: قدَّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة: أحدها: كونه ضعيفاً، والثاني: أن الله ما ردَّ دعاءه البتة، والثالث: كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم صرّح بسؤال الولد، وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة[4] ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ أي نبشرك بواسطة الملائكة بغلام يسمى يحيى كما في آل عمران ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم يسمَّ أحدٌ قبله يحيى فهو اسم فذٌّ غير مسبوق سمّاه تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه وقال مجاهد: أي ليس له شبيه في الفضل والكمال ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي كيف يكون لي غلام؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابها فكيف وهي الآن عجوز؟! ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي بلغت في الكبر والشيخوخة نهاية العمر. قال المفسرون: كان قد بلغ مائة وعشرين سنة، وامرأته ثمانياً وتسعين سنة، فأراد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي قال الله لزكريا: هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين، وخلقه وإيجاده سهلٌ يسيرٌ عليّ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي كما خلقتك من العدم

---

(١) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة.
(٢) البيضاوي ٢/١٤.
(٣) البيضاوي ٢/١٤.
(٤) التفسير الكبير ٢١/١٨١.

ولم تك شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق يحيى منكما. قال المفسرون: ليس في الخلق هيّن وصعبٌ على الله، فوسيلة الخلق للصغير والكبير، والجليل والحقير واحدة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وإنما هو أمرٌ في اعتبار الناس، فإن القادر على الخلق من العدم قادرٌ على الخلق من شيخين هرمين ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي علامتك ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويّ الخلق ليس بك خرسٌ ولا علة. قال ابن عباس: اعتُقِل لسانه من غير مرض، وقال ابن زيد: حُبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة. لم يكن الإنجيل ظهر بعد لأن هذا قبل ولادة عيسى عليه السلام فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم[1] ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي أشرف عليهم من المصلى وهو بتلك الصفة ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي أشار إلى قومه بأن سبحوا الله في أوائل النهار وأواخره، وكان كلامه مع الناس بالإشارة لقوله تعالى في آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حذفٌ والتقدير فلما وُلد يحيى وكبر وبلغ السنَّ الذي يؤمر فيه قال الله له: يا يحيى خذ التوراة بجد واجتهاد ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي أعطيناه الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر، روي أن الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب فقال لهم: ما للَّعب خُلقت، وقيل: أُعطي النبوة منذ الصغر والأول أظهر قال الطبري: المعنى أعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه من الرجال[2] ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ أي فعلنا ذلك رحمة منا بأبويه وعطفاً عليه وتزكيةً له من الخصال الذميمة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي عبداً صالحاً متقياً لله، لم يهمّ بمعصية قط قال ابن عباس: طاهراً لم يعمل بذنب ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي جعلناه باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي سلام عليه من الله من حين مولده إلى حين مبعثه، في يوم ولادته وفي يوم موته ويوم يُبعث من قبره قال ابن عطية: حيَّاه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف، والحاجة، والافتقار إلى الله[3] ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة ميلاد يحيى، لأنها ولادة عذراء من غير بعل، وهي أغرب من ولادة عاقر من بعلها الكبير في السن، والمعنى: اذكر يا محمد قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي حين تنحَّت واعتزلت أهلها في مكان شرقيّ بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي أرسلنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي تصوَّر لها في صورة البشر التام الخلقة قال ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه

---

(١) الطبري ١٦/ ٥٤ (٢) الطبري ١٦/ ٥٥
(٣) القرطبي ١١/ ٨٨.

جميل الشكل مستوي الخلقة[1] قال المفسرون: إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه، ودلَّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن[2] ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي فلما رأته فزعت وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء فقالت: إني أحتمي وألتجئ إلى الله منك، وجواب الشرط محذوف تقديره إن كنت تقيًّا فاتركني ولا تؤذني ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ أي قال لها جبريل مزيلاً لما حصل عندها من الخوف: ما أنا إلا مَلَكٌ مرسلٌ من عند الله إليك ليهب لك غلامًا طاهرًا من الذنوب ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي: كيف يكون لي غلام؟ وعلى أي صفة يوجد هذا الغلام مني؟ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي ولستُ بذات زوج حتى يأتيني ولد ولستُ زانية ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي كذلك الأمر حكم ربك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج، فإنَّ ذلك على الله سهل يسير ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي ولنجعل مجيئه دلالةً للناس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثه نبيًّا يهتدون بإرشاده ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي وكان وجوده أمرًا مفروغًا منه لا يتغير ولا يتبدل لأنه في سابق علم الله الأزلي ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء، قال المفسرون: إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها فحملت به وتنحت إلى مكان بعيد، ومعنى الآية أنها حملت بالجنين فاعتزلت - وهو في بطنها - مكانًا بعيدًا عن أهلها خشية أن يعيروها بالولادة من غير زوج ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي فألجأها ألم الطلق وشدة الولادة إلى ساق نخلة يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي قالت يا ليتني كنت مِتُّ قبل هذا اليوم وكنت شيئًا تافهًا لا يُعرف ولا يُذكر[3] قال ابن كثير: عرفت أنها ستُبتلى وتُمتحن بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت[4] ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي فناداها الملك من تحت النخلة قائلاً لها: لا تحزني لهذا الأمر ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي جعل لك جدولاً صغيرًا يجري أمامك، قال ابن عباس: ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولاً ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي حركي جذع النخلة اليابسة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ أي يتساقط عليك الرُّطب الشهي الطريُّ قال المفسرون: أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً، وذلك ليسكن ألمها ولتعلم أن ذلك كرامة من الله لها ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ أي كلي من هذا

---

(١) زاد المسير ٥/٢٢٧. (٢) البحر ٦/١٨٠.
(٣) هذا قول قتادة وقال ابن عباس ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي لم أُخلق ولم أكُ شيئًا.
(٤) مختصر ابن كثير ٢/٤٤٩.

الرطب الشهي، واشربي من هذا الماء العذب السلسبيل ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي طيبي نفسًا بهذا المولود ولا تحزني ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي فإن رأيت أحدًا من الناس وسألك عن شأن المولود ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي نذرت السكوت والصمت لله تعالى ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي لن أكلم أحدًا من الناس.. أُمرت بالكف عن الكلام ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أي أتت قومها بعد أن طهرت من النفاس تحمل ولدها عيسى على يديها ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه وقالوا لها: لقد جئت شيئًا عظيمًا منكرًا ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ أي يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة ما كان أبوك رجلاً فاجرًا ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي وما كانت أمك زانية فكيف صدر هذا منك وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة؟ قال قتادة: كان هارون رجلاً صالحًا في بني إسرائيل مشهورًا بالصلاح فشبهوها[1] به، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام، وقال السهيلي: هارون رجل من عُبّاد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تُشبَّه به في اجتهادها وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهرًا طويلاً[2] ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي لم تجبهم وأشارت إلى عيسى ليكلموه ويسألوه ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي قالوا متعجبين: كيف نكلم طفلاً رضيعًا لا يزال في السرير يغتذي بلبان أمه؟ قال الرازي: روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغًا يتكلم فيه الصبيان[3] ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أي قال عيسى في كلامه حين كلمهم: أنا عبدٌ لله تعالى خلقني بقدرته من دون أب، فقدّم ذكر العبودية، ليبطل قول من ادّعى فيه الربوبية ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ أي قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبيًّا، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحققه فإن ما حكم به الله أزلاً لا بدّ أن يقع ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي جعل فيّ البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ أي وجعلني بارًّا بوالدتي محسنًا إليها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي ولم يجعلني متعظمًا متكبرًا على أحد شقيًّا في حياتي ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي سلام الله عليّ في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، وفي يوم خروجي حيًّا من قبري، هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد.. وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله، فليس هو إلهًا، ولا ابن إله ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى، إنما عبدٌ ورسول، يحيا ويموت كسائر البشر، خلقه الله من أم دون أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة، ولهذا جاء التعقيب المباشر ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي ذلك هو القول الحقّ في عيسى ابن مريم لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله، أو اليهود من أنه ابن

---

(١) الطبري ١٦/٧٧.
(٢) مختصر ابن كثير ٢/٤٥٥.
(٣) التفسير الكبير ٢١/٢٠٨.

زنى ويشكّون في أمره ويمترون ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما ينبغي لله ولا يجوز له أن يتخذ ولداً ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزَّه الله عن الولد والشريك ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئاً وحكم به قال له كن فكان، ولا يحتاج إلى معاناة أو تعب، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ قال المفسرون: وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال: إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله ﴿كُن﴾ لا يسمى ابناً له بل هو عبده، فهو تبكيت وإلزام لهم بالحجج الباهرة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزاباً متفرقين، فمنهم من يزعم أنه ابن الله، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي ويلٌ لهم من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي لكن الظالمون في هذه الدنيا في جهل وغفلة عن الحق واضح جلي ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي أنذر الخلائق وخوفهم يوم القيامة يوم يتحسر المسيء إذ لم يُحسن، والمقصر إذ لم يزدد من الخير ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي قضي أمرُ الله بين الناس، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي وهم اليوم في غفلة ساهون ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بالبعث والنشور ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي نحن الوارثون للأرض وما عليها من الكنوز والبشر ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي مرجع الخلائق ومصيرهم إلينا للحساب والجزاء.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الكناية ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم.

٢ - الاستعارة ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر ففيه استعارة تبعية.

٣ - الطباق بين ﴿وُلِدَ ... يَمُوتُ﴾.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿نادى ... نداء﴾.

٥ - الكناية اللطيفة ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع.

٦ - صيغة التعجب ﴿أَسْمِعْ ... وَأَبْصِرْ﴾.

٧ - السجع ﴿شَرْقِيًّا﴾ ﴿نَجِيًّا﴾ ﴿صَبِيًّا﴾ ﴿نَبِيًّا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

في يوم القيامة تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم مخصص للحسرة لا شيء فيه سواها، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار،

صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۝ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

التفسير: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ أي ملازمًا للصدق مبالغًا فيه، جامعًا بين الصِّدِّيقية والنبوة والغرض تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء، وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أي ناداه متلطفًا بخطابه، مستميلًا له نحو الهداية والإيمان، يا أبت لم تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر، ولا يجلب لك نفعًا أو يدفع عنك ضرًا؟ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ كرَّر النصح بالتلطف ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام وإنما ترفق وتلطف في كلامه أي جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي اقبل نصيحتي واتبعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهو دين الله الذي لا عوج فيه ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي إن الشيطان عاصٍ للرحمن، مستكبر على عبادة ربه، فمن أطاعه أغواه. قال القرطبي: وإنما عبَّر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئًا في معصية الله فقد عبده[1] ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ تحذيرٌ من سوء العاقبة، والمعنى: أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قرينًا للشيطان بالخلود في النيران قال الإمام الفخر: وإيراد الكلام بلفظ ﴿يَا أَبَتِ﴾ في كل خطاب دليلٌ على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب، وإرشاده إلى الصواب، وقد رتَّب إبراهيم الكلام في غاية الحسن، لأنه نبهه أولًا إلى بطلان عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى، ثم ذكَّره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق، وقوله ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ دليلٌ على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاءً لحق الأبوة[2] ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ أي قال له أبوه آزر: أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصرف عنها؟ استفهامٌ فيه معنى التعجب والإنكار لإعراضه عن

---

(١) القرطبي ١١/١١١.
(٢) التفسير الكبير ٢١/٢٢٦.

عن عبادة الأوثان كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل. قال البيضاوي: قابل أبوه استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد، فناداه باسمه ولم يقابل قوله ﴿يَا أَبَتِ﴾ بـ﴿يا بني﴾، وقدّم الخبر وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل[1]. ثم هدده بقوله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لئن لم تترك شتم وعيب الآلهة لأرجمنك بالحجارة ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي اعتزلني دهرًا طويلًا. قال السدي: أبدًا. بهذه الجهالة تلقى آزر الدعوة إلى الهدى، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب، وكذلك شأن الكفر مع الإيمان، وشأن القلب الذي هذبه الإيمان، والقلب الذي أفسده الطغيان ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي قال إبراهيم في جوابه: أمّا أنا فلا ينالك مني أذى ولا مكروه، ولا أقول لك بعدُ ما يؤذيك لحرمة الأبوة، وسأسأل الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي مبالغًا في اللطف بي والاعتناء بشأني ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي أترككم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أي وأعبد ربي وحده مخلصًا له العبادة ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي راجيًا بسبب إخلاصي العبادة له ألا يجعلني شقيًا، وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم. وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم للأوثان، وهجر الأهل والأوطان، فلم يتركه الله وحيدًا بل وهب له ذرية وعوّضه خيرًا ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال المفسرون: لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام، واعتزل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، فوهب له إسحاق ويعقوب أولادًا أنبياء، فآنس الله بهم وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار، ويعقوب بن إسحاق، وهما شجرتا الأنبياء، فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل، قال ابن كثير: المعنى جعلنا له نسلاً وعقبًا أنبياء، أقرّ الله بهم عينه في حياته بالنبوة[2]. ولهذا قال ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي كل واحد منهما جعلناه نبيًا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ أي أعطينا الجميع - إبراهيم وإسحاق ويعقوب - كل الخير الديني والدنيوي، من المال والولد والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي جعلنا لهم ذكرًا حسنًا في الناس، لأن جميع أهل الملل والأديان يثنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية، ويصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة، قال الطبري: أي رزقناهم الثناء الحسن، والذكر الجميل في الناس[3] ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي استخلصه الله لنفسه، واصطفاه من بين الخلق لكلامه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي من الرسل الكبار، والأنبياء الأطهار، جمع الله له بين الوصفين الجليلين، وإنما أعاد لفظ «كان» لتفخيم شأنه المذكور ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي ناديناه من جهة جبل الطور من ناحية اليمين حين كلمناه بلا واسطة ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أي أدنيناه للمناجاة حين كلمناه، قال ابن عباس:

---

(١) البيضاوي ١/ ٩٧. (٢) المختصر ٢/ ٤٥٤.
(٣) الطبري ١٦/ ٩٢.

أُدني موسى من الملكوت ورُفعت له الحُجُب حتى سمع صريف الأقلام[١] قال الزمخشري: شبهه بمن قرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلَّمه بغير واسطة ملك ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي وهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلناه نبيًّا إجابة لدعائه حين قال ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي﴾ جعلناه له عضُدًا وناصرًا ومعينًا ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ أي اذكر يا محمد في القرآن العظيم خبر جدّك «إسماعيل» الذبيح ابن إبراهيم، وهو أبو العرب جميعًا ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي كان صادقًا في وعده، لا يعد بوعدٍ إلا وفى به، قال المفسرون: وذُكر بصدق الوعد وإن كان موجودًا في غيره من الأنبياء تشريفًا وإكرامًا، ولأنه عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي جمع الله له بين الرسالة والنبوة، قال ابن كثير: وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة[٢]، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي كان يحث أهله على طاعة الله، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين، والزكاة التي بها تتحقق سعادة المجتمع ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أي نال رضى الله، قال الرازي: وهذا نهاية المدح لأن المرضيّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات[٣] ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازمًا للصدق في جميع أحواله، موحًى إليه من الله، قال المفسرون: إدريس هو جدُّ نوح، وأول مرسل بعد آدم، وأول من خطَّ بالقلم ولبس المخيط، وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي رفعنا ذكره وأعلينا قدره، بشرف النبوة والزلفى عند الله[٤] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ أي أولئك المذكورون هم أنبياء الله ورسله الكرام، الذين قصصنا عليك خبرهم في هذه السورة - وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس - وهم الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ أي من نسل آدم كإدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو «يعقوب» كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أي وممن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي إذا سمعوا كلام الله سجدوا وبكوا من خشية الله مع ما لهم من علو الرتبة، وسموّ النفس، والزلفى من الله تعالى قال القرطبي: وفي الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيرًا في القلوب[٥] ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ أي جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قومٌ أشقياء، تركوا الصلوات وسلكوا

---

(١) البحر ٦/ ١٩٩.
(٢) المختصر ٢/ ٤٥٦.
(٣) الفخر الرازي ٢١/ ٢٣٣.
(٤) وقيل: المراد: رفعه إلى السماء الرابعة.
(٥) القرطبي ١١/ ١٢٠.

طريق الشهوات ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي سوف يلقون كل شرٍّ وخسارٍ ودمار، قال ابن عباس: غيٌّ وادٍ في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ بالله من حره[1] ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح عمله ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي فأولئك يسعدون في الجنة ولا يُنقصون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي هي جنات إقامة التي وعدهم بها ربهم فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها تصديقاً بوعده تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي إن وعده تعالى بالجنة آتٍ وحاصلٌ لا يتخلف ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام، لكنْ يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام، والاستثناء منقطع ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب بدون كدٍّ ولا تعب، ولا تنغص ولا انقطاع ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها هي التي نورثها لعبادنا المتقين ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ هذا من كلام جبريل لرسول الله ﷺ حين احتبس عنه فترةً من الزمن والمعنى: ما نتنزل إلى الدنيا إلا بأمر الله وإذنه ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي لله جلّ وعلا جميع الأمر، أمر الدنيا والآخرة، وهو المحيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه؟ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي لا ينسى شيئاً من أعمال العباد ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ﴾ أي هو ربُّ العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً؟

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الكناية اللطيفة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ كنى عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان لأن الثناء يكون باللسان، كذلك قال ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ كما يكنى عن العطاء باليد.

٢ - الاستعارة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ شبّه المكانة العظيمة والمنزلة السامية بالمكان العالي بطريق الاستعارة.

٣ - المبالغة ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أي مبالغاً في الصدق.

٤ - الإشارة بالبعيد لعلو الرتبة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ﴾ فما فيه من معنى البعد للإشارة بعلو رتبهم وبُعد منزلتهم في الفضل.

٥ - الجناس الناقص ﴿خَلْفٌ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ لتغير الحركات والشكل.

٦ - الطباق ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

٧ - السجع الحسن الرصين ﴿عَلِيًّا﴾، ﴿نَّبِيًّا﴾، ﴿وَبُكِيًّا﴾.

فائدة: في قول إبراهيم عليه السلام ﴿يَا أَبَتِ﴾ تلطفٌ واستدعاء، والتاء عوض عن ياء الإضافة لأن أصله «يا أبي» ولهذا لا يُجمع بينهما.

---

[1] القرطبي ١١/١٢٥.

تنبيه: ذكر السيوطي في التحبير أن إبراهيم عليه السلام عاش من العمر مائة وخمسًا وسبعين سنة، وبينه وبين آدم ألفا سنة، وبينه وبين نوح ألف سنة، ومنه تفرعت شجرة الأنبياء.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ .. إلى .. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ من آية (٦٦) إلى آية (٩٨) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى طائفةً من قصص الأنبياء للعظة والاعتبار، وكان الغرض الأساسي للسورة الكريمة إثبات قدرة الله على الإحياء والإفناء، وإثباتُ يوم المعاد، ذكر تعالى هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور وردَّ عليها بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، وختم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء والأشقياء.

اللغة: ﴿جِثِيًّا﴾ جمع جاثٍ يقال: جثا إذا قعد على ركبتيه من شدة الهول وهي قعدة الخائف الذليل، قال الكميت:

هُمُ تركوا سراتهم جثيًّا ... وهم دون السراة مقرّنينا[1]

﴿عِتِيًّا﴾ عصيانًا وتمردًا عن الحق ﴿نَدِيًّا﴾ النديُّ والنادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم للتحدث والمشورة، قال الجوهري: النديُّ مجلس القوم ومتحدثهم وكذلك الندوة والنادي فإن تفرقوا فليس بندي[2] ﴿أَثَاثًا﴾ الأثاث: متاع البيت ﴿وَرِئْيًا﴾ منظرًا حسنًا ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ الأزُّ: التهييج والإغراء، قال أهل اللغة: الأزُّ والهزُّ والاستفزاز متقاربة ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ومنه أزيزُ المرجل وهو غليانه وحركته ﴿وَفْدًا﴾ جمع وافد وهو الذي يقدم على سبيل الكرامة معززًا مكرمًا ﴿وِرْدًا﴾ مشاةً عطاشًا، قال الرازي: والورد اسم للعطاش لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش[3] ﴿إِدًّا﴾ منكرًا عظيمًا، قال الجوهري: الإدُّ الداهية والأمر الفظيع ﴿رِكْزًا﴾ الركز: الصوت الخفي.

سبب النزول: عن خباب بن الأرت قال: كنتُ رجلاً قَيْنًا - أي حدادًا - وكان لي على العاص بن وائل دينٌ فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث - أي تموت الآن وتبعث أمامي وهذا من باب المستحيل - قال: فإني إذا متُّ ثم بُعثت جئتني ولي ثمَّ مالٌ فأعطيتك فأنزل الله ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[4].

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ

---

(١) القرطبي ١١/١٣٣.
(٢) الصحاح للجوهري.
(٣) التفسير الكبير ٢١/٢٤٥.
(٤) البخاري ومسلم وانظر لباب النقول ص ١٧٢

بآيات الله وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ أي هل اطلع على الغيب الذي تفرّد به علاّم الغيوب؟ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي أم أعطاه الله عهداً بذلك فهو يتكلم عن ثقة ويقين؟ ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ردٌّ عليه، ولفظةُ «كلا» للردع والزجر أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك المقالة الشنيعة فسنكتب ما يقول عليه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي نرثه ما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه، ويأتينا وحيداً لا مال معه ولا ولد، ولا نصير له ولا سند ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ أي اتخذ المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العزّ والشرف ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا فإن الآلهة التي عبدوها ستتبرأ من عبادتهم ويكونون لهم أعداء يوم القيامة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي ألم تر يا محمد أنّا سلّطنا الشياطين على الكافرين تغريهم إغراءً بالشر، وتهيّجهم تهييجاً حتى يركبوا المعاصي، قال الرازي: أي تغريهم على المعاصي وتهيّجهم لها بالوساوس والتسويلات[1] ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي لا تتعجل يا محمد في طلب هلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدّها عليهم عدّاً ثم يصيرون إلى عذاب شديد، قال ابن عباس: نعدّ أنفاسهم في الدنيا كما نعدّ عليهم سنيّهم[2] ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي يوم نحشر المتقين إلى ربهم معزّزين مكرّمين، راكبين على النوق كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي ونسوق المجرمين كما تساق البهائم مشاةً عطاشاً كأنهم إبلٌ عطاشٌ تساق إلى الماء، وفي الحديث «يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق: راغبين، وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا»[3] ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي لا يشفعون ولا يُشفع لهم ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ من تحلّى بالإيمان والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة، قال ابن عباس: العهدُ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي لقد جئتم أيها المشركون بقولٍ منكر عظيم تناهى في القبح والشناعة ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي تكاد السموات تتشقق من هول هذا القول ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي وتنشقّ كذلك الأرض وتندكّ الجبال وتنهدّ هدّاً استعظاماً لكلمة الشرك ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أي من أجل نسبتهم له الولد ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة، وهو المنزّه عن الشبيه والنظير، والغني عن المعين والنصير ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ أي ما من مخلوق في العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبدٌ لله، ذليلٌ خاضعٌ بين

(١) التفسير الكبير ٢١/٢٥٢. (٢) القرطبي ١١/١٥٠. (٣) أخرجه البيهقي.

يديه، منقادًا مطيعًا له كما يعمل العبيد ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي علم عددهم وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أي وكل فرد يأتي يوم القيامة وحيدًا فريدًا، بلا مال ولا نصير، ولا معين ولا خفير ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين، والمعنى سيجعل لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة قال الربيع: يحبهم ويحببهم إلى الناس ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي لتقرأه، وجعلناه سهلاً يسيرًا على من تدبره، لتبشر به المؤمنين المتقين، وتخوّف به قومًا معاندين شديدي الخصومة والجدال ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كم من الأمم الماضية أهلكناهم بتكذيبهم الرسل، و«كم» للتكثير ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل ترى منهم أحدًا؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي أو تسمع لهم صوتًا خفيًا؟ والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار، وأوحشت منهم المنازل، فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١- ذكر العام وإرادة الخاص ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ المراد به الكافر لأنه هو المنكر للبعث.

٢- الطباق بين ﴿عِزًّا .. ضِدًّا﴾ وبين ﴿لِتُبَشِّرَ .. وَتُنذِرَ﴾.

٣- الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ﴾.

٤- المقابلة اللطيفة بين المتقين والمجرمين وبين حال الأبرار والأشرار ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

٥- الجناس غير التام ﴿مَدًّا .. وِرْدًا﴾ لتغير الحرف الثاني.

٦- اللف والنشر المرتب في ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ حيث رجع الأول إلى ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ والثاني إلى ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ كما يوجد بين ﴿خَيْرٌ .. شَرٌّ﴾ طباق.

٧- المجاز العقلي ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي نأمر الملائكة بالكتابة فهو من إسناد الشيء إلى سببه.

٨- السجع الرصين مثل ﴿عِزًّا﴾، ﴿ضِدًّا﴾، ﴿هَدًّا﴾، ﴿أَزًّا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

فائدة: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحبُّ فلانًا فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ...» الحديث، وهو مصداق قوله تعالى ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

لطيفة: روي أن المأمون قرأ هذه الآية ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ وعنده جماعة من الفقهاء فيهم ابن السماك فأشار إليه المأمون أن يعظه فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد. قال الشاعر:

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما ... مضى نفسٌ منك انتقصت به جزءا

«تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم»

تفسير سورة طه

بين يدي السورة

سورة طه مكية، وهي تبحث عن نفس الأهداف للسور المكية، وغرضها تركيز أصول الدين «التوحيد، والنبوة، والبعث والنشور».

* في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة وتقوية روحه؛ حتى لا يتأثر بما يلقى إليه من الكيد والعناد والاستهزاء والتكذيب، ولإرشاده إلى وظيفته الأساسية، وهي التبليغ والتذكير، والإنذار والتبشير، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان.

* عرضت السورة لقصص الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ وتثبيتاً لقلبه الشريف، فذكرت بالتفصيل قصة موسى وهارون مع فرعون الطاغية المتجبر ويكاد يكون معظم السورة في الحديث عنه وبالأخص، موقف المناجاة بين موسى وربه، وموقف تكليفه بالرسالة، وموقف الجدال بين موسى وفرعون، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة، وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعاية الله لموسى نبيه وكليمه، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين.

* وعرضت السورة لقصة آدم بشكل سريع خاطف، برزت فيه رحمة الله لآدم بعد الخطيئة، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر.

* وفي ثنايا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة في صور ترتجف بها القلوب، وتهتز لها النفوس فزعاً ورعباً، ويعتري الناس الذهول والسكون ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾.

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر، حيث يتم الحساب العادل، ويعود الطائعون إلى الجنة، ويذهب العصاة إلى النار، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين.

* وتختم ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله.

التسمية: سميت السورة «طه» وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام، تطييباً لقلبه، وتسلية لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء ﴿طه ۝ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

اللغة: ﴿قبس﴾ القبس: شعلة من نار ﴿المقدس﴾ المطهر والمبارك ﴿طوى﴾ اسم للوادي ﴿فتردى﴾ تهلك والردى: الهلاك ﴿وأهش﴾ أخبط بها الشجر ليسقط الورق ﴿مآرب﴾ جمع مأربة

وهي الحاجة ﴿جناحك﴾ الجناح: الجنب وجناح الإنسان: جنبه لأن يدي الإنسان يشبهان جناحي الطائر ﴿أزري﴾ الأزر: القوة فقال: آزره أي قواه ومنه ﴿فآزره فاستغلظ﴾ قال الشاعر:

أليس أبونا هاشم شد أزره … وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب(1)

﴿اليم﴾ البحر ﴿تقر عينها﴾ تسر بلقائك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه (1) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (2) إلا تذكرة لمن يخشى (3) تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى (4) الرحمن على العرش استوى (5) له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى (6) وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى (7) الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى (8) وهل أتاك حديث موسى (9) إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى (10) فلما أتاها نودي يا موسى (11) إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى (12) وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى (13) إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري (14) إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (15) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى (16) وما تلك بيمينك يا موسى (17) قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى (18) قال ألقها يا موسى (19) فألقاها فإذا هي حية تسعى (20) قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى (21) واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى (22) لنريك من آياتنا الكبرى (23) اذهب إلى فرعون إنه طغى (24) قال رب اشرح لي صدري (25) ويسر لي أمري (26) واحلل عقدة من لساني (27) يفقهوا قولي (28) واجعل لي وزيرا من أهلي (29) هارون أخي (30) اشدد به أزري (31) وأشركه في أمري (32) كي نسبحك كثيرا (33) ونذكرك كثيرا (34) إنك كنت بنا بصيرا (35) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى (36) ولقد مننا عليك مرة أخرى (37) إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى (38) أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني (39) إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى﴾

التفسير: ﴿طه (1) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ الحروف المقطعة للتنبيه إلى إعجاز القرآن(2) وقال ابن عباس: معناها: يا رجل، ومعنى الآية: ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتشقى به إنما أنزلناه رحمة وسعادة. روي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فنزلت هذه الآية(3) ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ أي ما أنزلناه إلا عظة وتذكيرا لمن يخشى الله ويخاف عقابه، وهو المنتفع بتلاوة القرآن ﴿تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾ أي أنزله خالق الأرض، ومبدع

---

(1) البيت لأبي طالب وانظر القرطبي ١١/ ١٩٣.

(2) انظر أول سورة البقرة.

(3) هذا قول الضحاك وانظر زاد المسير ٥/ ٢٦٨.

المكونات وارتفاع السموات الواسعة العالية، والآية إخبارٌ عن عظمته وجبروته وجلاله. قال في البحر: ووصفُ السموات بالعُلى دليلٌ على عظمة قدرة من اخترعها إذ لا يمكن وجود مثلها في علوّها من غيره تعالى(١) ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ أي ذلك الربُّ الموصوف بصفات الكمال والجمال هو الرحمن الذي استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تجسيم، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف(٢) ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كلِّه: السمواتُ السبعُ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات وما تحت التراب من معادن ومكنونات، الكلُّ ملكه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي وإنْ تجهرْ يا محمد بالقول أو تخفه في نفسك سواءٌ عند ربك، فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى منه كالوسوسة والهاجس والخاطر، والغرضُ من الآية طمأنينة قلبه عليه السلام بأن ربه معه يسمعه، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى، والقلب حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسرِّه ونجواه يطمئن ويرضى ويأنس بهذا القرب الكريم ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية، لا معبود بحق سواه، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحسن وفي الحديث «إن لله تسعةً وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة»(٣) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق لما يُلقى إليه أي هل بلغك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة الغريبة؟ ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي حين رأى ناراً فقال لامرأته: أقيمي مكانك فإني أبصرتُ ناراً، قال ابن عباس: هذا حين قضى الأجل وسار بأهله من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق وكانت ليلة مظلمة شاتية فجعل يقدح بالزناد فلا يخرج منها شرر، فبينما هو كذلك إذ بصر بنارٍ من بعيد على يسار الطريق، فلما رآها ظنها ناراً وكانت من نور الله ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي لعلّي آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي أجد هادياً يدلني على الطريق ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي فلما أتى النار وجدها ناراً بيضاء تتقد في شجرة خضراء وناداه ربُّه: يا موسى(٤) إني أنا ربك الذي أكلمك فاخلع النعلين من قدميك رعايةً للأدب والتبجيل ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي فإنك بالوادي المطهَّر المبارك المسمّى طوى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أي اصطفيتك للنبوة فاستمع

---

(١) البحر ٦/ ٢٢
(٢) انظر أقوال السلف الصالح في سورة الأعراف والرعد.
(٣) أخرجه الترمذي.
(٤) قال سيد قطب رحمه الله ما نصه: «إن القلب ليجفُ، وإن الكيان ليرتجف، وهو يتصور ذلك المشهد: موسى فريد في تلك الفلاة، الليل دامس، والظلام شامل، والصمت عميق، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء: يا موسى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾» الظلال ٥/ ٦٨

ما أوحيه إليك، قال الرازي: فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه[1] ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ أي أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيري فأفردني بالعبادة والتوحيد ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي أقم الصلاة لتذكرني فيها، قال مجاهد: إذا صلّى ذكر ربه لاشتمالها على الأذكار[2] وقال الصاوي: خصَّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في جملة العبادات لعظم شأنها، واحتوائها على الذكر، وشغل القلب واللسان والجوارح، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد[3] ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف أطلعكم عليها[4]؟ قال المبرِّد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء: كتمته حتى من نفسي أي لم أطلع عليه أحداً ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي لتنال كلُّ نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، قال المفسرون: والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت، لاشتغلوا بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك، فيتخلصون من العقاب، ولكنَّ الله عمَّى الأمر ليظل الناس على حذر دائم وعلى استعداد دائم، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي لا يصرفنَّك يا موسى عن التأهب للساعة والتصديق بها من لا يوقن بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي مال مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي فتهلك فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أي وما هذه التي بيمينك يا موسى؟ أليست عصا؟ والغرضُ من الاستفهام التقريرُ والإيقاظ والتنبيهُ إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية؛ لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة، قال ابن كثير: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن[5] ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي أهزُّ بها الشجرة وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أُخر غير ذلك، قال المفسرون: كان يكفي أن يقول: هي عصاي ولكنه زاد في الجواب لأن المقام مقام مباسطة وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب، وكلام الحبيب مريحٌ للنفس ومُذْهبٌ للعناء ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ أي اطرح هذه العصا التي بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى! ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي فلما ألقاها

(١) الرازي ٢٢/١٩. (٢) الرازي ٢٢/١٩
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٥٠.
(٤) هذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس واختاره الطبري وهو الأرجح في تفسير الآية وهناك أقوال أخرى لا تخلو من ضعف وانظر البحر المحيط ٦/٢٣٢.
(٥) المختصر ٢/٤٧٣.

صارت في الحال حية عظيمة تنتقل وتتحرك في غاية السرعة. قال ابن عباس: "انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خافه ونفر منه وولّى هارباً"(1) قال المفسرون: لما رأى هذا الأمر العجيب الهائل، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف، لا سيما هذا الأمر الذي يذهب بالعقول، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون لأنه يكون قد تدرّب وتعوّد ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي قال له ربه: خذها يا موسى ولا تخف منها ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ أي سنعيدها إلى حالتها الأولى كما كانت عصاً لا حية، فأمسكها فعادت عصا ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج نيّرة مضيئة كضوء الشمس والقمر من غير عيب ولا برص، قال ابن كثير: كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر من غير برص ولا أذى(2) ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾ أي معجزة ثانية غير العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي لنريك بعض آياتنا العظيمة، وقد أيده الله بمعجزتين: العصا، واليد، وهي بعض ما أيده الله به من المعجزات الباهرة، ثم أمره أن يتوجه إلى فرعون رأس الكفر والطغيان ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي اذهب بما معك من الآيات إلى فرعون إنه تكبّر وتجبّر وجاوز الحدّ في الطغيان حتى ادّعى الألوهية ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي وسّعه ونوّره بالإيمان والنبوة ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي سهّل عليّ القيام بما كلفتني من أعباء الرسالة والدعوة ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي حُلّ هذه اللُّكنة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي، قال المفسرون: عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حجره وهو صغير فجرّ لحية فرعون بيده فهمّ بقتله، فقالت له آسية: إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك، قدّم إليه جمرتين ولؤلؤتين، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل، فقدّم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فكان في لسانه حبسة(3) ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي﴾ أي اجعل لي معيناً يساعدني ويكون من أهلي وهو أخي هارون ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ أي لنقوّي به ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أي اجعله شريكاً لي في النبوة وتبليغ الرسالة ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ أي كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك ونذكرك بالدعاء والثناء عليك ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأحوالنا لا يخفى عليك شيء من أفعالنا. طلب موسى من ربه أن يمده بأخيه يشدّ به أزره لما يعلم منه من فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعون وتكبره وجبروته ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أي أعطيت ما سألت وما طلبت، ثم ذكّره تعالى بالمنن العظام عليه ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ أي أنعمنا عليك يا موسى بمنّة أخرى غير هذه المنة ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ أي ألهمناها ما يُلهم مما كان سبباً في نجاتك ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي

---

(1) القرطبي ١١/ ١٩٠. (2) مختصر ٢/ ٤٧٣.

(3) انظر الطبري ١٦/ ١٥٤، وفي ذكر ذلك حكمة يعلمها الله تعالى.

أتهم بها أن تلقي هذا الطفل في الصندوق ثم تطرحه في نهر النيل، ثم ماذا؟ ومن يتسلمه؟ ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ أي يلقيه النهر على شاطئه ويأخذه فرعون عدوي وعدوّه قال في البحر: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أمر معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها(١) ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي زرعت في القلوب محبتك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك حتى أحبّك فرعون، قال ابن عباس: أحبّه الله وحبّبه إلى خلقه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي ولتُربّى بعين الله بحفظي ورعايتي ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ أي حين تمشي أختك وتتبع أثرك فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع: هل أدلكم على من يضمن لكم حضانته ورضاعته؟ قال المفسرون: لما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة لأن الله حرّم عليه المراضع وتتبعت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته أن تتبع خبره، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته قالت: هل أدلكم على امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل؟ فطلبوا منها إحضارها فأتت بأم موسى فلما أخرجت ثديها التقمه ففرحت زوجة فرعون فرحًا شديدًا وقالت لها: كوني معي في القصر! فقالت: لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكن آخذه معي وآتي لك به كل حين! فقالت: نعم، وأحسنت إليها غاية الإحسان فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي رددناك إلى أمك لكي تُسرّ بلقائك وتطمئن بسلامتك ونجاتك، ولكيلا تحزن على فراقك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي قتلت القبطي حين أصبحت شابًا فنجيناك من غم القتل وصرفنا عنك شرّ فرعون وزبانيته، وهي صغيرة صدرت من مسلم وكان قتله خطأ ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاءً عظيمًا بأنواع من المحن ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي مكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ أي جئت على موعد ووقت مقدر للرسالة والنبوة.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التشويق والحث على الإصغاء ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ ؟

٢- الإطناب ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ وكان يكفي أن يقول: هي عصاي ولكنه ترسّل في الجواب تلذذًا بالخطاب.

٣- الاستعارة التصريحية ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أصل الجناح للطائر ثم استعير لجنب الإنسان لأن كل جنب في موضع الجناح للطائر فسميت الجهتان جناحين بطريق الاستعارة.

٤- الاحتراس وهو عند علماء البيان أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد مثل قوله ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فلو اقتصر على قوله ﴿بَيْضَاءَ﴾ لأوهم أن ذلك من برص أو بهق ولذلك احترس بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾

٥- الاستعارة التمثيلية ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ تمثيل لشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة بمن

---

(١) البحر المحيط ٦/٢٤١.

بعضه بمرأى من الناظر لأن الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه فمثّل لذلك بمن يصنع على عين الآخر.

٩- السجع الحسن الذي يزيد الكلام جمالاً وبهجة في أواخر الآيات ﴿فَتَشْقَىٰ﴾، ﴿يَخْشَىٰ﴾، ﴿وَأَخْفَى﴾، ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ الخ.

فائدة: قال العلماء: ما نفع أخٌ أخاه كما نفع موسى هارون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبياً مرسلاً.

تنبيه: ذكر تعالى بعض المنن على موسى وعدّ منها ستاً:

المنة الأولى: إلهام أمه صنع الصندوق وإلقاءه في اليم ليربى في بيت فرعون ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾.

الثانية: إلقاء المحبة عليه من الله تعالى بحيث لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾

الثالثة: حفظ الله ورعايته له بالكلاءة والعناية ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾

الرابعة: ردّه إلى أمه مع الإنعام والإكرام ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾

الخامسة: إنجاء موسى من القتل بعد قتله القبطي ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾.

السادسة: تكليم الله له بعد عودته من أرض مدين وتكليفه بالرسالة ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ .. إلى .. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٧٦).

المناسبة: لما ذكر تعالى منّته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سؤله، ذكر هنا ما خصه به من الاصطفاء والاجتباء، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغ دعوة الله، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة وسجودهم لله رب العالمين.

اللغة: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ﴾ اصطفيتك واخترتك، وأصل الاصطناع: اتخاذ الصنيعة وهو الخير تسديه إلى إنسان ﴿تَنِيَا﴾ ونى: الضعف والفتور، قال العجاج:

فما ونى محمدٌ مذ أن غفر ... له الإلهُ ما مضى وما غبر(١)

﴿يَفْرُطَ﴾ يعجل ويبادر إلى عقوبتنا، ومنه الفرط الذي يتقدم القوم إلى الماء ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ يستأصلكم ويبيدكم وأصله استقصاء الحلق للشعر قال الفرزدق:

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مُسحتاً أو مُجلَّفُ(٢)

---

(١) الطبري ١٦/١٥٨. (٢) القرطبي ١١/٢١٣.

ثم استعمل في الإهلاك والإذهاب، والسُّحت: المال الحرام لأنه يهلك الإنسان ويدمّره ﴿النَّجْوَىٰ﴾ التناجي وهو الإسرار بالكلام ﴿أوجس﴾ أضمر واستشعر الخوف في نفسه.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾

التفسير: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي اخترتك لرسالتي ووحيي ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أي اذهب مع هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي، قال المفسرون: المراد بالآيات هنا: اليد والعصا اللتين أيّد الله بهما موسى ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تفترا وتقصّرا في ذكر الله وتسبيحه، قال ابن كثير: والمراد ألّا يفترا عن ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عونًا لهما عليه، وقوة لهما وسلطانًا كاسرًا له(١) ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي تجبّر وتكبّر وبلغ النهاية في العتو والطغيان ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي قولا لفرعون قولاً لطيفًا رقيقًا ﴿لَّعَلَّهُ

(١) المختصر ٢/ ٤٨٢.

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي لعله يتذكر عظمة الله أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي قال موسى وهارون: يا ربنا إننا نخاف إن دعوناه إلى الإيمان أن يعجّل علينا بالعقوبة، أو يجاوز الحدّ في الإساءة إلينا ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي لا تخافا من سطوته إنني معكما بالنصرة والعون أسمع جوابه لكما، وأرى ما يفعل بكما ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي إنا رسولان من عند ربك أرسلنا إليك، وخصّص الذكر بلفظ ﴿رَبِّكَ﴾ لإعلامه أنه مربوبٌ وعبدٌ مملوك لله إذ كان يدّعي الربوبية ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أي والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن بالله، قال المفسرون: لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب وإنما قصد به السلام من عذاب الله وسخطه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا أن العذاب الأليم على من كذّب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ أي قال فرعون: ومن هذا الربُّ الذي تدعونني إليه يا موسى؟ فإني لا أعرفه! ولم يقل: من ربي؟ لغاية عتوّه ونهاية طغيانه بل أضافه إلى موسى وهارون ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي ربُّنا هو الذي أبدع كل شيء خلقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه، وهذا جوابٌ في غاية البلاغة والبيان لاختصاره ودلالته على جميع الموجودات بأسرها، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان، قال الزمخشري: ولله درُّ هذا الجواب ما أخصره وأجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ أي ما حال من هلك من القرون الماضية؟ لم لم يبعثوا ولم يحاسبوا إن كان ما تقول حقًا؟ قال ابن كثير: لما أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدّر فهدى، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى كأنه يقول: فما بالهم إذ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟![1] ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ أي قال موسى: علم أحوالها وأعمالها عند ربي مسطّرٌ في اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يخطئ ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها، ثم شرع موسى يبيّن له الدلائل على وجود الله وآثار قدرته الباهرة فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي جعل الأرض كالمهد تمتهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي جعل لكم طرقًا تسلكونها فيها لقضاء مصالحكم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل لكم من السحاب المطر عذبًا فراتًا ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواعًا من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة كلُّ صنفٍ منها زوج، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى المتكلم تنبيهًا على عظمة الله ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي كلوا من هذه النباتات والثمار، واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ

---

(١) المختصر ٢/ ٤٨٣.

التي أخرجها لهم، والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنعمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعبراً وعظات ودلائل لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي من الأرض خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون ترابًا ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب .. ثم أخبر تعالى عن عتوّ فرعون وعناده فقال ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ أي والله لقد بصَّرنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوة موسى من العصا، واليد، والطوفان، والجراد، وسائر الآيات التسع ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ أي كذَّب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر، وأبى الإيمان والطاعة لعتوه واستكباره ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أي قال فرعون: أجئتنا يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر؟ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ أي فلنعارضنَّك بسحرٍ مثل الذي جئت به ليتضح للناس أنك ساحر ولست برسول ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي عيِّن لنا وقت اجتماع ﴿لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد لا من جهتنا ولا من جهتك ويكون بمكان معيَّن ووقت معيَّن[1] ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي قال موسى: موعد اللقاء للاجتماع يوم العيد - يوم من أيام أعيادهم - وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك النهار، قال المفسرون: وإنما عيَّن ذلك اليوم للمباراة ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزته للناس ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي انصرف فرعون فجمع السحرة ثم أتى الموعد ومعه السحرة وأدواتهم وما جمعه من كيد ليطفئ نور الله، قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر منهم حبال وعصي[2] ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون: ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله، قدَّم لهم النصح والإنذار لعلهم يثوبون إلى الهدى، ويبتعدون عن السحر عند المغالبة، فهزّهم ذلك ووقعت في نفوسهم مهابته ولذلك تنازعوا في أمره ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أي اختلفوا في أمر موسى، فقال بعضهم: ما هذا بقول ساحر وأخفوا ذلك عن الناس وأخذوا يتناجون سرًّا ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ أي قالوا بعد التشاور والتناجي: ما هذان إلا ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بهذا السحر ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أي ويذهبا بدينكم وملككم الذي أنتم عليه والذي هو أفضل المذاهب والأديان، قال الزمخشري: والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول ثم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفًا من غلبة موسى وهارون لهما وتثبيطًا للناس عن اتباعهما[3] ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي

---

(١) هذا ما اختاره ابن كثير في تفسير ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ وعند الطبري أن المراد: مكانًا تستوي مسافته على الفريقين.

(٢) القرطبي ١١/٢١٤. (٣) الكشاف ٣/[illegible].

أحكموا أمركم واعزموا عليه ولا تتنازعوا وارموا عن قوسٍ واحدة، ثم ائتوا إلى الميدان مصطفين ليكون أهيب في صدور الناظرين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أي فاز اليوم من علا وغلب، قال المفسرون: أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعونُ من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة مع التقريب والتكريم كما قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ أي قال السحرة لموسى: إمّا أن تبدأ أنت بالإلقاء أو نبدأ نحن؟ خيّروه ثقةً منهم بالغلبة لموسى لأنهم كانوا يعتقدون أنّ أحدًا لا يقاومهم في هذا الميدان ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أي قال لهم موسى: بل ابدءوا أنتم بالإلقاء، قال أبو السعود: قال ذلك مقابلةً للأدب بأحسن من أدبهم حيث بتّ القول بإلقائهم أولاً، وإظهارًا لعدم المبالاة بسحرهم ليُبرزوا ما معهم، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى وسعهم، ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه[1] ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ في الكلام حذفٌ دلّ عليه المعنى أي فألقوا فإذا تلك الحبال والعصيّ التي ألقوها تخيّلها موسى -بقتلها- من عظمة السحر - أنها حياتٌ تتحرك وتسعى على بطونها. والتعبيرُ يوحي بعظمة السحر حتى إن موسى فزع منها واضطرب ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي أحسّ موسى الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعة البشرية لأنه رأى شيئًا هائلاً ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أي قلنا لموسى: لا تخف مما توهمت[2] فإنك أنت الغالب المنتصر ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ أي ألق عصاك التي بيمينك تبتلع بفمها ما صنعوه من السحر ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ أي إنّ الذي اخترعوه وافتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي لا يسعد الساحر حيث كان ولا يفوز بمطلوبه لأنه كاذب مضلِّل ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أي فألقى موسى عصاه فابتلعت ما صنعوا فخرّ السحرة حينئذٍ سجدًا لله ربّ العالمين لما رأوا من الآية الباهرة، قال ابن كثير: لما ألقى موسى العصا صارت ثعبانًا عظيمًا هائلاً، ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتّبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق شيئًا إلا ابتلعته، والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا نهارًا، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حقٌّ لا مرية فيه، فعند ذلك وقعوا سجدًا لله، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، قال ابن عباس: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة[3] ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي قال فرعون للسحرة: أآمنتم بموسى وصدقتموه بما جاء به قبل أن أسمح لكم بذلك وقبل أن تستأذنوني؟! ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي إنه رئيسكم الذي علّمكم السحر فاتفقتم معه لتذهبوا بملكي! قال القرطبي: وإنما

(١) أبو السعود ٣/ ٣١٣.
(٢) أوحى الله تعالى له في تلك الساعة الرهيبة بهذا العون.
(٣) المختصر ٢/ ٤٨٦.

أراد فرعون بقوله هذا أن يُلبِّس على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم[1]، ثم توعّدهم وهدّدهم بالقتل والتعذيب فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي فوالله لأقطعنَّ الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى أو بالعكس ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي لأصلبنكم على جذوع النخل وأقتلكم شرَّ قتلة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي ولتعلمنَّ أيها السحرة من هو أشدُّ منا عذابًا وأدوم، هل أنا أم ربُّ موسى الذي صدقتم به وآمنتم ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي قال السحرة: لن نختارك ونفضّلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ قسمٌ بالله أي مقسمين بالله الذي خلقنا ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي فاصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا وهي فانية زائلة ورغبتنا في النعيم الخالد قال عكرمة: لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة فلذلك قالوا ما قالوا[2] ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصي ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور الله ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي والله خيرٌ منك ثوابًا وأبقى عذابًا، وهذا جواب قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾ هذا من تتمة كلام السحرة عظةً لفرعون أي من يلقى ربه يوم القيامة وهو مجرمٌ باقترافه المعاصي وموته على الكفر، فإن له نار جهنم ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يموت في جهنم فينقضي عذابه، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة[3] ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي ومن يلقى ربه مؤمنًا موحّدًا وقد عمل الطاعات وترك المنهيات ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات لهم المنازل الرفيعة عند الله ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بيانٌ للدرجات العُلى أي جنات إقامة ذات الدرجات العاليات، والغُرف الآمنات والمساكن الطيبات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت غرفها وسُرُرها أنهار الجنة من الخمر والعسل، واللبن، والماء ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين في الجنة دومًا لا يخرجون منها أبدًا ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي وذلك ثواب من تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي، وفي الحديث «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[4].

البَلاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ شبَّه ما خوَّله به من القرب والاصطفاء بحال من يراه الملك

---

(١) القرطبي ١١/٢٢٤. (٢) القرطبي ١١/٢٢٥.

(٣) أنشد ابن الأنباري في هذا المعنى:

ألا من لنفس لا تموت فينقضي   عناها ولا تحيا حياة لها طعم.

(٤) رواه أحمد والترمذي.

أهلاً للكرامة وقرب المنزلة لما فيه من الخلال الحميدة فيصطنعه لنفسه، ويختاره لخلّته، ويصطفيه لأموره الجليلة واستعار لفظ (اصطنع) لذلك، ففيه استعارة تبعية.

٢- المقابلة اللطيفة ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ حيث قابل بين (منها) و (فيها) وبين الخلق والإعادة وهذا من المحسنات البديعية.

٣- إيجاز حذف ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ أي فألقوا حبالهم فإذا حبالهم حذف لدلالة المعنى عليه ومثله ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ بعد قوله ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ حذف منه كلام طويل وهو فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا من السحر فألقي السحرة سجداً، وإنما حسن الحذف لدلالة المعنى عليه ويسمى إيجاز حذف.

٤- الطباق بين ﴿يَمُوتُ . . . و يَحْيَىٰ﴾ وبين ﴿نُعِيدُكُمْ . . . ونُخْرِجُكُمْ﴾.

٥- المقابلة بين ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ وبين ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ إلخ والمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك.

٦- السجع الحسن غير المتكلف في مثل ﴿مُوسَىٰ﴾ ﴿ضُحًى﴾ ﴿أَتَىٰ﴾ ﴿يَخْشَىٰ﴾ ﴿تَزَكَّىٰ﴾ إلخ

٧- المؤكدات ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أكّد الخبر بعدة مؤكدات وهي "إنَّ" المفيدة للتأكيد، وتكرير الضمير ﴿أَنتَ﴾ وتعريف الخبر ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ ولفظ العلو الدال على الغلبة وصيغة التفضيل ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ ولله در التنزيل ما أبلغه وأروعه، وهذا من خصائص علم المعاني.

تنبيه: لم تذكر الآيات الكريمة أن فرعون فعل بالسحرة ما هدّدهم به، وقد ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم فماتوا على الإيمان ولهذا قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ . . . إلى . . . إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ من آية (٧٧) إلى نهاية آية (٩٨).

المُناسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى وفرعون، وتشير الآيات هنا إلى عناية الله تعالى بموسى وقومه، وإنجائهم وإهلاك عدوهم، وتذكيرهم بنعم الله العظمى ومننه الكبرى على بني إسرائيل، وما وعدهم به من المحافظة على شكرها وتحذيرهم من التعرض لغضب الله بكفرها، ثم تذكر الآيات انتكاس بني إسرائيل بعبادتهم العجل، وقد طوى هنا ما فصّل في آيات أخر.

اللّغَة: ﴿دَرَكًا﴾ لحاقاً مصدر أدركه إذا لحقه ﴿تَطْغَوْا﴾ الطغيان: مجاوزة الحدّ إلى ما لا ينبغي ﴿هَوَىٰ﴾ صار إلى الهاوية وهي قعر النار، من هوى يهوي إذا سقط من علوٍ إلى سفل ﴿بِمَلْكِنَا﴾ الملك: بفتح الميم وسكون اللام: الطاقة والقدرة ومعناه بأمرٍ كنا نملكه من جهتنا ﴿أَوْزَارًا﴾ أثقالاً ومنه سمي الذنب وزراً لأنه يثقل الإنسان ﴿خُوَارٌ﴾: صوت البقر ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ أي يا ابن أمي

والإضافة تدل على الاستعطاف ﴿تَزَكَّىٰ﴾ حسُنت ونمت.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي أوحينا إلى موسى بعد أن تمادى فرعون في الطغيان أن سِرْ ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي اضرب البحر بعصاك ليصبح لهم طريقاً يابساً يعبرون عليه ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي لا تخاف لحاقاً من فرعون وجنوده، ولا تخشى الغرق في البحر ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي فلحقهم فرعون مع جنوده ليقتلهم فأصابهم من البحر ما أصابهم، وغشيهم من الأهوال ما لا يعلم كُنهه إلا الله، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغرق ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة، وفيه تهكم بفرعون في قوله ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ خطاب لبني إسرائيل بعد خروجهم من البحر وإغراق فرعون وجنوده، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي العظيمة عليكم حين نجيتكم من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ أي واعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون منفعتها راجعة إليهم إذ في نزول التوراة صلاح دينهم ودنياهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي رزقناكم وأنتم في أرض التيه بالمنّ وهو يشبه العسل، والسلوى وهو من أجود الطيور لحماً

تفضلاً منه عليكم.. وفي هذا الترتيب غاية الحسن حيث بدأ بتذكيرهم بنعمة الإِنجاء، ثم بالنعمة الدينية، ثم بالنعمة الدنيوية ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لكم: كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمتُ به عليكم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية على العصيان لأمري فينزل بكم عذابي ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي ومن ينزل عليه غضبي وعقابي فقد هلك وشقي ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أي وإِني لعظيم المغفرة لمن تاب من الشرك وحسَّن إيمانه وعمله، ثم استقام على الهدى والإِيمان، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة العصيان ببيان المخرج كي لا ييأس ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أي: أيُّ شيءٍ عجَّل بك عن قومك يا موسى؟ قال الزمخشري: كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه(١) ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أي: قومي قريبون مني لم أتقدمهم إِلا بخطى يسيرة وهم يأتون بعدي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي وعجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضىً عني.. اعتذر موسى أولاً ثم بيَّن السبب في إسراعه قبل قومه وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاء لرضى الله ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ﴾ أي اختبرناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أي وأوقعهم السامريُّ في الضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل، وكان السامري ساحراً منافقاً من قوم يعبدون البقر قال المفسرون: كان موسى حين جاء لمناجاة ربه قد استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، وأمره أن يتعهدهم بالإِقامة على طاعة الله، وفي أثناء غيبة موسى جمع السامريُّ الحلي ثم صنع منها عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعكفوا عليه وكانت تلك الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي رجع موسى من الطور بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة غضبان شديد الحزن على ما صنع قومه من عبادة العجل ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي ألم يعدكم بإِنزال التوراة فيها الهدى والنور؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ أي هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم وعدي؟ قال أبو حيان: وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنة موسى عليه السلام، ولا يخالفوا أمر الله أبداً، فأخلفوا موعده بعبادتهم للعجل(٢) ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي ما أخلفنا العهد بطاقتنا وإِرادتنا واختيارنا بل كنا مكرهين ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي حملنا أثقالاً وأحمالاً من حلي آل فرعون فطرحناها في النار بأمر السامري قال مجاهد: أوزاراً: أثقالاً وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي كذلك فعل السامري ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار قال المفسرون: كان بنو إسرائيل قد استعاروا من القبط الحُلي قبل خروجهم من مصر، فلما أهلك

(١) الكشاف ٣/٨٩ (٢) البحر ٦/٢٦٨

موسى في العودة إليهم قال لهم السامري: إنما احتُبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه إلى السامري، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام فجعل يخور[1] فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ أي صاغ لهم السامري من تلك الحلي المذابة عجلاً جسداً بلا روح له خوارٌ وهو صوت البقر[2] ﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي هذا العجل إلهكم وإله موسى فنسي موسى إلهه هنا وذهب يطلبه في الطور، قال قتادة: نسي موسى ربه عندكم، فعكفوا عليه يعبدونه، قال تعالى ردًّا عليهم وبيانًا لسخافة عقولهم في عبادة العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي أفلا يعلمون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم لا يردُّ لهم جوابًا، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرًّا أو يجلب لهم نفعًا فكيف يكون إلهًا؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أي قال لهم هارون ناصحًا ومذكرًا من قبل رجوع موسى إليهم: إنما ابتُليتم وأضللتم بهذا العجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أي وإنَّ ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا العجل، فاقتدوا بي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي قالوا: لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى فننظر في الأمر[3] ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ ؟ في الكلام حذف أي فلما رجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل امتلأ غضبًا لله وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وقال له: أي شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله أن لا تتبعني في الغضب لله والإنكار عليهم والزجر لهم عن ذلك الضلال؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي أفخالفتني وتركت أمري ووصيتي؟ قال المفسرون: وأمرُهُ هو ما كان أوصاه به فيما حكاه تعالى عنه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أي قال له هارون استعطافًا وترقيقًا: يا ابن أمي - أي يا أخي - لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي قال ابن عباس: أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لأن الغيرة في الله ملكته ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي إني خفت

---

(١) هذا خلاصة قول ابن عباس وقتادة ومجاهد كذا في الطبري ١٦/٢٠٠ .

(٢) قال الرازي: قيل: إنه صار حيًّا وخار، وقيل: لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيها الريح فيخرج له صوت يشبه صوت العجل. الرازي ٢٢/١٠٣ .

(٣) قال سيد قطب عليه الرحمة في تفسير الظلال: «ما كاد بنو إسرائيل يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل وعكفوا على عجل الذهب، وفي بلاهة فكر، وبلادة روح قالوا: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ راح يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه، وهي قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم بأنه غير موصول بربه حتى ليضل الطريق إليه فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه، وهذا العجل لم يكن حتى يسمع قولهم ويستجيب لدعائهم لأنه جسد لا حياة فيه فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية. ولقد نصحهم هارون ولكنهم بدلاً من الاستجابة أصروا وتلكؤوا عن نصحه».

إن زجرتهم بالقوة أن يقع قتالٌ بينهم فتلومني على ذلك وتقول لي: لقد أشعلت الفتنة بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي لم تنتظر أمري فيهم، فمن أجل ذلك رأيتُ ألاّ أفعل شيئاً حتى ترجع إليهم لتتدارك الأمر بنفسك قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي ما شأنك فيما صنعت؟ وما الذي حملك عليه يا سامري؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي قال السامري: رأيتُ ما لم يروه وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة فألقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيتُه على شيء إلا دبّت فيه الحياة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أي قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل فطرحتها على العجل فكان له خوار ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي وكذلك حسّنتْ وزيّنتْ لي نفسي ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي قال موسى للسامري: عقوبتك في الدنيا ألاّ تمسَّ أحداً ولا يمسَّك أحد قال الحسن: جعل الله عقوبة السامري ألا يماسّ الناس ولا يماسّوه عقوبة له في الدنيا وكأن الله عز وجل شدّد عليه المحنة ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي وإنّ لك موعداً للعذاب في الآخرة لن يتخلف ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي انظر إلى هذا العجل الذي أقمت ملازماً على عبادته ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي لنحرقنه بالنار ثم لنطيّرنّه رماداً في البحر لا يبقى منه عين ولا أثر ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي يقول موسى لبني إسرائيل: إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله الذي لا ربَّ سواه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وسع علمه كلّ شيء، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١- التهويل ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾

٢- الطباق بين ﴿وَأَضَلَّ . . . وَمَا هَدَى﴾.

٣- الاستعارة ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ استعار لفظ الهوي وهو السقوط من عُلوٍ إلى سُفل للهلاك والدمار.

٤- صيغة المبالغة ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أي كثير المغفرة للذنوب

٥- الطباق ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

٦- الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة بيناها في التفسير.

٧- السجع الحسن غير المتكلف مثل ﴿أَثَرِي﴾ ﴿قَوْلِي﴾ ﴿نَفْسِي﴾ و ﴿نَسْفًا﴾ ﴿عِلْمًا﴾ ﴿عَاكِفًا﴾ إلخ

تنبيه: إنما عبد بنو إسرائيل العجل بسبب فتنة السامري وقد كانت بذور الوثنية راسخة في قلوبهم وذلك لمّا نجاهم الله من طغيان فرعون طلبوا من موسى أن يصنع لهم تمثالاً ليعبدوه كما قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فلا عجب إذاً أن يعكفوا على عبادة عجل من ذهب له خوار!!

﴿يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾

التفسير: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى مع فرعون وما فيه من الأنباء الغريبة كذلك نقص عليك أخبار الأمم المتقدمين ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي أعطيناك من عندنا قرآنًا يتلى منطويًا على المعجزات الباهرة قال في البحر: امتن تعالى عليه بإيتائه الذكر المشتمل على القصص والأخبار، الدال على معجزات أوتيها عليه السلام[1] ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به ولم يأخذ بما فيه، فإنه يحمل يوم القيامة حملًا ثقيلًا، وذنبًا عظيمًا يلقيه في جهنم ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أي مقيمين في ذلك العذاب بأوزارهم، وبئس ذلك الحمل الثقيل حملًا لهم، شبّه الوزر بالحمل لثقله ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر زرق العيون سود الوجوه قال القرطبي: تشوه خلقتهم بزرقة العيون وسواد الوجوه[2] ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي يتهامسون بينهم ويسرُّ بعضهم إلى بعض قائلين: ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال قال أبو السعود: استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأهوال[3] ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم إذ يقول أعقلهم وأعدلهم قولًا: ما لبثتم إلا يومًا واحدًا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي ويسألونك عن حال الجبال يوم القيامة فقل لهم: إن ربي يفتتها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيطيرها ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي فيتركها أرضًا ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أي لا ترى فيها انخفاضًا ولا ارتفاعًا ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتبع الناس داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر يأتونه سراعًا لا يزيغون عنه ولا يحرفون

(١) البحر المحيط ٦/٢٧٨ (٢) القرطبي ١١/٢٤٤
(٣) أبو السعود ٣/٣٢٤ .

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ذلَّت وسكنت أصوات الخلائق هيبةً من الرحمن جل وعلا ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي لا تسمع إلا صوتًا خفيًا لا يكاد يُسمع وعن ابن عباس: هو همس الأقدام في مشيها نحو المحشر[1] ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعة أحدًا إلا لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، ورضي لأجله شفاعة الشافع، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا الله، قاله ابن عباس ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم تعالى أحوال الخلائق فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا وأمور الآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جل وعلا[2] ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي ذلت وخضعت وجوه الخلائق للواحد القهار جبار السموات والأرض الذي لا يموت قال الزمخشري: المراد بالوجوه: وجوهُ العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب، صارت وجوهُهم عانيةً أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العُناة وهم الأسارى كقوله: ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3] ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي خسر من أشرك بالله، ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي من قدَّم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ أي فلا يخاف ظلمًا بزيادة سيئاته، ولا بخسًا ونقصًا لحسناته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة أنزلنا هذا الكتاب عليك يا محمد بلغة العرب ليعرفوا أنه في الفصاحة والبلاغة خارج عن طوق البشر ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي كررنا فيه الإنذار والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي أو يحدث لهم موعظة في القلوب ينشأ عنها امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي جلَّ الله وتقدس الملك الحق الذي قهر سلطانه كل جبار عمَّا يصفه به المشركون من خلقه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي إذا أقرأك جبريل القرآن فلا تتعجل بالقراءة معه، بل استمع إليه واصبر حتى يفرغ من تلاوته وحينئذٍ تقرأه أنت. قال ابن عباس: كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصًا على حفظ القرآن ومخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك قال القرطبي: وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[4] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي سل الله عز وجل زيادة العلم النافع، قال الطبري: أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم[5] ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة من القديم ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي فنسي أمرنا ولم نجد له حزمًا وصبرًا عمَّا نهيناه عنه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم

---

(١) الطبري ١٦/ ١٢٤.

(٢) وقيل: المراد: لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله واختاره في التسهيل.

(٣) الكشاف ٣/ ٩٢. (٤) القرطبي ١١/ ٢٥٠.

(٥) الطبري ١٦/ ٢٢٠.

وتكريمه وما فضله به على كثير من الخلق أي واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم، فامتثلوا الأمر إلا إبليس فإنه أبى السجود، وعصى أمر ربه قال الصاوي كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليمًا للعباد امتثال الأوامر، واجتناب النواهي وتذكيرًا لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم[1] ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أي وتنبيهًا لآدم قلنا له: إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي لا تطيعاه فيكون سببًا لإخراجكما من الجنة فتشقيا، وإنما اقتصر على شقائه مراعاة للفواصل ولاستلزام شقائه شقائها، قال ابن كثير: المعنى: إياك أن تسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك، فإنك هنا في عيش رغيد، بلا كلفة ولا مشقة[2] ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ أي إنّ لك يا آدم ألا يصالك في الجنة الجوع ولا العري ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي ولك أيضًا ألا يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس لأن الجنة دار السرور والحبور، لا تعب فيها ولا نصب، ولا حر ولا ظمأ بخلاف دار الدنيا ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي حدَّثه خفيةً بطريق الوسوسة ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي قال له إبليس اللعين: هل أدلك يا آدم على شجرة من أكل منها خُلّد ولم يمت أصلاً، ونال الملك الدائم الذي لا يزول أبدًا؟ وهذه مكيدة ظاهرها النصيحة، ومتى كان اللعين ناصحًا؟ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها فظهرت لهما عوراتهما، قال ابن عباس: عريا من النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما[3] ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي شرعا يأخذان من أوراق الجنة ويلصقان بها عوراتهما ليستترا بها ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ أي خالف آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة فضلَّ عن المطلوب الذي هو الخلود في الجنة حيث اغتر بقول العدو، قال أبو السعود: وفي وصفه بالعصيان والغواية - مع صغر زلته - تعظيمٌ لها، وزجرٌ بليغ لأولاده عن امتثالها[4] ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ أي ثم اصطفاه ربه فقربه إليه وقبل توبته وهداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب الطاعة ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي قال الله لآدم وحواء: انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين بعض ذريتكما لبعض عدو بسبب التكسب والمعاش واختلاف الطبائع والرغبات، قال الزمخشري: لما كان آدم وحواء أصلي البشر جُعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخوطبا مخاطبتهم[5] ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي فإن جاءكم مني الهدى بالكتب والرسل لهدايتكم ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي فمن تمسك بشريعتي واتبع رسلي فلا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، قال ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٦٦ . (٢) المختصر ٢/٤٩٦ .
(٣) أبو السعود ٣/٣٣٧ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة .
(٥) الكشاف ٢/٩٣ .

الآية[١] ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي ومن أعرض عن أمري وما أنزلته على رسلي من الشرائع والأحكام فإن له في الدنيا معيشة ضيقة شديدة وإن تنعَّم ظاهره ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي ونحشره في الآخرة أعمى البصر، قال ابن كثير: من أعرض عن أمر الله وتناساه فإن له حياة ضنكًا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيِّق حرج لضلاله وإن تنعَّم ظاهره ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه في قلق وحيرة وشك، وقيل: يُضيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه[٢] ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي قال الكافر: يا رب بأي ذنب عاقبتني بالعمى وقد كنت في الدنيا بصيرًا؟! ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي قال الله تعالى له: لقد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميت عنها وتركتها وكذلك تُترك اليوم في العذاب جزاءً وفاقًا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للجناية والتكذيب بآيات الله نعاقب من أسرف بالانهماك في الشهوات، ولم يصدِّق بكلام ربه وآياته البينات ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ أي عذاب جهنم أشدُّ من عذاب الدنيا لأن عذابها أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع ولا ينقضي ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي أفلم يتبيَّن لكفار مكة الذين كذبوك كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسلهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي يرون مساكن عاد وثمود ويعاينون آثار هلاكهم أفلا يتعظون ويعتبرون؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي إنَّ في آثار هذه الأمم البائدة لدلالات وعبرًا لذوي العقول السليمة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي لولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم ووقتٌ مسمى لهلاكهم لكان العذاب واقعًا بهم قال الفراء: في الآية تقديم وتأخيرٌ والمعنى ولولا كلمةٌ وأجلٌ مسمًّى لكان لزامًا أي لكان العذاب لازمًا لهم، وإنما أخره لتعتدل رؤوس الآي[٣] ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون من قومك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي صلِّ وأنت حامد لربك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أي وصلِّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي لعلك تعطى ما يرضيك قال القرطبي: أكثر المفسرين أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ صلاة العشاء ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ صلاة المغرب والظهر؛ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير[٤] ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به أصنافًا من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها الخادع ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي زينة الحياة الدنيا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم حتى يستوجبوا العذاب بكفرهم ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي

---

(١) القرطبي ١١/٨.
(٢) مختصر ٢/ ٤٩٨.
(٣) زاد المسير ٥/ ٣٣٢.
(٤) القرطبي ١١/ ٢٦١.

ثواب الله خير من هذا النعيم الفاني وأدوم قال المفسرون : الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته لأنه عليه السلام كان أزهد الناس في الدنيا وأشدهم رغبة فيما عند الله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي وأمر يا محمد أهلك وأمتك بالصلاة واصبر أنت على أدائها بخشوعها وآدابها ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العاقبة الحميدة لأهل التقوى، قال ابن كثير : أي حسن العاقبة وهي الجنة لمن اتقى الله[1] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي قال المشركون : هلاّ يأتينا بمعجزة تدل على صدقه؟ ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ أي أو لم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد عليه السلام المحتوي على أخبار الأمم الماضية؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع قال في البحر : اقترح المشركون ما يختارون على ديدنهم في التعنت فأجيبوا بأن هذا القرآن الذي سبق التبشير به في الكتب الإلهية السابقة أعظم الآيات في الإعجاز وهو الآية الباقية إلى يوم القيامة[2] ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي لو أنا أهلكنا كفار مكة من قبل نزول القرآن وبعثة محمد عليه السلام ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي لقالوا : يا ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً حتى نؤمن به ونتبعه ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ أي فنتمسك بآياتك من قبل أن نذل بالعذاب ونفتضح على رؤوس الأشهاد، قال المفسرون : أراد تعالى أن يبيّن أنه لا حجة لأحد على الله بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يترك لهم حجة ولا عذراً ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين : كلٌّ منا ومنكم منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أمر تهديد أي فانتظروا العاقبة والنتيجة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الطريق المستقيم هل نحن أم أنتم؟ ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أي اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد ومن بقي على الضلال، قال القرطبي : وفي هذا ضربٌ من الوعيد والتخويف والتهديد ختمت به السورة الكريمة[3].

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ - التشبيه ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وهو تشبيه مرسل مجمل.

٢ - الاستعارة ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ شبه الوزر بالحمل الثقيل بطريق الاستعارة التصريحية.

٣ - الكناية ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ كناية عن أمر الدنيا وأمر الآخرة.

٤ - الطباق بين ﴿أَعْمَىٰ . . . بَصِيرًا﴾.

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مثّل لنعيم الدنيا بالزهر وهو النور لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل وكذلك نعيم الدنيا.

---

(١) المختصر ٢/ ٥٠٠ (٢) البحر المحيط ٦/ ٢٩٢.

(٣) القرطبي ١١/ ٢٦٥

٦- الوعيد والتهديد ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾.

٧- جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

٨- السجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿غَوَىٰ﴾ ﴿عَصَىٰ﴾ ﴿أَبَىٰ﴾ ومثل ﴿تَشْقَىٰ﴾ ﴿تَعْرَىٰ﴾ ﴿تَضْحَىٰ﴾ ... إلخ.

لطيفة: قال الناصر: في الآية سرٌّ بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة، على أن في الآية سرًّا آخر وهو قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظمأ بالجوع لانتثر سلك رؤوس الآي[1].

فائدة: قال الشهاب: ليس المراد بحكاية قول من قال «عشرًا» أو «يومًا» أو «ساعة» حقيقة اختلافهم في مدة اللبث، ولا الشك في تعيينه، بل المراد أنه لسرعة زواله عبّر عن قلته بما ذكر، فتفنن في الحكاية وأتى في كل مقام بما يليق به[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طه»

---

(١) حاشية الكشاف ٣/٩٤.
(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي.

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة "الرسالة، الوحدانية، البعث والجزاء" وتتحدث عن الساعة وشدائدها، والقيامة وأهوالها، وعن قصص الأنبياء المرسلين.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة، وعن الحساب والجزاء، بينما القيامة تلوح لهم وهم في غفلة عن ذلك اليوم الرهيب، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرتقب.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن المكذبين، وهم يشهدون مصارع المكذبين، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون، حتى إذا ما فاجأهم العذاب، رفعوا أصواتهم بالتضرع والاستغاثة ولكن هيهات.

* وتناولت السورة دلائل القدرة في الأنفس والآفاق، لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم فيما خلق وأبدع، ولتربط بين وحدة الكون ووحدة الإله الكبير.

* وبعد عرض الأدلة والبراهين الشاهدة على وحدانية رب العالمين، تذكر السورة حال المشركين وهم يتلقون الرسول عليه السلام بالاستهزاء والسخرية والتكذيب، وتعقب على ذلك بسنة الله الكونية في إهلاك الطغاة المجرمين.

* ثم تتناول السورة الكريمة قصص بعض الرسل، وتتحدث بالإسهاب عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيين، في أسلوب مشوّق، فيه من نصاعة البيان، وقوة الحجة والبرهان ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوع واستسلام، وفي قصته عبر وعظات.

* وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن "إسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكريا، وعيسى" بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرضوا لها، وتختم ببيان رسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين.

التسمية: سميت "سورة الأنبياء" لأن الله تعالى ذكر فيها جملةً من الأنبياء الكرام في استعراض سريع، يطول أحياناً ويقصر أحياناً، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحياتهم في سبيل الله، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشرية.

اللغة: ﴿أضغاث﴾ أخلاط جمع ضغث وهي الأهاويل التي يراها الإنسان في منامه ﴿قصمنا﴾ القصم: كسر الشيء الصلب يقال: قصمتُ ظهره وانقصمت سنّه إذا انكسرت ﴿يركضون﴾

الركضُ: العدو بشدة والركض: ضرب الدابة بالرِّجل حثًا على العدو ﴿خَٰمِدِينَ﴾ خمدت النار: طفئت والخمود: الهمود ويراد به الموت تشبيهًا بخمود النار ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ دمغه: أصاب دماغه نحو كبده ورأسه أصاب كبده ورئته ﴿يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يعيون، مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

التفسير: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أي قرب ودنا وقت حساب الناس على أعمالهم ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ أي وهم مستغرقون في الشهوات، غافلون عن ذلك اليوم الرهيب، لا يعملون للآخرة ولا يستعدون لها كقول القائل:

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن (١)

وإنما وصف الآخرة بالاقتراب لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي ما يأتيهم شيء من الوحي والقرآن من عند الله متجدد في النزول فيه عظة لهم وتذكير ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي إلا استمعوا القرآن مستهزئين، قال الحسن: كلما جُدِّد لهم الذكر استمروا على الجهل (٢) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي ساهية قلوبهم عن كلام الله، غافلة عن تدبر

(١) البيت لأبي العتاهية كذا في ابن كثير ٣/ ٢٠١.
(٢) القرطبي ١١/ ٢٦٨.

معناه ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي تناجى المشركون فيما بينهم سرًّا ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي قالوا فيما بينهم خفيةً: هل محمد الذي يدّعي الرسالة إلا شخص مثلكم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ قال الألوسي: أرادوا أن ما أتى به محمد عليه السلام من قبيل السحر، وذلك بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكًا وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر وعنوا بالسحر: القرآن[1] ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قال محمد ﷺ: إن ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم: وفي هذا تهديدٌ لهم ووعيد ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ هذا إضرابٌ من جهته تعالى وانتقال إلى ما هو أشنع وأقبح حيث قالوا عن القرآن: إنه أخلاط منامات ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ أي اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي بل محمد شاعر وما أتى به شعر يخيل للسامع أنه كلام رائع مجيد، قال في التسهيل: حكى عنهم هذه الأقوال الكثيرة ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم فهم متحيرون لا يستقرون على شيء[2] ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي فليأتنا محمدٌ بمعجزة خارقة تدل على صدقه كما أرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ما صدّق قبل مشركي مكة أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات بل كفروا فأهلكهم الله أفيصدّق هؤلاء بالآيات لو رأوها؟ كلا، قال أبو حيان: وهذا استبعادٌ وإنكار أي هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضلَّ من أولئك ولاستحقوا عذاب الاستئصال ولكنَّ الله تعالى حكم بإبقائهم لعلمه أنه سيخرج منهم مؤمنون[3] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رسلاً من البشر لا ملائكة فكيف ينكر هؤلاء المشركون رسالتك ويقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم؟ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي فاسألوا يا أهل مكة العلماء بالتوراة والإنجيل هل كان الرسل الذين جاءوهم بشرًا أم ملائكة؟ إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي ما جعلنا الأنبياء أجسادًا لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون، ويتألمون ويمرضون ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي ما كانوا مخلَّدين في الدنيا لا يموتون ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أي ثم صدقنا الأنبياء ما وعدناهم به من نصرهم وإهلاك مكذبيهم وإنجائهم مع أتباعهم المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي وأهلكنا المكذبين للرسل، المجاوزين الحدَّ في الكفر والضلال، وهذا تخويفٌ لأهل مكة ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ اللام للقسم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتابًا عظيمًا مجيدًا لا يماثله كتاب، فيه شرفكم وعزّكم لأنه بلغتكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون هذه

---

(١) الألوسي ١٧/٩. (٣) التسهيل ٣/٢٢.
(٢) البحر ٦/٢٩٨.

النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد عليه السلام؟ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي وكثيراً أهلكنا من أهل القرى الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي فلما رأوا عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله إذا هم يهربون فارين منهزمين، قال أبو حيان: لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين[1] ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي تقول لهم الملائكة استهزاءً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ولين العيش ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ أي ارجعوا إلى مساكنكم الطيبة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أي لعلكم تُسألون عما جرى عليكم، وهذا كله من باب الاستهزاء والتوبيخ ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي قالوا: يا هلاكنا ودمارنا إنا كنا ظالمين بالإشراك وتكذيب الرسل، اعترفوا وندموا حين لا ينفعهم الندم ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي فما زالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويرددونها ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أي حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم مثل الحصيد موتى كالزرع المحصود بالمناجل ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ أي لم نخلق ذلك عبثاً وباطلاً وإنما خلقناهما دلالةً على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق المدبر الحكيم ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قال ابن عباس: هذا ردٌّ على من قال: اتخذ الله ولداً، والمعنى: لو أردنا أن نتخذ ما يُتلهى به من زوجة أو ولد ﴿لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي لاتخذناه من عندنا من الحور العين أو الملائكة ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي لو أردنا فعل ذلك لاتخذناه من لدنا ولكنه مُنافٍ للحكمة فلم نفعله ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ أي بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع فيقمعه ويبطله ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي هالك تالف ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي ولكم يا معشر الكفار العذاب والدمار من وصفكم الله تعالى بما لا يجوز من الزوجة والولد ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وله جلَّ وعلا جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وتصرفاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبدٌ ومخلوق له؟ ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي والملائكة الذين عبدتموهم من دون الله لا يتكبرون عن عبادة مولاهم ولا يملّون ولا يكلّون ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي هم في عبادة دائمة ينزهون الله عما لا يليق به ويصلّون ويذكرون الله ليل نهار لا يضعفون ولا يسأمون ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ لما ذكر الدلائل على وحدانيته وأن من في السموات والأرض ملكٌ له وأن الملائكة المقربين في طاعته وخدمته عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم، و﴿أَمِ﴾ منقطعة بمعنى بل والهمزة فيها استفهام معناه التعجب والإنكار والمعنى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض قادرين على إحياء الموتى؟ كلا، بل اتخذوا آلهة جماداً لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ هذا برهان

---

(١) البحر ٦/ ٣٠٢.

فقال له: سل كعباً عن الملائكة كيف يسبحون الليل والنهار لا يفترون أما يشغلهم شأن، أما تشغلهم حاجة؟ فقال للسائل: يا ابن أخي جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النَّفَس، ألست تأكل وتشرب، وتقوم وتجلس، وتجيء وتذهب وأنت تتنفس؟ فكذلك جُعل لهم التسبيح[1].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي..﴾ إلى قوله ﴿..أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ من آية (٢٥) إلى نهاية آية (٥٠).

المناسَبَة: لما بيَّن تعالى أحوال المشركين وأقام الأدلة والبراهين على وحدانية الله وبطلان تعدد الآلهة، ذكر هنا أن دعوة الرسل جميعاً إنما جاءت لبيان التوحيد ثم ذكر بقية الأدلة على قدرة الله ووحدانيته في هذا الكون العجيب.

اللغَة: ﴿رَتْقًا﴾ الرتق: السدُّ والالتحام وهو ضد الفتق يقال: رتقتُ الشيء فارتتق أي التأم ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ﴿تَمِيدَ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿فِجَاجًا﴾ جمع فجّ وهو المسلك والطريق الواسع ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تدهشهم وتحيرهم، قال الجوهري: بهته بهتاً أخذه بغتة وقال الفراء: بهته: إذا واجهه بشيء يحيّره[2] ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ يحرسكم ويحفظكم، والكلاءة: الحراسة والحفظ.

سَبَبُ النّزول: مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبيُّ بني عبد مناف! فغضب أبو سفيان وقال: ما تنكر أن يكون لبني عبد مناف نبي؟! فرجع رسول الله ﷺ إلى أبي جهل وقال له: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة فنزلت ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا..﴾[3] الآية.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ

---

(١) زاد المسير ٥/٣٤٥.
(٢) روح المعاني ١٧/٤٨.
(٣) القرطبي ١١/٢٩٠.

﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ۝ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ۝ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

التفسير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولاً من الرسل ﴿إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا﴾ أي إلا أوحينا إليه أنه لا ربَّ ولا معبود بحق سوى الله ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ أي فاعبدوني وحدي وخصوني بالعبادة ولا تشركوا معي أحداً ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أي قال المشركون: اتخذ الله من الملائكة ولداً، قال المفسرون: هم حيٌّ من خزاعة قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي بل هم عبادٌ مبجلون اصطفاهم الله فهم مكرمون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية وهم في غاية الطاعة والخضوع ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله، فشأنهم شأن العبيد المؤدبين وهم بطاعته وأوامره يعملون لا يخالفون ربهم في أمرٍ من الأوامر ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ أي لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن رضي الله عنه وهم أهل الإيمان كما قال ابن عباس: هم أهل شهادة لا إله إلا الله ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي وهم من خوف الله ورهبته خائفون حذرون لأنهم يعرفون عظمة الله، قال الحسن: يرتعدون من خشية الله ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أي ومن يقل من الملائكة: إني إلهٌ ومعبودٌ مع الله ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ أي فعقوبته جهنم، قال المفسرون: هذا على وجه التهديد وعلى سبيل الفرض والتقدير لأن هذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه والملائكة معصومون ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي من ظلم وتعدى حدود الله ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة وردٌّ على عبدة الأوثان أي أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقرَّ الأرض كما هي، قال الحسن وقتادة: كانت السموات والأرض

ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء[1] وقال ابن عباس: كانت السموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تُنبت ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات[2] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسببًا للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفلا يصدّقون بقدرة الله؟ ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي جعلنا في الأرض جبالًا ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي وجعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقًا واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار. قال ابن كثير: جعل في الجبال ثغرًا يسلكون فيها طرقًا من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلًا بين هذه البلاد وهذه فيجعل الله فيها فجوة ليسلك الناس فيها من هنا إلى هنا[3] ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أي جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط، وقال ابن عباس: حفظت بالنجوم من الشياطين ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي والكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبر معرضون لا يتفكرون فيما أبدعته يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. قال القرطبي: بيّن تعالى أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها، وما فيها من القدرة الباهرة إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعًا قادرًا واحدًا يستحيل أن يكون له شريك[4] ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي وهو تعالى بقدرته هيّأ الحياة فجعل فيها ليلًا ونهارًا هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وبالعكس، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي كلٌّ من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ أي وما جعلنا لأحد من البشر قبلك يا محمد البقاء الدائم والخلود في الدنيا ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أي فهل إذا مت يا محمد سيخلدون بعدك في هذه الحياة؟ لا، لن يكون لهم ذلك بل كلٌّ إلى الفناء، قال المفسرون: هذا ردٌّ لقول المشركين: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ فأعلم تعالى بأن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي كل مخلوق إلى الفناء ولا يدوم إلا الحيُّ القيوم ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي ونختبركم بالمصائب والنعم لنرى الشاكر من الكافر، والصابر من القانط قال ابن عباس: نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال[5] وقال

---

(١) القرطبي ١١/٢٨٣
(٢) زاد المسير ٥/٣٤٨.
(٣) المختصر ٢/٥٠٢.
(٤) القرطبي ١١/٢٨٥
(٥) المختصر ٢/٥٠٨

ابن زيد : نختبركم بما تحبون لنرى كيف شكركم ، وبما تكرهون لنرى كيف صبركم[1] ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي وإلينا مرجعكم فنجازيكم بأعمالكم ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي إذا رآك كفار قريش كأبي جهل وأشياعه ما يتخذونك إلا مهزوءاً به يقولون : ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ استفهام فيه إنكار وتعجيب أي هذا الذي يسب آلهتكم ويُسفه أحلامكم؟ ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي وهم كافرون بالله ومع ذلك يستهزئون برسول الله ، قال القرطبي : كان المشركون يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن ، وهذا غاية الجهل[2] ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي رُكّب الإنسان على العجلة فخُلق عجولاً يستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرّة ، قال ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك[3] ولهذا قال : ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي سأريكم انتقامي واقتداري على من عصاني فلا تستعجلوا الأمر قبل أوانه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا به؟ قال تعالى : ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي لو عرف الكافرون فظاعة العذاب حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم وظهورهم لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد ، قال في البحر : وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لأنه أبلغ في الوعيد وأهيب وقدّره الزمخشري بقوله : لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكنّ جهلهم هو الذي هوّنه عندهم[4] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا ناصر لهم من عذاب الله ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي بل تأتيهم الساعة فجأة فتدهشهم وتحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي فلا يقدرون على صرفها عنهم ولا يُمهلون ويُؤخرون لتوبة واعتذار ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء المشركين أي والله لقد استهزئ برسل أُولي شأن خطير وذوي عدد كثير من قبلك يا محمد ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي نزل وحلّ بالساخرين من الرسل العذاب الذي كانوا يستهزئون به ، قال أبو حيان : سلاّه تعالى بأنّ من تقدّمه من الرسل وقع من أممهم الاستهزاء بهم ، وأن ثمرة استهزائهم جنوها هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة فكذلك حال هؤلاء المستهزئين[5] ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين : من يحفظكم من بأس الرحمن في أوقاتكم؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه إن أراد إنزاله بكم؟ وهو سؤال تقريع وتنبيه كي لا يغترّوا بما نالهم من نعم الله ﴿بَلْ هُمْ عَن

(١) ابن الجوزي ٥/٣٥٠ .
(٢) القرطبي ١١/٢٨٨ .
(٣) المختصر ٢/٥٠٨ .
(٤) البحر ٦/٣١٢ .
(٥) البحر ٦/٣١٤ .

عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه لا يتفكرون ولا يعتبرون ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أي ألهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا؟ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يقدرون على نصر أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم؟ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي وليست هذه الآلهة تستطيع أن تجير نفسها من عذاب الله لأنها في غاية العجز والضعف، قال ابن عباس: يُصحبون: يُجارون أي لا يُجيرهم منا أحد لأن المجير صاحب مجيره[1] ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة وحسبوا أن ذلك يدوم فاغتروا بذلك ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي أفلا ينظرون فيعتبرون بأننا نأتي أرضهم ننقصها من أطرافها بالفتح على النبي وتسليط المسلمين عليها؟ ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ استفهام بمعنى التقريع والإنكار أي أفهم الغالبون والحالة هذه أم المغلوبون؟ بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنما أخوفكم وأحذركم بوحي من الله لا من تلقاء نفسي، فأنا مبلّغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وعنادكم كالصُّم الذين لا يسمعون الكلام والإنذار فلا يعقلون ولا ينزجرون ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي ولئن أصابهم شيء خفيف مما أنذروا به من عذاب الله ولو كان يسيرًا ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ليعترفُنّ بجريمتهم ويقولون: يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي فلا يُنقص محسنٌ من إحسانه، ولا يُزاد مسيء على إساءته ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي وإن كان العمل الذي عمله زنة حبة من خردل جئنا بها وأحضرناها. قال أبو السعود: أي وإن كان في غاية القلة والحقارة، فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر[2] ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي كفى بربك أن يكون محصيًا لأعمال العباد مجازيًا عليها، قال الخازن: والغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون على أشد الخوف منه[3] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال نورًا وضياءً وتذكيرًا للمؤمنين المتقين ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي هم الذين يخافون الله ولم يروه لأنهم عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربًا عظيمًا قادرًا يجازي على الأعمال فهم يخشونه وإن لم يروه ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي وهم من أهوال القيامة وشدائدها خائفون وجلون ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾

---

(١) زاد المسير ٥/٣٥٢ .
(٢) أبو السعود ٣/١٢٤ .
(٣) حاشية الجمل ٣/١٣١ .

أي وهذا القرآن العظيم كتابٌ عظيم الشأن فيه ذكرٌ لمن تذكّر، وعظةٌ لمن اتعظ، كثير الخير أنزلناه عليكم بلغتكم ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي أفأنتم يا معشر العرب منكرون له وهو في غاية الجلاء والظهور؟ قال الكرخي: الاستفهام للتوبيخ والخطاب لأهل مكة فإنهم من أهل اللسان يدركون مزايا الكلام ولطائفه، ويفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيرهم مع أن فيه شرفهم وصيتهم فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداوته(1).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا .. رَسُولٍ﴾.

٢ - الاستفهام الذي معناه التعجب والإنكار ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٣ - الطباق بين الرتق والفتق في قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

٤ - التنكير للتعميم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ﴾.

٥ - الالتفات من المتكلم إلى الغائب ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بعد قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ وذلك لتأكيد الاعتناء بالنعم الجليلة التي أنعم بها على العباد.

٦ - الطباق بين الشر والخير ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾.

٧ - المبالغة ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من نفس العجل كقول العرب لمن لازم اللعب: هو من لعب، وكوصف بعضهم قومًا بقوله: نساؤهم لُعَب ورجالهم طرب.

٨ - الاستعارة ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ استعار الصم للكفار لأنهم كالبهائم التي لا تسمع الدعاء ولا تفقه النداء.

٩ - الكناية ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ كناية عن العمل ولو كان في غاية القلة والحقارة.

١٠ - السجع اللطيف ﴿يَهْتَدُونَ﴾ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ إلخ.

تنبيه: سئل ابن عباس: هل الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم إلى السموات والأرض حين كانتا رتقًا هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار(2).

لطيفة: عن ابن عمر أن رجلًا أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما فقال له اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرني بما قال لك - يريد ابن عباس - فذهب إليه فسأله فقال ابن عباس: كانت السموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن، فالآن علمت بأنه قد أوتي في القرآن علمًا(3).

□□□

(1) انظر البحر المحيط ٦/٣١٢.

(2) نص كلام الصاوي والصفحة.

(3) مختصر ابن كثير ٢/٥٠٦.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾

التفسير: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي والله لقد أعطينا إبراهيم هُداه وصلاحه إلى وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من صغره حيث وفقناه للنظر والاستدلال إلى وحدانية ذي الجلال ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي عالمين أنه أهلٌ لما آتيناه من الفضل والنبوة ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا بيانٌ للرشد الذي أوتيه إبراهيم من صغره أي حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟ وفي قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ تحقيرٌ لها وتصغيرٌ لشأنها وتجاهل بها مع علمه بتعظيمهم لها ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ أي نعبدها تقليداً للأسلاف، قال ابن كثير: لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضُّلال[1] ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي لقد كنتم وأسلافكم الذين عبدوا هذه الأصنام في خطأ بيّن بعبادتكم إياها إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أي هل أنت جادٌّ فيما تقول أم لاعب؟ وهل قولك حقٌّ أم مزاح؟ استعظموا إنكاره عليهم، واستبعدوا أن يكون ما هم عليه ضلالاً، وجوّزوا أن ما قاله على سبيل المزاح لا الجد فأضرب عن قولهم وأخبر أنه جادٌّ فيما قال غير لاعب ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي ربكم المستحق للعبادة هو رب السموات والأرض الذي خلقهنَّ وأبدعهنَّ لا هذه الأصنام المزعومة ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي وأنا شاهد لله بالوحدانية بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تقطع به الدعاوى ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي وأقسم بالله لأمكرنَّ بآلهتكم وأحتالنَّ في وصول الضرر إليها بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم، قال المفسرون: كان لهم عيد يخرجون إليه في كل سنة ويجتمعون فيه فقال آزر لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا!! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم أشتكي رجلي! فتركوه ومضوا ثم نادى في آخرهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ فسمعها رجلٌ فحفظها[2] ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي كسَّر الأصنام حتى جعلها فتاتاً وحطاماً ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ أي إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره، قال مجاهد: ترك الصنم الأكبر وعلّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتج به عليهم[3] ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه عمن كسر الأصنام فيتبين لهم عجزه وتقوم

---

(١) المختصر ٢/٥٠١.
(٢) تفسير الخازن ٣/٢٤٦.
(٣) القرطبي ١١/٢٩٨.

الحجة عليهم ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في الكلام محذوفٌ تقديره: فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ورأوا ما فُعل بها قالوا على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ: إنَّ من حطَّم هذه الآلهة لشديد الظلم عظيم الجرم لجراءته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي قال من سمع إبراهيم يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾. سمعنا فتى يذكرهم بالذم ويسبُّهم ويعيبهم يسمى إبراهيم فلعله هو الذي حطَّم الآلهة! ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي قال نمرود وأشراف قومه: أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه، والغرضُ أن تكون محاكمته على رءوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي لعلهم يحضرون عقابه ويرون ما يصنع به ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ أي هل أنت الذي حطَّمت هذه الآلهة يا إبراهيم؟ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي قال إبراهيم بل حطَّمها الصنم الكبير لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها، والغرض تبكيتُهم وإقامة الحجة عليهم ولهذا قال: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ أي اسألوا هذه الأصنام من كسرها؟ إن كانوا يقدرون على النطق، قال القرطبي: والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ فقال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون فيقول لهم: فلمَ تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجة منهم كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة[1] ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي رجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ أي قالوا في لجاجهم وعنادهم: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تجيب فكيف تأمرنا بسؤالها؟! وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة، وحينئذٍ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوبخهم ويعنفهم ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي أتعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع؟ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي قبحًا لكم وتبًّا لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون قبح صنيعكم؟ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ لما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش والتنكيل فقالوا: احرقوا إبراهيم بالنار انتقامًا لآلهتكم ونصرةً لها ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصريها حقًا ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي ذات برد وسلامة، وجاءت العبارة هكذا للمبالغة قال المفسرون: لما أرادوا إحراق إبراهيم جمعوا له حطبًا مدة شهر حتى كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطبًا

---

(١) القرطبي ١١/٣٠٠.

لتحرق إبراهيم، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها لهب عظيم حتى إنَّ الطائر ليمرُّ من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار، فجاءه إليه جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، فقال جبريل: فاسأل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي! فقال الله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[1]، ولم تحرق النار منه سوى وثاقه وقال ابن عباس: لو لم يقل الله ﴿وَسَلَامًا﴾ لآذى إبراهيم بردها[2] ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ أي أرادوا تحريقه بالنار ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي أخسر الناس وأخسر من كل خاسر حيث كادوا لنبيِّ الله فردَّ الله كيدهم في نحورهم ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ونجّينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجروا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأنبياء ووفرة الأنهار والأشجار. قال ابن الجوزي: وبركتها أن الله عزَّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها وأكثر فيها الخصب والأنهار[3] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي أعطينا إبراهيم - بعدما سأل ربه الولد - إسحاق وأعطيناه كذلك يعقوب نافلةً أي زيادة وفضلاً من غير سؤال، قال المفسرون: سأل إبراهيم ربه ولداً فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة أي زيادة على ما سأل لأن ولد الولد كالولد ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناه من أهل الخير والصلاح ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي جعلناهم قدوة ورؤساء لغيرهم يرشدون الناس إلى الدين بأمر الله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أي أوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ليجمعوا بين العلم والعمل ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ أي وأمرناهم بطريق الوحي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإنما خصهما بالذكر لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي موحدين مخلصين في العبادة ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي وأعطينا لوطاً النبوة والعلم والفهم السديد، قال ابن كثير: كان لوط قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ فآتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى سدوم، فكذبوه فأهلكهم الله ودمّر عليهم كما قصَّ خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز[4] ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ أي خلّصناه من أهل قرية سدوم الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة كاللواط وقطع السبيل وغير ذلك ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ أي كانوا أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا لأنه من عبادنا الصالحين ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي واذكر قصة نوح حين دعا على قومه من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي

---

(١) القرطبي ١١/٣٠٣.
(٢) المختصر ٢/٥١٤.
(٣) زاد المسير ٥/٣٦٨.
(٤) المختصر ٢/٥١٥.

استجبنا دعاءه فنجيناه ومن معه من المؤمنين - ركاب السفينة - من الطوفان والغرق الذي كان كربًا عظيمًا شديدًا يكاد يأخذ بالأنفاس ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي منعناه من شر قومه المكذبين فنجيناه وأهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي كانوا منهمكين في الشر فأغرقناهم جميعًا ولم نبق منهم أحدًا ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ أي واذكر قصة داود وسليمان حين حكمان في شأن الزرع ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي وقت رعت فيه غنم القوم ليلاً فأفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي كنا مطلعين على حكم كلٍ منهما عالمين به ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي علمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي وكلاً من داود وسليمان أعطيناه الحكمة والعلم الواسع مع النبوة. قال المفسرون: تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تُبق منه شيئًا، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه فدخل عليه فقال: يا نبيَّ الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع! قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا خرج الزرع ردَّت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها! فقال له داود: وُفِّقتَ يا بنيَّ وقضى بينهما بذلك فذلك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ أي جعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سبح قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور فكان إذا ترنم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويبًا[1] وإنما قدم ذكر الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز لأنها جماد ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي وكنا قادرين على فعل ذلك ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ أي علمنا داود صنع الدروع بإلانة الحديد له، قال قتادة: أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح فهو أول من سردها وحلّقها[2] ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي لتقيكم في القتال شرّ الأعداء ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ استفهامٌ يراد به الأمر أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم. ولما ذكر تعالى ما خصَّ به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خصَّ به ابنه سليمان فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة أي شديدة الهبوب ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي تسير بمشيئته وإرادته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار وكانت مسكنه ومقر ملكه ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ أي وكنا عالمين بجميع الأمور فما أعطيناه تلك المكانة إلا لما نعلم من الحكمة ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في الماء ويدخلون أعماق البحر ليستخرجوا له الجواهر واللآلئ ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي ويعملون أعمالاً أخرى سوى الغوص كبناء المدن والقصور الشاهقة والأمور التي يعجز عنها البشر ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي نحفظهم عن الزيغ من أمره أو الخروج

---

(١) المختصر ٢/٥١٦.

(٢) القرطبي ١١/٣١٠.

عن طاعته.

البلاغة: تضمنت الآيات من وجوه الفصاحة والبديع ما يلي:

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة.

٢ - الطباق بين «ينفعكم .. ويضركم».

٣ - المبالغة ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ أطلق المصدر وأراد اسم الفاعل أي باردة أو ذات برد.

٤ - عطف الخاص على العام ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ لأن الصلاة والزكاة من فعل الخيرات، وإنما خصهما بالذكر تنبيهًا لعلو شأنهما وفضلهما.

٥ - الاحتراس ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دفعًا لتوهم انتقاص مقام داود عليه السلام.

٦ - المجاز المرسل ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة فالعلاقة المحلية.

٧ - السجع غير المتكلف ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ﴿الصَّابِرِينَ﴾ ﴿الصَّالِحِينَ﴾ إلخ.

تنبيه: وصف تعالى الريح هنا بقوله: ﴿عَاصِفَةً﴾ ووصفها في مكان آخر بقوله: ﴿رُخَاءً﴾ والعاصفة هي الشديدة، والرخاء هي اللينة، ولا تعارض بين الوصفين لأن الريح كانت لينة طيبة وكانت تسرع في جريها كالعاصف فجمعت الوصفين فتدبر.

□□□

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ..﴾ إلى ... ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من آية (٨٣) إلى نهاية السورة الكريمة.

المناسبة: لما ذكر تعالى جملة من الأنبياء «إبراهيم، نوح، لوط، داود، سليمان» وما نال كثيرًا منهم من الابتلاء، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى وكل ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم.

اللغة: ﴿ذَا النُّونِ﴾ النون: الحوت وذا النون: لقب ليونس بن متى لابتلاع النون له ﴿أَحْصَنَتْ﴾ الإحصان: العفة يقال: رجل محصن وامرأة محصنة أي عفيفة ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ الرغب: الرجاء، والرهب: الخوف ﴿كُفْرَانَ﴾ الكفر والكفران: الجحود وأصله الستر لأن الكافر يستر نعمة الله ويجحدها ﴿حَدَبٍ﴾ الحدب: ما ارتفع من الأرض، مأخوذ من حدبة الظهر، قال عنترة:

فما رعشت يداي ولا ازدهاني ... تواترهم إليّ من الحداب[1]

﴿يَنْسِلُونَ﴾ يسرعون، يقال: نسل الذئب ينسل نسلًا أي أسرع ﴿حَصَبُ﴾ الحصب: ما

---

(١) القرطبي ١١/٣٤١.

توقد به النار كالحطب ونحوه ﴿زَفِيرٌ﴾ أنين وتنفس شديد ﴿حَسِيسَهَا﴾ الحسيس: الصوت والحس والحركة الذي يحس به من حركة الأجرام ﴿السِّجِلِّ﴾ الصحيفة لأن بها يُسجل المكتوب.

سبب النزول عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ شق ذلك على كفار قريش وقالوا: شتم آلهتنا! وأتوا ابن الزِّبَعري وأخبروه فقال: لو حضرته لرددتُ عليه! قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: أقول له، هذا المسيح تعبده النصارى، وهذا عزير تعبده اليهود، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أن محمداً قد خُصم فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١).

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا

---

(١) القرطبي ١١/ ٣٤٧.

تكتمون ﴿١١٠﴾ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴿١١١﴾ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾

التفسير: ﴿وأيوب إذ نادى ربه﴾ أي واذكر قصة نبي الله أيوب حين دعا ربه بتضرع وخشوع ﴿أني مسني الضر﴾ أي نالني البلاء والكرب والشدة، قال المفسرون: كان أيوب نبياً من الروم، وكان له أولاد ومال كثير، فأذهب الله ماله فصبر، ثم أهلك الأولاد فصبر، ثم سلّط البلاء والمرض على جسمه فصبر حتى عافه جلساؤه من قومه فصبر، ما أصابه هذا إلا ذنب عظيم فعند ذلك تضرع إلى الله فكشف عنه ضره ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ أي أكثر رحمة فارحمني، ولم يصرِّح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه ﴿فكشفنا ما به من ضر﴾ أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قال ابن مسعود: مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي أُحيوا وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات[1] والمعنى: أعطيناه أهله في الدنيا ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع ﴿رحمة من عندنا﴾ أي من أجل رحمتنا إياه ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر، قال القرطبي: أي وتذكيراً للعباد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره، وطّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا مثل ما فعل أيوب، فهو أفضل أهل زمانه[2]. يُروى أن أيوب مكث في البلاء ثماني عشرة سنة فقالت له امرأته يوماً: لو دعوت الله عز وجل فقال لها: كم لبثنا في الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة فقال: إني أستحيي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي[3] ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل﴾ أي واذكر لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم وإدريس بن شيث وذي الكفل ﴿كل من الصابرين﴾ أي كلٌّ من هؤلاء الأنبياء من أهل الإحسان والصبر، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالهم من الأذى ﴿وأدخلناهم في رحمتنا﴾ أي أدخلناهم بصبرهم وصلاحهم الجنة دار الرحمة والنعيم ﴿إنهم من الصالحين﴾ أي لأنهم من أهل الخير والصلاح ﴿وذا النون﴾ أي واذكر لقومك قصة يونس الذي ابتلعه الحوت، والنون هو الحوت نُسب إليه لأنه التقمه ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ أي حين خرج من بلده مغاضباً لقومه إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم ولذلك قال الله تعالى ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ ولا يصح قول من قال: مغاضباً لربه، قال أبو حيان: وقول من قال مغاضباً لربه يجب طرحه إذ لا يناسب منصب

---

(١) هذا الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا إذا كان من معجزات المسيح عليه السلام، والصحيح أن الله عوضه من زوجته أولاداً مثل من فقدهم.
(٢) القرطبي ١١/ ٣٢٧.
(٣) النسفي ٣/ ٨٧.

نبوة[1]. وقال الرازي: لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكًا للأمر والنهي، والجاهل بالله لا يكون مؤمنًا فضلاً عن أن يكون نبيًا، فمغاضبته لقومه كانت غضبًا لله، وأنفةً لدينه، وبغضًا للكفر وأهله[2] ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي ظنَّ يونس أنْ لن نضيِّق عليه بالعقوبة كقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضُيِّق عليه فهو من القَدْر لا من القُدرة، قال الإمام الفخر: من ظنَّ عجز الله فهو كافر، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام؟! روي أنه دخل ابن عباس على معاوية فقال له معاوية: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقتُ فيها فلم أجد لي خلاصًا إلا بك! فقال: وما هي؟ قال: يظنُّ نبيُّ الله يونس أن لن يقدر الله عليه! فقال ابن عباس: هذا من القَدْر لا من القُدرة[3] ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي نادى ربه في ظلمة الليل وهو في بطن الحوت، قال ابن عباس: سميت الظلمات لأنها ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ﴾ أي نادى بأنه لا إله إلا أنت يا رب ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي تنزهت يا ربِّ عن النقص والظلم، وقد كنتُ من الظالمين لنفسي وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عني المحنة! وفي الحديث «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»[4] ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي استجبنا لتضرعه واستغاثته، ونجيناه من الضيق والكرب الذي ناله حين التقمه الحوت ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كما نجينا يونس من تلك المحنة ننجي المؤمنين من الشدائد والأهوال إذا استغاثوا بنا ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي واذكر يا محمد خبر عبدنا زكريا حين دعا ربه دعاء متضرع منيب قائلاً: ربِّ لا تتركني وحيدًا بلا ولد ولا وارث، قال ابن عباس: كان سنه مائة وسنُّ زوجته تسعًا وتسعين[5] ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت، قال الألوسي: وفيه مدحٌ له تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، واستمطارٌ لسحائب ألطافه عز وجل[6] ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ أي رزقناه ولدًا اسمه يحيى على شيخوخته ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي جعلناها ولودًا بعد أن كانت عاقرًا. قال ابن عباس: كانت سيئة الخُلق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخُلُق[7] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي إنما استجبنا دعاء من ذُكر من الأنبياء لأنهم كانوا صالحين يجدّون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي طمعًا ورجاءً في رحمتنا وخوفًا ورهبًا من عذابنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي كانوا متذللين خاضعين لله يخافونه في السر

(١) البحر ٦/٣٣٥.
(٢) الفخر الرازي ٢٢/٢١٥.
(٣) الرازي ٢٢/٢١٧.
(٤) أصل الحديث في سنن أبي داود.
(٥) تفسير الفخر الرازي ٢٢/٢١٤.
(٦) روح المعاني ١٧/٨٨.
(٧) القول الأول قول قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين، كذا في القرطبي ١١/٣٣٦.

الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الضمير للقصة والشأن أي فإذا شأن الكافرين أن أبصارهم شاخصة من هول ذلك اليوم لا تكاد تطرف من الحيرة وشدة الفزع ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي ويقولون: يا ويلنا أي يا حسرتنا وهلاكنا قد كنا في الدنيا في غفلة تامة عن هذا المصير المشؤوم واليوم الرهيب ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أضربوا عن القول السابق وأخبروا بالحقيقة المؤلمة والمعنى: لم نكن في غفلة حيث ذكرتنا الرسل ونبهتنا الآيات بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الإيمان ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من الأوثان والأصنام ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي حطب جهنم ووقودها. قال أبو حيان: الحصب: ما يحصب به أي يرمى به في نار جهنم، وقيل: ما يرمى به لا يطلق عليه حصب إلا مسجّراً[1] ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي أنتم داخلوها مع الأصنام، وإنما جمع الله الكفار مع معبوداتهم في النار زيادة لغمهم وحسرتهم برؤيتهم الآلهة التي عبدوها معهم في عذاب الجحيم ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ أي لو كانت هذه الأصنام التي عبدتموها آلهة ما دخلوا جهنم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي العابدون والمعبودون كلهم في جهنم مخلدون ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي لهؤلاء الكفرة في النار زفير وهو صوت النفس الذي يخرج من قلب المغموم وهو يشبه أنين المحزون والمكلوم ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يسمعون في جهنم شيئاً لأنهم يحشرون صماً كما قال تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قال القرطبي: وسماع الأشياء فيه روح وأنس، فمنع الله الكفار ذلك في النار[2] وقال ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره ثم تلا الآية[3] ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ أي سبقت لهم السعادة ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي هم عن النار مبعدون لا يصلون حرّها، ولا يذوقون عذابها، قال ابن عباس: أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً[4] ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي لا يسمعون حسّ النار ولا حركة لهيبها وصوتها ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أي وهم في الجنة دائمون، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث لأنهم في مأمن منها ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم قائلين: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي اذكر يوم نطوي السماء طياً مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها، قال أبو حيان: كطي الصحيفة على ما فيها، فاللام بمعنى «على» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي نحشرهم حفاة عراة غرلاً على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها، وفي الحديث «إنكم محشورون إلى الله حفاة

---

(١) البحر ٦/٣٤٠
(٢) القرطبي ١١/٣٤٤
(٣) القرطبي ١١/٣٤٤
(٤) مختصر ابن كثير ٢/٥٢٢

عُراةً غُرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ألا وإنَّ أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام»[1] الحديث ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ أي وعداً مؤكداً لا يُخلف ولا يُبدل لازم علينا إنجازه والوفاء به ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي قادرين على ما نشاء، وهو تأكيد لوقوع البعث ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ أي سجلنا وسطرنا في الزبور المنزل على داود ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي من بعد ما سطرنا في اللوح المحفوظ أولاً ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي أن الجنة يرثها المؤمنون الصالحون، قال ابن كثير: أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة وهم الصالحون[2] وقال القرطبي: أحسن ما قيل فيها أنه يراد بها أرض الجنة لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم وهو قول ابن عباس ومجاهد ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ[3]، وقال مجاهد: الزبور: الكتب المنزلة، والذكر: أمُّ الكتاب عند الله[4] ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي إنَّ في هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لكفايةً لقوم خاشعين متذللين لله جل وعلا، المؤثرين طاعة الله على طاعة الشيطان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا رحمة للخلق أجمعين وفي الحديث «إنما أنا رحمة مهداة»[5] فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة[6] ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أوحى إليَّ ربي أنَّ إلهكم المستحق للعبادة إله واحد أحد فرد صمد ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ استفهام ومعناه الأمر أي فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي فإن أعرضوا عن الإسلام ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي فقل لهم: أعلمتكم بالحق على استواءٍ في الإعلام لم أخصَّ أحداً دون أحد ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي وما أدري متى يكون ذلك العذاب ولا متى يكون أجل الساعة، فهو واقع لا محالة ولكنْ لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي إنه هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء، يعلم الظاهر والضمائر، ويعلم السرَّ وأخفى، وسيجازي كلاً بعمله ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي

---

(1) رواه مسلم عن ابن عباس. (2) مختصر ابن كثير ٢/٥٢٤.
(3) القرطبي ١١/٣٤٩.
(4) اختار هذا القول ابن جرير الطبري وهو قريب مما ذكرناه.
(5) أخرجه الحافظ ابن عساكر.
(6) لم يقل الله تعالى: رحمةً للمؤمنين وإنما قال ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى رحم الخلق بإرسال سيد المرسلين ﷺ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى، والنجاة من الشقاوة العظمى، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى، وعلمهم بعد الجهالة، وهداهم بعد الضلالة فكان رحمةً للعالمين، حتى الكفار رحموا به حيث أخر عقوبتهم ولم يستأصلهم بالعذاب كالمسخ والخسف والغرق.

وما أدري لعل هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم امتحانٌ لكم لنرى كيف صنيعكم ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي ولعل هذا التأخير لتستمتعوا إلى زمنٍ معين ثم يأتيكم عذاب الله الأليم ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وافصل بيننا بالحق ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي نستعين بالله على الصبر على ما تصفونه من الكفر والتكذيب. ختم السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده، فهو نعم الناصر ونعم المعين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١- التعرض للرحمة بطريق التلطف ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ولم يقل: ارحمني.

٢- جناس الاشتقاق ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

٣- الجناس الناقص «الصابرين ... و ... الصالحين».

٤- الطباق بين ﴿رَغَبًا .. رَهَبًا﴾ وبين ﴿أَقَرِيبٌ .. أَم بَعِيدٌ﴾ وبين القريب أم بعيد.

٥- التشريف ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف كقوله ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾.

٦- الاستعارة التمثيلية ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ مثّل اختلافهم في الدين وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بالجماعة تتوزع الشيء لهذا نصيب ولهذا نصيب، وهذا من لطيف الاستعارة.

٧- الإيجاز بالحذف ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي ويقولون يا ويلنا، ومثله قوله ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

٨- التشبيه المرسل المفصل ﴿نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي طياً مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها.

٩- الاستفهام الذي يراد به الأمر ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي أسلموا.

١٠- السجع ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿رَاجِعُونَ﴾ ﴿كَاتِبُونَ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء.

قال بعض العلماء : التقوى : أن لا يراك حيث نهاك ، وأن لا يفقدك حيث أمرك ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تعليلٌ للأمر بالتقوى أي إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الذي تشاهدون فيه تلك الزلزلة وترون هول مطلعها ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي تغفل وتذهل - مع الدهشة وشدة الفزع - كل أنثى مرضعة عن رضيعها ، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل - لهول ما ترى - عن أحب الناس إليها وهو طفلها الرضيع ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ أي تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ أي وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ استدراك لما قبله أي ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من عذاب الله مشفقون ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وبعضٌ من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل ، قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا بعث بعد الموت! قال أبو السعود : والآية عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين[1] ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ أي يطيع ويقتدي بكل عاتٍ متمرد كرؤساء الكفر الصادين عن الحق ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذه وليًّا ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي فإن الشيطان يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة ، وعبر بلفظ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على سبيل التهكم .. ولما ذكر تعالى المجادلين في قدرة الله ، المنكرين البعث والنشور ذكر دليلين واضحين على إمكان البعث : أحدهما : في الإنسان ، والثاني : في النبات فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا في أصل خلقكم ليزول ريبكم فقد خلقنا أصلكم آدم من التراب ، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم ثاني مرة ، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم جعلنا نسله من المني الذي يقطر من صلب الرجل ، قال القرطبي : والنطفة : المني سمي نطفة لقلته[2] ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي مستبينة الخلق مصورة وغير مصورة ، قال ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير مخلقة : التي لم يخلق فيها شيء ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا ، قال الزمخشري : أي لنبين لكم بهذا التدريج قدرتنا ، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ، ثم من نطفة ثانيًا ، ولا

(١) إرشاد العقل السليم ٣/٤ (٢) القرطبي ٦/١٢

تناسب بين التراب والماء، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظامًا، قادر على إعادة ما بدأه، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس[١] ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ أي ونثبت من الحمل في أرحام الأمهات من نريد أن نقره فيها حتى يتكامل خلقه ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى زمن معين هو وقت الوضع ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي ثم نخرج هذا الجنين طفلاً ضعيفًا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، ثم نعطيه القوة شيئًا فشيئًا ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي كمال قوتكم وعقلكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي ومنكم من يموت في زمن شبابه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي ومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث أي وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي وأخرجت من كل صنف عجيب ما يسر الناظر ببهائه ورونقه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما في الكون من آثار قدرته يشاهد بأن الله هو الحق ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بالنبات ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وبأنه قادر على ما أراد ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أي يحيي الأموات ويعيدهم بعد ما صاروا رممًا، ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلم صحيح يهدي إلى المعرفة ولا كتاب مبين الحجة بل بمجرد الرأي والهوى، قال ابن عطية: كرر هذه على وجه التوبيخ فكأنه يقول: هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان[٢] ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أي معرضًا عن الحق لاويًا عنقه كفرًا، قال ابن عباس: مستكبرًا عن الحق إذا دعي إليه، قال الزمخشري: وثنيُ العطف عبارة عن التكبر والخيلاء فهو كتصعير الخد[٣] ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ليضل الناس عن دين الله وشرعه ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي له هوان وذل في الحياة الدنيا ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ونذيقه في الآخرة النار المحرقة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي ذلك الخزي والعذاب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وأن الله عادل لا يظلم أحدًا من خلقه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤٤. (٢) البحر ٦/ ٣٥٤.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٤٤.

عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرف من الدين، وهذا مَثَلٌ للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فإن أحس بظفر أو غنيمة استقر وإلا فرّ، قال الحسن: هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه، وقال ابن عباس: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلامًا ونُتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء[1] ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي فإن ناله خيرٌ في حياته من صحة ورخاء أقام على دينه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أي أضاع دينه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾ أي يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده، شبّه حالهم بحال من أبعد في التيه ضالاً عن الطريق ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أي يعبد وثنًا ضرّه في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة وقيل الآية على الفرض والتقدير: أي لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه[2]، والآية سيقت تسفيهًا وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي بئس الناصر وبئس القريب والصاحب ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين المذبذبين ذكر حال المؤمنين في الآخرة والمعنى: إن الله يدخل المؤمنين الصادقين جنات تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار اللبن والخمر والعسل وهم في روضات الجنات يحبرون ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يثيب من يشاء ويعذب من يشاء لا معقب لحكمه، فللمؤمنين الجنة بفضله، وللكافرين النار بعدله ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة[3] ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ أي فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ؟ قال ابن كثير: وهذا القول قول ابن عباس وهو أظهر في المعنى وأبلغ في التهكم فإن المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾

---

(١) القرطبي ١٢/ ١٨ (٢) البحر ٦/ ٣٥٦

(٣) للمفسرين في معنى الآية قولان: الأول: أن الضمير في «ينصره» للرسول ﷺ والمعنى على هذا: من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمدًا فليختنق بحبل فإن الله ناصره لا محالة، وهذا ما رجحه ابن كثير، والثاني: أن الضمير يعود على الإنسان نفسه والمعنى: من ساء ظنه بالله وظن أن لن ينصره الله فليختنق وليمت كمدًا، وهذا ما رجحه شيخ المفسرين الطبري.

٩- الاستعارة التمثيلية ﴿مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ مثّل المنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب في دينهم بمن يقف على شفا الهاوية يريد العبادة والصلاة ويا له من تمثيل رائع!

١٠- المقابلة البديعة بين ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

١١- الطباق بين ﴿يَضُرُّهُ﴾ و﴿يَنفَعُهُ﴾ وبين ﴿يُهِنِ﴾ و﴿مُّكْرِمٍ﴾.

١٢- السجع اللطيف بين كثير من الآيات.

فائدة: المرضع التي شأنها أن ترضع، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها لطفلها ولهذا قال: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ولم يقل: مرضع ليكون ذلك أعظم في الذهول إذ تنزع ثديها من فم الصبي حالة إلقامه إياه، وذلك غاية في شدة الهول والفزع.

تنبيه: روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي: إنّ ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة فاستدعاه فقال له: يا عبد الله، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء، قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي بين عينيك بالسيف(١).

[٦١]

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ .. إلى .. ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٧).

المناسبة: لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة، ذكر هنا ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته، ثم ذكر عظم حرمة البيت العتيق وبناء الخليل له، وعظم كفر هؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام.

اللغة: ﴿يُصْهَرُ﴾ الصهر: الإذابة، صهرت الشيء فانصهر أي أذبته فذاب ﴿مَقَامِعُ﴾ المقامع: السياط جمع مقمعة سميت بذلك لأنها تقمع الفاجر ﴿الْعَاكِفُ﴾ المقيم الملازم ﴿وَالْبَادِ﴾ القادم من البادية ﴿بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا وهيّأنا وأرشدنا ﴿رِجَالًا﴾ جمع راجل وهو الماشي على قدميه ﴿ضَامِرٍ﴾ الضامر: البعير المهزول الذي أتعبه السفر ﴿تَفَثَهُمْ﴾ التفث في اللغة: الوسخ والقذارة، قال الشاعر(٢):

حفّوا رؤوسهم لم يحلقوا تفثاً ... ولم يسلّوا لهم قملاً وصئبانا

قال الثعلبي: أصل التفث في اللغة الوسخ، تقول العرب للرجل تستقذره: ما أتفثك! أي ما أوسخك وأقذرك(٣) ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ المخبت: المتواضع الخاشع لله.

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/٥٣١.

(٢) البيت لأمية بن أبي الصلت كما في القرطبي ١٢/٥٠.

(٣) القرطبي ١٢/٥٠.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

التفسير ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي هذان فريقان مختصمان: فريق المؤمنين المتقين، وفريق الكفرة المجرمين ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي اختلفوا وتنازعوا في أمر الله ودينه، قال مجاهد: هم المؤمنون والكافرون، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي فصلت لهم ثياب من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار، قال القرطبي: شبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قُطِّعَتْ﴾ خيطت وسويت، وذكر بلفظ الماضي لأن الموعود منه كالواقع المحقق[1] ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي يصب على رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود، قال ابن عباس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها، وفي الحديث «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر، ثم

(١) القرطبي ١٢/٢٦.

بما كان؟[1] قال الإمام الفخر: والغرض أن الحميم إذا صُب على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[2] ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي ولهم مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون وفي الحديث «لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها»[3] ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي كلما أراد أهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها، قال الحسن: إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً[4] ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي يقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي كنتم به تكذبون، ولما ذكر تعالى ما أعده للكفار من العذاب والدمار، ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخل المؤمنين الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أي تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية كحلية وزينة يتزينون بها ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ أي ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي ولباسهم في الجنة الحرير ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا بكثير ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين، ثم عدد تعالى بعض جرائم المشركين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي جحدوا بما جاء به محمد عليه السلام ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه، قال القرطبي: وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية[5] وإنما قال: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بصيغة المضارع لتدل على الاستمرار فكأن المعنى: إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس جميعاً سواء فيه المقيم الحاضر، والذي يأتيه من خارج البلاد ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ أي ومن يرد فيه سوءاً أو ميلاً عن القصد أن يهمّ فيه بمعصية ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي نذقه أشد أنواع العذاب المؤلم قال ابن مسعود: لو أن رجلاً بعدن همّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً، وقال مجاهد: تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات[6] ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي واذكر حين أرشدنا إبراهيم وألهمناه مكان

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب.
(٢) تفسير الرازي ٢٣/٢٢. (٣) أخرجه أحمد.
(٤) تفسير الرازي ٢٣/٢٢. (٥) القرطبي ١٢/٣٠.
(٦) تفسير الرازي ٢٣/٢٥.

الله﴾ أي من يعظّم ما شرعه الله من أحكام الدين ويجتنب المعاصي والمحارم ﴿فهو خير له عند ربه﴾ أي فذلك التعظيم خير له وأجر في الآخرة ﴿وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام إلا ما استثني في الكتاب المجيد كالميتة والمنخنقة وما ذبح لغير الله وغير ذلك ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس، وهو غاية المبالغة في النهي عن عبادتها وتعظيمها ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ أي واجتنبوا شهادة الزور ﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾ أي مائلين إلى الحق مخلصين له غير مشركين به أحداً ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه أي ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ أي أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾ أي ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمال الحج والأضاحي والهدايا ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله. قال القرطبي: أضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب، وفي الحديث «التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره[١] ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ أي لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ أي ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ أي شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله، قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل ﴿ليذكروا اسم الله﴾ أي أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ أي شكراً لله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم، بيّن تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى وعلى اسمه، لأنه هو الخالق الرازق لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿فإلهكم إله واحد﴾ أي ربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿فله أسلموا﴾ أي فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿وبشر المخبتين﴾ أي بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين بجنات النعيم، ثم وصف تعالى المخبتين بأربع صفات فقال: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليها فكأنهم بين يديه واقفون، وللصلاة وعبادته متعاهدون ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ أي يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكاره ﴿والمقيمي الصلاة﴾ أي الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمة كاملة مع الخشوع والخضوع ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن بعض الذي رزقناهم من فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ أي والإبل السمينة - سميت بدناً لبدانتها وضخامة أجسامها - جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده. قال

---

(١) القرطبي ٥٦/١٢

ابن كثير. وكونها من شعائر الدين أنها تُهدى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدى (١) ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال ابن عباس: نفعٌ في الدنيا وأجرٌ في الآخرة ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ أي اذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صوافّ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها، وهي كنايةٌ عن الموت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع أي المتعفف والمعتر أي السائل، قاله ابن عباس (٢)، وقال الرازي: الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال (٣) ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقادة لكم مع ضخامة أجسامها لكي تشكروا الله على إنعامه ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ أي لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دمائها ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ أي ولكن يصل إليه التقوى منكم بامتثالكم أوامره، وطلبكم رضوانه ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي كرره للتأكيد أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقادة لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي بشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الإيجاز ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي في دين ربهم فهو على حذف مضاف.

٢- الاستعارة ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ استعارة عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلابسه.

٣- الطباق بين ﴿الْعَاكِفُ﴾ و ﴿وَالْبَادِ﴾ لأن العاكف: المقيم في المدينة والباد: القادم من البادية.

٤- التأكيد بإعادة الفعل ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ للعناية بشأن كل استقلالاً، ويسمى في علم البديع الإطناب.

٥- التشبيه التمثيلي ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ لأن وجه الشبه منتزعٌ من متعدد.

٦- الجناس الناقص ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾.

٧- الطباق بين ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ لأن القانع: المتعفف والمعتر: السائل.

٨- السجع اللطيف مثل ﴿مُبِينٍ﴾ ﴿مُهِينٍ﴾ ﴿مُبِينٌ﴾ ومثل ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾.

تنبيه: لم يؤاخذ الله تعالى أحدًا من خلقه على الهمّ بالمعصية إلا في المسجد الحرام ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن المكان المقدس الذي يجب أن يكون فيه

---

(١) المختصر ٢/ ٥٤٤.

(٢) وهو قول قتادة والنخعي ومجاهد وكثير من السلف.

(٣) الرازي ٢٣/ ٣٦.

الإنسان تقي القلب، طاهر النفس، صافي السريرة، مخلصاً لوجه الله، ومن ينتهك حرمة البلد في حماه حقيق بالجحيم والعذاب الأليم.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. إلى .. وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ من آية (٣٨) إلى نهاية آية (٦٤).

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وذكر أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة، بيَّن هنا أنه يدافع عن المؤمنين، وذكر الحكمة من مشروعية القتال ومنها الدفاع عن المقدسات، وحماية المستضعفين، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى.

اللغَة: ﴿صَوَامِعُ﴾ جمع صومعة وهي البناء المرتفع وهي مختصة بالرهبان ﴿بِيَعٌ﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ كنائس اليهود وقال الزجاج: وهي بالعبرانية صلوتا ﴿نَكِيرِ﴾ مصدر بمعنى الإنكار قال الجوهري: النكير والإنكار تغيير المنكر ﴿مُعَطَّلَةٍ﴾ متروكة وتعطيل الشيء: إبطال منافعه ﴿مَشِيدٍ﴾ مرفوع البنيان.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾.

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكفّ كيدهم عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي إنه تعالى يبغض كل خائنٍ للأمانة جاحدٍ لنعمة الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ فيه محذوف تقديره: أذن لهم في القتال بسبب أنهم ظُلموا، قال ابن عباس: هذه أول آية نزلت في الجهاد، قال المفسرون: هم أصحابُ رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدًا وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروبٍ ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بقتالهم حتى هاجروا فأنزلت هذه الآية وهي أول آية أُذن فيها بالقتال بعدما نُهي عنه في أكثر من سبعين آية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي أُخرجوا من أوطانهم ظلمًا وعدوانًا بغير سببٍ موجبٍ للإخراج، قال ابن عباس: يعني محمدًا وأصحابه أُخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحّدوا الله ولم يشركوا به أحدًا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي لولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت المعابد، ولكنه تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ أي لتهدمت معابد الرهبان وكنائس النصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ أي كنائس اليهود ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ومساجد المسلمين التي يعبد فيها الله بكرة وأصيلًا، ومعنى الآية: أنه لولا كفُّه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا مواضع عباداتهم، ولم يتركوا للنصارى بِيَعًا، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود كنائس، ولا للمسلمين مساجد، ولغلب المشركون أهل الأديان، وإنما خصّ المساجد بهذا الوصف ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تعظيمًا لها وتشريفًا لأنها أماكن العبادة الحقة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ قسمٌ أي والله لينصرن الله من ينصر دينه ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، عزيزٌ لا يُقهر ولا يُغلب قال ابن كثير: وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب(١) ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ

---

(١) المختصر ٢/٥١٨

إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ قال ابن عباس: هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، والمعنى: هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطانًا في الأرض وتمليكًا واستعلاء عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأدوا الزكاة ﴿وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ أي دعوا إلى الخير ونهوا عن الشر ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ أي مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود﴾ تسلية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين أي إن كذبك أهل مكة فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه فقد كذبت قبلك أنبياء كثيرون فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين، فاقتد بهم واصبر ﴿وقوم إبراهيم وقوم لوط ۝ وأصحاب مدين﴾ أي وكذب كذلك قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب ﴿وكذب موسى﴾ أي وكذب موسى أيضًا مع وضوح آياته، وعظم معجزاته فما ظنك بغيره؟ ﴿فأمليت للكافرين ثم أخذتهم﴾ أي أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿فكيف كان نكير﴾ استفهام تقريري أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ألم يكن أليمًا؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالعمارة خرابًا؟ فكذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة ﴿فكأين من قرية أهلكناها﴾ أي كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل ﴿وهي ظالمة﴾ أي وهي مشركة كافرة ﴿فهي خاوية على عروشها﴾ أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مخربة مهدمة ﴿وبئر معطلة﴾ أي وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿وقصر مشيد﴾ أي وكم من قصر مرفوع البنيان أصبح خاليًا بلا ساكن، أليس في ذلك عبرة للمعتبر؟ ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ أي أفلم يسر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار!! وهلا عقلوا ما يجب أن يفعل من الإيمان والتوحيد! ﴿أو آذان يسمعون بها﴾ أي أو تكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ والزواجر ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ أي ليس العمى على الحقيقة عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر، وذكر الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾ أي ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب استهزاء، وإن ذلك واقع لا محالة، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد ﴿وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ أي هو تعالى حليم لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه فلم إذًا يستعجلونه ويستعجلون العذاب؟ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة﴾ أي وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاغتروا بذلك التأخير ﴿ثم أخذتها وإلي المصير﴾ أي ثم أخذتهم بالعذاب بعد طول الإمهال وإلي المرجع والمآب، قال في البحر: لما كان تعالى قد أمهل قريشًا حتى استعجلت بالعذاب ذكر الآية تنبيهًا على أن السابقين أمهلوا ثم أهلكوا وأن قريشًا وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عقابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم[1] ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم

---

(١) البحر ٦/٣٧٩.

اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي يثبت في نفس الرسول آياته الدالة على الوحدانية والرسالة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي مبالغ في العلم حكيم يضع الأشياء في مواضعها، قال أبو السعود: وفي الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام، وتطرق الوسوسة إليهم[1] ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي فتنة للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتياب ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي وفتنة للكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وهم خواص من الكفار عتاةٌ كأبي جهل، والنضر، وعتبة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله، ووصف الشقاق بأنه ﴿بَعِيدٍ﴾ لأنه في غاية الضلال والبعد عن الخير ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي يؤمنوا بالقرآن ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من في قلبه مرض ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي لا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي حتى تأتيهم الساعة فجأة دون أن يشعروا، قال قتادة: ما أخذ الله قومًا قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وسمي عقيمًا لأنه لا يوم بعده قال أبو السعود: كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيمًا، والمراد به الساعة أيضًا كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل[2] ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي الملك يوم القيامة لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يفصل بين عباده بالعدل، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ولهذا قال ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي فالذين صدقوا الله ورسله وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم في جنات الخلد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي تركوا الأوطان والديار ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا لإعلاء كلمة الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ أي قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي ليعطينهم نعيمًا خالدًا لا ينقطع أبدًا وهو نعيم الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي هو تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغير حساب ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ أي ليدخلنهم مكانًا يرضونه وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي عليم بدرجات العاملين حليم عن عقابهم ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي جازى الظالم بمثل ما ظلمه

(١) أبو السعود ٤/ ١٨ (٢) أبو السعود ٤/ ١٩

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي ثم اعتدى الظالم عليه ثانيًا لينصرن الله ذلك المظلوم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والغفران، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح، فإنه تعالى مع كمال قدرته على الانتقام يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ أي ذلك النصر بسبب أن الله قادر، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار أي أنه يدخل كلاً منهما في الآخر بأن ينقص من الليل فيزيد في النهار وبالعكس وهذا مشاهد ملموس في الصيف والشتاء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بأحوالهم لا تخفى عليه خافية ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلك بأن الله هو الإله الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي وأن الذي يدعوه المشركون من الأصنام والأوثان هو الباطل الذي لا يقدر على شيء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي هو العالي على كل شيء ذو العظمة والكبرياء فلا أعلى منه ولا أكبر.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة المبالغة ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ لأن فعال وفعول من صيغ المبالغة.

٢ - الحذف لدلالة السياق عليه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي أذن بالقتال للذين يقاتلون.

٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي لا ذنب لهم إلا هذا.

٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وبين ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٥ - جناس الاشتقاق ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾.

٦ - الطباق بين ﴿فَيَنسَخُ ... ثُمَّ يُحْكِمُ﴾.

٧ - الاستعارة البديعة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهذا من أحسن الاستعارات لأن العقيم: المرأة التي لا تلد، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار لأن الزمان قد مضى والتكليف قد انقضى، فجعلت الأيام بمنزلة الولدان لليالي، وجعل ذلك اليوم من بينها عقيمًا على طريق الاستعارة.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ... إلى ... فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ من آية (٦٣) إلى آية (٧٨) نهاية السورة الكريمة.

المُنَاسَبَة: لما ذكر تعالى ما دلَّ على قدرته الباهرة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ونبه به على نعمه، أتبعه هنا بأنواع أخر من الدلائل على قدرته وحكمته، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد.

اللُّغَة: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ حجة وبرهانًا ﴿يَسْطُونَ﴾ يبطشون، والسطوة: القهر وشدة البطش يقال: سطا يسطو إذا بطش به ﴿يَسْلُبْهُمُ﴾ سلب الشيء: اختطفه بسرعة ﴿قَدَرُواْ﴾ عظموا ﴿يَصْطَفِي﴾

يجتبي ويختار ﴿حرج﴾ ضيق ﴿ملة﴾ الملة: الدين.

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير (٦٣) له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد (٦٤) ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم (٦٥) وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور (٦٦) لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم (٦٧) وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون (٦٨) الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون (٦٩) ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير (٧٠) ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير (٧١) وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير (٧٢) يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب (٧٣) ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز (٧٤) الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير (٧٥) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور (٧٦) يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون (٧٧) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾.

التفسير: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ استفهام تقريري أي ألم تعلم أيها السامع أن الله بقدرته أنزل من السحاب المطر؟ ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحولها، وجاء بصيغة المضارع ﴿فتصبح﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن ﴿إن الله لطيف خبير﴾ قال ابن عباس: لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط، والغرض من الآية إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ولهذا قال: ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما في الكون ملكه جل وعلا، خلقا وملكا وتصرفا، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿وإن الله لهو الغني الحميد﴾ أي هو تعالى غني عن الأشياء كلها لا يحتاج لأحد، وهو المحمود في كل حال ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ تذكير بنعمة أخرى أي ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾ أي وسخر السفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيئته ﴿ويمسك السماء أن تقع على

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أي يمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي إلا إذا شاء وذلك عند قيام الساعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيث هيأ لكم أسباب المعاش فاشكروا آلاءه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي أحياكم بعد أن كنتم عدمًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي يميتكم عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي بعد موتكم للحساب والثواب والعقاب ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي مبالغ في الجحود لنعم الله، قال ابن عباس: المراد بالإنسان: الكافر والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول: كيف تجعلون لله أندادًا وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف؟! ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي لكل نبي من الأنبياء وأمة من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبدًا ومنهاجًا[1] كقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي هم عاملون به أي بذلك الشرع ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي لا ينازعك أحد من المشركين فيما شرعت لك ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان، وهو نهيٌ يراد به النفي أي لا ينبغي منازعة النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي ادعُ الناس إلى عبادة ربك وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إنك على طريق واضح مستقيم، موصل إلى جنات النعيم ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وإن خاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم فقل لهم: الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما تستحقون عليها من الجزاء وهذا وعيد وإنذار ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين، فيعرفون حينئذٍ الحق من الباطل ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام تقريري أي لقد علمت يا محمد أن الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ أي إن ذلك كله مسطر في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهل عليه يسيرٌ لديه ثم بيّن سبحانه ما يقدم عليه الكفار مع عظيم نعمه، ووضوح دلائله فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ويعبد كفار قريش غير الله تعالى أصنامًا لا تنفع ولا تسمع ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي ما لم يرد به حجة ولا برهان من جهة الوحي والشرع ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي وما ليس عندهم به علم من جهة العقل وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للآباء ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكراهة ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي قل لهم: هل أخبركم بما هو

[1] قال ابن عباس: المنسك: الشريعة والمنهاج، قال الرازي: وهو الأقرب هنا

أمر أو أشد من تحريفكم للمؤمنين وبطشكم بهم؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وعدها الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي بئس الموضع الذي يصيرون إليه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر واعقلوا ما يقال لكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي إن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله؟! قال القرطبي: وخص الذباب لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأربابًا مطاعين؟! وهذا من أقوى الحجة وأوضح البرهان(١) ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي لو اختطف الذباب وسلب شيئًا من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الصنم، فكل منهما حقير ضعيف(٢) ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام على حقارتها شركاء للقوي العزيز ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو تعالى قادر لا يعجزه شيء، غالب لا يُغلب، فكيف يسوون بين القوي العزيز والعاجز الحقير؟! ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده، والآية رد على من أنكر أن يكون الرسول من البشر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما قدموا وما أخروا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي إليه وحده جل وعلا ترد أمور العباد فيجازيهم عليها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي صلوا لربكم خاشعين، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أشرف أركان الصلاة ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أي افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات والمبرات كصلة الأرحام، ومواساة الأيتام، والصلاة بالليل والناس نيام ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حق الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول ﴿وَمَا

---

(١) القرطبي ١٢/٩٧.

(٢) قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، وقال السدي: الطالب العابد، والمطلوب الصنم نفسه، وهذا هو الراجح كما في البحر.

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة، ولا كلفكم ما لا تطيقون بل هي الحنيفية السمحة ولهذا قال ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي دينكم الذي لا حرج فيه هو دين إبراهيم فالزموه لأنه الدين القيم كقوله ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ أي الله[1] سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن، ورضي لكم الإسلام ديناً قال الإمام الفخر: المعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن، وفي القرآن أيضاً بيّن فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم لأجل الشهادة المذكورة، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أن رسلهم قد بلغتهم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي وإذ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة ودفع الزكاة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي استمسكوا بحبله المتين وثقوا واستعينوا بالله في جميع أموركم ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي نعم هو تعالى الناصر والمعين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الامتنان بتعداد النعم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي ...﴾ الخ وكذلك الاستفهام الذي يفيد التقرير.

٢- الطباق ﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

٣- صيغة المبالغة ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي مبالغ في الجحود.

٤- النهي الذي يراد منه نفي الشيء ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ أي لا ينبغي لهم منازعتك فقد ظهر الحق وبان.

٥- الاستعارة اللطيفة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ أي تستبان من وجوههم علائم المكروه وإرادة الفعل القبيح مثل قولهم: عرفت في وجه فلان الشر.

٦- التمثيل الرائع ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ أي مثل الكفار في عبادتهم لغير الله كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة، قال الزمخشري: سميت القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال.

٧- المجاز المرسل ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ من إطلاق الجزء على الكل أي صلوا؛ لأن الركوع والسجود من أركان الصلاة.

٨- ذكر العام بعد الخاص لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ بدأ بخاص، ثم بعام، ثم بأعم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج»

---

(1) هذا قول ابن عباس ومجاهد وهو الظاهر، وقال الحسن: الضمير يعود إلى إبراهيم، وهذا قول مرجوح والله أعلم.

ويقال للولد سلالة أبيه لأنه انسلَّ من ظهر أبيه ﴿مَكِينٍ﴾ ثابت محكم تقول: هذا شيء مكين أي متمكن في الثبوت والرسوخ ﴿طَرَائِقَ﴾ جمع طريقة والمراد بالطرائق السموات السبع سميت بذلك لكون بعضها فوق بعض، ومنه قولهم: طارق النعل إذا جعل إحداهما على الأخرى ﴿وَصِبْغٍ﴾ الصبغ: الإدام وأصله الصباغ وهو شيء يلون به الثوب قال الهروي: كل إدام يؤتدم به فهو صبغ ﴿الأَنْعَامِ﴾ الحيوانات المعروفة الإبل، والبقر، والغنم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ۝ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

التفسير: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فاز وسعد وحصل على البغية والمطلوب المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة، و﴿قَدْ﴾ للتأكيد والتحقيق فكأنه يقول لقد تحقق ظفرهم ونجاحهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، ثم عدَّد تعالى مناقبهم فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال ابن عباس: خاشعون، خائفون ساكنون أي هم خاضعون متذللون في صلاتهم لجلال الله وعظمته لاستيلاء الهيبة على قلوبهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الكذب والشتم والهزل، قال ابن كثير: اللغو: الباطل وهو يشمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال(١) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي يؤدون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين، طيبة بها نفوسهم طلباً لرضى الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ هذا هو الوصف الرابع أي عفوا عن الحرام وصانوا فروجهم عما لا يحل من الزنا واللواط وكشف العورات ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي هم حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا من زوجاتهم وإمائهم المملوكات ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي فمن طلب

(١) ابن كثير المختصر ٢/ ٥٥٨

غير الزوجات والمملوكات ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي هم المعتدون المجاوزون الحدَّ في البغي والفساد ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي قائمون عليها بحفظها وإصلاحها، لا يخونون إذا ائتمنوا، ولا ينقضون عهدهم إذا عاهدوا، قال أبو حيان: والظاهر عموم الأمانات فيدخل فيها ما ائتمن الله تعالى عليه العبد من قول وفعل واعتقاد، وما ائتمنه الإنسان من الودائع والأمانات[1] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ هذا هو الوصف السادس أي يواظبون على الصلوات الخمس ويؤدونها في أوقاتها. قال في التسهيل: فإن قيل كيف كرر ذكر الصلوات أولاً وآخراً؟ فالجواب: أنه ليس بتكرار، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها، وذكر هنا المحافظة عليها فهما مختلفان[2]. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ أي أولئك الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة هم الجديرون بوراثة جنة النعيم ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ أي الذين يرثون أعالي الجنة التي تتفجر منها أنهار الجنة، وفي الحديث «إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة»[3] ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي هم دائمون فيها لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً، ثم ذكر تعالى الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ اللام جواب قسم أي والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة وخلاصة استُلَّت من الطين، قال ابن عباس: هو آدم لأنه انسلَّ من الطين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ أي ثم جعلنا ذرية آدم وبنيه منيّاً ينطف من أصلاب الرجال ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي في مستقر متمكن هو الرحم ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي ثم صيَّرنا هذه النطفة وهي الماء الدافق دماً جامداً يشبه العلقة ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ أي صيَّرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون عموداً للبدن ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أي سترنا تلك العظام باللحم وجعلناه كالكسوة لها ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح فصيَّرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم. قال الرازي: أي جعلناه خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة، وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين[4] ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي فتعالى الله في قدرته وحكمته أحسن الصانعين صنعاً ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أي ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة والحياة لصائرون إلى الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة. ولما ذكر تعالى الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته ذكر خلق السموات والأرض وكلها أدلة ساطعة على وجود الله، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي والله لقد خلقنا فوقكم سبع سموات، سميت طرائق لأن بعضها فوق بعض ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾

---

(١) البحر ٦/٣٩٧.
(٢) التسهيل ٣/٤٩.
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) تفسير الرازي ٢٣/٨٥.

أي وما كنا مهملين أمر الخلق بل نحفظهم وندبر أمرهم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي أنزلنا من السحاب المطر بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعلناه ثابتاً مستقراً في الأرض لتنتفعوا به وقت الحاجة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ أي ونحن قادرون على إذهابه بالتغوير في الأرض، فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم، قال ابن كثير: أي لو شئنا لجعلناه إذا نزل يغور في الأرض إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه تعالى ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فراتاً، فيسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع فيها فيفتح العيون والأنهار، ويسقي الزروع والثمار، تشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم (١) ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي فأخرجنا لكم بذلك الماء حدائق وبساتين فيها النخيل والأعناب ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار تتفكهون بها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي ومن ثمر الجنات تأكلون صيفاً وشتاءً كالرطب والعنب والتمر والزبيب، وإنما خصَّ النخيل والأعناب بالذكر لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام، ومقام الإدام، ومقام الفواكه رطباً ويابساً وهما أكثر فواكه العرب ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أي ومما أنشأنا لكم بالماء أيضاً شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل الطور وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي تنبت الدهن أي الزيت الذي فيه منافع عظيمة ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ أي وإدام للآكلين سمي صبغاً لأنه يلون الخبز إذا غُمس فيه، جمع الله في هذه الشجرة بين الأدم والدهن، وفي الحديث (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة) (٢) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي وإن لكم أيها الناس فيما خلق لكم ربكم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، لعظة بالغة تعتبرون بها ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي نسقيكم من ألبانها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة، تشربون من ألبانها، وتلبسون من أصوافها وتركبون ظهورها، وتحملون عليها الأحمال الثقال ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي وتأكلون لحومها كذلك ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي وتحملون على الإبل في البر كما تحملون على السفن في البحر، فإن الإبل سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الإخبار بصيغة الماضي لإفادة التثبت والتحقق ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كما أن ﴿قَدْ﴾ لإفادة التحقق أيضاً.

٢- التفصيل بعد الإجمال ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ الخ

٣- إنزال غير المنكر منزلة المنكر ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ الناس لا ينكرون الموت ولكن

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/٥٦٣ (٢) أخرجه أحمد

لغفلتهم عنه وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح جعلوا من علامات الإنكار ولذلك نزلوا منزلة المنكرين وألقي الخبر مؤكدًا بمؤكدين «إنّ واللام».

٣- الاستعارة اللطيفة ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ شبهت السموات السبع بطرائق النعل التي يجعل بعضها فوق بعض بطريق الاستعارة.

٤- التهديد ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾.

٥- السجع غير المتكلف ﴿خَاشِعُونَ﴾، ﴿مُعْرِضُونَ﴾، ﴿الْعَادُونَ﴾ وكذلك ﴿طِينٍ﴾ ﴿مَكِينٍ﴾ ﴿الْخَالِقِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: ذكر تعالى في هذه الآيات من قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ إلى قوله ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أربعة أنواع من دلائل قدرته تعالى. الأول: تقلب الإنسان في أطوار الخلق وهي تسعة آخرها البعث بعد الموت، الثاني: خلق السموات السبع، الثالث: إنزال الماء من السماء، الرابع: منافع الحيوانات وذكر منها أربعة أنواع «الانتفاع بالألبان، وبالأصواف، وباللحوم، وبالركوب».

فائدة: روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ذات يوم ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر»(١).

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ إلى ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ من آية (٣١) إلى نهاية آية (٥٢).

المناسبة: لما ذكر تعالى دلائل التوحيد في خلق الإنسان، والحيوان، والنبات، وفي خلق السموات والأرض، وما بثه من نعم على عباده، ذكر هنا أمثالًا لكفار مكة من المكذبين من الأمم السابقة وما نالهم من العذاب فابتدأ بقصة نوح، ثم بقصة هود، ثم بقصة موسى وفرعون، ثم بقصة عيسى ابن مريم، وكلها عبر وعظات للمكذبين بالرسل والآيات.

اللغة: ﴿جِنَّةٌ﴾ بكسر الجيم أي جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ فانتظروا والتربص: الانتظار ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ مختبرين ﴿هَيْهَاتَ﴾ اسم فعل ماض بمعنى بعد قال الشاعر:

تذكرت أيامًا مضين من الصبا ... وهيهات هيهاتًا إليك رجوعها(٢)

﴿غُثَاءً﴾ الغثاء: الشيء البالي، وغثاء السيل: ما يحمله من الحشيش والقصب البالي ونحوه ﴿فَبُعْدًا﴾ هلاكًا، قال الرازي: بعدًا وسحقًا ودمارًا ونحوها مصادر موضوعة مواضع

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي. (٢) القرطبي ١٢/١٢٢

كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسرانًا دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون"[1] ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ استفهام على وجه الاستهزاء والاستبعاد أي أيعدكم بالحياة بعد الموت بعد أن تصبحوا رفاتًا وعظامًا بالية؟ ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أي أنكم ستخرجون أحياء من قبوركم وكرر لفظ ﴿أَنَّكُمْ﴾ تأكيدًا لأنه لما طال الكلام حسن التكرار ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي بعد بعُد هذا الذي توعدونه من الإخراج من القبور، وغرضهم بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبدًا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت بعضنا ويولد بعضنا إلى انقراض العصر ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي لا بعث ولا نشور ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي ما هو إلا رجل كاذب يكذب على الله فيما جاءكم به من الرسالة، والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولسنا له بمصدقين فيما يقوله ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ لما يئس نبيهم من إيمانهم ورأى إصرارهم على الكفر دعا عليهم بالهلاك، والمعنى: رب انصرني عليهم بسبب تكذيبهم إياي ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي عن قريب من الزمان سيصبحون نادمين على كفرهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب المدمر عدلاً من الله لا ظلمًا ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي هلكى كغثاء السيل، قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم فصاروا لشدتها غثاءً كغثاء السيل وهو الشيء التافه الحقير الذي لا ينتفع منه بشيء ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي سحقًا وهلاكًا لهم بكفرهم وظلمهم، وهي جملة دعائية كأنه قال: بعدًا لهم من رحمة الله وهلاكًا ودمارًا لهم ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أي أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء أممًا وخلائق آخرين كقوم صالح وإبراهيم وقوم لوط وشعيب، قال ابن عباس: هم بنو إسرائيل وفي الكلام حذفٌ تقديره: فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم دلَّ عليه قوله ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي ما تتقدم أمةٌ من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عُيِّن لهلاكهم ولا تتأخر عنه ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ﴾ أي بعثنا الرسل متتالين واحدًا بعد واحد، قال ابن عباس: يتبع بعضهم بعضًا ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ تشنيع عليهم بكمال ضلالهم أي أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من سبقهم من الضالين المكذبين، ولهذا قال ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي ألحقنا بعضهم في إثر بعض بالهلاك والدمار ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أخبارًا تروى وأحاديث تذكر يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجبا وتسلية ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فهلاكًا ودمارًا لقوم لا يصدِّقون الله ورسله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أي أرسلناهما بآياتنا البينات، قال ابن عباس: هي الآيات التسع: العصا، اليد، الجراد الخ ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي وحجة واضحة ملزمة للخصم ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسلناهما إلى فرعون الطاغية وأشراف قومه المتكبرين ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي عن الإيمان بالله وعبادته ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي متكبرين متمردين، قاهرين

---

(1) إرشاد العقل السليم ٤/ ٣١ .

لغيرهم بالطعام ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ أي أنصدق رجلين مثلنا ونتبعهما؟! ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ أي والحال أن قوم موسى وهارون منقادون لنا كالخدم والعبيد؟! ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾ أي فكذبوا رسولينا فكانوا من المغرقين في البحر ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ أي أعطينا موسى التوراة بعد غرق فرعون وملئه ليهتدي بها بنو إسرائيل ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ أي وجعلنا قصة مريم وابنها عيسى معجزة عظيمة تدل على كمال قدرتنا ﴿وآويناهما إلى ربوة﴾ أي وجعلنا منزلهما ومأواهما في مكانٍ مرتفع من أرض بيت المقدس، قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذات قرار ومعين﴾ أي مستوية يستقر عليها وماءٍ جارٍ ظاهر للعيون، قال الرازي: القرار: المستقر كل أرض مستوية مبسوطة، والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وعن قتادة: ذات ثمار وماء، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها[1] ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ أي قلنا يا أيها الرسل كلوا من الحلال وتقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة، والنداء لكل رسول في زمانه، ووصى به كل رسول ليكون إرشاداً لأمته كما تقول تخاطب تاجراً: يا تجار اتقوا الربا ﴿إني بما تعملون عليم﴾ وعيدٌ وتحذير أي إني عالم بما تعملون لا يخفى عليَّ شيء من أمركم. قال القرطبي: شمل الكل في الوعيد وإن كان هذا مع الرسل والأنبياء، فما ظنُّ كلِّ الناس بأنفسهم[2]؟ ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملتكم ملة واحدة وهي دين الإسلام ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾ أي وأنا ربكم لا شريك لي فخافوا عقابي وعذابي.

البَلاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الاستعارة البديعية ﴿اصنع الفلك بأعيننا﴾ عبر عن المبالغة في الحفظ والرعاية بالصنع على الأعين لأن الحافظ للشيء في الأغلب يديم مراعاته بعينه فلذلك جاء بذكر الأعين والمراد من ذكر الحفظ والحراسة على طريق الاستعارة.

٢- الكناية ﴿وفار التنور﴾ كناية عن الشدة كقولهم: حمي الوطيس، وأطلق بعض العلماء التنور على وجه الأرض مجازاً.

٣- جناس الاشتقاق ﴿أنزلني منزلاً﴾ و ﴿خير المنزلين﴾.

٤- الطباق بين ﴿نموت ونحيا﴾ وكذلك بين ﴿تسبق﴾ و ﴿يستأخرون﴾.

٥- الجناس الناقص ﴿أرسلنا رسلنا﴾ لتغير بعض الحروف مع الشكل.

٦- التشبيه البليغ ﴿فجعلناهم غثاءً﴾ أي كالغثاء في سرعة زواله وهوانه حالة، حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً.

٧- أسلوب الإطناب ﴿الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ ذماً لهم وتسجيلاً عليهم القبائح والشناعات.

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/١٠٣. (٢) القرطبي ١٢/١٢٨.

٨- السجع اللطيف مثل ﴿تَتَّقُونَ﴾ ﴿تَشْرَبُونَ﴾ ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ ومثل ﴿عَالِينَ﴾ ﴿الْمُنزِلِينَ﴾ ﴿قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

فائدة: لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع، فمن إطلاقه على الواحد ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟ ومن إطلاقه على الجمع ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أفاده صاحب الكشاف.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ... إلى ... وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ من آية (٥٣) إلى نهاية آية (٧٤).

المناسبة: لما ذكر تعالى قصص الأنبياء والمرسلين، أتبعه بذكر أخبار الكفرة المتمردين من أقوامهم واختلافهم وتفرقهم في الدين حتى أصبحوا فرقًا وأحزابًا، ليجتنب الإنسان طرق أهل الضلال.

اللغة: ﴿زُبُرًا﴾ قطعًا جمع زبور وهي القطعة من الفضة أو الحديد ﴿غَمْرَتِهِمْ﴾ الغمرة: الحيرة والضلالة وأصله في اللغة: الماء الذي يغمر القامة ﴿يَجْأَرُونَ﴾ يضجون ويستغيثون وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور ﴿تَنكِصُونَ﴾ النكوص: الرجوع إلى الوراء ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ نكب عن الطريق نكوبًا إذا عدل عنه ومال إلى غيره.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)﴾.

التفسير: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي تفرقت الأمم في أمر دينهم فرقًا عديدة، وأديانًا مختلفة هذا مجوسي، وهذا يهودي، وهذا نصراني بعدما أمروا بالاجتماع ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه دينًا لنفسه معجب به، يرى أنه المحق الرابح، وأن غيره المبطل الخاسر ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والضمير لكفار مكة أي فاتركهم يا محمد

هؤلاء المشركين في غفلتهم وجهلهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى حين موتهم، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيدٌ للمشركين ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ أي أيظن هؤلاء الكفار أن الذي نعطيهم في الدنيا من الأموال والأولاد ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي هو تعجيل ومسارعة لهم في الإحسان؟ كلا ليس الأمر كما يظنون بل هو استدراجٌ لهم، واستمرارٌ إلى زيادة الإثم ولهذا قال ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي بل هم أشباه البهائم، لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في الأمر، أهو استدراج أم مسارعة في الخير؟ والآية ردٌّ على المشركين في زعمهم أن أموالهم وأولادهم دليلٌ رضى الله عنهم كما حكى الله عنهم ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ وفي الحديث (إن الله يعطي الدنيا لمن يُحب ولمن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب)(١).

ولما ذم المشركين وتوعدهم عقَّب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه حذرون ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدّقون بآيات الله القرآنية، وآياته الكونية وهي الدلائل والبراهين الدالة على وجوده سبحانه.

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه قال الإمام الفخر: وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة، بل المراد منه نفي الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلب رضوانه(٢) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين أي يعطون العطاء من زكاة وصدقة، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم، قال الحسن: إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءةً وأمنًا ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة ولاعتقادهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب، روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويسرق، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ فقال لها: لا يا بنت الصدِّيق! ولكنه الذي يصلي، ويصوم، ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل(٣) ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين يسارعون في الطاعات لنيل أعلى الدرجات، لا أولئك الكفرة المجرمون ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي هم المبادرون بها والسابقون إليها، قال الإمام الفخر: واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن، فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والثانية دلت على التصديق بوحدانية الله،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد. (٢) التفسير الكبير ٢٣/١٠٧.
(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد.

والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات، والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله الوصول إليها[1] ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا نكلّف أحدًا من العباد ما لا يطاق تفضلاً منا ولطفًا، أتى بهذه الآية عقب أوصاف المؤمنين إشارة إلى أن أولئك المخلصين لم يكلفوا بما ليس في قدرتهم وأن جميع التكاليف في طاقة الإنسان ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أي وعندنا صحائف أعمال العباد التي سجل فيها ما عملوا من خير أو شر نجازيهم في الآخرة عليها، ولهذا قال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئًا بنقص الثواب أو زيادة العقاب، قال القرطبي: والآية تهديد وتأمين من الحيف والظلم[2] ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي بل قلوب الكفرة المجرمين في غطاء وغفلة وعماية عن هذا القرآن ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي ولهم أعمال سيئة كثيرة غير الكفر والإشراك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي سيعملونها في المستقبل لتحق عليهم الشقاوة فقد جمعوا بين الكفر وسوء الأعمال فحقت عليهم كلمة العذاب ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ أي حتى إذا أخذنا أغنياءهم وكبراءهم المتنعمين في هذه الحياة بالعذاب العاجل كالجوع والقتل والأسر ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي إذا هم يصيحون ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة، قال ابن عباس: هو الجوع الذي عذبوا به سبع سنين ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي لا تمنعون من عذابنا فلا ينفعكم صراخ ولا استغاثة ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي لقد كنتم تسمعون آيات القرآن تقرأ عليكم ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي كنتم تنفرون من تلك الآيات كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الحق بالراجع إلى الخلف ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي مستكبرين بسبب القرآن عن الإيمان، قال ابن كثير: الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهُجْر من الكلام، يقولون إنه سحر، شعر، كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة[3]، وقال ابن الجوزي: الضمير عائد إلى البيت الحرام وهي كناية عن غير مذكور لشهرة الأمر، والمعنى: إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم لأمنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم، تقولون: نحن أهل الحرم فلا نخاف أحدًا، ونحن أهل بيت الله وولاته، هذا مذهب ابن عباس وغيره[4]. ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي متحدثين ليلاً تسمرون تقولون في سمركم الهجر وهو القول الفاحش من الطعن في القرآن، وسب النبي عليه السلام ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي أفلم يتدبروا هذا القرآن العظيم ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم أنه كلام الله فيصدقوا به؟ ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أم جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين؟ قال أبو السعود: يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل سنة قديمة لا يكاد يتسنى إنكاره، وأن

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/١٠٧.
(٢) القرطبي ١٢/١٣٤.
(٣) مختصر ابن كثير ٢/٥٦٩.
(٤) زاد المسير ٥/٤٨٦.

لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83) قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (92) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (98) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)﴾

التفسير: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي لو رحمنا هؤلاء المشركين الذين كذبوك وعاندوك ورفعنا عنهم ما أصابهم من قحط وجدب وكشفنا عنهم البلاء ﴿لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي لاستمروا وتمادوا في ضلالهم وتجاوزهم الحدّ يترددون ويتخبطون حيارى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد، وبالقحط والجوع ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي ما خضعوا لله ولا تواضعوا لجلاله ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي وما دعوا ربهم لكشف البلاء بل استمروا على العتو والاستكبار، والغرضُ أنه لم يحصل منهم تواضع ورجوع إلى الله في الماضي، ولا التجاء إلى الله في المستقبل لشدة جبروتهم وطغيانهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة وأتاهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾

خالقها وموجدها ولا بد لهم من الاعتراف بذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ؟ أي أفلا تعتبرون فتعلمون أن من ابتدأ ذلك قادر على إعادته؟ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؟ أي من هو خالق السموات الطباق بما فيها الشموس، والكواكب والأقمار، ومن هو خالق العرش الكبير الذي تحمله الملائكة الأطهار؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيقولون: الله خالقه وهو لله ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون من عذابه فتؤمنون به وتتركون عبادة غيره من الأوثان والأصنام ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملكوت من صفات المبالغة أي من بيده الملك الواسع التام؟ ومن بيده خزائن كل شيء؟ ومن هو المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإيجاد والتدبير؟ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي يحمي من استجار به والتجأ إليه، ولا يحمي أحدٌ منه أحدًا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيقولون: الملك كله والتدبير لله جل وعلا ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي قل لهم: فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده، مع اعترافكم وعلمكم بأنه وحده المتصرف المالك؟ ، قال أبو حيان: والسحر هنا استعارة وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط، ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحور من التخبط والتخليط[1] ورتب هذه التوبيخات الثلاثة بالتدريج فقال أولاً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ؟ ثم قال ثانيًا ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ؟ وذلك أبلغ لأن فيه زيادة تخويف، ثم قال ثالثًا ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره[2] ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بل جئناهم بالقول الصادق في أمر التوحيد والبعث والجزاء ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي كاذبون فيما ينسبون لله من الشرك والأولاد. لما بالغ في الاحتجاج عليهم بالآيات السابقة أعقبها بهذه الآية كالوعيد والتهديد، ثم بيَّن بطلان الشريك والولد بالبرهان القاطع فقال ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما اتخذ الله ولدًا مطلقًا لا من الملائكة ولا من البشر ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي وليس معه من يشاركه في الألوهية والربوبية ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لو كان معه إله - كما زعم عبدة الأوثان - لانفرد كل إله بخلقه الذي خلق واستبدّ به، وتميَّز ملك كلٍّ واحد عن ملك الآخر ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي ولغلب بعضهم على بعض كحال ملوك الدنيا، قال ابن كثير: المعنى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كلٌّ منهم بما خلق، ثم لكان كلٌّ منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض، وما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظمٌ متسقٌ غاية الكمال فدل على تنزه الله عن الولد والشريك[3] ولهذا قال ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدَّس عما يصفه به الظالمون ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو سبحانه العالم بما غاب عن الأنظار، وبما تدركه الأبصار، لا تخفى عليه خافية من شئون الخلق ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تقدس وتنزَّه عن الشريك والولد ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي قل يا رب إن كان ولا بدَّ من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هذا جواب الشرط ﴿إِمَّا﴾

---

(١) البحر المحيط ٦/٤١٨.
(٢) نقلاً من التسهيل ٣/٥٥.
(٣) مختصر ابن كثير ٢/٥٧٣.

وكرّر قوله ﴿رَبِّ﴾ مبالغةً في الدعاء والتضرع أي ربِّ فلا تجعلني في جملة الظالمين فأهلك بهلاكهم. قال أبو حيان: ومعلومٌ أنه عليه الصلاة والسلام معصومٌ مما يكون سبباً لجعله مع الظالمين ولكنه أُمر أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله(١) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أي ونحن قادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به ولكن نؤخره لحكمة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ أي ادفع إساءتهم بالصفح عنهم وتحمّل بمكارم الأخلاق. قال ابن كثير: أرشده إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة، وبغضه محبة(٢) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي نحن أعلم بحالهم وبما يكون منهم من التكذيب والاستهزاء وسنجازيهم عليه ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أي أعتصم بك من نزغات الشياطين ووساوسهم المغرية على الباطل والمعاصي ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي وأعتصم وأحتمي بك يا رب من أن يحضروني بسوءٍ أو يكونوا معي في أمرٍ من أموري، وكرّر ذلك للمبالغة والاعتناء بأمر الاستعاذة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ عاد الكلام عن المشركين أي حتى إذا حضر الموتُ أحدهم وعاين أهوال الآخرة وشدائدها ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ أي قال تحسّراً على ما فرط منه: ربِّ ردّني إلى الدنيا، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي لكي أعمل صالحاً فيما ضيّعت من عمري ﴿كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردعٍ وزجر أي لا رجوع إلى الدنيا فليرتدع عن ذلك فإن طلبه للرجعة كلام لا فائدة فيه ولا جدوى منه، فهو ذاهبٌ أدراج الرياح ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي وأمامهم حاجزٌ يمنعهم عن الرجوع إلى الدنيا هو عالم البرزخ الذي يحول بينهم وبين الرجعة يلبثون فيه إلى يوم القيامة. قال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي فلا قرابة ولا نسب ينفعهم يوم القيامة لزوال التراحم والتعاطف من شدة الهول والدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه لاشتغال كل واحدٍ بنفسه، ولا تنافي بينها وبين قوله ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف ومواطن، ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها لا ينطقون ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي فهم السعداء الذين فازوا فنجوا من النار وأُدخلوا الجنة ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي زادت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي فهم الأشقياء الذين خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم وتدنيسها بالكفر والمعاصي ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي هم مقيمون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تحرقها بشدة حرّها، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ أي وهم في جهنم عابسون مشوّهو الخلقة. قال ابن مسعود: قد بدت أسنانهم وتقلّصت شفاههم كالرأس المشيط بالنار، وفي الحديث (تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى

(١) البحر ٦/٤٢١.
(٢) ابن كثير المختصر ٢/٥٧٤.

بين يدي السورة

سورة النور من السور المدنية التي تتناول الأحكام التشريعية، وتُعنى بأمور التشريع والتوجيه والأخلاق، وتهتم بالقضايا العامة والخاصة التي ينبغي أن يُربّى عليها المسلمون أفرادًا وجماعات، وقد اشتملت هذه السورة على أحكام هامة وتوجيهات عامة تتعلق بالأسرة، التي هي النواة الأولى لبناء المجتمع الأكبر.

وضحت السورة الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة، كالاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنبيات، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة والبيت المسلم من العفاف والستر، والنزاهة والطهر، والاستقامة على شريعة الله، صيانةً لحرمته، وحفاظًا عليها من عوامل التفكك الداخلي، والانهيار الخلقي، الذي يهدم الأمم والشعوب

وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة بعض الحدود الشرعية التي فرضها الله كحد الزنى، وحد القذف، وحد اللعان، وكل هذه الحدود إنما شرعت تطهيرًا للمجتمع من الفساد والفوضى، واختلاط الأنساب، والانحلال الخلقي، وحفظًا للأمة من عوامل التردي في بؤرة الإباحية والتفسخ التي تسبب ضياع الأنساب، وذهاب العرض والشرف

وبالاختصار فإن هذه السورة الكريمة عالجت ناحية من أخطر النواحي الاجتماعية هي «مسألة الأسرة» وما يحفها من مخاطر، وما يعترض طريقها من عقبات ومشاكل، تودي بها إلى الانهيار ثم الدمار، هذا عدا ما فيها من آداب سامية، وحِكَم عالية، وتوجيهات رشيدة، إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمة، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يقول لهم: «علّموا نساءكم سورة النور»

التسمية: سميت سورة النور لما فيها من إشعاعات النور الرباني، بتشريع الأحكام والآداب، والفضائل الإنسانية التي هي قبس من نور الله على عباده، وفيض من فيوضات رحمته وجوده ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اللهم نوّر قلوبنا بنور كتابك المبين يا رب العالمين

اللغة: ﴿سُورَةٌ﴾ السورة في اللغة: المنزلة السامية والمكانة الرفيعة، قال النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورةً ... ترى كل ملكٍ دونها يتذبذب

وسميت المجموعة من الآيات لها بداية ونهاية سورة لشرفها وارتفاعها كما يسمى السور للمرتفع من الجدار ﴿الزَّانِيَةُ﴾ الزنى: الوطء المحرم ويسمى الفاحشة لتناهي قبحه وهو مقصور، وقد يمد على لغة أهل نجد فيقال: الزناء، قال الفرزدق

الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿١٩﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم﴾.

التفسير: ﴿سورة أنزلناها﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن من جوامع سور القرآن أوحينا بها إليك يا محمد ﴿وفرضناها﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ أي أنزلنا فيها آيات تشريعية، واضحات الدلالة على أحكامها، لتكون لكم - أيها المؤمنون - نوراً ونبراساً، وتكرير لفظ الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها فكأنه يقول: ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لكي تعتبروا وتتعظوا بهذه الأحكام وتعملوا بموجبها، ثم شرع تعالى بذكر الأحكام وبدأ بحد الزنى فقال: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ أي فيما شرعت لكم وفرضت عليكم أن تجلدوا كل واحد من الزانيين - غير المحصنين - مائة ضربة بالسوط عقوبة لهما على هذه الجريمة الشنيعة ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ أي لا تأخذكم بهما رقة ورحمة في حكم الله تعالى فتخففوا الضرب أو تنقصوا العدد بل أوجعوهما ضرباً، قال مجاهد: لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا إقامتها شفقة ورحمة (1) ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ هذا من باب الإلهاب والتهييج أي إن كنتم مؤمنين حقاً تصدقون بالله وباليوم الآخر، فلا تعطلوا الحدود ولا تأخذكم شفقة بالزناة، فإن جريمة الزنى أكبر من أن تستدر العطف أو تدعو إلى الرحمة ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ أي وليحضر عقوبة الزانيين جماعة من المؤمنين، ليكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ أي الزاني لا يليق به أن يتزوج العفيفة الشريفة، إنما ينكح مثله أو أخس منه كالفاجرة، أو المشركة الوثنية ﴿والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ أي والزانية لا يليق أن يتزوج بها المؤمن العفيف، إنما يتزوجها من هو مثلها أو أخس منها، كالزاني الخبيث أو المشرك الكافر، فإن النفوس الطاهرة تأبى الزواج بالفواجر الفاسقات، قال الإمام الفخر: «من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية: أن الفاسق الخبيث - الذي من شأنه الزنى والفسق - لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو في مشركة، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين، وهذا على الأعم الأغلب كما يقال: لا يفعل الخير إلا الرجل التقي، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقي فكذا هنا» (2) ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي وحرم الزنى على المؤمنين لشناعته وقبحه، أو حرم نكاح الزواني على المؤمنين لما فيه من الأضرار الجسيمة (3). ثم شرع تعالى في بيان حد القذف فقال: ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ أي يتقذفون بالزنى العفيفات الشريفات ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ أي ثم لم يأتوا على

---

(1) التفسير الكبير ٢٣/١٤٨. (2) التفسير الكبير للرازي ٢٣/١٥٠.
(3) قولان للمفسرين اختار الأول صاحب التسهيل واختار الثاني أبو السعود والقرطبي.

دعواهم بأربعة شهود عدول يشهدون عليهن بما نسبوا إليهن من الفاحشة ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ أي اضربوا كل واحدٍ من الرامين ثمانين ضربةً بالسوط ونحوه؛ لأنهم كذبة يتهمون البريئات، ويخوضون في أعراض الناس ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي ولا تقبلوا منهم أي شهادة، إهداراً لكرامتهم الإنسانية فلا تقبلوا شهادة أي واحدٍ منهم ما دام مصراً على كذبه وبهتانه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل لإتيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع، قال ابن كثير: أوجب تعالى على القاذف إذا لم يُقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة، الثاني: أن ترد شهادته أبداً، الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس[١] ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي إلا الذين تابوا وأنابوا وندموا على ما فعلوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي أصلحوا أعمالهم فلم يعودوا إلى قذف المحصنات، قال ابن عباس: أي أظهروا التوبة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فاعفوا عنهم واصفحوا وردُّوا إليهم اعتبارهم بقبول شهادتهم، فإن الله غفور رحيم يقبل توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح سيرته وحاله.. ثم ذكر تعالى حكم من قذف زوجته وهو المعروف باللعان فقال ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ أي وليس لهم شهود يشهدون بما رموهنَّ به من الزنى سوى شهادة أنفسهم ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ أي فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حدَّ القذف أربع شهادات بالله تقوم مقام الشهود الأربعة ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إنه صادقٌ فيما رمى به زوجته من الزنى ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي وعليه أيضاً أن يحلف في المرة الخامسة بأن لعنة الله عليه ﴿إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي إن كان كاذباً في قذفه لها بالزنى ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي ويدفع عن الزوجة المقذوفة حدَّ الزنى الذي ثبت بشهادة الزوج ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي أن تحلف أربع مرات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي وتحلف في المرة الخامسة بأن غضب الله وسخطه عليها إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها بالزنى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بالستر في ذلك، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لتهويل الأمر تقديره: لهلكتم أو لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة، ورب مسكوتٍ عنه أبلغ من المنطوق ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم فيما شرع من الأحكام ومن جملتها حكم اللعان، قال أبو السعود: وجواب (لولا) محذوف لتهويله كأنه قيل: ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته بكم لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان، ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حدُّ القذف مع أن الظاهر صدقه لاشتراكه في الفضيحة، ولو جعل شهاداته موجبة لحد الزنى عليها لفات النظر لها، ولو جعل شهاداتها موجبة

---

[١] المختصر ٢/ ٥٨٣

لسد الفاقة عليه لفات النظر له. فسبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته، وأدق حكمته[1].
ثم بيّن تعالى «قصة الإفك»[2] التي اتهمت فيها العفيفة البريئة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالكذب والبهتان فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي جاءوا بأسوأ الكذب وأشنع البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشة، قال الإمام الفخر: الإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أُفك به على عائشة وهي زوجة الرسول المعصوم[3] ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ أي جماعة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسهم «ابن سلول» رأس النفاق ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ أي لا تظنوا هذا القذف والاتهام شرًّا لكم يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين، وهذا غاية الشرف والفضل، قال المفسرون: والخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين[4] ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي لكل فرد من العُصبة الكاذبة جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ أي والذي تولى معظمه وأشاع هذا البهتان وهو «ابن سلول» رأس النفاق ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي له في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي هلاّ حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء، وقذف الصدّيقة عائشة ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي هلاّ ظنوا الخير ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألاّ يصدق مؤمنٌ على أخيه قولة عائب ولا طاعن، قال ابن كثير: هذا تأديبٌ من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السُّوء، وهلاّ قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى، روي أن امرأة «أبي أيوب» قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة! قال: نعم وذلك الكذب! أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله! قال فعائشة والله خير منك[5] ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي قالوا في ذلك الحين: هذا كذبٌ ظاهر مبين ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي هلاّ جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ أي فإذ عجزوا ولم يأتوا على دعواهم بالشهود ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي فأولئك هم المفسدون الكاذبون في حكم الله وشرعه، وفيه توبيخٌ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي لولا فضله تعالى عليكم - أيها الخائضون في شأن عائشة - ورحمته بكم في الدنيا والآخرة حيث أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي لأصابكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك

---

(1) إرشاد العقل السليم ٤/٨٤.
(2) انظر القصة مفصلة في كتابنا روائع البيان ٢/١١٧.
(3) التفسير الكبير ٢٣/١٧٤.
(4) التسهيل في علوم التنزيل ٣/٦١.
(5) مختصر ابن كثير ٢/٥٩٩.

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي عذاب شديد هائل يُستحقر دونه الجلد والتوبيخ، قال القرطبي: هذا عتابٌ من الله بليغٌ لمن خاض في الإفك، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً(١) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي وذلك حين تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، قال مجاهد: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلانٌ كذا(٢) ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع، وإنما هو محض كذب وبهتان ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ أي وتظنونه ذنبًا صغيرًا لا يلحقكم فيه إثم ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع في أعراض المسلمين، قال في التسهيل: عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء: الأول: تلقيه بالألسنة أي السؤال عنه، والثاني: التكلم به، والثالث: استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم، وفائدة قوله ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ و﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ الإشارة إلى أنّ ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم(٣) ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا: لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة، إنّ هذا الافتراء كذبٌ واضح، عظيم الجرم، قال الزمخشري: هو بمعنى التعجب من عظم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يُسبّح الله عند رؤية العجائب(٤) ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أي يذكّركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكيلا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبدًا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقًا مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل هذا البهتان، وفيه حثٌّ لهم على الاتعاظ وتهييج ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، لتتعظوا وتتأدبوا بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عالم بما يصلح لعباده حكيم في تدبيره وتشريعه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي يريدون أن ينتشر العمل القبيح المفرط في القبح كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي في المؤمنين الأطهار ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي لهم عذاب موجع مؤلم في الدنيا بإقامة الحدِّ، وفي الآخرة بعذاب جهنم، قال الحسن: عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إذاية الرسول ﷺ وذلك كفرٌ وملعونٌ صاحبه(٥) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي هو تعالى عالمٌ بالخفايا والنيات وأنتم لا تعلمون ذلك، قال الإمام الفخر: وهذه الجملة فيها حسنُ الموقع بهذا الموضع؛ لأنّ محبة القلب كامنةٌ ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات، أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهايةً في الزجر لأنّ من أحبَّ إشاعة الفاحشة وإن بالغ في

(١) القرطبي ١٢/٢٠٢.
(٢) المختصر ٢/٥٩٩.
(٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/٦٣.
(٤) الكشاف ٣/٢٢٥.
(٥) البحر المحيط ٦/٤٣٩.

الرجال أو النساء موجب لحدّ القذف، وأما إذا كان الشخص معروفاً بالفجور، أو اشتهر بالاستهتار والمجون فلا حدَّ على قاذفه لأنه لا كرامة للفاسق الماجن، فتدبّر السر الدقيق.

لطيفة: لماذا عدل عن قوله "تواب رحيم" إلى قوله ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة؟ والجواب: أن الله عز وجل أراد الستر على العباد بتشريع اللعان بين الزوجين، فلو لم يكن اللعان مشروعاً لوجب على الزوج حدُّ القذف مع أن الظاهر صدقه، ولو اكتفى بلعانه لوجب على الزوجة حدُّ الزنى، فكان من الحكمة وحسن النظر لهما جميعاً أن شرع هذا الحكم، ودرأ عنهما العذاب بتلك الشهادات، فسبحانه ما أوسع رحمته، وأجلّ حكمته!![1]

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى ... ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٤).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حادثة الإفك، أتبعها بالتحذير من سلوك طريق الشيطان المتربص بالإنسان الذي يدعو إلى السوء والشر والفساد، ثم ذكر تعالى آداب الاستئذان والزيارة لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت طريقاً للتهمة، فأوجب تعالى ألا يدخل إنسان بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام، ثم أتبعها بآيات غضّ البصر.

اللغَة: ﴿يَأْتَلِ﴾ يحلف والأَلِيَّة: اليمين ومنه ﴿يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ أي يحلفون ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفائف الشريفات الطاهرات جمع محصنة وهي العفيفة ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ منزهون والبراءة: النزاهة عما نُسب للإنسان من تهمة ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ تستأذنوا وأصله في اللغة: طلبُ الأُنس بالشيء، قال الشاعر:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى ... وصوَّت إنسانٌ فكدتُ أطير

﴿يَغُضُّوا﴾ غضَّ بصره: خفضه ونكّسه وأصله إطباق الجفن على الجفن، قال جرير:

فغُضَّ الطرفَ إنك من نُمير ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها، وخمّروا الآنية أي غطوها ﴿جُيُوبِهِنَّ﴾ جمع جيب وهو الصدر ﴿الْإِرْبَةِ﴾ الحاجة إلى النساء.

سبب النزول

أ- كان أبو بكر الصديق ينفق على مسطح بن أثاثة لمسكنته وقرابته منه، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطحٌ ما قال، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً، فأنزل الله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآية فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً[2].

---

(١) انظر الحكمة التشريعية في الحدود الإسلامية بالتفصيل في كتابنا تفسير آيات الأحكام ٢/[illegible].

(٢) القرطبي ١٢/٢٠٧.

... عن علي كرم الله وجهه قال: مر رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به. فبينما الرجل يمشي إلى جانب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط «أي صدمه الحائط» فشق أنفه فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأعلمه أمري، فأتاه فقص عليه قصته فقال النبي ﷺ: «هذا عقوبة ذنبك» فأنزل الله ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ الآيات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ۝ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه بإشاعة الفاحشة، والإصغاء إلى الإفك والقول به ﴿وَمَن يَتَّبِعْ

(١) الدر المنثور للسيوطي ٥/٤٠.

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ أي فإن الشيطان يضل الإنسان ويغويه لأنه يأمر بالفحشاء وهي ما أفرط قبحه والمنكر وهو ما ينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بالتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي ما تطهر أحدٌ منكم من الأوزار أبد الدهر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقه للتوبة النصوح وقبولها منه، قال القرطبي: والمعنى أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم[1] ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ أي لا يحلف أهل الفضل في الدين وأصحاب الغنى واليسار ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أن لا يعطوا أقاربهم من الفقراء والمساكين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان لذنبٍ فعلوه ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي وليعفوا عما كان منهم من جرم، وليصفحوا عما بدر منهم من إساءة وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم؟ روي أن أبا بكر لما سمع الآية قال: بلى أحب أن يغفر الله لي! وأعاد النفقة إلى مسطح وكفّر عن يمينه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً!! قال المفسرون: والآية دلت على فضل أبي بكر لأن الله تعالى امتدحه بقوله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ﴾ وكفى به دليلاً على فضل الصدّيق رضي الله عنه وأرضاه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب. ثم توعد تعالى الذين يرمون المحصنات الطاهرات فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات، السليمات الصدور، النقيات القلوب من كل سوء وفاحشة ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي المتصفات بالإيمان مع طهارة القلب ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس: هذا الوعيد فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة[2] وقال أبو حمزة: نزلت في مشركي مكة، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا: خرجت لتفجر[3] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم مع اللعنة عذاب هائل لا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ولهم العذاب الشديد في ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ حين تشهد على الإنسان جوارحه فتنطق الألسنة والأيدي والأرجل بما اقترف من سيء الأعمال ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي يوم القيامة يوفيهم حسابهم وجزاءهم العادل من أحكم الحاكمين ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي ويعلمون حينئذٍ أن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً، الظاهر عدله في

---

(١) القرطبي ١٢/٢٠٧. (٣) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٤٣٠.
(٢) البحر ٦/٤٤٠.

القرطبي: وفيه توعد لأهل التجسس على البيوت، ثم إنه تعالى لما ذكر حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور غير المسكونة فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي ليس عليكم إثم وحرج ﴿أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي أن تدخلوا بغير استئذان بيوتًا لا تختص بسكنى أحد كالرباطات والفنادق والخانات، قال مجاهد: هي الفنادق التي في طرق السابلة لا يسكنها أحد بل هي موقوفة ليأوي إليها كل ابن سبيل[1] ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أي فيها منفعة لكم أو حاجة من الحاجات كالاستظلال من الحر، وإيواء الأمتعة والرحال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي يعلم ما تظهرون وما تسرون في نفوسكم فيجازيكم عليه، قال أبو السعود: وهذا وعيد لمن يدخل مدخلاً لفساد أو اطلاع على عورات[2]، ثم أرشد تعالى إلى الآداب الرفيعة من غض البصر، وحفظ الفروج فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي قل يا محمد لأتباعك المؤمنين يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات من غير المحارم، فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة، ورُبَّ شهوة أورثت حزنًا طويلاً:

كم نظرةٍ فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي يصونوا فروجهم عن الزنى وعن الإبداء والكشف ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي ذلك الغض والحفظ أطهر للقلوب، وأتقى للدين، وأحفظ من الوقوع في الفجور ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي هو تعالى رقيب عليهم، مطلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم، فعليهم أن يتقوا الله في السر والعلن، قال الإمام الفخر: فإن قيل: فلمَ قدم غض الأبصار على حفظ الفروج؟ قلنا: لأن النظر بريد الزنى، ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يحترس منه[3] ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي وقل أيضًا للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات، قال المفسرون: أكد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم والأقرباء فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي ولا يكشفن زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها بدون قصد ولا نية سيئة، قال ابن كثير: أي لا يظهرن شيئًا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه، كما قال ابن مسعود: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب[4]، وقيل: المراد به: الوجه والكفان فإنهما ليسا بعورة، قال البيضاوي: والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة[5] ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ

(١) القرطبي ١٢/٢٢١.
(٢) أبو السعود ٤/٥٦.
(٣) التفسير الكبير ٢٣/٢٠٥.
(٤) مختصر ابن كثير ٢/٦٠٠.
(٥) البيضاوي ٣/٥٩.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الاستعارة اللطيفة ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ شبه سلوك طريق الشيطان والسير في ركابه بمن يتبع خطوات الآخر خطوة خطوة بطريق الاستعارة.

٢- الإيجاز بالحذف ﴿أَن يُؤْتُوا﴾ أي أن لا يؤتوا حذفت منه «لا» لدلالة المعنى وهو كثير في اللغة.

٣- صيغة الجمع للتعظيم ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ والمراد به أبو بكر الصديق.

٤- الجناس الناقص بين ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ و ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

٥- المقابلة اللطيفة بين ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ و ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾.

٦- الطباق بين ﴿تُبْدُونَ﴾ و ﴿تَكْتُمُونَ﴾.

٧- الإيجاز بالحذف ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ لأن المراد غض البصر عما حرّم الله لا عن كل شيء فحذف ذلك اكتفاءً بفهم المخاطبين.

٨- المجاز المرسل ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ المراد: مواقع الزينة وهو من باب إطلاق اسم الحالّ على المحلّ، قال الزمخشري: وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون.

فائدة: قال بعض المحققين: إن يوسف لما رُمي بالفاحشة برّأه الله على لسان صبي في المهد، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برّأها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برّأها الله في كتابه العزيز، فما رضي الله لها براءة صبي ولا نبي حتى برّأها الله في القرآن من القذف والبهتان(١).

تنبيه: السر في تقديم غض البصر على حفظ الفروج ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور، وهو مقدمة للوقوع في الخطر كما قال الشاعر:

وكنتَ إذا أرسلتَ طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلُّه أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

لطيفة: ذكر أن قسيساً أراد أن ينال من المسلمين بالطعن في أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، فقال: إن الناس رموها بالإفك ولا ندري أهي بريئة أم متهمة؟ فأجابه بعض الحاضرين بقوله: اسمع يا هذا، هناك امرأتان اتهمتا بالزنى وقد برّأهما القرآن الكريم، إحداهما ليس لها زوج وقد جاءت بولد، والأخرى لها زوج ولم تأت بولد - يقصد مريم وعائشة - فأيتهما أحرى بالتهمة؟ فخرس القسيس.

❊ ❊ ❊

(١) القرطبي (١٢/ ٢١٢).

قال في التسهيل: المعنى: صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة - وإن كان نور الله أعظم - لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار فضرب لهم به المثل[1] ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي في قنديل من الزجاج الصافي ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أي يشتعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ أي هي من شجر الزيتون التي خصها الله بمنافع عديدة ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب، وإنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طوال النهار لتكون ثمرتها أنضج، وزيتها أصفى، قال ابن عباس: هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر، ولا جبل، ولا كهف، ولا يواريها شيء، وهو أجود لزيتها[2] ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته أي يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه ولو لم تمسه نار، فكيف إذا مسته النار؟! ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي نور فوق نور فقد اجتمع نور المصباح، وحسن الزجاجة، وصفاء الزيت، فاكتمل النور الممثل به ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يوفق الله لاتباع نوره - وهو القرآن - من يشاء من عباده ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي يبين لهم الأمثال تقريبًا لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو سبحانه واسع العلم لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق، وفيه وعد ووعيد. قال الطبري: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد مثل كوة في الحائط لا منفذ لها فيها مصباح أي سراج، وجعل السراج مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات ثم قال: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ وذلك مثل للقرآن في قلب المؤمن الذي أنار الله صدره فخلص من الكفر والشك، ثم قال: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي كأن الزجاجة في صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي توقد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون، ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب فيكون زيتها أجود وأصفى وأضوأ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه يعني بها أن حجج الله على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر ولو لم يزدها الله بيانًا ووضوحًا بنزول هذا القرآن فكيف وقد نبههم به وذكرهم بآياته فزادهم به حجة إلى حججه، وذلك بيان من الله ونور على البيان[3]. ثم لما ذكر تعالى هدايته لمن يشاء من عباده، ذكر مواطن هذه العبادة وهي المساجد أحب البقاع إلى الله فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي أمر تعالى أن تبنى وتشاد على اسمه خالصة، وأن تعظم ويرفع شأنها لتكون

---

(١) التسهيل ٣/٦٧. (٢) مختصر ابن كثير ٢/٦٠٣.
(٣) الطبري ١٨/١٠٨ - ١١٠ بشيء من الاختصار.

منارات للهدى ومراكز للإشعاع الروحي. قال ابن عباس: المساجد بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض[1] ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي يعبد فيها الله بتوحيده وذكره، وتلاوة آياته ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي يصلي لله تعالى في هذه المساجد في الصباح والمساء المؤمنون. قال ابن عباس: كلُّ تسبيح في القرآن فهو صلاة[2] ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها عن ذكر ربهم، ولا يلهيهم بيع ولا شراء عن طاعة الله، قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق من الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا إذا سمعوا النداء تركوا كل شغل وبادروا لطاعة الله ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي ولا تشغلهم الدنيا عن إقامة الصلاة في أوقاتها، ودفع الزكاة للفقراء والمستحقين بحدودها وشروطها ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أي يخافون يومًا رهيبًا تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي يكافئهم على أعمالهم في الدنيا بأحسن الجزاء، ويجزيهم على الإحسان إحسانًا، وعلى الإساءة عفوًا وغفرانًا ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يتفضل عليهم فوق ذلك الجزاء بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يعطي من شاء من فضله عطاءً واسعًا بدون حدٍّ ولا عدٍّ، يقال: فلان ينفق بغير حساب أي يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه، قال الإمام الفخر: نبّه بهذا على كمال قدرته، وكمال جوده، وسعة إحسانه، فإنه سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم، ويزيدهم الفضل الذي لا حدّ له في مقابلة عرفهم[3]. ولما ذكر تعالى حال المؤمن وسعادته، ذكر حال الكافر وخسارته، وضرب لذلك مثلين: الأول لعمله والثاني لاعتقاده وتخبطه في الظلمات فقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أي أن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة كالسراب الذي يُرى في القيعان وهو ما يرى في الفلوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماءٌ يجري على وجه الأرض ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جاريًا ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ أي حتى إذا وصل إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أي لم يرَ ماءً ولا شرابًا، وإنما رأى سرابًا فعظمت حسرته ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أي وجد الله له بالمرصاد فوفاه جزاء عمله، فكذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه حتى إذا مات وقدم على ربه لم يجد شيئًا من الأعمال لأنها ذهبت هباءً منثورًا ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي يعجّل الحساب لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ هذا المثل الثاني لضلال الكفار والمعنى: أو مثلهم كظلمات متكاثفة في بحرٍ عميق لا يدرك قعره ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي يغطي ذلك البحر ويعلوه موجٌ متلاطم بعضه فوق بعض ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي من فوق ذلك الموج الثاني سحاب كثيف ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/٣. (٢) الطبري (١٨/١١٣).
(٣) التفسير الكبير ٢٤/٦.

اللمعان ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي يتصرف فيهما بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحر والبرد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي إن فيما تقدم ذكره لدلالة واضحة، وعظة بليغة على وجود الصانع الحكيم ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لذوي البصائر المستنيرة، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون حيث يتأملون فيجدون الماء والبرد والظلمة والنور تخرج من شيء واحد، فسبحان القادر على كل شيء ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ استدل تعالى على وحدانيته بتسبيح أهل السماء والأرض، ثم بتصريف السحاب وإنزال المطر، ثم بأحوال الحيوانات، قال ابن كثير: يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد[1] ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ أي فمنهم من يزحف على بطنه كالحية والزواحف ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات. قال أبو حيان: قدم ما هو أظهر في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع[2] ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يخلق تعالى بقدرته ما يشاء من مخلوقات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على ما يشاء لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع. قال الفخر: واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال، والاستدلال بها على الصانع ظاهر، لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع لا يختلف في الشكل على التسوية، فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وأعضاء ومقادير أبدانها لا بد وأن يكون بتدبير قادر حكيم، سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون[3] ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات واضحات، دالات على طريق الخير والرشاد ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يرشد من يشاء من عباده إلى الدين الحق وهو الإسلام. ولما ذكر دلائل التوحيد حذر من النفاق والتكذيب فقال ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي يقول المنافقون صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الله ورسوله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي ثم يعرض جماعة منهم عن قبول حكمه ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد ما صدر منهم من ادعاء الإيمان ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليس أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة بمؤمنين على الحقيقة. قال الحسن: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي وإذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي امتنعوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي وإن كان الحق بجانبهم جاءوا إلى رسول الله طائعين منقادين لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق. قال الفخر: نبه تعالى على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا أن الحق لغيرهم، فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وأذعنوا ببذل الرضا[4] ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ

---

(١) المختصر (٢/٦١٣).
(٢) البحر (٦/٤٦٦).
(٣) التفسير الكبير (٢٤/١٤).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/٢٠).

ارْتَابُوا﴾ أي هل في قلوبهم نفاق؟ أم شكّوا في نبوته عليه السلام؟ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي أم يخافون أن يظلمهم رسول الله في الحكم؟ والاستفهام للمبالغة في التوبيخ والذم، كقول الشاعر:

ألست من القوم الذين تعاهدوا ... على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر

﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بل هم الكاملون في الظلم والعناد لإعراضهم عن حكم رسول الله ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي كان الواجب عليهم عندما يُدعون إلى رسول الله ليفصل بينهم وبين خصومهم أن يسرعوا ويقولوا سمعاً وطاعة، فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك. قال الطبري: ولم يقصد به الخبر ولكنه تأديب من الله للمنافقين وتأديب منه لآخرين(١) ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك المسارعون إلى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله في كل ما أمر ونهى ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ أي ويخاف الله تعالى لما فرط منه من الذنوب، ويمتثل أوامره ويجتنب زواجره ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي هم السعداء الناجون من عذاب الله الفائزون برضوانه. ذكر أن بعض بطارقة الروم سمع هذه الآية فأسلم وقال: إنها جمعت كل ما في التوراة والإنجيل.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - إطلاق المصدر على اسم الفاعل للمبالغة ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ﴾ بمعنى منوّر لكل شيء بحيث كل شيء من نوره، قال الشريف الرضي: وفي الآية استعارة - على تفسير بعض العلماء - والمراد عندهم أنه هادي أهل السموات والأرض بصوادع برهانه، ونواصع بيانه، كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة.

٢ - التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ شبّه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها إلخ ... وسمي تمثيلاً لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، وهو من روائع التشبيه.

٣ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام تنويهاً بشأنه ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ لأن الصلاة من ذكر الله.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾.

٥ - التشبيه التمثيلي الرائع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ إلخ وكذلك في قوله ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ وهما من روائع التشبيه وبدائع التمثيل.

٦ - الطباق بين ﴿شَرْقِيَّةٍ﴾ و﴿غَرْبِيَّةٍ﴾.

(١) الطبري ١٨/ ١٢٤.

٧- الاستعارة اللطيفة ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ إذ ليس المراد التقلب المادي للأشياء الذاتية وإنما استعير لتعاقب الليل والنهار.

٨- الجناس التام ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ المراد بالأولى: العيون وبالثانية: الألباب.

لطيفة: سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ..﴾ الآية فسأل: هل ركب محمد البحر؟ فقالوا: لا! فقال: أشهد أنه رسول الله قالوا: وكيف عرفت؟ فقال: إنّ هذا الوصف للبحر لا يعرفه إلا من عاش عمره في البحار، ورأى الأهوال والأخطار، فلما أخبرت أنه لم يركب البحر عرفت أنه كلام الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ..﴾ إلى ... ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٦٤) نهاية السورة الكريمة.

المناسبة: لما ذكر تعالى المنافقين وما هم عليه من صفات قبيحة، أعقبه بذكر ما انطوت عليه نفوسهم من المكر والاحتيال والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان، وختم السورة الكريمة بالتحذير من سلوك طريق المنافقين.

اللغة: ﴿الْحُلُمَ﴾: الاحتلام في المنام، قال في القاموس: الحلم: الرؤيا جمعه أحلام، والحُلْم والاحتلام: الجماع في النوم[1] وقال الراغب: هو زمان البلوغ سمي به لكون صاحبه جديرًا بالحلم أي الأناة وضبط النفس[2] ﴿وَالْقَوَاعِدُ﴾ جمع قاعد بغير تاء لأنه خاص بالنساء كحائض وطامث وهي المرأة التي قعدت عن الزواج وعن الولد ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين جمع شتّ وهو الافتراق، والشتات: الفرقة ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ التسلل: الخروج خفية يقال: تسلّل وانسلّ إذا خرج مستترًا بطريق الخفية ﴿لِوَاذًا﴾ اللواذ: أن يستتر بشيء مخافة من يراه.

سبب النزول: روي أن رسول الله ﷺ وجّه غلامًا من الأنصار يقال له: مُدْلج إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فوجده نائمًا، فدق عليه الغلام الباب ودخل، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء فقال: وددت أنّ الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد أنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ..﴾ فخرَّ ساجدًا شكرًا لله تعالى[3].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى

---

(١) القاموس المحيط. (٢) المفردات للراغب الأصفهاني.

(٣) حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣/ ٤٣٥).

الرسول إلا البلاغ المبين ﴿٥٤﴾ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿٥٥﴾ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴿٥٦﴾ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير ﴿٥٧﴾ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴿٥٨﴾ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ﴿٥٩﴾ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴿٦٠﴾ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿٦١﴾ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴿٦٢﴾ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴿٦٣﴾ ألا إن لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم ﴿٦٤﴾.

التفسير: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلظة ﴿لئن أمرتهم ليخرجن﴾ أي لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن معك قال مقاتل: لما بيّن الله إعراض المنافقين وامتناعهم عن قبول حكمه عليه السلام أتوه فقالوا: لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا فنزلت(١) ﴿قل لا تقسموا﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة ﴿طاعة معروفة﴾ أي طاعتكم لله ولرسوله معروفة بأنها باللسان دون القلب، وبالقول دون العمل ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ أي بصير لا يخفى عليه شيء من خفاياكم ونياتكم ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي أطيعوا الله بإخلاص النية وترك النفاق، وأطيعوا الرسول بالاستجابة لأمره والتمسك بهديه ﴿فإن تولوا﴾ أي فإن تتولوا وتعرضوا عن طاعته ﴿فإنما عليه ما حمّل﴾ أي فعلى الرسول ما كلّفه به من تبليغ الرسالة ﴿وعليكم ما حمّلتم﴾ أي وعليكم ما

(١) تفسير الألوسي ١٨/٢٠٣.

ليستأذنوا أيضاً ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي في ثلاثة أوقات ﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ أي في الليل وقت نومكم وخلودكم إلى الراحة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أي وقت الظهر حين تخلعون ثيابكم القيلولة ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ أي ووقت إرادتكم النوم واستعدادكم له ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ أي هي ثلاثة أوقات يختل فيها تستركم، العورات فيها بادية والتكشف فيها غالب، فعلّموا عبيدكم وخدمكم وصبيانكم ألا يدخلوا عليكم في هذه الأوقات إلا بعد الاستئذان ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي ليس عليكم ولا على المماليك والصبيان حرج في الدخول عليكم بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لأنهم خدمكم يطوفون عليكم للخدمة وغير ذلك، قال أبو حيان: أي يمضون ويجيئون ويدخلون عليكم في المنازل غدوة وعشية بغير إذن إلا في تلك الأوقات[1] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي مثل ذلك التوضيح والبيان يبيّن الله لكم الأحكام الشرعية لتتأدبوا بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عالم بأمور خلقه، حكيمٌ في تدبيره لهم ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ﴾ أي وإذا بلغ هؤلاء الأطفال الصغار مبلغ الرجال وأصبحوا في سن التكليف ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي فعليهم الأدب لينبغي أن يستأذنوا في كل الأوقات كما يستأذن الرجال البالغون ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي وبمثل ذلك أمور الشريعة والدين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمصالحه حكيم في تشريعه، قال الصفدي: كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان[2] ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي والنساء العجائز اللواتي قعدن عن التصرف وطلب الزواج لكبر سنهن ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي لا يطمعن في الزواج ولا يرغبن فيه لانعدام دواعي الشهوة فيهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليهن في أن يضعن بعض ثيابهن كالرداء والجلباب، ويظهرن أمام الرجال بملابسهن المعتادة التي لا تلفت الأنظار، ولا تثير شهوة ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي غير متظاهرات بالزينة لينظر إليهن، قال أبو حيان: وحقيقة التبرج: إظهار ما يجب إخفاؤه، ورب عجوز شمطاء يبدو منها الحرص على أن يظهر بها جمال[3] ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي وأن يستترن بارتداء الجلباب ولبس الثياب كما تلبسه الشابات من النساء، مبالغةً في التستر والتعفف خيرٌ لهن وأكرم، وأزكى عند الله وأطهر ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم خفايا النفوس ويجازي كل إنسانٍ بعمله، وفيه وعدٌ وتحذير ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على أهل الأعذار «الأعمى، والأعرج، والمريض» حرج ولا إثم في القعود عن الغزو لضعفهم وعجزهم[4] ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ أي وليس

(١) البحر (٦/ ٤٧٦).

(٢) الصفدي (٢/ ٦٤) [sic]

(٣) البحر (٦/ ٤٧٣).

(٤) هذا قول الحسن وابن زيد وهو الظاهر واختاره صاحب البحر والكشاف، وقيل: المراد نفي الحرج عن أهل الأعذار أن يأكلوا مع الأصحاء واختاره الطبري والرازي.

عليكم أيها الناس إثم أن تأكلوا من بيوت أزواجكم وعيالكم، قال البيضاوي: فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه السلام: «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه، وإن ولده من كسبه»[1] ﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم﴾ أي لا حرج في الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب. قال الرازي: والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب[2] ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ أي البيوت التي توكّلون عليها وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها، قالت عائشة: كان المسلمون يذهبون مع رسول الله في الغزو ويدفعون مفاتيحهم إلى ضمنائهم ويقولون: قد أحللنا لكم الأكل منها فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء! فأنزل الله ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾[3] ﴿أو صديقكم﴾ أي أو بيوت أصدقائكم وأصحابكم، قال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعًا أو أشتاتًا﴾ أي ليس عليكم إثم أو حرج أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين، قال المفسرون: نزلت في حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده، يمكث يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئًا، وربما كانت معه الإبل الحُفّل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فأخبرهم تعالى بأن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه ﴿فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم﴾ أي إذا دخلتم بيوتًا مسكونة فسلموا على من فيها من الناس ﴿تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ أي حيّوهم بتحية الإسلام «السلام عليكم» وهي التحية المباركة الطيبة التي شرعها الله لعباده المؤمنين. قال القرطبي: وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب المودة، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها[4] ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ قال ابن كثير: لما ذكر تعالى في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة، والشرائع المتقنة، نبّه عباده على أنه يبين لهم الآيات بيانًا شافيًا ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون[5] ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله تصديقًا جازمًا لا يخالطه شك ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع﴾ أي وإذا كانوا مع الرسول في أمر هام فيه مصلحة للمسلمين ﴿لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ أي لم يتركوا مجلس الرسول حتى يستأذنوه ويأذن لهم، قال المفسرون: نزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون في الانصراف لضرورة، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان فنزلت تمدح المؤمنين المخلصين.

---

(١) البيضاوي ٢/ ٦٣.
(٢) التفسير الكبير ٢٤/ ٣٦.
(٣) ابن كثير ٢/ ٦١٩ المختصر.
(٤) القرطبي ١٢/ ٣١٩.
(٥) ابن كثير ٢/ ٦٢٠ المختصر.

٢ - المشاكلة ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي عليه أمر التبليغ وعليكم وزر التكذيب.

٣ - الطباق بين الخوف والأمن ﴿مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وكذلك بين الجميع والأشتات ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ لأن المعنى: مجتمعين ومتفرقين.

٤ - الإطناب بتكرير لفظ الحرج لترسيخ الحكم في الأذهان ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

٥ - صيغة المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فائدة: قال بعض السلف: من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾(١).

لطيفة: قيل لبعضهم: من أحبُّ إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: لا أحب أخي إذا لم يكن صديقي. وقال ابن عباس: الصديق أوكد من القريب ألا ترى استغاثة الجهنميين حين قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات(٢).

تنبيه: كان بعض العرب يرى أحدهم أنه عارٌ وخزيٌ عليه أن يأكل وحده ويبقى جائعاً حتى يجد من يؤاكله ويشاربه واشتهر هذا عن حاتم فكان يقول:

إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسي له ... أكيلاً فإني لستُ آكله وحدي

وهذا من مآثر العرب ومفاخرهم، فقد اشتهروا بالجود والكرم، وقرى الضيف.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة النور.

(١) زاد المسير (٦/٥٧).

(٢) البحر المحيط (٦/٤٧٤).

بين يدي السورة

* سورة الفرقان مكية وهي تعنى بشئون العقيدة، وتعالج شبهات المشركين حول رسالة محمد ﷺ وحول القرآن العظيم، ومحور السورة يدور حول إثبات صدق القرآن، وصحة الرسالة المحمدية، وحول عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، وفيها بعض القصص للعظة والاعتبار.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنَّن المشركون بالطعن فيه، والتكذيب بآياته، فتارة زعموا أنه أساطير الأولين، وأخرى زعموا أنه من اختلاق محمد أعانه عليه بعض أهل الكتاب، وثالثة زعموا أنه سحرٌ مبين، فردَّ الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة، والأوهام الباطلة، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين، ثم تحدثت عن موضوع الرسالة التي طالما خاض فيها المشركون المعاندون، واقترحوا أن يكون الرسول ملكًا لا بشرًا، وأن تكون الرسالة - على فرض تسليم الرسول من البشر - خاصة بذوي الجاه والثراء، فتكون لإنسان غني عظيم لا لفقير يتيم، وقد ردَّ الله تعالى شبهتهم بالبرهان القاطع، والحجة الدامغة، التي تقصم ظهر الباطل.

* ثم ذكرت الآيات فريقًا من المشركين عرفوا الحقَّ وأقروا به، ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال، وذكرت منهم «عقبة بن أبي معيط» الذي أسلم ثم ارتد عن الدين بسبب صديقه الشقي «أُبي بن خلف» وقد سماه القرآن الكريم بالظالم ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الآية وسمى صديقه بالشيطان.

* وفي ثنايا السورة الكريمة جاء ذكر بعض الأنبياء إجمالاً، وجاء الحديث عن أقوامهم المكذبين، وما حلَّ بهم من النكال والدمار نتيجة لطغيانهم وتكذيبهم لرسل الله كقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس وقوم لوط، وغيرهم من الكافرين الجاحدين، كما تحدثت السورة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته، وعن عجائب صنعه وآثار خلقه في هذا الكون البديع، الذي هو أثر من آثار قدرة الله، وشاهد من شواهد العظمة والجلال.

* وختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن، وما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم.

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة الفرقان» لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد ﷺ وكان النعمة الكبرى على الإنسانية؛ لأنه النور الساطع والضياء المبين، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والنور والظلام، والكفر والإيمان، ولهذا

كان جديراً بأن يسمى الفرقان.

اللغة: ﴿تَبَارَكَ﴾ من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ويأتي بمعنى التمجيد والتعظيم. قال الشاعر:

تباركت لا معطٍ لشيء منعته ... وليس لما أعطيت يا رب مانع

﴿نَذِيرًا﴾ النذير: المحذِّر من الهلاك ﴿نُشُورًا﴾ النشور: الإحياء بعد الموت ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مربوطين بالسلاسل. قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا ... وأُبْنا بالملوك مقرَّنينا

﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً ودماراً ﴿بُورًا﴾ مأخوذ من البوار وهو الهلاك، قال أبو عبيدة: يقال رجلٌ بورٌ ورجال بور ومعناه هالك، والبوار: الهلاك[2].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ۝ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

التفسير: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ أي تمجّد وتعظّم وتكاثر خير الله الذي نزّل القرآن العظيم الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي ليكون

---

(1) البيت للطرماح وانظر البحر (٦/ ٤٨٠).
(2) القرطبي (١٣/ ٨).
(3) التفسير الكبير (٢٤/ ٦٣).

محمد نبيّاً للخلق أجمعين مخوفاً لهم من عذاب الله ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى المالك لجميع ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي وليس له ولدٌ كما زعم اليهود والنصارى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي وليس معه إله كما قال عبدة الأوثان ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي أوجد كل شيء مقدراً مع الإتقان والإحكام. قال في التسهيل: الخلق عبارة عن الإيجاد بعد العدم، والتقدير عبارةٌ عن إتقان الصنعة وتخصيص كل مخلوقٍ بمقداره وصفته، وزمانه ومكانه، ومصلحته وأجله وغير ذلك[1] وقال الرازي: وصف سبحانه ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء: الأول: أنه المالك للسموات والأرض وهذا كالتنبيه على وجوده، والثاني: أنه هو المعبود أبداً، والثالث: أنه المنفرد بالألوهية، والرابع: أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير[2] ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي عبد المشركون غير الله من الأوثان والأصنام ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء أصلاً بل هم مصنوعون بالنحت والتصوير فكيف يكونون آلهة مع الله؟! ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا يستطيعون دفع ضرٍ عنهم ولا جلب نفع لهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي لا يملكون أن يميتوا أحداً، ولا أن يحيوا أحداً، ولا أن يبعثوا أحداً من الأموات. قال الزمخشري: المعنى: أنهم آثروا على عبادة الله عبادة آلهة لا يقدرون على شيء، وإذا عجزوا عن دفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور الذي لا يقدر عليها إلا الله أعجز[3] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ أي وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أي وساعده على هذا الاختلاق قومٌ من أهل الكتاب ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي جاءوا بالظلم والبهتان حيث جعلوا العربي يتلقن من العجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب، فكان كلامهم محض الكذب والزور ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً: إنه خرافات الأمم السابقين أمر أن تكتب له ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي فهي تلقى وتقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً، قال ابن عباس: والقائل هو «النضر بن الحارث» وأتباعه والإفك: الكذب[4] ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا ردٌّ عليهم في تلك المزاعم أي قل لهم يا محمد: أنزله الله العليم القدير الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إنه تعالى لم يعجل لكم العقوبة بل أمهلكم رحمة بكم لأنه واسع المغفرة رحيم بالعباد ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي وقال المشركون: ما لهذا الذي يزعم الرسالة يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كما نمشي؟ إنه ليس بملك ولا ملِك، لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبذل في الأسواق، وفي قولهم

---

(١) التسهيل ٣/ ٧٤.
(٢) الكشاف ٣/ ١٢٥.
(٣) التفسير الكبير ٢٤/ ٤٦.
(٤) البحر ٦/ ٤٨٢.

﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ مع إنكارهم لرسالته تهكم واستهزاء ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ أي هلا بعث الله معه ملكاً ليكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أي يأتيه كنز من السماء يستعين به ويستغني عن طلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي يكون له بستان يأكل من ثماره ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي وقال الكافرون: ما تتبعون أيها المؤمنون إلا إنساناً سُحر فغُلب على عقله فهو يزعم أنه رسول الله ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ أي انظر كيف قالوا في حقك يا محمد تلك الأقاويل العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال! وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة فضلوا بذلك عن الهدى! ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي فلا يجدون طريقاً إلى الحق بعد أن ضلوا عنه بتكذيبك وإنكار رسالتك، ذكروا له عليه الصلاة والسلام خمس صفات وزعموا أنها تخل بالرسالة وظناً منهم أن فضيلة الرسول على غيره تكون بأمور جسمانية وهي غاية الجهالة والسفاهة فرد الله عليهم بأمرين: الأول: تعجيب الرسول ﷺ من تناقضهم فتارة يقولون عنه شاعر، وتارة ساحر، وأخرى يقولون: إنه مجنون، حتى أصبحت تلك الأقوال لغرابتها الشاذة والأمور العجيبة جارية مجرى الأمثال والثاني: أن الله تعالى لو أراد لأعطى نبيه خيراً مما اقترحوا وأفضل مما يتصورون وهو المراد بقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ أي تمجد وتعظم الله الكبير الجليل الذي لو أراد لجعل لك خيراً من ذلك الذي ذكروه من نعيم الدنيا ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي لو شاء لأعطاك بساتين وحدائق تسير فيها الأنهار لا جنة واحدة كما قالوا ﴿وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ أي ويجعل لك مع الحدائق القصور الرفيعة المشيدة كما هو حال الملوك، قال الضحاك: لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة حزن عليه السلام فنزل جبريل معزياً له، فبينما النبي وجبريل يتحدثان إذ فُتح باب من السماء فقال جبريل: أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك، فسلم عليه وقال: ربك يخيرك بين أن تكون نبياً ملكاً، وبين أن تكون نبياً عبداً - ومعه سفط من نور يتلألأ - ثم قال: هذه مفاتيح خزائن الأرض، فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ: بل نبياً عبداً، فكان عليه السلام بعد ذلك لا يأكل متكئاً حتى فارق الدنيا[1] ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي بل كذبوا بالقيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي وهيأنا لمن كذب بالآخرة ناراً شديدة الاستعار، قال الطبري: المعنى: ما كذب هؤلاء المشركون بالله وأنكروا ما جئتهم به من الحق من أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد تكذيباً منهم بالقيامة، وأعتدنا لمن كذب بالبعث ناراً تُسعَّر عليهم وتتقد[2] ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي إذا رأت جهنم هؤلاء المشركين من مسافة بعيدة وهي خمسمائة عام ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾

---

(1) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٤٤١. (2) الطبري ١٨/١٣٩.

أي سمعوا صوت لهيبها وغليانها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ وسمعوا لها صوتًا كصوت الحمار وهو الزفير، قال ابن عباس: إن الرجل ليُجرُّ إلى النار فتشهق إليه النار شهيق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف[1]، وتقييد الرؤية بالبعد ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ أي وإذا أُلقوا في جهنم في مكان ضيق، قال ابن عباس: تضيق عليهم ضيق الزُّج في الرمح[2] - الزج: الحديدة التي في أسفل الرمح - ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي دعوا في ذلك المكان على أنفسهم بالويل والهلاك يقولون: يا هلاكاه، نادوه نداء المتمني للهلاك ليسلموا مما هو أشدُّ منه كما قيل: أشدُّ من الموت ما يتمنى معه الموت ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي يقال لهم: لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرةً واحدة بل ادعوا مرات ومرات، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد يستوجب تكرير الدعاء في كل حين وآن، وفيه إقناط لهم من استجابة الدعاء وتخفيف العذاب ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ ؟ أي قل لهم يا محمد على سبيل التقريع والتهكم: أذلك السعير خيرٌ أم جنة الخلود التي وعدها المتقون؟ قال ابن كثير: يقول الله تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجه عبوس وتغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرَّنين لا يستطيعون حراكًا ولا نكاكًا مما هم فيه، أهذا خيرٌ أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده[3]؟ قال الإمام الفخر: فإن قيل: كيف يقال: العذاب خيرٌ أم جنة الخلد؟ وهل يجوز أن يقول العاقل: السكر أحلى أم الصبر؟ قلنا: هذا يحسن في معرض التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرَّد وأبى واستكبر فيضربه ضربًا وجيعًا ويقول على سبيل التوبيخ: أهذا أطيب أم ذاك؟[4] ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ أي كانت لهم ثوابًا ومرجعًا ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي لهم في الجنة ما يشتهون من النعيم ﴿خَالِدِينَ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا سرمدًا بلا زوال ولا انقضاء ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ أي كان ذلك الجزاء وعدًا على ذي الجلال حقيقًا بأن يُسأل ويُطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون، وهو وعدٌ واجب ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين يجمع الله الكفار والأصنام وكل من عُبد من دون الله كالملائكة والمسيح، قال مجاهد: هو عيسى وعزير والملائكة ﴿فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ أي فيقول تعالى للمعبودين تقريعًا لعبدتهم: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم؟ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي أم هم ضلوا الطريق فعبدوكم من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي قال المعبودون تعجبًا مما قيل لهم: تنزَّهت يا الله عن الأنداد ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ما يحقُّ لنا ولا لأحدٍ من الخلق أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾

---

(١) ابن كثير (٢/٦٢٩) المختصر.
(٢) ابن كثير (٢/٦٢٩).
(٣) البحر (٦/٤٨٥).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/٥٧).

حتى نسوا الذكر﴾ أي ولكن أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعمة - وكان يجب عليهم شكرها والإيمان بما جاءت به الرسل - فكان ذلك سببًا للإعراض عن ذكرك وشكرك ﴿وكانوا قومًا بورًا﴾ أي وكانوا قومًا هالكين، قال تعالى توبيخًا للكفرة: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ أي فقد كذبكم هؤلاء المعبودون في قولكم: إنهم آلهة ﴿فما تستطيعون صرفًا ولا نصرًا﴾ أي فما تستطيعون أيها الكفار دفعًا للعذاب عنكم ولا نصرًا لأنفسكم من هذا البلاء ﴿ومن يظلم منكم نذقه عذابًا كبيرًا﴾ أي ومن يشرك منكم بالله فيظلم نفسه نذقه عذابًا شديدًا في الآخرة ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد أحدًا من الرسل إلا وهم يأكلون ويشربون ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة، فتلك هي سنة المرسلين من قبلك فلمَ ينكرون ذلك عليك؟ وهو جواب عن قولهم: ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام﴾؟ ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ أي جعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة، ابتلى الله الغنيَّ بالفقير، والشريف بالوضيع، والصحيح بالمريض ليختبر صبركم وإيمانكم أتشكرون أم تكفرون؟ قال الحسن: يقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيرًا مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنيًّا مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحًا مثل فلان[1] ﴿وكان ربك بصيرًا﴾ أي عالمًا بمن يصبر أو يجزع، وبمن يشكر أو يكفر.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف ﴿على عبده﴾ ولم يذكره باسمه تشريفًا له وتكريمًا.

٢ - الاكتفاء بأحد الوصفين ﴿ليكون للعالمين نذيرًا﴾ أي ليكون بشيرًا ونذيرًا واكتفى بالإنذار لمناسبته للكفار.

٣ - الجناس الناقص ﴿يخلقون .. ويُخلقون﴾ سمي ناقصًا لتغاير في الشكل.

٤ - الطباق بين ﴿ضرًا .. ونفعًا﴾ وبين ﴿موتًا .. وحياةً﴾.

٥ - الاستفهام للتهكم والتحقير ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام﴾.

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا﴾ شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه، وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطراب على عادة المغيظ والغضبان.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا .. المرسلين﴾.

٨ - الجناس غير التام ﴿أتصبرون .. بصيرًا﴾ لتقديم بعض الحروف وتأخير البعض.

لطيفة: نبه تعالى بقوله: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرًا من ذلك﴾ على أنه تعالى يعطي

---

(١) الطبري (١٨/١٤٤)

العباد على حسب المصالح، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا، ويفتح على آخر أبواب الرزق ويحرمه لذة الفهوم والعلوم، ولا اعتراض عليه لأنه فعال لما يريد.

٭ ٭ ٭

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ .. إلى .. ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٤٠).

المناسبة: لما حكى تعالى إنكار المشركين لنبوة محمد عليه السلام وتكذيبهم للقرآن، أعقبه بذكر بعض جرائمهم الأخرى، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء وما حل بأقوامهم المكذبين تسلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

اللغة: ﴿حِجْرًا﴾ بكسر الحاء: حرامًا، من حجره إذا منعه قال الشاعر:

ألا أصبحت أسماء حجرًا محرمًا

أي حرامًا محرمًا ﴿هَبَاءً﴾ قال أبو عبيدة: الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس ﴿مَنثُورًا﴾ المنثور: المتفرق ﴿مَقِيلًا﴾ المقيل: زمان القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر ﴿تَتْبِيرًا﴾ التتبير: التدمير والتكسير، قال الزجاج: كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته.

سبب النزول: روي أن عقبة بن أبي معيط وكان صديقًا لأبي بن خلف صنع وليمة فدعا إليها قريشًا ودعا رسول الله ﷺ فلما قُدم الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أني رسول الله» ففعل وأكل رسول الله من طعامه فلما بلغ أبي بن خلف ذلك قال لعقبة: صبأت! قال: لا ولكن دخل عليَّ رجل عظيم فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له بالرسالة فقال له أبي: وجهي من وجهك حرام إن رأيت محمدًا حتى تبزق في وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت وكيت!! ففعل عدوُّ الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ...﴾ الآية[1].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/٧٥).

وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

التفسير: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي قال المشركون الذين لا يرجون لقاء الله، ولا يخشون عقابه لتكذيبهم بالبعث والنشور ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي هلا نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق محمد ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي أو نرى الله عياناً فيخبرنا أنه رسوله، قال أبو حيان: وهذا كله على سبيل التعنت، وإلا فما جاءهم به من المعجزات كافٍ لو وفقوا[1] ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي تكبروا في شأن أنفسهم حين تفوهوا بمثل هذه الكلمة العظيمة، وطلبوا ما لا ينبغي ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيان، حتى بلغوا أقصى العتو وغاية الاستكبار ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي يوم يرى المشركون الملائكة حين تنزل لقبض أرواحهم وقت الاحتضار لن يكون للمجرمين يومئذٍ بشارة تسرهم بل لهم الخيبة والخسران ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي تقول الملائكة لهم: حرامٌ ومحرمٌ عليكم الجنة والبشرى والغفران: قال ابن كثير: وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، فتقول للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه بمقامع الحديد، بخلاف المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يُبشرون بالخيرات وحصول المسرات ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2] ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي عمدنا إلى أعمال الكفار التي يعتقدونها برًّا كإطعام المساكين وصلة الأرحام ويظنون أنها تقربهم إلى الله ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ أي جعلناه مثل الهباء المنثور في الجو، لأنه لا يعتمد على أساس ولا يستند على إيمان، قال الطبري: أي جعلناه باطلاً لأنهم لم يعملوه لله، وإنما عملوه للشيطان، والهباء هو الذي يُرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة، والمنثور المتفرق[3] وقال القرطبي: إن الله أحبط أعمالهم بسبب الكفر حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور[4] ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ لما بيَّن تعالى حال الكفار وأنهم في الخسران الكلي والخيبة التامة، شرع بوصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور والحبور، تنبيهاً على أن السعادة كل السعادة في طاعة الله عز وجل، ومعنى الآية: أصحابُ الجنة يوم القيامة

---

(١) البحر المحيط (٤٩١/٦).
(٢) تفسير الطبري (١٩/٤).
(٣) ابن كثير (٦٢٨/٢) المختصر.
(٤) القرطبي (١٣/٢١).

خيرٌ من الكفار مستقرًا ومنزلاً ومأوى[1] ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي وأحسن منهم مكانًا للتمتع وقت القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم قال ابن مسعود: «لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار» ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب يوم تنشق السماء وتتفطر عن الغمام الذي يُسوِّد الجو ويُظلمه ويملأ القلوب مرآه لكثرته وشدة ظلمته ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ أي ونزلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي الملك في ذلك اليوم لله الواحد القهار، الذي تخضع له الملوك، وتعنو له الوجوه، وتذل له الجبابرة، لا مالك يومئذٍ سواه، كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي وكان ذلك اليوم صعبًا شديدًا على الكفار، قال أبو حيان: ودل قوله ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ على تيسره على المؤمنين ففي الحديث «إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاةٍ مكتوبة صلاها في الدنيا»[2] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أي واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرّط في جنب الله، وعضُّ اليدين كناية عن الندم والحسرة، والمراد بالظالم «عُقبة بن أبي مُعيط» كما في سبب النزول، وهي تعمُّ كل ظالم قال ابن كثير: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وسلك سبيلاً غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعضّ على يديه حسرةً وأسفًا، وسواءٌ كان نزولها في «عقبة بن أبي مُعيط» أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم[3] ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي يقول الظالم: يا ليتني اتبعت الرسول فاتخذت معه طريقًا إلى الهدى ينجيني من العذاب ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ أي يا هلاكي وحسرتي ليتني لم أصاحب فلانًا وأجعله صديقًا لي، ولفظ «فلان» كناية عن الشخص الذي أضله وهو «أُبيّ بن خلف» قال القرطبي: وكنى عنه ولم يصرح باسمه ليتناول جميع من فعل مثل فعله[4] ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي لقد أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت، ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ أي يُضله ويُغويه ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ لما أكثر المشركون الطعن في القرآن ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله، والمعنى قال محمد: يا رب إنَّ قريشًا كذبت بالقرآن ولم تؤمن به وجعلته وراء ظهورها متروكًا وأعرضوا عن استماعه، قال المفسرون: وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون بل المقصود منها تعظيم

---

(١) كلمة «خير» ليست على بابها للمفاضلة وإنما هي بيان حال أهل الجنة وأنهم في أحسن حال وخير مكان، ولا ضرورة للتأويل بأنهم خير من الكافرين المترفين في الدنيا.
(٢) البحر (٦/ ٤٩٥) والحديث أخرجه أحمد بلفظ «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن ...» الحديث.
(٣) مختصر ابن كثير (٦/ ٦٣٠) (٤) القرطبي (١٣/ ٢٦) .

شكايته، وتخويف قومه، لأن الأنبياء إذا التجئوا إلى الله وشكوا قومهم حلّ بهم العذاب ولم يمهلوا(1) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك جعلنا لكل نبي عدوًّا من كفار قومه، والمراد تسلية النبي ﷺ بالتأسي بغيره من الأنبياء ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي وكفى أن يكون ربك يا محمد هاديًا لك وناصرًا لك على أعدائك فلا تبال بمن عاداك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقال كفار مكة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي هلّا نزل هذا القرآن على محمد دفعة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل؟ قال تعالى ردًّا على شبهتهم التافهة ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقًا لنقوي قلبك على تحمله وتحفظه وتعمل بمقتضى ما فيه ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي فصّلناه تفصيلاً بديعًا، قال قتادة: أي بيّناه، وقال الرازي: الترتيل في الكلام: أن يأتي بعضه على إثر بعض على تؤدة وتمهل، وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفلّجها(2) وقال الطبري: الترتيل في القراءة: الترسل والتثبت يقول: عرّفناكه شيئًا بعد شيء حتى تحفظه(3) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي ولا يأتيك هؤلاء الكفار بحجة أو شبهة للقدح فيك أو في القرآن إلا أتيناك يا محمد بالحق الواضح، والنور الساطع ليدمغ به باطلهم ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي أحسن بيانًا وتفصيلاً، ثم ذكر تعالى حال هؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن فقال: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي يُسحبون ويُجرّون إلى النار على وجوههم ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي هم شر منزلاً ومصيرًا، وأخطأ دينًا وطريقًا وفي الحديث "قيل: يا رسول الله كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة"(4). ثم ذكر تعالى قصص الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ وإرهابًا للمكذبين فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ أي وأمددناه بأخيه هارون فجعلناه وزيرًا له يناصره ويؤازره ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي اذهبا إلى فرعون وقومه بالآيات الباهرات، والمعجزات الساطعات ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي فأهلكناهم إهلاكًا لما كذبوا رسلنا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي واذكر قوم نوح لما طال بهم الأمد كذبوا رسولهم نوحًا وجعلناهم عبرة لمن يعتبر، قال أبو السعود: وإنما قال الرسل (بالجمع) مع أنهم كذبوا نوحًا وحده لأن تكذيبه تكذيبٌ للجميع لاتفاقهم على التوحيد والإسلام(5) ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأعددنا لهم في الآخرة عذابًا شديدًا مؤلمًا سوى ما حلّ بهم في الدنيا ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ أي وأهلكنا عادًا وثمود وأصحاب البئر الذين انهارت بهم، قال البيضاوي: وأصحاب الرس قومٌ كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيبًا فكذبوه فبينما هم

---

(1) ملخصًا عن حاشية زاده على البيضاوي (٣/٤٥٤).
(2) التفسير الكبير (٢٤/٧٩).
(3) الطبري (١٩/٨).
(4) أخرجه أصحاب السنن.
(5) أبو السعود (٤/٩٤).

حول الرس - وهي البئر غير المطوية - انهارت فخسفت بهم وبديارهم[1] ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي وأممًا وخلائق كثيرين لا يعلمهم إلا الله بين أولئك المكذبين أهلكناهم أيضًا ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي وكلًّا من هؤلاء بيّنا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة إعذارًا وإنذارًا ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلكناه إهلاكًا، ودمرناه تدميرًا، لمّا لم تنجع فيهم المواعظ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ أي ولقد مرَّت قريش مرارًا في متجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أُهلكت بالحجارة من السماء وهي قرية سدوم عُظمى قرى قوم لوط ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ ؟ توبيخٌ لهم على تركهم الاتعاظ والاعتبار أي أفلم يكونوا في أسفارهم يرونها فيعتبروا بما حلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم لرسولهم ومخالفتهم لأوامر الله؟ قال ابن عباس: كانت قريشٌ في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كقوله تعالى ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي إنهم لا يعتبرون لأنهم لا يرجون معادًا يوم القيامة.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الترجي ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ لأن (لولا) بمعنى (هلّا) للترجي.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا﴾ و﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

٣ - المبالغة بنفي الجنس ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ومعناها: لا يبشر يومئذ المجرمون وإنما عدل عنه للمبالغة.

٤ - التشبيه البليغ ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ أي كالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٥ - الكناية اللطيفة ﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ كناية عن الندم والحسرة، كما أن لفظة «فلان» كناية عن الصديق الذي أضله.

٦ - الإسناد المجازي ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأن الضلال لا ينسب إلى المكان ولكن إلى أهله.

لطيفة: قال ابن القيم رحمه الله: هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به. والثاني: هجر العمل به وإن قرأه وآمن به. والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه. والرابع: هجر تدبره وتفهم معانيه. والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب.

وكلّ هذا داخل في قوله تعالى ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وإن كان بعض الهجر أهونَ من بعض[2].

□ □ □

---

(١) البيضاوي (٢/٦٨).
(٢) نقلًا عن تفسير محاسن التأويل (١٢/٤٧٥).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ إلى ... ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى شبهات المشركين حول القرآن والرسول، وردَّ عليهم بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، ذكر هنا طرفاً من استهزائهم وسخريتهم بالرسول فلم يقتصروا على تكذيبه بل زادوا عليه بالاستهزاء والاحتقار، ثم ذكر الأدلة على وحدانيته تعالى وقدرته.

اللغَة: ﴿سُبَاتًا﴾ السُّبات: الراحة، جعل النوم سباتاً لأنه راحة للأبدان وأصل السبت: القطع ومنه السبت لليهود لانقطاعهم فيه عن الأعمال ﴿نُشُورًا﴾ النشور: الانتشار والحركة، والنهار سبب الانتشار من أجل طلب المعاش ﴿وَأَنَاسِيَّ﴾ جمع إنسي مثل كرسي وكراسي قال الفراء: الإنسي والأناسي اسم للبشر وأصله إنسان ثم أبدلت من النون ياء فصار إنسي ﴿مَرَجَ﴾ خلّى وأرسل وخلط يقال: مرجه إذا خلطه و﴿أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مضطرب مختلط ﴿فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة ﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة ﴿حِجْرًا﴾ حاجزاً.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۝ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

التفسير: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإِذا رآك المشركون يا محمد ما يتخذونك إلا موضع هزءٍ وسخرية ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي قائلين بطريق التهكم والاستهزاء: أهذا الذي بعثه الله إلينا رسولاً؟! ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي إنه كاد ليصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها، قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة

العذاب من أخطأ طريقًا وأضل دينًا أهم أم محمد ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجيبٌ من ضلال المشركين أي أرأيت من جعل هواه إلهًا كيف يكون حاله؟ قال ابن عباس: كان الرجل من المشركين يعبد حجرًا فإذا رأى حجرًا أحسن منه رماه وأخذ الثاني فعبده ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظًا تحفظه من اتباع هواه؟ ليس الأمر لك. قال أبو حيان: وهذا تيئيسٌ من إيمانهم، وإشارةٌ للرسول عليه السلام ألا يتأسف عليهم، وإعلامٌ أنهم في الجهل بالمنافع وقلة النظر في العواقب مثل البهائم[1] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ؟ أي أتظن أن هؤلاء المشركين يسمعون ما تقول لهم سماع قبول؟ أو يعقلون ما تورده عليهم من الحجج والبراهين الدالة على الوحدانية فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم؟ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي ما هم إلا كالبهائم بل هم أبشع حالًا، وأسوأ مآلًا من الأنعام السارحة؛ لأن البهائم تهتدي لمراعيها، وتنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم، ثم ذكر تعالى أنواعًا من الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي ألم تنظر إلى بديع صنع الله وقدرته كيف بسط تعالى الظل ومدّه وقت النهار حتى يستريح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس المزعجة؟ إذ لولا الظلُّ لأحرقت الشمس الإنسان وكدّرت حياته ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي لو أراد سبحانه لجعله دائمًا ثابتًا في مكانٍ لا يزول ولا يتحول عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهةٍ إلى جهة، فتارة يكون جهة المشرق، وتارة جهة المغرب، وأخرى من أمام أو خلف ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي جعلنا طلوع الشمس دليلًا على وجود الظل، فلولا وقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجودًا، ولما ظهرت آثار هذه النعمة الجليلة للعباد، والأشياء إنما تُعرف بأضدادها فلولا الظلمة ما عُرف النور، ولولا الشمسُ ما عرف الظل «وبضدها تتميز الأشياء» ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي أزلنا هذا الظلَّ شيئًا فشيئًا، وقليلًا قليلًا لا دفعة واحدة لئلا تختل المصالح، قال ابن عباس: الظلُّ: من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس[2] قال المفسرون: الظلُّ: هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهو يحدث على وجه الأرض منبسطًا فيما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، ثم إن الشمس تنسخه وتزيله شيئًا فشيئًا إلى الزوال، ثم هو ينسخ ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب ويسمى فيئًا، ووجه الاستدلال به على وجود الصانع الحكيم أن وجوده بعد العدم، وعدمه بعد الوجود، وتغيير أحواله بالزيادة والنقصان، والانبساط والتقلص، على الوجه النافع للعباد لابدَّ له من صانع

(١) البحر (٦/ ٥٠١).

(٢) الطبري (١٩/ ١٦) هذا القول منقول عن مجاهد وإليه ذهب كثير من المفسرين وقالوا: إنه أطيب الأحوال ولذلك وصف به الجنة ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ وما اثبتناه هو الراجح لأنه الظل المعروف ولفظ الشمس يرجحه وهو اختيار العلامة أبي السعود.

قادر ، مدبر حكيم ، يقدر على تحريك الأجرام العلوية ، وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن ، والترتيب الأكمل وما هو إلا الله رب العالمين[1] . ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته ، وجليل نعمه الفائضة على الخلق فقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي هو سبحانه الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس بزينته ، قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيهًا من حيث يستر الأشياء فيصير لهم سترًا يسترون به كما يسترون بالثياب التي يكسونها[2] ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي وجعل النوم راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن أعمالكم ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي وقتًا لانتشار الناس فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم ، وأسباب رزقهم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي أرسل الرياح مبشرة بنزول الغيث والمطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي أنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح ماءً طاهرًا مطهرًا تشربون وتتطهرون به ، قال القرطبي : وصيغة «طهور» بناء مبالغة في «طاهر» فاقتضى أن يكون طاهرًا مطهرًا[3] ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي لنحيي بهذا المطر أرضًا ميتة لا زرع فيها ولا نبات ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي وليشرب منه الحيوان والإنسان لأن الماء حياة كل حيٍّ ، والناس محتاجون إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وسقي مواشيهم قال الإمام الفخر : وتنكير الأنعام والأناسي لأن حياة البشر بحياة أرضهم وأنعامهم ، وأكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار ، فهم في غنية عن شرب ماء المطر ، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون ماءً للشرب إلا عند نزول المطر ولهذا قال : ﴿أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي بشرًا كثيرين لأن الجمع يراد به الكثرة[4] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي صرفنا الأمثال في هذا القرآن[5] للناس وبينا فيه الحجج والبراهين ليتفكروا ويتدبروا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي أبى الكثير من البشر إلا الجحود والتكذيب ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ أي لو أردنا لخففنا عنك أعباء النبوة فبعثنا في كل أهل قرية نبيًا ينذرهم ، ولكنا خصصناك بالبعثة إلى جميع أهل الأرض إجلالاً لك ، وتعظيمًا لشأنك ، فقابل هذا الإجلال بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي فلا تطع الكفار فيما يدعونك إليه من الكف عن آلهتهم ، وجاهدهم بالقرآن جهادًا كبيرًا بالغًا نهايته لا يخالطه فتور ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي هو تعالى بقدرته خلى وأرسل البحرين متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة قاطع للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي بليغ الملوحة ، مر

---

(١) انظر تفسير الرازي (٢٤/ ٨٨) فهو كلام جيد عجيب.
(٢) الطبري (١٩/ ١٤) . (٣) القرطبي (١٣/ ٣٩) .
(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ٩١) .
(٥) الضمير في ﴿صرفناه﴾ عائد إلى القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ويؤيده قوله ﴿وجاهدهم به جهادًا كبيرًا﴾ وقيل إنه عائد إلى المطر وهو كما قال في التسهيل بعيد .

شديد المرارة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي جعل بينهما حاجزًا من قدرته لا يغلب أحدهما على الآخر ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي ومنعًا من وصول أثر أحدهما إلى الآخر وامتزاجه به، قال ابن كثير: معنى الآية: أنه تعالى خلق الماءين: الحلو والمالح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، والمالح كالبحار الكبار التي لا تجري، وجعل بين العذب والمالح حاجزًا وهو اليابس من الأرض، ومانعًا من أن يصل أحدهما إلى الآخر، وهذا اختيار ابن جرير[1] وقال الرازي: ووجه الاستدلال ههنا بيّن لأن العذوبة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء فلا بد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد بصفة معينة[2] ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أي خلق من النطفة إنسانًا سميعًا بصيرًا ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمهم من نطفة واحدة قسمين: ذوي نسب أي ذكورًا ينسب إليهم لأن النسب إلى الآباء كما قال الشاعر:

فإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء

وإناثًا يصاهر بهن، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون، وبالمصاهرة تكون العصبية والمودة واجتماع الغريب بالقريب ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي مبالغًا في القدرة حيث خلق من النطفة الواحدة ذكرًا وأنثى.. ولما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرة المشركين في عبادة الأوثان فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي يعبدون الأصنام التي لا تنفع ولا تضر لأنها جمادات لا تحس ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي معينًا للشيطان على معصية الرحمن؛ لأن عبادته للأصنام معاونة للشيطان قال مجاهد: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه[3] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي مبشرًا للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذرًا للكافرين بعذاب الجحيم ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي لكن من شاء أن يتخذ طريقًا يقربه إلى الله بالإيمان والعمل الصالح فليفعل كأنه يقول: لا أسألكم مالاً ولا أجرًا وإنما أسألكم الإيمان بالله وطاعته وأجري على الله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي اعتمد في جميع أمورك على الواحد الأحد، الدائم الباقي الذي لا يموت أبدًا، فإنه كافيك وناصرك ومظهر دينك على سائر الأديان ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار مما لا يليق به من الشركاء والأولاد ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أي حسبك أن الله مطلع على أعمال العباد لا يخفى عليه شيء منها، قال الإمام الفخر: وهذه الكلمة يراد بها المبالغة كقولهم: كفى بالعلم جمالاً وكفى بالأدب مالاً، وهي بمعنى حسبك، أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم، قادر على مجازاتهم، وذلك وعيد شديد[4] ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي هذا الإله العظيم الذي ينبغي أن تتوكل عليه هو القادر على كل شيء، الذي خلق السموات السبع

---

(١) ابن كثير (٢/١٣٥) المختصر.
(٢) التفسير الكبير (٢٤/١٠١).
(٣) الطبري (١٩/١٧).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/١٠٢) [illegible]

قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ... إلى ... فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ من آية (٦١) إلى الآية (٧٧) نهاية السورة الكريمة

المناسبة: لما ذكر إعراض المشركين عن عبادة الرحمن أعقبها بذكر آياته الكونية الدالة على الوحدانية، ثم ختم السورة الكريمة بذكر صفات عباد الرحمن التي استحقوا بها دخول الجنان.

اللغة:

﴿بُرُوجًا﴾ البروج: منازل الكواكب السيارة، سميت بالبروج لأنها تشبه القصور العالية وهي للكواكب كالمنازل للسكان، وقيل: هي الكواكب العظيمة ﴿غَرَامًا﴾ لازمًا دائمًا غير مفارق ومنه الغريم لملازمته ﴿الْغُرْفَةَ﴾ الدرجة الرفيعة في الجنة وهي في اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة ﴿يَعْبَأُ﴾ يبالي ويهتم قال أبو عبيدة: ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء وأصله من العبء الثقل ﴿لِزَامًا﴾ ملازمًا لكم.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

التفسير:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي تمجد وتعظم الله الذي جعل في السماء تلك الكواكب العظام المنيرة[1] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أي وجعل فيها الشمس المتوهجة في النهار، والقمر المضيء بالليل ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي يخلف كلٌّ منهما الآخر ويتعاقبان، فيأتي النهار بضيائه ثم يعقبه الليل بظلامه ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أي لمن أراد أن يتذكر آلاء الله، ويتفكر في بدائع صنعه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي أراد شكر الله على إفضاله ونعمائه، قال

---

(1) قال مجاهد والحسن: البروج هي الكواكب العظام، وقال ابن عباس وعلي: هي منازل الكواكب، قال ابن كثير: والقول الأول أظهر.

الطبري: جعل الله الليل والنهار يخلف كل واحد منهما الآخر، فمن فاته شيء من الليل أدركه بالنهار، ومن فاته شيء من النهار أدركه بالليل[1] ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الإضافة للتشريف أي أن عباد الله الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه هم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار، لا يضربون بأقدامهم أشرًا ولا بطرًا، ولا يتبخترون في مشيهم ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي وإذا خاطبهم السفهاء بغلظة وجفاء قالوا قولاً يسلمون فيه من الإثم، قال الحسن: لا يجهلون على أحد، وإن جُهل عليهم حلُموا ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي يُحيون الليل بالصلاة ساجدين لله على جباههم، أو قائمين على أقدامهم كقوله ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قال الرازي: لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين: ترك الإيذاء، وتحمل الأذى بيَّن هنا سيرتهم في الليالي وهو اشتغالهم بخدمة الخالق[2] ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي يدعون ربهم أن ينجيهم من عذاب النار، ويبتهلون إليه أن يدفع عنهم عذابها ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي لازمًا دائمًا غير مفارق ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي بئست جهنم منزلاً ومكان إقامة، قال القرطبي: المعنى بئس المستقر وبئس المقام، فهم مع طاعتهم مشفقون خائفون من عذاب الله[3]، وقال الحسن: خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقًا من عذاب جهنم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ هذا هو الوصف الخامس من أوصاف عباد الرحمن والمعنى: ليسوا مبذرين في إنفاقهم في المطاعم والمشارب والملابس، ولا مقصرين ومضيقين بحيث يصبحون بخلاء ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي وكان إنفاقهم وسطًا معتدلاً بين الإسراف والتقتير كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الآية وقال مجاهد: لو أنفقت مثل جبل أبي قبيس ذهبًا في طاعة الله ما كان سرفًا، ولو أنفقت صاعًا في معصية الله كان سرفًا[4] ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلهًا آخر، بل يوحدونه مخلصين له الدين ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بما يحقُّ أن تُقتل به النفوس من كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل قصاصًا ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي لا يرتكبون جريمة الزنى التي هي من أقبح الجرائم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي ومن يفعل تلك الجرائم الشنيعة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة ثم فسرها بقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يضاعف عذابه ويُغلظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ أي يُخلد في ذلك العذاب حقيرًا ذليلاً أبد الآبدين ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي إلا

---

(1) الطبري (١٩/ ٢٠). (2) التفسير الكبير (٢٤/ ١٠٨).

(3) القرطبي (١٣/ ٧٢).

(4) الطبري (١٩/ ٢٢) وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا من أن الإسراف هو الإنفاق في معصية الله، وإليه ذهب بعض المفسرين وهو منقول عن ابن عباس أيضًا والقول الأول أظهر.

من تاب من الذنب التوبة النصوح وأحسن عمله ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي يكرمهم الله في الآخرة فيجعل مكان السيئات حسنات وفي الحديث «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يُؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال: عملتَ يوم كذا وكذا كذا فيقول: نعم: لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول: يا رب قد عملتُ أشياء لا أراها ههنا، قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه»[1] ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة كثير الرحمة ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي ومن تاب عن المعاصي وأصلح سيرته فإن الله يتقبل توبته ويكون مرضياً عند الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ هذا هو الوصف السابع من أوصاف عباد الرحمن أي لا يشهدون الشهادة الباطلة - شهادة الزور - التي فيها تضييعٌ لحقوق الناس ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي وإذا مرُّوا بمجالس اللغو - وهي الأماكن التي يكون فيها العمل القبيح كمجالس اللهو، والسينما، والقمار، والغناء المحرّم - مرُّوا معرضين مكرمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس، قال الطبري: واللغوُ: كلُّ كلام أو فعلٍ باطل ركيكٍ ما يُستقبح كسبّ الإنسان، وذكر النكاح باسمه في بعض الأماكن، وسماع الغناء مما هو قبيح، كلُّ ذلك يدخل في معنى اللغو الذي يجب أن يجتنبه المؤمن[2] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي إذا وُعظوا بآيات القرآن وخُوِّفوا بها ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يعرضوا عنها بل سمعوها بآذانٍ واعية وقلوبٍ وجلة ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي اجعل لنا في الأزواج والبنين مسرةً وفرحاً بالتمسك بطاعتك، والعمل بمرضاتك ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي اجعلنا قدوة يقتدي بنا المتقون، دعاةً إلى الخير هُداةً مهتدين، قال ابن عباس: أي أئمة يقتدى بنا في الخير[3] ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي أولئك المتصفون بالأوصاف الجليلة السامية ينالون الدرجات العالية، بصبرهم على أمر الله وطاعتهم له سبحانه ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي ويُلقَّون بالتحية والسلام من الملائكة الكرام كقوله تعالى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم لا يموتون ولا يُخرجون من الجنة لأنها دار الخلود ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي ما أحسنها مقرًّا وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا يكترث ولا يحفلُ بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إياه في الشدائد ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي فقد كذبتم أيها الكافرون بالرسول والقرآن فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) الطبري (١٩/ ٣٢).
(٣) ابن كثير (٦/ ٦٤٤) مختصر.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ .

٢ - الطباق بين السجود والقيام ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ وكذلك بين الإسراف والتقتير ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ .

٣ - المقابلة اللطيفة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مقابل قوله عن أهل النار: ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ .

٤ - الاستعارة البديعة ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يتغافلوا عن قوارع النذر حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر، وهذا من أحسن الاستعارات.

٥ - الكناية ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ كناية عن الفرحة والسرور كما أن ﴿الْغُرْفَةَ﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة.

تنبيه: قال القرطبي: وصف تعالى «عباد الرحمن» بإحدى عشرة خصلة هي أوصافهم الحميدة من التحلي، والتخلي وهي «التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والبعد عن الشرك، والنزاهة عن الزنى والقتل، والتوبة، وتجنب الكذب، وقبول المواعظ والابتهال إلى الله» ثم بين جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»

بين يدي السورة

* سورة الشعراء مكية وقد عالجت أصول الدين من «التوحيد، والرسالة، والبعث» شأنها شأن سائر السور المكية، التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هدايةً للخلق، وبلسمًا شافيًا لأمراض الإنسانية، وذكرت موقف المشركين منه، فقد كذبوا به مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عنادًا واستكبارًا.

* ثم تحدثت السورة عن قصص الرسل الكرام، الذين بعثهم الله لهداية البشرية، فبدأت بقصة الكليم «موسى» مع فرعون الطاغية الجبار، وما جرى من المحاورة والمناظرة بينهما في شأن الإله جلّ وعلا، وما أيّد الله به موسى من الحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل، وقد ذكرت في القصة حلقات جديدة، انتهت ببيان العظة والعبرة من الصراع الهائل بين الإيمان والطغيان.

* ثم تناولت قصة الخليل إبراهيم عليه السلام، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام، وقد أظهر لهم بقوة حجته، وناصع بيانه، بطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا يعي، وأقام لهم الأدلة القاطعة على وحدانية رب العالمين، الذي بيده النفع والضر، والإحياء والإماتة.

* ثم تحدثت السورة عن المتقين والغاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كل من الفريقين يوم الدين.

* وبعد أن تابعت السورة في ذكر قصص الأنبياء «نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب» عليهم الصلاة والسلام، وبيّنت سنة الله في معاملة المكذبين لرسله، عادت للتنويه بشأن الكتاب العزيز، تفخيمًا لشأنه، وبيانًا لمصدره ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾.

* ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين، في زعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين، ليتسق البدء مع الختام في أروع تناسق والتئام!.

التسمية: سميت سورة الشعراء لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمدًا كان شاعرًا، وأن ما جاء به من قبيل الشعر، فردّ الله عليهم ذلك الكذب والبهتان بقوله ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ وبذلك ظهر الحق وبان.

اللغة: ﴿باخع﴾ مهلك وقاتل وأصل البخع: أن يبلغ بالذبح النخاع وهو الخيط النافذ في ثقب الفقرات وهو أقصى حد الذبح ﴿فعلتك﴾ الفعلة بفتح الفاء: المرة من الفعل ﴿تمنها﴾

تبتلع (يأفكون) من الإفك وهو الكذب ﴿لا ضَيْرَ﴾ لا ضرر، والضرُّ والضير بمعنى واحد قال الجوهري: ضاره يضوره ضيراً أي ضرّه، قال الشاعر:

فإنك لا يضورك بعد حولٍ … أظبيٌ كان أمك أم حمار(١)

(منقلبون) راجعون (من خلاف) أي بمخالفة بين الأعضاء بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

التفسير: ﴿طسم﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية(٢) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح المبين، المعجز إعجازاً بيّن

(١) البيت لخداش بن زهير ضرب مثلاً لمن ينتسب إليه الإنسان من شريف أو وضيع.

(٢) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة ففيه الغنية والكفاية.

تأمله. ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ أي لعلك يا محمد مهلك نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار، وفيه تسلية للرسول عليه السلام حتى لا يحزن ولا يتأثر على عدم إيمانهم. ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ أي لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطرهم إلى الإيمان قهراً ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ أي فتظل أعناقهم منقادة خاضعة للإيمان قسراً وقهراً، ولكننا لا نفعل لأنا نريد أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراراً. قال الصاوي: المعنى لا تحزن على عدم إيمانهم فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تلجئ قلوبهم فيؤمنون قهراً عليهم، ولكن سبق في علمنا شقاؤهم فأرح نفسك من التعب[1] ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث﴾ أي ما يأتي هؤلاء الكفار شيء من القرآن أو الوحي منزل من عند الرحمن ﴿محدث﴾ أي جديد في النزول[2]، ينزل وقتاً بعد وقت ﴿إلا كانوا عنه معرضين﴾ أي إلا كذبوا به واستهزءوا ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعبر ﴿فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ أي فقد بلغوا النهاية في الإعراض والتكذيب فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا واستهزءوا به، ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه، وجلالة قدره في مخلوقاته ومصنوعاته، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال: ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض كم أخرجنا فيها من كل صنف حسن محمود، كثير الخير والمنفعة؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم الاعتبار ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إن في ذلك الإنبات لآية باهرة تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما كان أكثرهم يؤمن في علم الله تعالى، فمع ظهور الدلائل الساطعة يستمر أكثرهم على كفرهم ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي هو سبحانه الغالب القاهر، القادر على الانتقام ممن عصاه، الرحيم بخلقه حيث أمهلهم ولم يعجل لهم العقوبة مع قدرته عليهم، قال أبو العالية: العزيز في نقمته ممن خالف أمره وعبد غيره، الرحيم بمن تاب إليه وأناب وقال الفخر الرازي: إنما قدم ذكر (العزيز) على (الرحيم) لأنه ربما قيل إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت مع القدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً[3] ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ أي واذكر يا محمد لأولئك المعرضين المكذبين من قومك حين نادى ربك نبيه موسى من جانب الطور الأيمن وأمره أن يذهب إلى فرعون وملئه ﴿أن ائت القوم الظالمين﴾ أي بأن ائت هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد الضعفاء من بني إسرائيل ﴿قوم فرعون﴾ أي هم قوم فرعون، وهو عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون شيء واحد ﴿ألا يتقون﴾؟ أي ألا يخافون عقاب الله؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم وإفراطهم في العدوان ﴿قال رب إني أخاف أن يكذبون﴾ أي قال موسى يا رب إني أخاف أن يكذبوني في أمر الرسالة

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ١٦٢).

(٢) معنى محدث أي محدث في نزوله ونزل فكلام الله قديم لا يوصف بالحدوث كما لا يوصف بأنه مخلوق.

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٢٠).

أجابه موسى بقوله ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ؟ تعجبًا من جوابه . فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهرُ الأدلة عند العقلاء ، وأعظم البراهين ، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم يستدلون بها على وجود خالقهم ، فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطةً منه ، وأتبعه بالازدراء والتهكم في قوله : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن لأحد جحدها ، ولا أن يدعيها لغير الله . فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فهدده بالسجن ، فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة وذكرها له بتلطف طمعًا في إيمانه [١] ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي أتسجنني ولو جئتك بأمر ظاهر ، وبرهان قاطع تعرف به صدقي ؟ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأت بما تقول إن كنت صادقًا في دعواك ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ أي رمى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة في غاية الجلاء والوضوح ، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي وأخرج يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كالشمس الساطعة ، لها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه الذين كانوا حوله : إن هذا لساحر عظيم بارع في فن السحر . أراد أن يغطي على نور تلك المعجزة برميه بالسحر خشية أن يتأثروا ويصابروا ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ أي يريد أن يستولي على بلادكم بهذا السحر العظيم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي فبأي شيء تأمرون وبما تشيرون علي أن أصنع به ؟ لما رأى فرعون تلك الآيات الباهرة خاف على قومه أن يتبعوه ، فتنزل إلى مشاورتهم بعد أن كان مستبدًا بالرأي والتدبير ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخّر أمرهما ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي وأرسل في أطراف مملكتك من يجمع لك السحرة من كل مكان ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي يجيئوك بكل ساحر ماهر ، عليم بضروب السحر ، قال ابن كثير : وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة [٢] ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي فاجتمع السحرة للموعد المحدد وهو وقت الضحى من يوم الزينة ، وهو الوقت الذي حدده موسى ، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد كما قال تعالى ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ و ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ أي قيل للناس : بادروا إلى الاجتماع لكي نتبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝﴾ أي إن غلبنا بسحرنا موسى فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل ؟ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي قال لهم فرعون : نعم أعطيكم ما تريدون وأجعلكم من المقربين عندي ومن خاصة جلسائي ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ في الكلام إيجاز دل

---

(١) ابن كثير (٣/٦٤٦) المختصر . (٢) ابن كثير (٢/٦٤٧) المختصر .

عليه السياق تقديره: فقالوا لموسى عند ذلك إمّا أن تُلقي وإمّا أن نكون نحن الملقين كما ذكر في الأعراف فأجابهم موسى بقوله: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي ابدءوا بإلقاء ما تريدون فلستُ أخشاكم، قاله ثقةً بنصرة الله وتوسلاً لإظهار الحق ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي فألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي وقالوا عند الإلقاء: نقسم بعظمة فرعون وسلطانه إنا نحن الغالبون لموسى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي فألقى موسى العصا فانقلبت حية عظيمة فإذا هي تبتلع وتزدرد الحبال والعصي التي اختلقوها باسم السحر حيث خيلوها للناس حيات تسعى، وسمّى تلك الأشياء إفكًا مبالغة ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي سجدوا لله رب العالمين، بعدما شاهدوا البرهان الساطع، والمعجزة الباهرة ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أي وقالوا عند سجودهم آمنا بالله العزيز الكبير الذي يدعونا إليه موسى وهارون. قال الطبري: لما تبيّن للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حق لا سحر، وأنه مما لا يقدر عليه غيرُ الله الذي فطر السموات والأرض، خرّوا لوجوههم سجّدًا لله مذعنين له بالطاعة قائلين: آمنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته، دون فرعون وملئه[1] ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي قال فرعون للسحرة: آمنتم لموسى قبل أن تستأذنوني؟ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي إنه رئيسكم الذي تعلمتم منه السحر وتواطأتم معه ليظهر أمره، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق، قال ابن كثير: وهذه مكابرة يعلم كل أحدٍ بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل[2]، ثم توعّدهم بقوله ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون عند عذابي وبال ما صنعتم من الإيمان به ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي لأقطعن يد كل واحد منكم اليمنى ورجله اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولأصلبنَّ كل واحد منكم على جذوع النخل وأتركه حتى الموت ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي لا ضرر علينا في وقوع ما توعدتنا به، ولا نبالي به لأننا نرجع إلى ربنا مؤملين غفرانه ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ أي إنا نرجو أن يغفر لنا الله ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا به فلا يعاقبنا بها ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بسبب أن بادرنا قومنا إلى الإيمان وكنا أول من آمن بموسى.

البَلاغَة: تضمنت الآيات وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الكناية اللطيفة ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ كنّى به عن الذل والهوان الذي يلحقهم بعد العز والكبرياء.

٢ - الوعيد والتهديد ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

٣ - التوبيخ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ الاستفهام للتوبيخ على تركهم النظر بعين الاعتبار

٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾

---

(١) الطبري ١٩/ ٤٦ (٢) المختصر ٢/ ٦٣٨

متيقظون مشمرون، من عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم في الأمور، قال الزمخشري: وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لئلا يُظنَّ به ما يكسر من قهره وسلطانه[1]، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه من بساتين كانت لهم وأنهار جارية ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي وأخرجناهم من الأموال التي كنزوها من الذهب والفضة، ومن المنازل الحسنة والمجالس البهية ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه فعلنا بهم، وأورثنا بني إسرائيل ديارهم وأموالهم بعد إغراق فرعون وقومه ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي فلما رأى كلٌّ منهما الآخر، والمراد جمع موسى وجمع فرعون ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي سيدركنا فرعون وجنوده فيقتلوننا، قالوا ذلك حين رأوا فرعون الجبار وجنوده وراءهم، والبحر أمامهم، وساءت ظنونهم ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي قال موسى كلا لن يدركوكم فارتدعوا عن مثل هذا الكلام وانزجروا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ إن ربي معي بالحفظ والنصرة، وسيهديني إلى طريق النجاة والخلاص، قال الرازي: قوى نفوسهم بأمرين: أحدهما أن ربه معه وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة، والثاني قوله ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دلّه على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصرة[2] ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يضرب البحر بعصاه ﴿فَانفَلَقَ﴾ أي فضربه فشق وانفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي فكان كل جزء منه كالجبل الشامخ الثابت، قال ابن عباس: صار فيه اثنا عشر طريقًا لكل سبط منهم طريق[3] ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ أي وقربنا هناك فرعون وجماعته حتى دخلوا البحر على إثر دخول بني إسرائيل ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين معه جميعًا ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه، قال المفسرون: لما انفلق البحر جعله الله يبسًا لموسى وقومه، وصار فيه اثنا عشر طريقًا ووقف الماء بينها كالطود العظيم، فلما خرج أصحاب موسى وتكامل دخول أصحاب فرعون أمر الله البحر أن ينطبق عليهم فغرقوا فيه، فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون! فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في إغراق فرعون وقومه لعبرة عظيمة على إنجاء الله لأوليائه، وإهلاكه لأعدائه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ومع مشاهدة هذه الآية العظمى لم يؤمن أكثر البشر، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيد لمن عصاه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ هذه بداية قصة إبراهيم أي اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم الهام وشأنه العظيم[4] ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي حين قال لأبيه وعشيرته أي شيء تعبدون؟ وإنهم

---

(١) الكشاف (٣/ ١٢٨). (٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٣٨).

(٣) ابن كثير المختصر (٢/ ٦٤٩).

(٤) قال الفخر الرازي: ذكر تعالى في أول السورة حزن النبي ﷺ بسبب كفر قومه، ثم ذكر قصة موسى ليعرف محمد

مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبين لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع، ويقيم عليهم الحجة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أي نعبد أصنامًا فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والفخر، وكان يكفيهم أن يقولوا: نعبد الأصنام ولكنهم زادوا في الوصف كالمفتخر بما يصنع ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ أي قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ: هل يسمعون دعاءكم حين تتجاوبون إليهم بالدعاء؟ ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي وهل يبذلون لكم منفعة، أو يدفعون عنكم مضرة؟ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم. قال أبو السعود: اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرة، واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لا سند لهم سوى التقليد(١) وهذا من علامات انقطاع الحجة ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ أي قال إبراهيم: أفرأيتم هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأولون؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فإن هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم، ولكن أعبد الله رب العالمين فهو وليي في الدنيا والآخرة، أسند العداوة لنفسه تعريضًا بهم وهو أبلغ في النصيحة من التصريح ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي الله الذي خلقني هو الذي يهديني إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي هو تعالى الذي يرزقني الطعام والشراب فهو الخالق الرازق الذي ساق المُزْن، وأنزل المطر، وأخرج به أنواع الثمرات رزقًا للعباد ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي أحدٌ غيره، وإنما أسند المرض إلى نفسه ﴿مَرِضْتُ﴾ وأسند الشفاء إلى الله رعايةً للأدب، وإلا فالمرض والشفاء من الله جل وعلا فاستعمل في كلامه حسن الأدب ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي وهو تعالى المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء حين يجازي العباد بأعمالهم، وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويفزعوا لخالقهم ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي هب لي الفهم والعلم وألحقني في زمرة عبادك الصالحين ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أي اجعل لي ذكرًا حسنًا وثناءً عاطرًا ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ أي فيمن يأتي بعدي إلى يوم القيامة، أذكر به ويقتدى بي(٢)، قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه، فكل أمةٍ تتمسك به وتعظمه ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي من السعداء في الآخرة الذين يستحقون ميراث جنات الخلد ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ أي اصفح عنه واهده إلى الإيمان،

أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم ليعرف محمد أيضًا أن حزن إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حزنه، لأنه من عظيم المحنة على إبراهيم أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بالدعاء والتنبيه. التفسير الكبير (٢٤/ ١٤١).

(١) أبو السعود (٤/ ١٠٩).

(٢) قال بعض العلماء: في الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل بالعمل الصالح، وأنشدوا: قد مات قوم وهم في الناس أحياء.

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي ممن ضلَّ عن سبيل الهدى، قال الصاوي: وقد أجابه الله تعالى في جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه(١)، وقال القرطبي: كان أبوه وعده أن يؤمن به فلذلك استغفر له، فلما بان له أنه لا يفي تبرأ منه(٢) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا تفضحني ولا تُهنّي يوم يبعث الخلائق للحساب، وهذا تواضعٌ منه أمام عظمة الله وجلاله وإلا فقد أثنى الله عليه بقوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ الآية ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب لا ينفع أحدًا فيه مال ولا ولد ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ أي إلا من جاء ربَّه في الآخرة ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي بقلبٍ نقيٍّ طاهر، سليم من الشرك والنفاق، والحسد والبغضاء، وإلى هنا تنتهي دعوات الخليل إبراهيم ثم قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قُرِّبت الجنة للمتقين لربهم ليدخلوها، قال الطبري: وهم الذين اتقوا عقاب الله بطاعتهم إياه في الدنيا(٣) ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي وأظهرت النار للمجرمين العصاة حتى رأوها بارزة أمامهم مكشوفة للعيان، فالمؤمنون يرون الجنة فيحصل لهم البهجة والسرور، والغاوون يرون جهنم فتحصل لهم التعاسة والأحزان ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي قيل للمجرمين على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أين آلهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي هل ينقذونكم من عذاب الله، أو يستطيعون أن يدفعوه عن أنفسهم؟ وهذا كله توبيخ ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي أُلقوا على رؤوسهم في جهنم، قال مجاهد: دُهوروا في جهنم. وقال الطبري: رُمي بعضهم على بعض، وطُرح بعضهم على بعض منكبّين على وجوههم(٤) ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ أي الأصنام والمشركون والعابدون والمعبودون كقوله ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي وأتباع إبليس قاطبة من الإنس والجن ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ أي قال العابدون لمعبوديهم وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي نقسم بالله لقد كنا في ضلال واضح وبعدٍ عن الحق ظاهر ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي حين عدلناكم مع رب العالمين وجعلناكم مثله في استحقاق العبادة ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي وما أضلنا عن الهدى إلا الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ أي ليس لنا من يشفع لنا من هول هذا اليوم ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي ولا صديق خالص الود ينقذنا من عذاب الله ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي لو أن لنا رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فنؤمن بالله ونحسن عملنا ونطيع ربنا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم وقومه لعبرةً يعتبر بها أولو الأبصار ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وما كان أكثر هؤلاء المشركين الذين تدعوهم إلى الإسلام بمؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي

---

(١) الصاوي على الجلالين (٣/١٧٤).
(٢) القرطبي (١٣/١١٤).
(٣) الطبري (١٩/٥٥).
(٤) الطبري (١٩/٥٦).

١ - الإيجاز بالحذف ﴿فَانفَلَقَ﴾ أي فضرب البحر فانفلق.

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي كالجبل في رسوخه وثباته ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

٣ - الطباق بين ﴿يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ وكذلك بين ﴿يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

٤ - مراعاة الأدب ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ لم يقل: وإذا أمرضني بل أسند المرض لنفسه تأدبًا مع الله لأن الشر لا ينسب إليه تعالى أدبًا، وإن كان المرض والشفاء كلاهما من الله.

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ استعار اللسان للذكر الجميل والثناء الحسن وهو من ألطف الاستعارات.

٦ - المقابلة البديعة ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ مقابل قوله عن السعداء ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

٧ - مراعاة الفواصل في أواخر الآيات مثل ﴿الدِّينِ﴾ و﴿الْعَالَمِينَ﴾ و﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهو من السجع الحسن الذي يزيد في جمال البيان.

تنبيه: روي أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني! فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول: يا إبراهيم: انظر تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ - ذكر من الضباع - متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار. رواه البخاري.

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ... إلى ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ من آية (١٠٥) إلى نهاية آية (١٩١)

المناسبة: لما قص تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم أتبعه بذكر قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وكلُّ ذلك تسليةٌ لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من قومه، وبيان لسنة الله في عقاب المكذبين.

اللغة: ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء، يقال: شحن السفينة أي ملأها بالناس والدواب والطعام ﴿رِيعٍ﴾ الرِّيع: ما ارتفع من الأرض، والرِّيعُ: الطريق، ﴿مَصَانِعَ﴾ المراد بها الحصون المشيدة وهو قول ابن عباس قال الشاعر:

تركنا ديارهم منهم قفارًا ... وهدَّمنا المصانع والبروجا[1]

﴿بَطَشْتُم﴾ البطش: السطوة والأخذ بالعنف، يقال: بطش يبطش إذا أخذه بشدة وعنف ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ الخليقة، قال الهروي: الجبلة والجبل: الجمع ذو العدد الكثير من الناس، ومنه قوله

(١) القرطبي (١٣/ ١٢٤).

﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ أي ناساً كثيرين، ويقال: جُبل فلانٌ على كذا أي خُلق ﴿كِسَفاً﴾ جمع كِسْفة وهي القطعة من الشيء.

﴿كذبت قوم نوح المرسلين (١٠٥) إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون (١٠٦) إني لكم رسول أمين (١٠٧) فاتقوا الله وأطيعون (١٠٨) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٠٩) فاتقوا الله وأطيعون (١١٠) قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون (١١١) قال وما علمي بما كانوا يعملون (١١٢) إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون (١١٣) وما أنا بطارد المؤمنين (١١٤) إن أنا إلا نذير مبين (١١٥) قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين (١١٦) قال رب إن قومي كذبون (١١٧) فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين (١١٨) فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون (١١٩) ثم أغرقنا بعد الباقين (١٢٠) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٢١) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (١٢٢) كذبت عاد المرسلين (١٢٣) إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون (١٢٤) إني لكم رسول أمين (١٢٥) فاتقوا الله وأطيعون (١٢٦) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٢٧) أتبنون بكل ريع آية تعبثون (١٢٨) وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١٢٩) وإذا بطشتم بطشتم جبارين (١٣٠) فاتقوا الله وأطيعون (١٣١) واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون (١٣٢) أمدكم بأنعام وبنين (١٣٣) وجنات وعيون (١٣٤) إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (١٣٥) قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين (١٣٦) إن هذا إلا خلق الأولين (١٣٧) وما نحن بمعذبين (١٣٨) فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٣٩) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (١٤٠) كذبت ثمود المرسلين (١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون (١٤٤) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٤٥) أتتركون في ما هاهنا آمنين (١٤٦) في جنات وعيون (١٤٧) وزروع ونخل طلعها هضيم (١٤٨) وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين (١٤٩) فاتقوا الله وأطيعون (١٥٠) ولا تطيعوا أمر المسرفين (١٥١) الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون (١٥٢) قالوا إنما أنت من المسحرين (١٥٣) ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين (١٥٤) قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم (١٥٥) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم (١٥٦) فعقروها فأصبحوا نادمين (١٥٧) فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٥٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (١٥٩) كذبت قوم لوط المرسلين (١٦٠) إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون (١٦١) إني لكم رسول أمين (١٦٢) فاتقوا الله وأطيعون (١٦٣) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٦٤) أتأتون الذكران من العالمين (١٦٥) وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون (١٦٦) قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين (١٦٧) قال إني لعملكم من القالين (١٦٨) رب نجني وأهلي مما يعملون (١٦٩) فنجيناه وأهله أجمعين (١٧٠) إلا عجوزاً في الغابرين (١٧١) ثم دمرنا الآخرين (١٧٢) وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين (١٧٣) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٧٤) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (١٧٥) كذب أصحاب الأيكة المرسلين (١٧٦) إذ قال لهم شعيب ألا تتقون (١٧٧) إني لكم رسول أمين (١٧٨) فاتقوا الله وأطيعون (١٧٩) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٨٠) أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين (١٨١) وزنوا بالقسطاس المستقيم (١٨٢) ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين (١٨٣) واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين (١٨٤) قالوا إنما أنت من المسحرين (١٨٥) وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين (١٨٦) فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين (١٨٧) قال ربي أعلم بما تعملون (١٨٨) فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم (١٨٩) إن في ذلك لآية

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

التفسير: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذَّب قوم نوح رسولهم نوحاً، وإِنما قال ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذَّب رسولاً فقد كذَّب الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين لأنه كان منهم، قال الزمخشري: وهذا من قول العرب: يا أخا بني تميم يريدون يا واحداً منهم، ومنه بيت الحماسة «لا يسألون أخاهم حين يندبهم»(١) ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون عقاب الله في عبادة الأصنام؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني لكم ناصح، أمين على نصحي لا أخون ولا أكذب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي خافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ما أطلب ثوابي وأجري إلا من الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرره تأكيداً وتنبيهاً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي أنصدقك يا نوح فيما تقول ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي والحال أن أتباعك هم السفلة والفقراء والضعفاء؟ قال البيضاوي: وهذا من سخافة عقلهم، وقصور رأيهم فقد قصروا الأمر على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع الفقراء له مانعاً عن اتباعهم وإِيمانهم بدعوة نوح(٢) ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليس علي أن أبحث عن خفايا ضمائرهم، وأن أُنقّب عن أعمالهم هل تبعوني إِخلاصاً أو طمعاً؟ قال القرطبي: كأنهم قالوا: إِنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال، فقال في جوابهم: إِني لم أقف على باطن أمرهم، وإِنما إِليَّ ظاهرهم(٣) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي ما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله فإنه المطلع على السرائر والضمائر لو تعلمون ذلك ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني، ولا طاردهم من مجلسي، قال أبو حيان: وهذا مشعرٌ بأنهم طلبوا منه ذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من معه من الضعفاء(٤) ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما أنا إلا نذير لكم من عذاب الله، أخوفكم بأسه وسطوته على الذين لا يؤمنون سواء كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي لئن لم تكف عن دعوى الرسالة وتقبيح ما نحن عليه لتكونَنَّ من المرجومين بالحجارة، خوفوه بالقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح من فلاحهم فدعا عليهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ أي قال نوح: يا رب إن قومي كذبوني ولم يؤمنوا بي ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما تشاء، واقض بيننا بحكمك العادل ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنقذني والمؤمنين معي من مكرهم وكيدهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي فأنجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالرجال والنساء والحيوان ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي لعبرة عظيمة لمن تفكر وتدبر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي وما أكثر الناس بمؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

---

(١) الكشاف ٣/١٢٥.
(٢) البيضاوي ٢/١٢٦.
(٣) القرطبي ١٣/١١٩.
(٤) البحر ٧/٣٢.

﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي وإِن ربك يا محمد لهو الغالب الذي لا يُقهر، الرحيم بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة. ثم شرع تعالى في ذكر قصة «هود» فقال ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذبت قبيلة عاد رسولهم هودًا، ومن كذّب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم لغيره؟! ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي أمينٌ على الوحي ناصح لكم في الدين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فخافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا أطلب منكم على تبليغ الدعوة شيئًا من المال إنما أطلب أجري من الله، كررت الآيات للتنبيه إلى أن دعوة الرسل واحدة ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ ؟ استفهام إنكاري أي أتبنون بكل موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخًا كالعَلَم لمجرد اللهو والعبث؟ قال ابن كثير: الرِّيع المكان المرتفع كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بناءً محكمًا هائلاً باهرًا لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك لأنه تضييعٌ للزمان، وإتعابٌ للأبدان، واشتغالٌ بما لا يُجدي في الدنيا ولا في الآخرة[1] ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي وتتخذون قصورًا مشيّدة محكمة ترجون الخلود في الدنيا؛ أفلا تموتون؟ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي وإذا اعتديتم على أحد فعلتم فعل الجبارين من البطش دون رأفة أو رحمة، وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صادر عن ظلم عادة الجبابرة المتسلطين، قال المفسر: وصفهم بثلاثة أمور: اتخاذ الأبنية العالية وهو يدل على السرف وحب العلو، واتخاذ المصانع - القصور المشيدة والحصون - وهو يدل على حب البقاء والخلود، والجبارية وهي تدل على حب التفرد بالعلو، وكلُّ ذلك يشير على أن حبَّ الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حد العبودية، وحاموا حول دعاء الربوبية، وحبُّ الدنيا رأس كل خطيئة[2] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمري، ثم شرع يذكرهم نعم الله، فقال ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أنعم عليكم بأنواع النعم والخيرات ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي أعطاكم أصول الخيرات من المواشي، والبنين، والبساتين، والأنهار، والذي منحكم النعم فهو الذي يجب أن يُعبد ويُشكر ولا يُكفر ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي أخشى عليكم إن لم تشكروا هذه النعم وأشركتم وكفرتم عذاب يوم هائل تشيب لهوله الولدان.. دعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، وبلغ في دعائهم بالوعظ والتخويف النهاية القصوى في البيان فكان جوابهم ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي يستوي عندنا تذكيرك لنا وعدمه، فلا نبالي بما تقول، ولا نرعوي عما نحن عليه، قال أبو حيان: جعلوا قوله وعظًا على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوّفهم به إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به، وأنه كاذبٌ فيما ادعاه[3] ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب وخرافات

---

(١) ابن كثير (٢/ ٦٦٣) المختصر.
(٢) التفسير الكبير بشيء من الاختصار (٢٤/ ١٥٧)
(٣) البحر (٧/ ٣٣)

لك"(١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فاتقوا عقاب الله وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي ولا تطيعوا أمر الكبراء المجرمين ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي الذين دأبهم الفساد في الأرض لا الإصلاح، قال الطبري: وهم الرهط التسعة الذين وصفهم الله بقوله ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(٢) ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من المسحورين سُحرت حتى غُلب على عقلك قال المفسرون: والمُسَحَّر مبالغة من المسحور ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي لست يا صالح إلا رجلاً مثلنا، فكيف تزعم أنك رسول الله؟! ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فائتنا بمعجزة تدل على صدقك ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ أي هذه معجزتي إليكم وهي الناقة التي تخرج من الصخر الأصم بقدرة الله، قال المفسرون: روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عُشَراء - حاملاً - تخرج من صخرة معينة وتلد أمامهم، فقعد صالح عليه السلام يتفكر فجاءه جبريل فقال: صلِّ ركعتين وسل ربك الناقة ففعل، فخرجت الناقة وولدت أمامهم وبركت بين أيديهم فقال لهم هذه ناقة يا قوم(٣) ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي تشرب ماءكم يوماً، ويوماً تشربون أنتم الماء، قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وشربهم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه، وتلك آية أخرى ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ أي لا تنالوها بأي ضرر بالعقر أو بالضرب ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد يوصف قال ابن كثير: حذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، ترد الماء وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورِيّاً، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالؤوا على قتلها وعقرها(٤) ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ أي فقتلوها ضرباً بالسهام، رماها أشقاهم - قدار بن سالف - بأمرهم ورضاهم فأصبحوا نادمين على قتلها خوف العذاب، قال المفسر: لم يكن ندمهم ندم التائبين، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل(٥) ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي العذاب الموعود، وكان صيحة خمدت لها أبدانهم، وانشقت لها قلوبهم، وزُلزلت الأرض تحتهم زلزالاً شديداً، وصُبّت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي لعظة وعبرة لمن عقل وتدبر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيرها فيما سبق، ثم شرع تعالى في ذكر قصة لوط فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذبوا رسولهم لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون عقاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره! ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نفس الكلمات والألفاظ التي قالها من قبلُ صالحٌ، وهودٌ، ونوح مما يؤكد أن دعوة الرسل واحدة، وغايتهم واحدة، وأن منشأها هو

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/١٧٩). (٢) الطبري (١٩/٦٣).
(٣) انظر حاشية زادة على البيضاوي (٣/١٧٧). (٤) مختصر ابن كثير (٢/٦٥٦).
(٥) تفسير الرازي (٢٤/١٦٠).

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ .. إلى .. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ من آية (١٩٢) إلى آية (٢٢٧) نهاية السورة الكريمة

المناسبة: لما ذكر تعالى قصص الأنبياء لرسوله ﷺ أتبعه بذكر ما يدل على نبوته من تنزيل هذا القرآن المعجز على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين.

اللغة: ﴿زُبُرِ﴾ الزبر: الكتب جمع زبور كرسول ورسل ﴿الْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجمي وهو الذي لا يفصح العربية، يقال: رجل أعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً، ورجل عجمي أي غير عربي وإن كان فصيح اللسان ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿مُنظَرُونَ﴾ مؤخرون وممهلون يقال: أنظره أي أمهله ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿مُنقَلَبٍ﴾ مصير.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

التفسير: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن المعجز لتنزيل رب الأرباب ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ أي نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي أنزله على قلبك يا محمد لتحفظه وتنذر بآياته المكذبين ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي بلسان عربي فصيح هو لسان قريش، لئلا يبقى لهم عذر فيقولوا: ما فائدة كلام لا نفهمه؟ قال ابن كثير: أنزلناه باللسان العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة[1] ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره لموجود في كتب الأنبياء السابقين ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي أولم يكن لكفار مكة علامة على صحة القرآن ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل الذين يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أي لو نزلنا هذا القرآن بلغة

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٥٩.

الرائق المعجز على بعض الأعجميين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي فقرأه على كفار مكة قراءة صحيحة فصيحة، وانضم إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، ما آمنوا بالقرآن لفرط عنادهم واستكبارهم(1) ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، فسمعوا به وفهموه، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وتحققوا من إعجازه ثم لم يؤمنوا به وجحدوه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي لا يصدّقون بالقرآن مع ظهور إعجازه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي حتى يشاهدوا عذاب الله المؤلم فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فيأتيهم عذاب الله فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي فيقولوا حين يفجأهم العذاب تحسرًا على ما فاتهم من الإيمان وتمنيًا للإمهال: هل نحن مؤخرون لنؤمن ونصدّق ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكار وتوبيخ أي كيف يستعجل العذاب هؤلاء المشركون ويقولون ﴿ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟ وحالهم عند نزول العذاب أنهم يطلبون الإمهال والنظرة؟! ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ أي أخبرني يا محمد إن متعناهم سنين طويلة، مع وفور الصحة ورغد العيش ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي ثم جاءهم العذاب الذي وُعدوا به ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾؟ أي ماذا ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معايشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف العذاب، أو دفع العذاب؟ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى، ولا أمة من الأمم ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم، لأنا أقمنا الحجة عليهم، وأعذرنا إليهم. ثم إنه تعالى بعد أن نبّه على إعجاز القرآن وصدق نبوة محمد عليه السلام ردَّ على قول من زعم من الكفار أن القرآن من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة، فقال ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ أي وما تنزّلت بهذا القرآن الشياطين، بل نزل به الروح الأمين ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وما يصح ولا يستقيم أن يتنزلوا بهذا القرآن الشياطين، ولا يستطيعون ذلك أصلاً ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي لأنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد عليه السلام، وحيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به؟ قال ابن كثير: ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه ما ينبغي لهم لأن سجاياهم الفساد، وإضلال العباد، وهذا فيه نور وهدى وبرهان عظيم، الثاني: أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، وهذا من حفظ الله لكتابه وتأييده لشرعه، الثالث: أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن، لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا، فلم يتمكن أحد من الشياطين لاستماع حرف

(1) قال في التسهيل: والمعنى: لو أنا نزلنا القرآن على من لا يتكلم، ثم قرأه عليهم، لم يؤمنوا لفرط عنادهم، ففي ذلك تسلية للنبي ﷺ مع وضوح برهانه. «التسهيل ٣/ ٩٠».

واحد منه لتلابست به الأمر[1] ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد غيره أي لا تعبد يا محمد مع الله معبوداً آخر ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ أي فيعذبك الله بنار جهنم قال ابن عباس: يُحذّر به غيره يقول: أنت أكرم الخلق عليَّ، ولو اتخذت من دوني إلهاً لعذبتك[2]. ثم أمر تعالى رسوله بتبليغ الرسالة فقال ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أي خوّف أقاربك الأقرب منهم فالأقرب من عذاب الله إن لم يؤمنوا، روي أنه ﷺ قام حين نزلت عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»[3] قال المفسرون: وإنما أمر رسول الله ﷺ بإنذار أقاربه أولاً لئلا يأخذ أحد به المحاباة واللطف معهم فإذا تشدّد على نفسه وعلى أقاربه كان قوله أنفع، وكلامه أنجع ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ألن جانبك وتواضع لأتباعك المؤمنين ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي فإن لم يتبعوك وخالفوا أمرك فتبرأ منهم ومن أعمالهم، قال أبو حيان: لما كان الإنذار يترتب عليه الطاعة أو العصيان جاء التقسيم عليهما فكأن المعنى: من اتبعك مؤمناً فتواضع له، ومن عصاك فتبرأ منهم ومن أعمالهم[4] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي فوّض جميع أمورك إلى الله العزيز الذي يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي يراك حين تكون وحدك تقوم من فراشك أو مجلسك، وقال ابن عباس: حين تقوم إلى الصلاة ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي ويرى تقلبك مع المصلين في الركوع والسجود والقيام[5]، والمعنى يراك وحدك ويراك في الجماعة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي إنه تعالى السميع لما تقوله، العليم بما تخفيه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾؟ أي قل يا محمد لكفار مكة: هل أخبركم على من تتنزل الشياطين؟ وهذا ردٌّ عليهم حين قالوا إنما يأتيه بالقرآن الشياطين ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي تتنزل على كل كذاب فاجر، مبالغ في الكذب والعدوان، لا على سيد ولد عدنان ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي تُلقي الشياطين ما استرقوه من السمع إلى أوليائهم الكهنة، وأكثرهم يكذبون فيما يوحون به إليهم، وفي الحديث (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها - أي يلقيها - في أذن وليه كقرقرة الدجاج، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة)[6] قال الزمخشري: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ هم الشياطين كانوا قبل أن يُحجبوا بالرجم يستمعون إلى الملأ الأعلى، فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم

---

(١) ابن كثير (٢/ ٦٦٠) بالاختصار. (٢) زاد المسير (٦/ ١٤٧).
(٣) أخرجه الشيخان. (٤) البحر (٧/ ٤٦).
(٥) وهذا اختيار ابن جرير الطبري وقيل المراد: تقلبك في أصلاب الآباء.
(٦) رواه البخاري.

٨- الطباق بين ﴿تقولون﴾ و﴿تفعلون﴾ وبين ﴿وانتصروا﴾ و﴿ظلموا﴾.

٩- الاستعارة التمثيلية البديعة ﴿في كل واد يهيمون﴾ مثّل لذهابهم عن سنن الهدى وبراعتهم في المديح والهجاء وبالتائه في الصحراء الذي هام على وجهه فهو لا يدري أين يسير، وهذا من ألطف الاستعارات، ومن أرشقها وأبدعها.

١٠- جناس الاشتقاق ﴿منقلب ينقلبون﴾.

١١- مراعاة الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه مثل ﴿يهيمون﴾ ﴿يفعلون﴾ ﴿يقولون ما لا يفعلون﴾ إلخ.

لطيفة: ذُكر أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين ۝ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ۝ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾(١) ثم يبكي وينشد:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم

تسرّ بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما سُرّ باللذات في النوم حالم

وتسعى إلى ما سوف تكره غبّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

تنبيه: الشعر باب من الكلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح، وإنما ذمّ تعالى الشعر لما فيه من المغالاة والإفراط في المديح أو الهجاء، ومجاوزة حدّ القصد فيه حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، ويبهتوا البريء، ويفسّقوا التقي، وربما رفعوا شخصًا إلى الأوج ثم إذا قصّر عليهم أنزلوه إلى الحضيض، وهذا مشاهد ملموس في أكثر الشعراء إلا من استثناهم الله عز وجل، والشاعر قد يمدح الشيء ويذمه بحلاوة لسانه وقوة بيانه، ومن ألطف ما سمعت من بعض شيوخي ما قاله بعض الشعراء في العسل:

تقول: هذا مجاج النحل تمدحه ... وإن تعب قلتَ: ذا قيء الزنابير

مدحًا وذمًّا وما جاوزت وصفهما ... سحر البيان يرى الظلماء كالنور

لطيفة: ذُكر أن الفرزدق أنشد أبياتًا عند سليمان بن عبد الملك وكان في ضمنها قوله في النساء العذارى:

فبتن كأنهن مصرّعات ... وبتّ أفضّ أغلاق الختام

فقال له سليمان: قد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قد درأ عني الحد بقوله ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ۝ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ۝﴾(٢) فعفا عنه.

تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء.

---

(١) الكشاف (٣/ ١٣١).

(٢) [illegible] (٣/ ١٣٢).

بين يدي السورة

* سورة النمل من السور المكية التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة «التوحيد، والرسالة، والبعث» وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية، ووضعت في المصحف متتالية وهي «الشعراء، والنمل، والقصص» ويكاد يكون منهاجها واحداً، في سلوك مسلك العظة والعبرة، عن طريق قصص الغابرين.

* تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم، معجزة محمد الكبرى، وحجته البالغة إلى يوم الدين، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم، ثم تحدثت عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض، وإسهاب في البعض، فذكرت بالإجمال قصة «موسى» وقصة «صالح» وقصة «لوط» وما نال أقوامهم من العذاب والنكال، بسبب إعراضهم عن دعوة الله، وتكذيبهم لرسله الكرام.

* وتحدثت بالتفصيل عن قصة «داود» وولده «سليمان» وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة، وما خصهما به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة والمُلْك الواسع، ثم ذكرت قصة «سليمان مع بلقيس» ملكة سبأ.

* وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان، والعظماء والملوك، فقد اتخذ سليمان المَلِك وسيلة للدعوة إلى الله، فلم يترك حاكماً جائراً ولا ملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله، وهكذا كان شأنه مع «بلقيس» حتى تركت عبادة الأوثان، وأتت مع جندها خاضعة مسلمة، مستجيبةً لدعوة الرحمن.

* وتناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته، من آثار مخلوقاته وبدائع صنعه، وساقت بعض الأهوال والمشاهد الرهيبة، التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر، حيث يفزعون ويرهبون، وينقسمون إلى قسمين: السعداء الأبرار، والذين يكبون على وجوههم في النار.

التسمية: سميت سورة النمل، لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة، التي وعظت بني جنسها وذكرت ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده، ففهم نبيُّ الله كلامها وتبسم من قولها، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان، وأن ذلك من إلهام الواحد الديان.

اللغة: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتحيرون، والعَمَه: التحير والتردُّد كما هو حال الضال عن الطريق قال الراجز «أعمى الهُدى بالجاهلين العُمَّه» ﴿بِقَبَسٍ﴾ القَبَس: النار المقتبسة من جمر وغيره ﴿تَصْطَلُونَ﴾ اصطلى بمعنى: إذا استدفأ من البرد، قال الشاعر

الصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بخشوعها، وآدابها وأركانها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ أي يدفعون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يصدّقون بالآخرة تصديقًا جازمًا لا يخالطه شك أو ارتياب. قال الإمام الفخر: والجملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق[1]. وقال أبو حيان: ولما كان ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ مما يتجدد ولا يستغرق الأزمان جاءت الصلة فعلًا، ولما كان الإيمان بالآخرة مما هو ثابت ومستقر جاءت الجملة اسمية وأُكدت بتكرار الضمير ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلًا ليدل على الديمومة[2] ولما ذكر تعالى المؤمنين الموقنين بالبعث، ذكر بعدها المنكرين المكذبين بالآخرة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدّقون بالبعث ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي زينا لهم أعمالهم القبيحة حتى رأوها حسنة. قال الرازي: والمراد من التزيين هو أن يخلق في قلبه العلم بما فيها من المنافع واللذات، ولا يخلق في قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات[3] ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون حيارى لا يميزون بين الحسن والقبيح ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي لهم أشد العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والتشريد ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ أي وخسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ أي وإنك يا محمد لتتلقى هذا القرآن العظيم وتُعطاه ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي من عند الله الحكيم بتدبير خلقه، العليم بما فيه صلاحهم وسعادتهم. قال الزمخشري: وهذه الآية بسطٌ وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه[4] ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لأهله أي زوجته: إني أبصرتُ ورأيتُ نارًا. قال المفسرون: وهذا عندما سار من مدين إلى مصر، وكان في ليلة مظلمة باردة، وقد ضلَّ عن الطريق وأخذ زوجته الطَّلْق ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي سآتيكم بخبر عن الطريق إذا وصلت إليها ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي أو آتيكم بشعلة مقتبسة من النار ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي لكي تستدفئوا بها ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار رأى منظرًا هائلًا عظيمًا، حيث رأى النار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقدًا ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء، قال ابن عباس: لم تكن نارًا وإنما كانت نورًا يتوهج[5] فوقف موسى متعجبًا مما رأى وجاءه النداء العلوي ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي نودي من جانب الطور بأن بوركتَ يا موسى

(١) التفسير الكبير (٢٤/١٧٨) (٢) البحر (٧/٥٣).
(٣) التفسير الكبير (٢٤/١٧٩) (٤) الكشاف (٣/٢٧٤)
(٥) ابن كثير (٢/٦٦٣) المختصر

وبورك من حولها وهم الملائكة، قال ابن عباس: معنى ﴿بُورِكَ﴾ تقدّس ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكةُ، قال أبو حيان: وبدؤه بالنداء تبشيرٌ لموسى وتأنيسٌ له ومقدمةٌ لمناجاته، وجديرٌ أن يبارَك من في النار ومن حواليها إذ قد حدث أمرٌ عظيم، وهو تكليم الله لموسى وتنبيئه[1] ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي تقدّس وتنزّه ربُّ العزة، العليُّ الشأن، الذي لا يشبهه شيء من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي أنا الله القويُّ القادر، العزيز الذي لا يُقهر، الحكيم الذي يفعل كل شيء بحكمة وتدبير ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على السابق أي ونودي أن ألقِ عصاك ترى معجزتك بنفسك فتأنس بها ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي فلما رآها تتحرك حركة سريعة كأنها ثعبان خفيف سريع الجري ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولّى الأدبار منهزمًا ولم يرجع لما دهاه من الخوف والفزع، قال مجاهد: «لم يُعقّب» لم يرجع، وقال قتادة: لم يلتفت، لحقه ما لحق طبع البشر، إذ رأى أمرًا هائلاً جدًا وهو انقلاب العصا حية تسعى ولهذا ناداه ربه ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي أقبل ولا تخف، لأنك بحضرتي ومن كان فيها فهو آمنٌ ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي فأنت رسولي ورسلي الذين اصطفيتهم للنبوة لا يخافون غيري، قال ابن الجوزي: نبّهه على أن من آمنه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حية[2] ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ الاستثناء منقطع أي لكن من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين فإنه يخاف إلا إذا تاب وبدّل عمله السيئ إلى العمل الحسن، ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة، قال ابن كثير: وفيه بشارة عظيمة للبشر وذلك أن من كان على عمل سيئ، ثم أقلع ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه كقوله ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[3] ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ هذه معجزة أخرى لموسى تدل على باهر قدرة الله، والمعنى: أدخل يا موسى يدك في فتحة ثوبك ثم أخرجها تخرج مضيئة ساطعة بيضاء تتلألأ كالبرق الخاطف دون مرض أو برص ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ أي هاتان المعجزتان (العصا واليد) ضمن تسع معجزات أيدتك بها وجعلتُها برهانًا على صدقك لتذهب بها إلى فرعون وقومه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعتنا، ممعنين في الكفر والضلال ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة، واضحةً بيّنةً ظاهرة ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أنكروها، وزعموا أنها سحرٌ واضح ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أي كفروا وكذبوا بتلك الخوارق ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي وقد أيقنوا بقلوبهم أنها من عند الله وليست من قبيل السحر ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي جحدوا بها ظلمًا من أنفسهم، واستكبارًا عن اتباع الحق، وأيُّ ظلم أفحش ممن يعتقد ويستيقن أنها آيات بيّنة واضحة جاءت من عند الله، ثم يكابر بتسميتها سحرًا؟! ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٦). (٢) زاد المسير (٦/ ١٥٦).
(٣) مختصر ابن كثير (٢/ ٦٦٧).

والبصيرة ماذا كان مآل أمر الطاغين، من الإغراق في الدنيا، والإحراق في الآخرة؟ قال ابن كثير: وفحوى الخطاب كأنه يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم مثل ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى، فإن محمدًا ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدلّ وأقوى من برهان موسى، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم (١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ هذه هي القصة الثانية في السورة الكريمة وهي قصة «داود وسليمان» والمعنى: والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علمًا واسعًا من علوم الدنيا والدين، وجمعنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة. قال القرطبي: وذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه (٢) ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وقالا شكرًا لله الحمد لله الذي خصنا بما آتانا من النبوة، والعلم، وتسخير الإنس والجن والشياطين، على كثير من عباده المؤمنين ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ أي ورث سليمان أباه في النبوة، والعلم، والملك دون سائر أولاده، قال الكلبي: كان لداود تسعة عشر ولدًا فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء (٣) ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي وقال تحدثًا بنعمة الله: يا أيها الناس لقد كرمنا الله فعلمنا منطق الطير وأصوات جميع الحيوانات ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وأعطانا الله من كل شيء من خيرات الدنيا يعطاها العظماء والملوك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي إن ما أعطيناه وما خصنا الله به من أنواع النعم لهو الفضل الواضح الجلي، قاله على سبيل الشكر والمحمدة لا على سبيل الفخر والكبرياء ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ أي جمعت له جيوشه وعساكره وأحضرت له في مسيرة كبيرة فيها طوائف الجن والإنس والطير، يتقدمهم سليمان في أبهة وعظمة كبيرة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي فهم يكفّون ويمنعون عن التقدم بين يديه، قال ابن عباس: جعل على كل صنف من يرد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك (٤) ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى واد بالشام كثير النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ أي قالت إحدى النملات لرفيقاتها ادخلوا بيوتكم، خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ أي لا يكسرنكم سليمان وجيوشه بأقدامهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم ولا يريدون حطمكم عن عمد فقد ثم اعتذرت، لأنها علمت أنه نبيٌّ رحيم، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ أي فتبسم سرورًا بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، فإن قولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ أي ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليّ وعلى أبويّ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي ووفقني لعمل

---

(١) مختصر ابن كثير (٢/ ٦٦٧).

(٢) القرطبي (١٣/ ١٦٤).

(٣) الطبري (١٩/ ٨٧).

(٤) الطبري (١٩/ ٨٨).

الخير الذي يقربني منك والذي تحبه وترضاه ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿تلك آيات القرآن﴾ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف.

٢- التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وكتاب مبين﴾ أي كتاب عظيم الشأن رفيع القدر.

٣- ذكر المصدر بدل اسم الفاعل للمبالغة ﴿هدى وبشرى﴾ أي هادياً ومبشراً.

٤- تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ ومثله ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ وفيه المقابلة اللطيفة بين الجملتين.

٥- التأكيد بإنّ واللام ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾ لوجود المتشككين في القرآن.

٦- إيجاز الحذف ﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز﴾ حذفت جملة فألقاها فانقلبت إلى حية إلخ، وذلك لدلالة السياق عليه.

٧- الطباق ﴿[illegible]﴾ وبين ﴿ولّى مدبراً ... ولم يعقّب﴾

٨- الاستعارة ﴿آياتنا مبصرة﴾ استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان، لأن بالعين يبصر الإنسان الأشياء.

٩- التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنها جانّ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فصار مرسلاً مجملاً.

١٠- حسن الاعتذار ﴿وهم لا يشعرون﴾

لطيفة: قال بعض العلماء هذه الآية ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ من عجائب القرآن لأنها بلفظة «يا» نادت، «أيها» نبهت، «النمل» عيّنت، «ادخلوا» أمرت، «مساكنكم» نصّت، «لا يحطمنكم» حذّرت، «سليمان» خصّت، «وجنوده» عمّت، «وهم لا يشعرون» اعتذرت، فيا لها من نملة ذكية!

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد ... إلى ... وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٤).

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن سليمان بن داود الذي جمع الله له بين النبوة والملك فكان نبياً ملكاً، وسخر له الإنس والجن وعلمه منطق الطير، وتذكر الآيات هنا قصته مع بلقيس ملكة سبأ وما كان من الأمور العجيبة التي حدثت في زمانه.

اللغة: ﴿وتفقد﴾ التفقد: طلب ما غاب عن الإنسان ﴿الخبء﴾: الشيء المخبوء من خبأت الشيء أخبؤه خبأ إذا سترته ﴿صاغرين﴾ أذلاء مهانون من الصَّغار وهو الذل ﴿عفريت﴾ العفريت:

تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي اطلعت على ما لم تطّلع عليه وعرفت ما لم تعرفه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي وأتيتك من مدينة سبأ - باليمن - بخبرٍ هامٍ، وأمر صادقٍ خطير ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي من عجائب ما رأيت أن امرأة - تسمى بلقيس - هي ملكة لهم، وهم يدينون بالطاعة لها[1] ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من أسباب الدنيا من سعة المال وكثرة الرجال ووفرة السلاح والعتاد ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولها سرير كبير مكلّل بالدر والياقوت قال قتادة: كان عرشُها من ذهب، قوائمهُ من جوهر، مكلّل باللؤلؤ، قال الطبري: وعنى بالعظيم في هذا الموضع العظيم في قدره وخطره، لا عظمه في الكبر والسعة، ولهذا قال ابن عباس: ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي سرير كريم حسن الصنعة، وعرشُها سرير من ذهب قوائمهُ من جوهر ولؤلؤ[2]، ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وجدتهم جميعًا مجوسًا يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي حسَّن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي منعهم بسببه هذا الضلال عن طريق الحق والصواب ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد متعجبًا ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أيسجدون للشمس ولا يسجدون لله العالي العظيم: الذي يعلم الخفايا ويعلم كل مخبوء في العالم العلوي والسفلي[3]؟ قال ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي ويعلم السرّ والعلن، ما ظهر وما بطن ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، ربُّ العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود، وخصّ العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات، وإلى هنا انتهى كلام الهُدهد، ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي قال سليمان: سنفكر في قولك ونتثبت هل أنت صادق أم كاذب فيه؟ قال ابن الجوزي: وإنما شكَّ في خبره؛ لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان، ثم كتب كتابًا وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد وقال: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي اذهب بهذا الكتاب وأوصله إلى ملكة سبأ وجندها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنحّ إلى مكان قريب مستترًا عنهم ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي فانتظر ماذا يردون من الجواب؟ قال المفسرون: أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها فرفرف فوق رأسها ثم ألقى الكتاب

---

(1) يرجع للصحيح: أن الملوك عادة من الرجال وأن النساء لا يصلحن لإمارة الممالك ويؤيده حديث «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» فهذا هو منطق الفطرة.

(2) الطبري (19/ 96).

(3) هذا ما تقدم هو ذهبي من معنى الآية الكريمة، ولعله هو الأقرب إلى فهم روح النص القرآني فإن المجال مجال تعجب وإنكار لا مجال حديث وإخبار، فما ذهب إليه بعض المفسرين من أن «ألا» زائدة، وأن المعنى لهم لا يهتدون أن يسجدوا لله أو أن المعنى ألا يا هؤلاء فاسجدوا... إلخ غير ظاهر والله أعلم.

في حجرها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ أي قالت لأشراف قومها: إنه أتاني كتاب عظيم جليل ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أي إن هذا الكتاب مرسل من سليمان ثم فتحته فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم وهو استفتاح شريف بارع فيه إعلان الربوبية لله ثم الدعوة إلى توحيد الله والانقياد لأمره ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي لا تتكبروا عليَّ كما يفعل الملوك وجيئوني مؤمنين قال ابن عباس: أي موحدين، وقال سفيان: طائعين ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي أشيروا علي في الأمر ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي ما كنت لأقضي أمرًا بدون حضوركم ومشورتكم ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي نحن أصحاب كثرة في الرجال والعتاد، وأصحاب شدة في الحرب ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؟ أي وأمرنا إليك فمرينا بما شئت نمتثل أمرك، وقولهم هذا دليلٌ على الطاعة المفرطة، قال القرطبي: أخذت في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها في كل ما يعرض لها، فراجعها الملأ بما يُقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع[1] قال الحسن البصري: فوّضوا أمرهم إلى علجة يضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم منهم رأيًا وأعلم[2] ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي إن عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدة عنوة وقهرًا خربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي أهانوا أشرافها وأذلوهم بالقتل والأسر والتشريد ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي وهذه عادتهم وطريقتهم في كل بلدٍ يدخلونها قهرًا، ثم عدلت إلى المهادنة والمسالمة فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي وإني سأبعث إليه بهدية عظيمة تليق بمثله، فأنظر هل يقبلها أم يردُّها! قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها!! علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس، وقال ابن عباس: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبيٌّ صادق فاتبعوه[3] ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؟ أي فلما جاء رسل بلقيس إلى سليمان بالهدية العظيمة قال منكرًا عليهم: أتصانعونني بالمال والهدايا لأترككم على كفركم وملككم؟ ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ أي فما أعطاني الله من النبوة والملك الواسع خيرٌ مما أعطاكم من زينة الحياة فلا حاجة لي بهديتكم ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي أنتم تفرحون بالهدايا، لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا، ثم قال لرئيس الوفد: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي ارجع إليهم بهديتهم فوالله لنأتينهم بجنودٍ لا طاقة لهم بمقابلتها، ولا قدرة لهم على مقاتلتها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي ولنخرجنهم من أرضهم ومملكتهم أذلاء حقيرين إن لم يأتوني مسلمين! قال ابن عباس: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت: قد عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي

---

(١) القرطبي ١٣/ ١٩٤.
(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٦٦).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٧١).

حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك، ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد(١) ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي قال سليمان لأشراف من حضره من جنده: أيكم يأتيني بسريرها المرصّع بالجواهر قبل أن تصل إليّ مع قومها مسلمين؟ قال البيضاوي: أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوى النبوة، ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره(٢)؟ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي قال مارد من مردة الجن: أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس الحكم – وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم – وغرضه أنه يأتيه به في أقل من نصف نهار ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي وإني على حمله لقادر، وأمين على ما فيه من الجواهر والدرر وغير ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال المفسرون: هو آصف بن برخيا كان من الصدّيقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وهو الذي أتى بعرش بلقيس وقال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك أي آتيك به بلمح البصر فدعا الله فحضر العرش حالاً ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي فلما نظر سليمان ورأى العرش حاضراً لديه قال: هذا من فضل الله عليّ وإحسانه إليّ ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي ليختبرني أأشكر إنعامه، أم أجحد فضله وإحسانه ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن شكر فمنفعة الشكر لنفسه، لأنه يستزيد من فضل الله ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي ومن لم يشكر وجحد فضل الله فإن الله مستغنٍ عنه وعن شكره، كريمٌ بالإنعام على من كفر نعمته. ولما قرب وصول ملكة سبأ إلى بلاده أمر بأن تُغيَّر بعض معالم عرشها امتحاناً لها ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي غيّروا بعض أوصافه وهيئته كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي لننظر إذا رأته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ أي أمثل هذا العرش الذي رأيته عرشك؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي يشبهه ويقاربه ولم تقل: نعم هو، ولا ليس هو. قال ابن كثير: وهذا غاية في الذكاء والحزم(٣) ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هذا من قول سليمان أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها، فنحن أسبق منها علماً وإسلاماً ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي منعها عن الإيمان بالله عبادتها القديمة للشمس والقمر ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي بسبب كفرها، ونشوئها بين قوم مشركين ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ أي ادخلي القصر العظيم الفخم ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ أي فلما رأت أرض الصرح الشفاف ظنته لجة ماء – أي ماءً غمراً كثيراً – وكشفت عن ساقيها لتخوض

(١) حاشية زاده على البيضاوي (٣/ ٤٩٣). (٢) البيضاوي (٢/ ٨٤).
(٣) ابن كثير (٣/ ٦٦٣).

فيه ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ أي قال سليمان: إنه قصر مملَّس من الزجاج الصافي ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي قالت بلقيس حينئذٍ: ربِّ إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وتابعت سليمان على دينه فدخلت في الإسلام مؤمنةً برب العالمين، قال ابن كثير: والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبيٌّ كريم، وملِكٌ عظيم، وأسلمت لله عز وجل[1].

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - أسلوب التعجب ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾.

٢ - التأكيد المكرر (لأعذبنه .. أو لأذبحنه .. أو ليأتيني) لتأكيد الأمر.

٣ - طباق السلب ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ وكذلك ﴿أَتَهْتَدِي﴾ و ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٤ - الجناس اللطيف ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص لتبدل بعض الحروف[2].

٥ - الطباق في اللفظ (تخفون .. وتعلنون) وكذلك ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

٦ - الطباق في المعنى ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

قال علماء البيان: والمطابقة هنا بالمعنى أبلغ من اللفظ لأنه عادل عن الفعل إلى الاسم فيفيد المبالغة فلو قال: «أصدقت أم كذبت» لما أدى هذا المعنى لأنه قد يكذب في الأمر ولا يكذب في غيره، وأما قوله ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فإنه يفيد أنه إذا كان معروفًا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذبًا لا محالة فلا يوثق به أبدًا.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿[illegible]﴾ وكذلك «أسلمت مع سليمان».

٨ - التشبيه ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي كأنه عرشي في الشكل والوصف، ويسمى «مرسلاً مجملاً».

٩ - الاستعارة البديعية ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ شبّه سرعة مجيئه بالعرش برجوع الطرف للإنسان، وارتداد الطرف معناه: انطباق الجفنين وهو أسرع ما يمكن أن يوصف به في السرعة ومثله ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ فاستعار للسرعة الفائقة ارتداد الطرف[3].

١٠ - توافق الفواصل في كثير من الآيات، ومما وقع في النفس رائعًا مثل ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إلى آخر ما هنالك.

---

(١) مختصر ابن كثير (٢/٦٧٤).

(٢) قال صاحب الكشاف: وهذا من محاسن الكلام بشرط أن يجيء مطبوعًا غير متكلف أو يصنعه عالم بجوهر الكلام، ولقد حسن في الآية وبدع لفظًا ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان «بنبأ» لفظة «بخبر» لكان المعنى صحيحًا ولكن بعدت عما فيه من الزيادة في معناه من المعاني التي يطابقها وصف الحال.

(٣) انظر تلخيص البيان ص ٢٦١.

لطيفة: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية، وكذلك تفقد الأصدقاء والإخوان والخلان، وأنشد بعضهم:

سَنَّ سُلَيْمَانُ لَنَا سُنَّةً ... وَكَانَ فِيمَا سَنَّهُ مُقْتَدِي
تَفَقَّدَ الطَّيْرَ عَلَى مُلْكِهِ ... فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ!

□□□

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. إلى .. بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٦٦).

المناسبة: لما ذكر تعالى في أول السورة قصة موسى، ثم أعقبها بقصة داود وسليمان وما فيها من العجائب والغرائب، ذكر هنا قصة صالح ثم قصة لوط، وكل هذه القصص عرضها للتذكير والاعتبار، وبيان سنة الله في إهلاك المكذبين، ثم أتبعها بذكر البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة.

اللغة: ﴿اطَّيَّرْنَا﴾ من التطير وهو التشاؤم، قال الزجاج: أصلها تطيرنا فأدغمت التاء في الطاء واجتلبت الألف لسكون الطاء ﴿خَاوِيَةً﴾ خالية من خوى البطن إذا خلا، وخوى النجم إذا سقط ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿حَدَائِقَ﴾ جمع حديقة وهي البستان الذي عليه سور، قال الفراء: الحديقة: البستان الذي عليه حائط، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان[1] ﴿قَرَارًا﴾ مستقرًا يثبت عليه الشيء ﴿حَاجِزًا﴾ الحاجز: الفاصل بين الشيئين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا

(١) القرطبي ١٣/٢٢١.

وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ۝ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ۝ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ۝ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ۝ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ۝ بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ۝﴾

التفسير: ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم -في النسب لا في الدين- صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ أي فإذا هم جماعتان: مؤمنون وكافرون يتنازعون في شأن الدين، قال مجاهد: الفريقان: مؤمن وكافر، واختصامهم اختلافهم وجدالهم في الدين، وجاء الفعل بالجمع ﴿يختصمون﴾ حملاً على المعنى ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي قال لهم صالح بطريق التلطف والرفق: يا قوم لم تطلبون العذاب قبل الرحمة؟ ولأي شيء تستعجلون بالعذاب ولا تطلبون الرحمة؟ ﴿لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون﴾ أي هلا ترجعون إلى الله من الشرك لكي يتوب الله عليكم ويرحمكم؟ قال المفسرون: كان الكفار يقولون لفرط الإنكار: يا صالح ائتنا بعذاب الله، فقال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر!! ﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾ أي تشاءمنا بك يا صالح وبأتباعك المؤمنين فرتكم سبب ما حلّ بنا من بلاء، وكانوا قد أصابهم القحط وجاعوا ﴿قال طائركم عند الله﴾ أي حظكم في الحقيقة من خير أو شر هو عند الله وبقضائه، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم، لكن لما صابهم في الخطاب تغاظا الله في الجواب وقالوا: تشاءمنا بك وبمن معك، فأخبرهم أن شؤمهم بسبب عملهم لا بسبب صالح والمؤمنين ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ أي بل الحقيقة أنكم جماعة يفتنكم الشيطان بوسوسته وإغوائه ولذلك تقولون ما تقولون ﴿وكان في المدينة تسعة رهط﴾ أي وكان في مدينة صالح -وهي الحِجر- تسعة رجال من أبناء أشرافهم، قال المفسرون: كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ﴿يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي شأنهم الإفساد وبيئة التمرد بكل طريق ووسيلة، قال ابن عباس: وهم الذين عقروا الناقة ﴿قالوا تقاسموا بالله﴾ أي قال بعضهم لبعض: احلفوا بالله ﴿لنبيتنه وأهله﴾ أي لنقتلن صالحاً وأهله ليلاً ﴿ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله﴾ أي ثم نقول لولي دمه: ما حضرنا مكان هلاكه ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله ﴿وإنا لصادقون﴾ أي ونحلف لهم إنا لصادقون، قال ابن عباس: أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم[1] قال تعالى ﴿ومكروا مكرا﴾ أي

---

(١) زاد المسير (٦/ ١٨٢).

دبَّروا مكيدة لقتل صالح ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، سمَّاه مكرًا بطريق المشاكلة[1] ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من حيث لا يدرون ولا يعلمون، قال أبو حيان ومكرُهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله، ومكرُ الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون[2] ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي فتأمل وتفكر في عاقبة أمرهم ونتيجة كيدهم، كيف أنَّا أهلكناهم أجمعين وكان مآلهم الخراب والدمار! ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي فتلك مساكنهم ودورهم خاليةً بسبب ظلمهم وكفرهم لأن أهلها هلكوا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي إن في هذا التدمير العجيب لعبرة عظيمة لقوم يعلمون قدرة الله فيتعظون ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي وأنجينا من العذاب المؤمنين المتقين الذين آمنوا مع صالح ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكر رسولنا لوطًا حين قال لقومه أهل سدوم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي أتفعلون الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواطة ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون علمًا يقينًا أنها فاحشة وأنها عملٌ قبيح؟! ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ تكريرٌ للتوبيخ أي أئنكم أيها القوم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتتركون النساء؟ ويكتفي الرجال بالرجال بطريق الفاحشة القبيحة ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون ولذلك تفعلون الفعل الشنيع على ما أباح الله لكم من النساء ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي فما كان جواب أولئك المجرمين إلا أن قالوا: أخرجوا لوطًا وأهله من بلدتكم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي إنهم قوم يتنزهون عن القاذورات ويعدّون فعلنا قذرًا، وهو تعليلٌ لوجوب الطرد والإخراج، قال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء، وقال ابن عباس: هو استهزاء يستهزئون بهم بأنهم يتطهرون من أدبار الرجال[3] ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ أي فخلصناه هو وأهله من العذاب الواقع بالقوم إلا زوجته ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي جعلناها بقضائنا وتقديرنا من المهلكين، الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر فأهلكتهم ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي بئس هذا العذاب الذي أمطروا به وهو الحجارة من سجيل منضود. ولما ذكر تعالى قصص الأنبياء أتبعه بذكر دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ أي قل يا محمد: الحمدُ لله على إفضاله وإنعامه، وسلامٌ على عباده المرسلين الذين اصطفاهم لرسالته، واختارهم لتبليغ دعوته، قال الزمخشري: أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الدالة على وحدانيته، الناطقة بالبراهين على قدرته وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه، وفيه تعليمٌ حسن، وتوقيفٌ على أدب جميل، وهو حمد الله والصلاة على رسله، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرًا عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله وصلّوا

---

(1) المشاكلة هي الاتفاق في اللفظ والمعنى. (2) البحر ٧/٨٥.
(3) القرطبي ١٣/٢١٩.

على رسوله أمام كل علم، وقبل كل عظة وتذكرة[1] ﴿آلله خير أما يشركون﴾ تبكيت للمشركين وتهكم بهم أي هل الخالق المبدع الحكيم خيرٌ أم الأصنام التي عبدوها وهي لا تسمع ولا تستجيب؟ ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ برهانٌ آخر على وحدانية الله أي أمّن أبدع الكائنات فخلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها، وجعل فيها الكواكب المنيرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول، والأنهار والبحار، خيرٌ أمّا يشركون؟ ﴿وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾ أي وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب فأخرج به الحدائق والبساتين ذات الجمال والخضرة والنضرة، والمنظر الحسن البهيج ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ أي ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم، وليس بمقدورهم واستطاعتهم أن يُنبتوا شجرها فضلاً عن ثمرها ﴿أإله مع الله﴾ استفهام إنكار أي هل معه معبود سواه حتى تسوّوا بينهما وهو المتفرد بالخلق والتكوين؟ ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي بل هم قوم يشركون بالله فيجعلون له عديلاً ومثيلاً، ويسوّون بين الخالق الرازق والوثن ﴿أمن جعل الأرض قرارا﴾ برهان آخر أي جعل الأرض مستقرًا للإنسان والحيوان، بحيث يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها ﴿وجعل خلالها أنهارا﴾ أي وجعل في شعابها وأوديتها الأنهار العذبة الطيبة، تسير خلالها شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي وجعل جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بكم ﴿وجعل بين البحرين حاجزا﴾ أي وجعل بين المياه العذبة والمالحة فاصلاً ومانعًا يمنعها من الاختلاط، لئلا يُفسد ماءُ البحار المياه العذبة[2] ﴿أإله مع الله﴾ أي أمعَ الله معبودٌ سواه؟ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أكثر المشركين لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ برهانٌ ثالث أي أمّن يجيب المكروب المجهود الذي مسّه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه؟ ﴿ويكشف السوء﴾ أي ويكشف عنه الضُرَّ والبأساء؟ ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل، وأمةً بعد أمة ﴿أإله مع الله﴾؟ أي أإله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه؟ ﴿قليلا ما تذكرون﴾ أي ما أقل تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون!! ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ برهانٌ رابع أي أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس، في البراري، والقفار، والبحار؟ والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار؟ ﴿ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾؟ أي ومن الذي يسوق الرياح مبشرة بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟ ﴿أإله مع الله﴾؟ أي أإله مع الله يقدر على شيء من ذلك؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ أي تعظّم وتمجّد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ برهانٌ خامس أي أمّن يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده بعد فنائه؟ قال الزمخشري: كيف قال لهم ذلك وهم منكرون للإعادة؟ والجواب أنه قد أُزيحت علتهم

---

(١) الكشاف ٣/٢٩٥.

(٢) هذا قول الحسن واختاره ابن كثير وهو الأظهر وقيل: المراد بحر فارس والروم.

بالتمكين من المعرفة والإقرار، فلم يبق لهم عذرٌ في الإنكار[1] ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ومن ينزل عليكم من مطر السماء، ويُنبت لكم من بركات الأرض الزروع والثمار؟ قال أبو حيان: لما كان إيجاد بني آدم إنعامًا إليهم وإحسانًا عليهم، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي بالنبات[2] ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾؟ أي أإله مع الله يفعل ذلك؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين في أنَّ مع الله إلهًا آخر[3] ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي هو سبحانه وحده المختص بعلم الغيب، فلا يعلم أحدٌ من ملك أو بشر الغيب إلا اللهُ علاّمُ الغيوب، قال القرطبي: نزلت في المشركين حين سألوا النبي ﷺ عن قيام الساعة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؟ أي وما يدري ولا يشعر الخلائق متى يُبعثون بعد موتهم ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي هل تتابع وتلاحق علمُ المشركين بالآخرة وأحاطوا بها حتى يسألوا عن الساعة وقيامها؟ إنهم لا يصدقون بالآخرة فلماذا يسألون عن قيام الساعة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ إضراب عن السابق أي هم شاكون في الآخرة لا يصدقون بها ولذلك يماترون ويكابرون ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي بل هم في عمى عنها، ليس لهم بصيرة يدركون بها دلائل وقوعها لأن اشتغالهم باللذات النفسانية من شهوة البطن والفرج صيّرهم كالبهائم والأنعام لا يتدبرون ولا يبصرون. قال ابن كثير: هم شاكون في وقوعها ووجودها، بل هم في عماية وجهل كبير في أمرها.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿يُفْسِدُونَ ... وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

٢ - التحضيض ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي هلاّ تستغفرون الله.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿اطَّيَّرْنَا ... طَائِرُكُمْ﴾.

٤ - المشاكلة ﴿وَمَكَرُوا ... وَمَكَرْنَا﴾ سمّى تعالى إهلاكهم وتدميرهم مكرًا على سبيل المشاكلة.

٥ - الطباق ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؟

٦ - الاستفهام التوبيخي ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟!

٧ - أسلوب التبكيت والتهكم ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟!

---

(1) الكشاف ٣/٢٩٧. (2) البحر ٧/٩٠.

(3) قال في البحر: وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه، فلما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي وما امتنّ به من إنزال المطر ختمه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي يعدلون به غيره مما هو مخلوق، ولما ذكر جعل الأرض مستقرًا وتفجير الأنهار، وكان مما انبنى على الفكر والتعقل ختمه بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولما ذكر إجابة المضطر وكشف السوء ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ لأن الإنسان يبقى عليه النسيان عندما يزول عنه الاضطرار، ولما ذكر الهداية في الظلمات وإرسال الرياح مبشرات، ومعبوداتهم لا تهدي ولا تسمع وهم يشركون بها ختمه بقوله: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ البحر ٧/٩١.

٨ - الاستعارة اللطيفة ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي أمام نزول المطر فاستعار اليدين للأمام.

٩ - الطباق ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

١٠ - الاستعارة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ استعارة العمى للتعامي عن الحق وعدم التفكر والتدبر في آلاء الله.

١١ - مراعاة الفواصل مما يزيد في رونق الكلام وجماله، وله على السمع وقع خاص مثل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ ومثل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. وأمثاله كثير، وفي القرآن روائع بيانية يعجز عن التعبير عنها اللسان، فسبحان من خص نبيه الأمي بهذا الكتاب المعجز!!

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا .. إلى .. وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من آية (٦٧) إلى آية (٩٣) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، ذكر هنا شبهات المشركين في الإيمان بالآخرة والبعث والنشور، وأردفها بذكر الدلائل القاطعة، وذكر بعض الأهوال التي تكون بين يدي الساعة.

اللغة: ﴿رَدِفَ﴾ اقترب ودنا ﴿تُكِنُّ﴾ تسرُّ وتخفي ﴿دَاخِرِينَ﴾ ذليلين صاغرين ﴿فَوْجًا﴾ الفوج: الجماعة ﴿جَامِدَةً﴾ الجمود: سكون الشيء وعدم حركته ﴿أَتْقَنَ﴾ الإتقان: الإتيان بالشيء على أحسن حالاته من التمام والكمال والإحكام ﴿كُبَّتْ﴾ الكبُّ: الطرح والإلقاء يقال: كببتُ الرجل ألقيته على وجهه، وكببتُ الإناء قلبته.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ

مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ .

التفسير: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ أي قال مشركو مكة المنكرون للبعث: أإذا متنا وأصبحنا رفاتاً وعظاماً بالية، فهل سنخرج من قبورنا ونحيا مرة ثانية؟ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي لقد وُعدنا محمدٌ بالبعث كما وُعِد من قبله آباؤنا الأولين، فلو كان حقاً لحصل ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأباطيل السابقين! ينكرون البعث وينسون أنهم خُلقوا من العدم، وأن الذي خلقهم أولاً قادر على أن يعيدهم ثانياً! ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي قل لهؤلاء الكفار سيروا في أرجاء الأرض ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي فانظروا نظر اعتبار كيف كان مآل المكذبين للرسل؟ ألم يهلكهم الله ويدمّرهم؟ فما حدث للمجرمين من قبل، يحدث للمجرمين من بعد، والآيةُ وعيدٌ وتهديد ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ تسلية للرسول عليه السلام أي لا تحزن يا محمد ولا تأسف على هؤلاء المكذبين إنْ لم يؤمنوا، ولا يضقْ صدرك من مكرهم فإنَّ الله يعصمك منهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي يقولون استهزاءً: متى يجيئنا العذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي لعلَّ الذي تستعجلون به من العذاب قد دنا وقرب منكم بعضه، قال المفسرون: هو ما أصابهم من القتل والأسر يوم بدر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لذو إفضال وإنعام على الناس بترك تعجيل عقوبتهم على معاصيهم وكفرهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي ولكنَّ أكثرهم لا يعرفون حقَّ النعمة، ولا يشكرون ربهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وإنه تعالى ليعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول وكيدهم له وسيجازيهم عليه ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي ليس من شيء في غاية الخفاء على الناس والمغيبة عنهم إلا وقد علمه الله وأحاط به، وأثبته في اللوح المحفوظ عنده، فلا تخفى عليه سبحانه خافية، قال ابن عباس: معناه: ما من شيءٍ سرٍّ في السموات والأرض أو علانية إلا وعند الله علمه[1] ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد والنبوة، وكان القرآن من أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد وصدق ما جاء به، أعقبه هنا

---

(١) البحر ٧/٩٦.

بذكر القرآن المجيد وذكر أوصافه والمعنى: إن هذا القرآن المنزّل على خاتم الرسل لهو الكتاب الحق الذي يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من أمر الدين، ومن جملته اختلافهم في أمر المسيح وتفرقهم فيه فرقاً كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً، فلو كانوا منصفين لأسلموا؛ لأن القرآن جاءهم بالرأي الساطع، والنور القاطع ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وإنه لهداية لقلوب المؤمنين من الضلالة، ورحمة لهم من العذاب، قال القرطبي: وإنما خصَّ المؤمنين بالذكر؛ لأنهم المنتفعون به(١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ﴾ أي إن ربك يا محمد يفصل بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه العادل، وقضائه المبرم، فيجازي المحق والمبطل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي المنيع الغالب الذي لا يُردّ أمره ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي العليم بأفعال العباد فلا يخفى عليه شيء منهم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فوّض إليه أمرك، واعتمد عليه في جميع شئونك فإنه ناصرك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق، الواضح المنير، فالعاقبة لك بالنصر على الكفار ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي لا تُسمع الكفار لتركهم التدبر والاعتبار، فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي ولا تُسمعهم دعاءك ونداءك إذا ذكّرتهم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان، لأنهم كالصُّمّ الذين في آذانهم وقْرٌ، فلا يستجيبون الدعاء، لا سيما إذا تولّوا عنك معرضين، فإن الأصمّ إذا تولّى مدبراً ثم ناديته كان أبعد عن السماع حيث تنضم إلى صممه بُعْدُ المسافة ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي ولست بوسعك يا محمد أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ما تُسمع -سماع تدبر وتفهم- إلا المؤمنين، ولا يستجيب لدعوتك إلا أهل الإيمان، وهم الذين انقادوا وأسلموا وجوههم للرحمن. شبَّه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء، ثم شبههم ثانياً بالصم وبالعُمي وإن كانوا سليمي الحواس، وأكّد عدم سماعهم بقوله ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ لأن الأصم إذا أدبر زاد صممه أو عدم سماعه بالكلية، والغرض من الآية أن هؤلاء الكفار كالموتى، وكالصُّمّ، وكالعُمي، لا يفهمون، ولا يسمعون ولا يبصرون، ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل الكونية، أو الآيات القرآنية ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا بيان لما يكون بين يدي الساعة أي وإذا قرُب نزول العذاب وقيام الساعة، وحان وقت عذاب الكفار ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي أخرجنا للكفار هذه الآية الكبيرة «دابة الأرض» تكلم الناس وتناظرهم وتقول من جملة كلامها: ألا لعنةُ الله على الظالمين، الذين لا يصدّقون ولا يؤمنون بآيات الله، وخروجُ الدابة من أشراط الساعة وفي الحديث «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات... وعد منها طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة...»(٢) الحديث قال ابن

---

(١) القرطبي ٢٢٩/١٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، وفي صحيح مسلم «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً».

كثير: هذه الدابة تخرج في آخر الزمان، عند فساد الناس وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، فتكلم الناس وتخاطبهم مخاطبة، قال ابن عباس وعطاء: تكلمهم كلامًا فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون[١]، وروي أن خروجها حين ينقطع الخير، ولا يُؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى منيبٌ ولا تائب، وهي آية خاصة خارقة للعادة، ثم ذكر تعالى بعض مشاهد القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب من كل أمةٍ من الأمم جماعةً وزمرة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ أي من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي فهم يُجمعون ثم يساقون بعنف ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال قال لهم تعالى موبخًا ومقرّعًا: أكذبتم بآياتي المنزلة على رسلي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها، أو معرفة صدقها؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريع وتوبيخ آخر أي أيُّ شيءٍ كنتم تعملون في الدنيا؟ وبَّخهم أولاً بقوله ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ ثم أضرب عنه إلى استفهام تقرير وتبكيت كأنه قيل: دعُوا ما نسبتُه إليكم من التكذيب وقولوا لي: أيَّ شيءٍ كنتم تعملونه في الدنيا غير التكذيب؟ ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي بُهتوا فلم يكن لهم جواب، وقامت عليهم الحجة وحقَّ عليهم العذاب بسبب ظلمهم وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي فهم لا يتكلمون؛ لأنه ليس لهم عذر ولا حجة، وقد شُغلوا بالعذاب عن الجواب.. ثم لما ذكر تعالى أهوال القيامة ذكر الأدلة والبراهين على التوحيد والحشر والنشر مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؟ أي ألم يروا قدرة الله فيعتبروا أنه تعالى جعل الليل مظلمًا لينامو ويستريحوا من تعب الحياة، وجعل النهار منيرًا مشرقًا ليتصرفوا فيه في طلب المعاش والرزق؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في تقليب الليل والنهار من نور إلى ظلمة، ومن ظلمة إلى نور لآيات باهرة، ودلائل قاطعة على قدرة الله لقوم يصدِّقون فيعتبرون، ثم أشار تعالى إلى أحوال الناس في الآخرة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ أي واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الفزع؛ فلا يبقى أحدٌ من أهل السموات والأرض إلا خاف وفزع إلا من شاء الله من الملائكة والأنبياء والشهداء، قال المفسرون: هذه نفخة الفزع، ثم تتلوها نفخة الصَّعق- وهو الموت- ثم بعد ذلك نفخة النشور من القبور وهي نفخة القيام لرب العالمين، قال أبو هريرة: إن الملك له في الصور ثلاث نفخات: نفخةُ الفزع- وهو فزع الحياة الدنيا- وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصَّعق، ونفخة القيام من القبور[٢] ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أي وكلٌّ من الأموات الذين أُحيوا أتَوْا ربهم صاغرين مطيعين لم يتخلف منهم أحد ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي وترى أيها المخاطب الجبال وقت النفخة الأولى تظنها ثابتة في مكانها واقفة ﴿وَهِيَ

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٨٢ . (٢) البحر ٧/ ٩٩ .

﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب، قال الإمام الفخر: ووجه حسبانهم أنها جامدة: أن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد ظنّ الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مرّاً سريعاً(1) ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي ذلك صنع الله البديع، الذي أحكم كل شيء خلقه، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي هو عليم بما يفعل العباد من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.. ثم بيّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات، فإن الله يضاعفها له إلى عشر حسنات، ويعطيه بالحسنة الجليل الثواب الأبدي ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ أي وهم من خوف ذلك اليوم العصيب آمنون كما قال تعالى ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ قال ابن عباس: السيئة: الإشراك بالله أي ومن جاء يوم القيامة مسيئاً لا حسنة له أو مشركاً بالله فإنه يكبُّ في جهنم على وجهه منكوساً، ويلقى فيها مقلوباً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم توبيخاً: هل تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من سيء الأعمال؟ ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي قل لهم يا محمد: لقد أُمرت أن أخصَّ الله وحده بالعبادة رب البلدة الأمين الذي جعل مكة حرماً آمناً لا يُسفك فيها دم، ولا يُظلم فيها أحد، ولا يصاد صيدها ولا يُختلى خلاها(2) كما جاء في الحديث الصحيح ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي هو تعالى الخالق والمالك لكل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأمرت أن أكون من المخلصين لله بالتوحيد، المنقادين لأمره، المستسلمين لحكمه ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أي وأمرت أيضاً بتلاوة القرآن لتتكشف لي حقائقه الرائعة، وأن أقرأه على الناس ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي فمن اهتدى بالقرآن، واستنار قلبه بالإيمان، فإن ثمرة هدايته راجعة إليه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي ومن ضلَّ عن طريق الهدى، فوبال ضلاله مختص به، إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغتكم رسالة الله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي قل يا محمد: الحمد لله على ما خصني به من شرف النبوة والرسالة، وما أكرمني من رفيع المنزلة والمقام ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ تهديد ووعيد أي سيريكم آياته الباهرة الدالة على عظيم قدرته وسلطانه في الأنفس والآفاق فتعرفونها حين لا تنفعكم المعرفة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي وما ربك بغافل عن أعمال العباد بل هو على كل شيء شهيد، وفيه وعدٌ ووعيد.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وتكرير الهمزة ﴿أَئِنَّا﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار.

---

(١) التفسير الكبير ٢٤/٢٢١.

(٢) لا يختلى خلاها: أي لا يقطع حشيشها الرطب.

٢- الوعيد والتهديد ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٣- التأكيد بإن واللام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى﴾

٤- الطباق ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لأن معنى ﴿تُكِنُّ﴾ تخفي.

٥- الاستعارة التبعية ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ﴾ لأن القصص لا يوصف به إلا الناطق المعبر، ولكنَّ القرآن لما تضمن نبأ الأولين، كان كالشخص الذي يقصُّ على الناس الأخبار، فهو استعارةٌ تبعية.

٦- المبالغة ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ لأن صيغة فعيل من صيغ المبالغة

٧- الاستعارة التصريحية ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ التشبيه بالموتى، والصم، والعمي، جاء كله بطريق الاستعارة، وهو تمثيل لأحوال الكفار في عدم انتفاعهم بالإيمان بأنهم كالموتى والصم والعمي.

٨- أسلوب التوبيخ والتأنيب ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟

٩- الطباق ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾

١٠- التشبيه البليغ ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي تمرُّ كمرِّ السحاب في السرعة، حذفت الأداة ووجه الشبه فأصبح تشبيهًا بليغًا مثل: محمد قمر.

١١- الاحتباك ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حذف من أوله ما أثبت في آخره وبالعكس، أصله جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه، والنهار مبصرًا ليتصرفوا فيه، فحذف «مظلمًا» لدلالة «مبصرًا» عليه، وحذف «ليتصرفوا فيه» لدلالة ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وهذا النوع يسمى الاحتباك وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل»

تفسير سورة القصص

بين يدي السورة

سورة القصص من السور المكية التي تهتم بجانب العقيدة «التوحيد، والرسالة، والبعث» وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي «النمل، والشعراء» كما اتفقت في جو النزول، فهي تكمّل أو تفصّل ما أُجمل في السورتين قبلها.

٭ محور السورة الكريمة يدور حول فكرة الحق والباطل، ومنطق الإذعان والطغيان، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن، وجند الشيطان، وقد ساقت في سبيل ذلك قصتين: أولاهما: قصة الطغيان بالحكم والسلطان، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب، فذبح الأبناء، واستحيا النساء، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ والثانية: قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثلة في «قارون مع قومه» وكلا القصتين رمزٌ إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة، سواءً بالمال، أو الجاه، أو السلطان.

ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون وعلوه وفساده في الأرض، ومنطق الطغيان في كل زمانٍ ومكان.

٭ ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وخوف أمه عليه من بطش فرعون، وإلهام الله تعالى لها بإلقائه في البحر ليعيش معززًا مكرمًا في حجر فرعون كريمةً زكيةً تنبتُ وسط الأشواك والأوحال.

٭ ثم تحدثت عن بلوغ موسى سن الرشد، وعن قتله للقبطي، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله. وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله، وتحدثت عن كفار مكة ووقوفهم في وجه الرسالة المحمدية، وبيّنت أن مسلك أهل الضلال واحد.

٭ ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قارون، وبيّنت الفارق العظيم بين منطق الإيمان، ومنطق الطغيان.

وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة وهو طريق الإيمان الذي دعا إليه الرسول الكريم.

التسميــة: سميت سورة «القصص»؛ لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من حين ولادته إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه.

اللغة: ﴿شِيَعًا﴾ فرقًا وأصنافًا ﴿يَسْتَحْيِي﴾ يتركه حيًا ولا يقتله ﴿نَمُنَّ﴾ نتفضل وننعم ﴿الْيَمِّ﴾ البحر ﴿فَارِغًا﴾ خاليًا ﴿الْمَرَاضِعَ﴾ جمع مُرضع، وأما المرضعة فجمعها مرضعات وهي التي ترضع الطفل اللبن ﴿عَن جُنُبٍ﴾ من بعد ومنه الأجنبي للبعيد غير القريب ﴿وَكَزَهُ﴾ الوكز: الضرب بجُمع الكف أي بكفه مجموعةً، قال أهل اللغة: الوكزُ واللكز كلاهما بمعنى واحد وهو الضرب بجمع الكفّ على الصدر، وقيل: الوكز في الصدر، واللكز في الظهر، وجُمع الكف: الكف المقبوضة الأصابع[1] ﴿ظَهِيرًا﴾ عونًا ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يستغيث والاستصراخ: الاستغاثة وهو من الصراخ، لأن المستغيث يصرخ ويرفع صوته طلبًا للغوث قال الشاعر:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزِعٌ كان الصراخ له قرع الظنابيب

﴿يَبْطِشَ﴾ البطش: الأخذ بالشدة والعنف، بطش يبطِش ويبطُش بالكسر والضم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

التفسير: ﴿طسم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، والإشارة إلى أن هذا

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٥٠٢.
(٢) القرطبي ١٣/٢٦٤.

الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركبٌ من أمثال هذه الحروف الهجائية(١) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي، الظاهر في إعجازه، الواضح في تشريعه وأحكامه ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ أي نقرأ عليك يا محمد بواسطة الروح الأمين من الأخبار الهامة عن موسى وفرعون من الحق الذي لا يأتيه الباطل، والصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقوم يصدقون بالقرآن فينتفعون.. ثم بدأ بذكر قصة فرعون الطاغية فقال ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي استكبر وتجبر، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي جعل أهلها فرقًا وأصنافًا في استخدامه وطاعته ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي يستعبد ويستذل فريقًا منهم وهم بنو إسرائيل فيسومهم سوء العذاب ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي يقتل أبناءهم الذكور ويترك الإناث على قيد الحياة لخدمته وخدمة الأقباط. قال المفسرون: سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن نارًا عظيمة أقبلت من بيت المقدس وجاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل، فسأل عن ذلك المنجمين والكهنة، فقالوا: إن مولودًا يولد في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يديه، ويكون هلاكك بسببه، فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني إسرائيل ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي من الراسخين في الفساد، المتجبرين في الأرض، ولذلك ادعى الربوبية وأمعن في القتل وإذلال العباد ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ونريد برحمتنا أن نتفضل وننعم على المستضعفين من بني إسرائيل فننجيهم من بأس فرعون وطغيانه ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي ونجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير بعد أن كانوا أذلاء مسخرين، قال ابن عباس ﴿أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير، وقال قتادة: ولاةً وملوكًا ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي ونجعل هؤلاء الضعفاء وارثين لملك فرعون وقومه، يرثون ملكهم ويسكنون مساكنهم بعد أن كان القبط أسياد مصر وأعزتها ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ونملكهم بلاد مصر والشام يتصرفون فيها كيف يشاءون، قال البيضاوي: أصل التمكين: أن تجعل للشيء مكانًا يتمكن فيه ثم استعير للتسليط وإطلاق الأمر(٢) ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي ونري فرعون الطاغية، ووزيره «هامان» والأقباط من أولئك المستضعفين ما كانوا يخافونه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي قذفنا في قلبها بواسطة الإلهام، قال ابن عباس: هو وحي إلهام، وقال مقاتل: أخبرها جبريل بذلك، قال القرطبي: فعلى قول مقاتل هو وحيُ إعلام لا إلهام، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية، وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث المشهور، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة، وقد سلمت على «عمران بن حصين» فلم يكن نبياً(٣) ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾

---

(١) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول أوائل السور.

(٢) البيضاوي ٢/٨٨. (٣) القرطبي ١٣/٢٥٠.

أي: فإذا خفت عليه من فرعون فاجعليه في صندوق وألقيه في البحر - بحر النيل - ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ أي: لا تخافي عليه الهلاك ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي فإنا سنرده إليك ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية لننجي بني إسرائيل على يديه ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي فأخذه وأصابه أعوان فرعون لتكون عاقبة الأمر أن يصبح لهم عدواً ومصدر حزن وبلاء وهلاك، قال القرطبي: اللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً وحزناً، فذكر الحال بالمآل، كما قال الشاعر:

وللمنايا تربّي كلُّ مرضعةٍ ... ودورُنا لخراب الدهر نبنيها[1]

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي كانوا عاصين مشركين آثمين، قال العلماء: الخاطئ من تعمد الذنب والإثم، والمخطئ من فعل الذنب من غير تعمد. ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ أي قالت زوجة فرعون لفرعون. هذا الغلام مسرة وفرحة لي ولك لعلك تُسر به فيكون قرة عين لنا! قال الطبري: ذُكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون قال لها: أما لكِ فنعم، وأما لي فليس بقرة عين[2]، وقال ابن عباس: لو قال قرة عين لي لهداه الله به ولكن أبى. ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أي لا تقتله يا فرعون، خاطبته بلفظ الجمع كما يخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ عسى أن ينفعنا في الكبر، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقرُّ به عيوننا، قال المفسرون: وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي صار قلبها خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى[3]، وقيل: المعنى: خلا عقلها من فرط الحزن والغم حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي إنها كادت أن تكشف أمره وتظهر أنه ابنها من شدة الوجد والحزن، قال ابن عباس: كادت تصيح وا ابناه، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي لولا أن ثبتناها وألهمناها الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لتكون من المصدقين بوعد الله برده عليها ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي قالت أم موسى لأخت موسى: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره، قال مجاهد: قصي أثره وانظري ماذا يفعلون به؟ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفية عنهم ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي ومنعنا موسى أن يقبل ثدي أي مرضعة من

---

(1) القرطبي ١٣/٢٥٢ (2) الطبري ٢٠/٣٢

(3) هذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وجمهور المفسرين، والقول الثاني ذكره القرطبي عن ابن القاسم عن مالك، ولعله الأظهر.

المرضعات اللاتي أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أمه، قال المفسرون: بقي أياماً كلما أُتي بمرضع لم يقبل ثديها، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر فخرجوا به يبحثون له عن مرضع خارج القصر فرأوا أخته ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أي هل أدلكم على مرضعة تكفله وترعاه؟ ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، قال السدي: فدلتهم على أم موسى فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعه إليها فلما وجد ريح أمه قبل ثديها، فقال فرعون: من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني! فدفعه إليها، فرجعت إلى بيتها من يومها ولم يبق أحدٌ من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي أعدناه إليها تحقيقاً للوعد كي تسعد وتهنأ بلقائه ولا تحزن على فراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ولتتحقق من صدق وعد الله برده عليها وحفظه من شر فرعون ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس يرتابون ويشكون في وعد الله القاطع ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ أي ولما بلغ كمال الرشد وتهيأت القوة، وتمام العقل والاعتدال، قال مجاهد: هو سنُّ الأربعين ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي أعطيناه الفهم والعلم والتفقه في الدين مع النبوة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ومثل هذا الجزاء الكريم نجازي المحسنين على إحسانهم ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي دخل مصر وقت الظهيرة والناس يخلدون للراحة عند القيلولة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي فوجد شخصين يقتتلان: أحدهما من بني إسرائيل من جماعة موسى، والآخر قبطي من جماعة فرعون ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب غوثه ليدفع عنه شر القبطي ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي ضرب موسى بجمع كفه فقتله، قال القرطبي: فعل موسى ذلك وهو لا يريد قتله إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه وكانت القاضية[1] ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي هذا من إغواء الشيطان فهو الذي هيج غضبي حتى ضربت هذا ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي إن الشيطان عدوٌّ لابن آدم، مضلٌّ له عن سبيل الرشاد، ظاهر العداوة، قال الصاوي: نسبه إلى الشيطان من حيث إنه لم يؤمر بقتل القبطي، وظهر له أن قتله خلاف الأولى لما يترتب عليه من الفتن، والشيطان تفرحه الفتن ولذلك ندم على فعله[2] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ أي إني ظلمت نفسي بقتل النفس فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي ﴿فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي إنه تعالى البالغ في المغفرة للعباد، الواسع الرحمة لهم ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي بسبب إنعامك عليّ بالقوة وبحق ما أكرمتني به من الجاه والعز، فلن أكون عوناً لأحد من المجرمين[3]، وهذا

---

(١) القرطبي ١٣/ ٢٦١. (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢١٢.

(٣) قال الرازي: وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز معونة الظلمة والفسقة

معاهدة عاهد موسى ربه عليها وقيل: هو قسم وهو ضعيف ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فأصبح موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفًا على نفسه يترقب وينتظر المكروه، ويخاف أن يؤخذ بجريرته ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلّصه بالأمس يقاتل قبطيًا آخر فلما رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثًا لينصره من عدوه ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي قال موسى للإسرائيلي: إنك لبيّن الغواية والضلال، فإني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه من قتل رجلٍ بسببك وتريد أن توقعني اليوم في ورطةٍ أخرى ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي فحين أراد موسى أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيلي ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ أي قال القبطي: أتريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس[1] ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة المفسدين في الأرض ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس.

البلاغة: تضمنت الآيات من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١- الإشارة بالبعيد عن القريب لبعد مرتبته في الكمال ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

٢- حكاية الحالة الماضية ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الذهن.

٣- إيثار الجملة الاسمية على الفعلية ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقل: سنرده ونجعله رسولاً وذلك للاعتناء بالبشارة، لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

٤- الاستعارة ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ شبه ما قذفه الله في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع واستعار لفظ الربط للصبر.

٥- صيغة التعظيم ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ تخاطب فرعون ولم تقل: لا تقتله؛ تعظيمًا له.

٦- صيغة المبالغة «جبّار، غويّ» لأن فعّال وفعيل من صيغ المبالغة.

٧- الطباق المعنوي ﴿جَبَّارًا﴾ .. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾، لأن الجبار: المفسد المخرّب، المكثر للقتل وسفك الدماء، ففيه طباق في المعنى.

٨- الاستعطاف ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

٩- توافق الفواصل في كثير من الآيات مثل ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: حكى العلامة القرطبي عن الأصمعي أنه قال: سمعت جارية أعرابية تنشد:

أستغفر الله لذنبي كله ... قبّلت إنسانًا بغير حِلّه

مثل الغزال ناعمًا في دلّه ... فانتصف الليل ولم أصلّه

---

(١) هذا هو الظاهر أن القائل هو القبطي لا الإسرائيلي لأن قوله ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ لا يصدر من المؤمن وإنما من الكافر.

عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

التفسير: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع في مشيه، قال ابن عباس: هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي قال له موسى: إن أشراف فرعون ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي فاخرج قبل أن يدركوك فأنا ناصح لك من الناصحين ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فخرج من مصر خائفًا على نفسه يترقب وينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ له سواه ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي خلصني من الكافرين واحفظني من شرهم - والمراد بهم فرعون وملؤه - ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي قصد بوجهه ناحية مدين وهي بلدة شعيب عليه السلام ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي لعل الله يرشدني إلى الطريق السوي الذي يوصلني إلى مقصودي، قال المفسرون: خرج خائفًا بغير زاد ولا ظهر - مركب - وكان بين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له علمٌ بالطريق سوى حسن ظنه بربه، فبعث الله إليه ملكًا فأرشده إلى الطريق، ويروى أنه لما وصل مدين كانت خضرةُ البقل تتراءى من بطنه من الهزال؛ لأنه كان في طريقه يتقوت ورق الشجر ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعًا كثيفًا من الناس يسقون مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي ووجد سوى الجماعة الرعاة امرأتين

تكفّان غنمهما عن الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ؟ أي ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟ ولم لا تسقيان مع السقاة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي من عادتنا التأني حتى ينصرف الرعاةُ مع أغنامهم عن الماء، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء، ولا نريد مخالطة الرجال، وأبونا رجل مُسنٌّ لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا! قال أبو حيان: فيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبيهٌ على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطافٌ لموسى في إعانتهما[1] ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ أي فسقى لهما غنمهما رحمة بهما، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي إني يا رب محتاجٌ إلى فضلك وإحسانك، وإلى الطعام الذي أسُدُّ به جوعي، طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع، قال الضحاك: مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض[2] وقال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه لَلاصقٌ بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه، وإنه لمحتاجٌ إلى شق تمرة[3] ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ في الكلام اختصار تقديره: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكان من عادتهما الإبطاء فحدثتاه بما كان من أمر الرجل، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشي... إلخ أي جاءته حالة كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها، قال عمر: لم تكن بسلفع من النساء، خرّاجة ولّاجة[4] ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي إن أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا! قال ابن كثير: وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة[5] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي فلما جاءه موسى وذكر له ما كان من أمره وسبب هروبه من مصر، قال له شعيب: لا تخف فأنت في بلدٍ آمن لا سلطان لفرعون عليه وقد نجاك الله من كيد المجرمين ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايتها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أي إن أفضل من تستأجره من كان قوياً أميناً، قال أبو حيان: وقولها كلام حكيم جامع، لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور فقد تم المقصود[6] روي أن أباها قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فقالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئتُ معه تقدمتُ أمامه فقال لي: كوني من ورائي ودليني على الطريق، ولما أتيته خفض بصره لم ينظر

---

(١) البحر ٧/١١٣. (٢) الرازي ٢٤/٢٤٠.
(٣) ابن كثير المختصر ٣/١٠.
(٤) الطبري ٢٠/٣٩ والسلفع: الجريئة السليطة الجسورة. أفاده الجوهري.
(٥) ابن كثير ٣/١١ (٦) البحر ٧/١١٤.

الذي رغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ أي قال شعيب لموسى: أريد أن أزوجك إحدى ابنتيَّ هاتين الصغرى أو الكبرى ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ أي بشرط أن تكون أجيرًا لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي فإن أكملتها عشر سنين فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أي وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة، لين الجانب، وفيًّا بالعهد. قال القرطبي: في الآية عرض الولي ابنته على الرجل، وهذه سُنّة قائمة، عرض شعيب ابنته على موسى، وعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ، فمن الحسن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح[1] ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي قال موسى: ذلك ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعًا لا نخرج عنه، وأيّ المدتين الثماني أو العشر أديتها لك فلا إثم ولا حرج عليّ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي والله شاهد على ما تعاهدنا وتواثقنا عليه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها. قال ابن عباس: قضى أتم الأجلين وأكملهما وأوفاهما وهو عشر سنين ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ أي مشى بزوجته مسافرًا بها إلى مصر ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أي أبصر من بعيد نارًا تتوهج من جانب جبل الطور ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي قال لزوجته امكثي هنا فقد أبصرت نارًا من بعد! قال المفسرون: كانت ليلة باردة وقد أضلوا الطريق، وهبت ريح شديدة فرّقت ماشيته، وأخذ أهله الطلق، فعند ذلك أبصر نارًا بجانب الطور فتوجه نحوها لعله يجد من يدله على الطريق ولذلك قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي لعلي آتيكم بخبر الطريق وأرى من يدلني عليه ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار لم يجدها نارًا وإنما وجدها نورًا، ونودي من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة ﴿أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي نودي يا موسى إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الكبير، المنزه عن صفات النقص، رب الإنس والجن والخلائق أجمعين ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي ونودي بأن اطرح عصاك التي في يدك ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي فألقاها فانقلبت إلى حية فلما رآها تتحرك كأنها ثعبان خفيف سريع الحركة انهزم هاربًا منها ولم يلتفت إليها. قال ابن كثير: انقلبت العصا إلى حية وكانت كأنها جانٌّ في حركتها السريعة مع عظم خلقتها، واتساع فمها، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها تنحدر في فمها تتقعقع كأنها حادرة في واد، فعند ذلك

---

(١) القرطبي ١٣/٢٧١.

ولّى مدبراً ولم يلتفت، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك[1] ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي فنودي: يا موسى ارجع إلى حيث كنت ولا تخف فأنت آمن من المخاوف، فرجع وأدخل يده في فم الحية فعادت عصا ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي أدخل يدك في جيب قميصك -وهو فتحة الثوب مكان دخول الرأس- ثم أخرجها تخرج مضيئة منيرة تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق من غير أذى ولا برص ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال ابن عباس: اضمم يدك إلى صدرك من الخوف يذهب عنك الرعب، قال المفسرون: المراد بالجناح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه وبذلك يذهب عنه الخوف من الحية ومن كل شيء ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي فهذان -العصا واليد- دليلان قاطعان، وحجتان نيرتان واضحتان من الله تعالى تدلان على صدقك، وهما آيتان إلى فرعون وأشراف قومه الطغاة المتجبرين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعتنا، مخالفين لأمرنا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي قال موسى: يا رب إني قتلت شخصاً من آل فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني به! قال المفسرون: هو القبطي الذي وكزه فمات، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجابهة فرعون بإرسال أخيه هارون معه فقال ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أي هو أوضح بياناً، وأطلق لساناً - لأن موسى كان في لسانه حُبْسة من أثر الجمرة التي تناولها في صغره ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي فأرسله معي معيناً يبين لهم عني ما أكلمهم به بتوضيح الحجج والبراهين ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي أخاف إن لم يكن لي وزير ولا معين أن يكذبوني، لأنهم لا يكادون يفقهون عني، قال الرازي: والمعنى: أرسل معي أخي هارون حتى يعاضدني على إظهار الحجة والبيان، وليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يُلخّص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل، ويجيب عن الشبهات، ويجادل به الكفار[2] ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي أجابه تعالى إلى طلبه وقال له: سنقويك بأخيك ونعينك به، ونجعل لكما غلبة وتسلطاً على فرعون وقومه ﴿فَلَا يَصِلُونَ

---

(١) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان: «وألقى موسى عصاه طاعة لأمر مولاه، ولكن ماذا حدث؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبها طويلاً والتي يعرفها معرفة اليقين، إنها حية تدب في سرعة، وتتحرك في خفة، وتتلوى كصغار الحيات وهي حية كبرى، إنها المفاجأة التي لم يستعد لها، ولذلك ولّى مدبراً ولم يعقب، لم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها، وليتأمل هذه العجيبة الضخمة، ثم يستمع إلى ربه الأعلى: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ وكيف لا يأمن من ترعاه عين الله؟ ثم يأتيه النداء مرة أخرى ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وأطاع موسى الأمر، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها، فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة، إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السمرة، فهل هي إشارة إلى إشراق الحق، ووضوح الآية، ونصاعة الدليل؟» من الظلال.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٤/٢٤٩

﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أي العاقبة لكما ولأتباعكما في الدنيا والآخرة، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي فلما جاءهم موسى بالبراهين الساطعة، والمعجزات القاطعة، الدالة على صدقه وأنه رسولٌ من عند الله ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به من العصا واليد إلا سحرٌ مكذوب مختلق، افتريته من قِبل نفسك وتنسبه إلى الله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي وما سمعنا بمثل هذه الدعوى - دعوى التوحيد - في آبائنا وأجدادنا السابقين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أجمل موسى في جوابهم تلطفًا في الخطاب، وإيثارًا لأحسن الوجوه في المجادلة معهم والمعنى: إن ما جئتكم به من حقٍ وهدى ليس بسحر، وربي عالمٌ بذلك يعلم أني محقٌ وأنتم مبطلون، ويعلم من تكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يسعد ولا ينجح من كان ظالمًا فاجرًا، كاذبًا على الله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم: ما علمتُ لكم إلهًا غيري! قال ابن عباس: كان بين هذه المقولة الفاجرة وبين قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ أربعون سنة، وكذب عدوُّ الله بل علم أن له ربًّا هو خالقه وخالق قومه (١) ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أي فاطبخ لي يا هامان الآجر فاجعل لي منه قصرًا شامخًا رفيعًا ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي لعلي أرى وأشاهد إله موسى الذي زعم أنه أرسله! قال ذلك على سبيل التهكم ولهذا قال بعده: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي وإني لأظن موسى كاذبًا في ادعائه أن في السماء ربًّا! قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي وتكبر وتعظم فرعون وقومه عن الإيمان بموسى في أرض مصر بالباطل والظلم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي واعتقدوا أن لا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي فأخذناه مع جنوده فطرحناهم في البحر، وأغرقناهم فلم يبق منهم أحد ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي فانظر يا محمد بعين قلبك نظر اعتبار كيف كان مآل هؤلاء الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي وجعلناهم في الدنيا قادة ودعاة في الكفر يقتدي بهم أهل الضلال ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ويوم القيامة ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي جعلنا اللعنة تلحقهم في هذه الحياة الدنيا من الملائكة والمؤمنين ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي وفي الآخرة هم من المبعدين المطرودين من رحمة الله عز وجل

---

(١) القرطبي ١٣/ ٢٨٨ .

البَلاغَة: تضمنت الآيات وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:
١- التأكيد بإن واللام ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ مناسبةً لمقتضى الحال.
٢- الاستعطاف والترحم ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾
٣- جناس الاشتقاق ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾.
٤- التشبيه المرسل المجمل ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ حذف وجه الشبه فأصبح مجملاً.
٥- الطباق بين ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ و﴿يُكَذِّبُونِ﴾.
٦- الكناية ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ كنى عن اليد بالجناح، لأنها للإنسان كالجناح للطائر.
٧- المجاز المرسل ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ من إطلاق السبب وإرادة المسبب، لأن شد العضد يستلزم شد اليد، وشد اليد مستلزم للقوة، قال الشهاب: ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية، شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بيد شديدة.

لطيفة: قال الزمخشري: إنما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي أوقد لي النار فاتخذ منه آجرًا ولم يقل: «اطبخ لي الآجر» لأن هذه العبارة أحسن طبقًا لفصاحة القرآن وعلو طبقته، وأشبه بكلام الجبابرة، وهامان وزيره ومدبر رعيته.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ إلى ... ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من آية (٤٣) إلى نهاية آية (٧٠)

المنَاسَبَة: بعد أن ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل بإهلاك فرعون رأس الطغيان وتخليصهم من شره، ذكر هنا ما أنعم به عليهم من إنزال التوراة التي فيها الهدى والنور، كما ذكر نعمته على العرب بإنزال القرآن العظيم خاتمة الكتب السماوية.

اللغَة: ﴿ثَاوِيًا﴾ مقيمًا وثوى بالمكان: أقام به، قال الشاعر:
لقد كان في حول ثواء ثويته[1]

﴿يَدْرَءُونَ﴾ يدفعون، والدرءُ: الدفع، وفي الحديث «ادرءوا الحدود بالشبهات» ﴿يُجْبَىٰ﴾ يجمع، وجبى الماء في الحوض جمعه، والجابية: الحوض العظيم ﴿بَطِرَتْ﴾ البطر: الطغيان في النعمة ﴿الْأَنبَاءُ﴾ الأخبار جمع نبأ وهو الخبر الهام.

سَبَبُ النّزول: لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله ﷺ: «يا عم قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك! فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2]

---
(١) البحر المحيط ٧/١٠٣. (٢) أخرجه مسلم وانظر زاد المسير ٦/٢٣٦.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

التفسير: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله كقوم نوح وعادٍ وثمود وقوم لوط وغيرهم من المكذبين لرسلهم ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي ضياءً لبني إسرائيل ونوراً لقلوبهم يتبصرون بها الحقائق ويميزون بها بين الحق والباطل ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي وهدى من الضلالة، ورحمة لمن آمن بها ليتعظوا بما فيها من المواعظ والإرشادات الإلهية ﴿وَمَا

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي، وهو المكان الذي كلّم الله تعالى فيه موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي حين أوحينا إلى موسى بالنبوة وأرسلناه إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي وما كنت من الحاضرين في ذلك المكان، ولكن الله أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانًا على صدقك، قال ابن كثير: يقول تعالى منبهًا على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرًا كأن سامعه شاهد وراءٍ لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئًا من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئًا من ذلك، والمعنى: ما كنت حاضرًا لذلك، ولكن الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك المغيبات[1] ﴿وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي ولكننا خلقنا أممًا وأجيالًا من بعد موسى، فتطاول عليهم الزمن، وطالت الفترة فنسوا ذكر الله، وبدّلوا، وحرّفوا الشرائع فأرسلناك يا محمد لتجدد أمر الدين، قال أبو السعود: المعنى: ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة فتمادى عليهم الأمد، فتغيرت الشرائع والأحكام، وعميت عليهم الأنباء، فأوحينا إليك، فحذف المستدرك اكتفاءً بذكر الموجب[2] ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي وما كنت يا محمد مقيمًا في أهل مدين فتعلم خبر موسى وشعيب وابنتيه فتتلو ذلك على أهل مكة ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي ولكنا أرسلناك إلى أهل مكة وأخبرناك بتلك الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي وما كنت أيضًا بجانب جبل الطور وقت ندائنا لموسى وتكليمنا إياه ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي لم تشاهد شيئًا من الأخبار وقصص الأنبياء، ولكن أوحيناها إليك، وقصصناها عليك، رحمة من ربك لتخوّف قومًا ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون بما جئتهم به من الآيات البينات، فيدخلوا في دينك، قال المفسرون: المراد بالقوم الذين كانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وهي نحوٌ من ستمائة سنة ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ولولا أنهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فيقولوا عند ذلك ربنا هلّا أرسلت إلينا رسولًا يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدّقين بها؟ قال القرطبي: وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف تقديره لما بعثنا الرسل[3]، وقال في التسهيل: ﴿لَوْلَا﴾ الأولى حرف امتناع، و﴿لَوْلَا﴾ الثانية عرضٌ وتحضيض، والمعنى: لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل، وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولًا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين[4]، ثم أخبر تعالى عن عناد المشركين وتعنتهم في رد الحق فقال ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أي فلما جاء أهل مكة

---

(١) ابن كثير ٣/٤٥٩ المختصر. (٢) تفسير أبي السعود ٤/١٤٤.
(٣) القرطبي ١٣/٢٩٣. (٤) التسهيل ٣/١٠٧.

الحقُّ النبي وهو محمد بالقرآن المعجز من عندنا قالوا على وجه التعنت والعناد: هلاّ أُعطي محمد من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة مثل ما أُعطي موسى من العصا واليد!! قال تعالى ردًّا عليهم ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات الباهرة؟! قال مجاهد: أمرت اليهود قريشًا أن يقولوا لمحمد: ائتنا بمثل ما جاء به موسى من المعجزات، فردّ الله عليهم بأنهم كفروا بآيات موسى[1] فالضمير في ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ لليهود، وهذا اختيار ابن جرير وقال أبو حيان: ويظهر عندي أن الضمير عائد على قريش الذين قالوا لولا أوتي محمد مثل ما أوتي موسى، وذلك أن تكذيبهم لمحمد تكذيب لموسى، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى، إذ الأنبياء من وادٍ واحد فمن نسب إلى أحد من الأنبياء ما لا يليق كان ناسبًا ذلك إلى جميع الأنبياء، وتتناسق حينئذٍ الضمائر كلها[2] ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي وقال المشركون: ما التوراة والقرآن إلا من قبيل السحر، فهما سحران تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر! قال النسفي: صدّق كل واحد منهما الآخر ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي إنا بكلٍّ من الكتابين كافرون، قال أبو السعود: وهذا تصريح بكفرهم بهما وذلك لغاية عتوّهم وتماديهم في الكفر والطغيان[3] ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ أمرٌ على وجه التعجيز أي قل لهم يا محمد: إنكم إذ كفرتم بهذين الكتابين مع ما تضمنا من الشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق فأتوني بكتاب منزل من عند الله أهدى منهما وأصلح أتّبعه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في أنهما سحران، قال ابن كثير: وقد عُلم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتابًا من السماء أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم من الكتاب الذي أنزله على محمد ﷺ وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى، وهو الكتاب الذي قال فيه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ والإِنجيل إنما أُنزل متممًا للتوراة ومُحلاًّ لبعض ما حُرِّم على بني إسرائيل[4] ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي فإن لم يجيبوك إلى ما طلبته منهم فاعلم أن كفرهم عنادٌ واتباعٌ للأهواء، لا بحجةٍ وبرهان ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أضلُّ ممن اتبع هواه بغير رشاد ولا بيان من الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق للحق من كان ظالمًا منهمكًا بالانهماك في اتباع الهوى، والإِعراض عن سبيل الهدى ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ولقد تابعنا ووالينا لقريش القرآن يتبع بعضه بعضًا وعدًا ووعيدًا، وقصصًا وعِبرًا، ومواعظ ونصائح ليتعظوا ويتذكروا بما فيه، قال ابن الجوزي: المعنى: أنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضًا، ويخبر عن الأمم الخالية كيف عُذّبوا لعلهم يتعظون[5] ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/٢٧.
(٢) البحر ٧/١٢٣.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/١٥١.
(٤) مختصر ابن كثير ٣/٢٧.
(٥) زاد المسير ٦/٢٣٨.

يُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والإِنجيل من قبل هذا القرآن - من مسلمي أهل الكتاب - هم بهذا القرآن يصدقون. قال ابن عباس: يعني من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب[1] ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ أي وإِذا قرئ عليهم القرآن قالوا: صدقنا بما فيه ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ أي كنا من قبل نزوله موحدين لله، مستسلمين لأمره، مؤمنين بأنه سيبعث محمد ويُنزل عليه القرآن قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الجميلة يعطون ثوابهم مضاعفاً: مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن، وفي الحديث «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ...»[2] الحديث. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على اتباع الحق، وتحملهم الأذى في سبيل الله. قال قتادة: نزلت في أناس من أهل الكتاب، كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها وينتهون إليها، حتى بعث الله محمداً ﷺ فآمنوا به وصدقوه، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا، وذكر أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام[3] ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي ويدفعون الكلام القبيح كالسب والشتم بالحسنة أي الكلمة الطيبة الجميلة. قال ابن كثير: لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون[4] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومن الذي رزقناهم من الحلال ينفقون في سبيل الخير ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي وإِذا سمعوا الشتم والأذى من الكفار وسمعوا ساقط الكلام، لم يلتفتوا إليه ولم يردوا على أصحابه ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي لنا طريقنا ولكم طريقكم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي سلام متاركة ومباعدة. قال الزجاج: لم يريدوا التحية وإِنما أرادوا بيننا وبينكم المتاركة ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم. قال الصاوي: كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون: تبًّا لكم أعرضتم عن دينكم وتركتموه! فيعرضون عنهم ويقولون: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم[5]. مدحهم تعالى بالإِيمان، ثم مدحهم بالإِحسان، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان، ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية أحد، مهما بذلت فيه من مجهود، وجاوزت في السعي كل حدٍ معهود ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي ولكنه تعالى بقدرته يهدي من قدّر له الهداية، فسلّم أمرك إليه فإِنه أعلم بأهل السعادة والشقاوة ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو تعالى العالم بمن فيه استعداد للهداية والإِيمان فيهديه. قال المفسرون: نزلت في عمه أبي طالب حين حرص عليه الإِسلام عند موته فأبى، قال أبو حيان: ومعنى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي لا تقدر على خلق الهداية فيه .. ثم قال: ولا تنافي بين هذا وبين قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأن معنى هذا: وإِنك لترشد، وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي

---

(1) الطبري ٢٠/٥٦.
(2) أخرجه مسلم.
(3) الطبري ٢٠/٥٦.
(4) مختصر ابن كثير ٣/١٨.
(5) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٢١.

طالب»(١). ثم ذكر تعالى شبهة من شبهات المشركين وردّ عليها بالبيان الواضح فقال: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي وقال كفار قريش: إن اتبعناك يا محمد على دينك وتركنا دين آبائنا، أن تتخطفنا العرب فيجتمعوا على محاربتنا، ويخرجونا من أوطاننا، قال المبرد: والتخطف الانتزاع بسرعة، قال تعالى رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ أي أو لم نعصم دماءهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت العتيق؟ فكيف يكون الحرم آمناً لهم في حال كفرهم، ولا يكون أمناً لهم في حال إسلامهم؟ ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي تُجلب إليه الأرزاق من كل مكان مع أنه بوادٍ غير ذي زرع رزقاً لهم من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة لا يتفكرون في ذلك ولا يتفطنون، قال أبو حيان: قطع الله حجتهم بهذا البيان لأنهم إذا كانوا وهم كفار بالله عباد أصنام قد أمنوا في حرمهم، والناس في غيره يتخاطفون وهم مقيمون في بلد غير ذي زرع، يجبى إليهم ما يحتاجون من الأقوات، فكيف إذا آمنوا واهتدوا؟!(٢) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي وكثير من أهل قرية طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فدمّر الله عليهم وخربت ديارهم ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي فتلك مساكنهم خاويةً بما ظلموا لم تسكن من بعد تدميرهم إلا زمناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة والمسافرون يوماً أو بعض يوم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي وكنا نحن الوارثين لأملاكهم وديارهم، قال في البحر: وهذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم، من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش، فكفروا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر فدمرهم الله وخرب ديارهم(٣) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أي ما جرت عادة الله ولا من شأنه أن يهلك أهل القرى الكافرة ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي حتى يبعث في أصلها وعاصمتها رسولاً ينذرهم رسالة الله لقطع الحجج والمعاذير ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ أي وما كنا لنهلك القرى إلا وقد استحق أهلها الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم ببعثة المرسلين. قال المفسرون: أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم، وفي هذا بيانٌ لعدله وتقدسه عن الظلم، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه تعالى بأحوالهم حجة عليهم(٤) ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي وما أعطيتم أيها الناس من مال وخير فهو متاع قليل تتمتعون به في حياتكم ثم ينقضي ويفنى، قال ابن كثير: يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة، والزهرة الفانية، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم(٥) ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي وما عنده من الأجر

---

(١) البحر المحيط ٧/١٢٤ وانظر سبب النزول الذي ذكرناه سابقاً.
(٢) البحر المحيط ٧/١٢٦. (٣) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٤) القرطبي ١٣/٣٠٢. (٥) مختصر ابن كثير ٣/٢٠.

بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بجنات النعيم، قال الصاوي: والترجّي في القرآن بمنزلة التحقيق، لأنه وعد كريم من ربٍّ رحيم، ومن شأنه تعالى أنه لا يخلف وعده[1] ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي هو تعالى الخالق المتصرف، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، ولا اعتراض لأحدٍ على حكمه، قال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي ما كان لأحدٍ من العباد اختيار، إنما الاختيار والإرادة لله وحده ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزّه الله العظيم الجليل وتقدّس أن ينازعه أحد في ملكه، أو يشاركه في اختياره وحكمته قال القرطبي: المعنى: وربك يخلق ما يشاء من خلقه، ويختار من يشاء لنبوته، والخيرة له تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة، فليس لأحدٍ من خلقه أن يختار عليه[2] ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي هو تعالى العالم بما تخفيه قلوبهم من الكفر والعداوة للرسول وللمؤمنين، وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن في شخص رسوله الكريم حيث يقولون: ما أنزل الله الوحي إلا على يتيم أبي طالب! ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو جلّ وعلا الله المستحق للعبادة، لا أحد يستحقها إلا هو ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي له الثناء الكامل في الدنيا والآخرة، لأنه تعالى المتفضل على العباد بالنعم كلها في الدارين ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي وله القضاء النافذ والفصل بين العباد ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التشبيه البليغ ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس، حذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغًا، قال في حاشية البيضاوي: أي مشبهًا بأنوار القلوب من حيث إن القلوب لو كانت خالية عن أنوار التوراة وعلومها لكانت عمياء لا تستبصر، ولا تعرف حقًا من باطل[3].

٢- المجاز العقلي ﴿أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ المراد به الأمم لأنهم يخلقون في تلك الأزمنة فنسب إلى القرون بطريق المجاز العقلي.

٣- جناس الاشتقاق ﴿تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾.

٤- المجاز المرسل ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ المراد بما كسبوا وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، قال الزمخشري: ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي جعل كل عمل معبرًا عنه باجتراح الأيدي[4].

٥- حذف الجواب لدلالة السياق ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ حذف منه الجواب وتقديره،

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٣٢. (٢) القرطبي ١٣/٣٠٥ بشيء من الاختصار.
(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٥١٥. (٤) الكشاف ٣/٣٢٠.

ما أرسلناك يا محمد رسولاً إليهم وهو من باب الإيجاز بالحذف.

٦- التحضيض ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أي هلاّ أوتي؟ فهي للتحضيض وليست حرف امتناع لوجود.

٧- التعجيز ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ﴾ فالأمر خرج عن حقيقته إلى معنى التعجيز.

٨- طباق السلب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾ ... ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾.

٩- المجاز العقلي ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ نسب الأمن إلى الحرم وهو لأهله.

١٠- أسلوب السخرية والتهكم ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

١١- التشبيه المرسل ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

١٢- الاستعارة التصريحية التبعية ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ﴾ قال الشهاب: استعير العمى لعدم الاهتداء فهم لا يهتدون للأنباء، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم وأصله فعموا عن الأنباء وضمّن معنى الخفاء فعدي بـ (على) ففيه أنواع من البلاغة: الاستعارة، والقلب، والتضمين[1].

١٣- الطباق بين ﴿تُكِنُّ ... و يُعْلِنُونَ﴾ وبين ﴿الْأُولَىٰ ... وَالْآخِرَةِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: من ذكر أن أبا طالب مات على غير الإيمان هو الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، ونقل عن بعض شيوخ الصوفية أنه أسلم قبل موته، وهو معارض للنصوص الكريمة ولعلهم اعتمدوا على بعض أشعار أبي طالب حيث يقول:

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمدٍ مِنْ خيرِ أديانِ البريةِ دينا
واللهِ لن يصلوا إليكَ بجمعهم حتى أُوسَّدَ في الترابِ دفينا

أقول: ماذا يغني هذا الكلام بعد امتناعه عن الدخول في الإسلام والنطق بالشهادة؟

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ... إلى ... لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من آية (٥٧) إلى آية (٨٨) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى أنه هو الخالق المختار، وسفّه المشركين في عبادتهم لغير الله، عقّبه بذكر بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه، تذكيراً للعباد بوجوب شكر المنعم، ثم ذكر قصة «قارون» وهي قصة الطغيان بالمال، وما كان من نهايته المشؤومة حيث خسف الله به وبكنوزه الأرض، وهذه هي نتيجة الاستعلاء والغرور والطغيان.

اللغَة: ﴿سَرْمَدًا﴾ السرمد: الدائم الذي لا ينقطع، ومنه قول طرفة:

---

[1] نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي.

لعمرك ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ ... نهاري ولا ليلي عليَّ بسرمد[1]

﴿لَتَنُوٓأُ﴾ ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ جمع مَفْتَح (بالكسر) وهو ما يفتح به، وأما المفتاح فجمعه مفاتيح «تنوء» ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، قال ذو الرمة:

تنوء بأخراها فلأياً قيامها ... وتمشي الهوينى عن قريب فتبهر[2]

«العصبة» الجماعة الكثيرة ومثلها العصابة ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ سميت الجماعة عُصبة؛ لأن بعضهم يتعصب لبعض ويتقوى به ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ قال الجوهري «وي» كلمة تعجب وقد تدخل على «كأنّ» فتقول: ويكأنّ، وقيل: إنها كلمة تستعمل عند التنبه للخطأ وإظهار الندم، قال الخليل: إن القوم تنبهوا وقالوا نادمين على ما سلف منهم: وي[3] ﴿ظَهِيرًا﴾ معيناً ومساعداً.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

---

(١) القرطبي ١٣/٣٠٨ (٢) البحر المحيط ٧/١٣٢

(٣) التفسير الكبير للرازي ٢٥/١٩.

يثقل على الجماعة أصحاب القوة حمل مفاتيح خزائنه لكثرتها وثقلها فضلاً عن حمل الخزائن والأموال، والآية تصويرٌ لما كان عليه قارون من كثرة المال والغنى والثراء ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تأشر ولا تبطر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه، ويتكبرون بأموالهم على عباد الله ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قال الحسن: أي لا تضيّع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه[1] ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا تطلب بهذا المال البغي والتطاول على الناس، والإفساد في الأرض بالمعاصي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يحب من كان مجرمًا باغيًا مفسدًا في الأرض ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ لمّا وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم والتكبر عن قبول الموعظة، والمعنى: إنما أُعطيت هذا المال على علم عندي بوجوه المكاسب، ولولا رضى الله عني ومعرفته بفضلي واستحقاقي له ما أعطاني هذا المال! قال تعالى ردًّا عليه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي أولم يعلم هذا الأحمق المغرور أن الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدنًا وأكثر مالاً؟! قال البيضاوي: والآية تعجبٌ وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة، وسمعه من حفاظ التواريخ[2] ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها؛ لأنه عالمٌ بكل شيء، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم بل متى حقّ عليهم العذاب أهلكهم بغتة، ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بنصيحة قومه، بل تمادى في غطرسته وغيّه فقال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أي: فخرج قارون على قومه في أظهر زينةٍ وأكملها، قال المفسرون: خرج ذات يوم في زينة عظيمة بأتباعه الكثيرين، ركبانًا متحلين بملابس الذهب والحرير، على خيولٍ مرصّعة بالذهب، ومعه الجواري والغلمان في موكب حافلٍ باهر ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ أي فلما رآه ضعفاء الإيمان ممن تخدعهم الدنيا ببريقها وزخرفها وزينتها قالوا: يا ليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أُعطيه قارون!! ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب وافر من الدنيا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي وقال لهم العقلاء من أهل العلم والفهم والاستقامة: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا الكلام فإن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين خيرٌ مما ترون وتتمنون من حال قارون، قال الزمخشري

---

(١) وقيل: معناه: لا تنس عمرك بترك الأعمال الصالحات. وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد، وما قاله الحسن وقتادة أظهر وهو اختيار ابن كثير.

(٢) البيضاوي ٢/ ٩٥.

أصل «ويلك» الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع، والبعث على ترك ما لا يرتضى ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أي ولا يُعطى هذه المثوبة والمنزلة في الآخرة إلا الصابرون على أمر الله، قال تعالى منبهًا لنهايته المشئومة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ أي جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه جزاءً على عتوه وبطره ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ما كان له أحد من الأنصار والأعوان يدفعون عنه عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أي وما كان من المنتصرين بنفسه بل كان من الهالكين ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي وصار الذين تمنوا منزلته وغناه بالأمس القريب بعد أن شاهدوا ما نزل به من الخسف ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي يقولون ندمًا وأسفًا على ما صدر منهم من التمني: اعجبوا أيها القوم من صنع الله، كيف أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده - بحسب مشيئته وحكمته - لا لكرامته عليه، ويضيّق الرزق على من يشاء - لحكمته وقضائه ابتلاءً - لا لهوانه عليه[1] قال الزمخشري «ويكأنّ» كلمتان: «وي» مفصولة عن «كأنّ» وهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم، ومعناه أن القوم تنبهوا إلى خطئهم في تمنيهم منزلة قارون وتندموا[2] وقالوا: ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي لولا أن الله لطف بنا، وتفضل علينا بالإيمان والرحمة، ولم يعطنا ما تمنينا ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي لكان مصيرنا مصير قارون، ولخسف بنا الأرض كما خسفها به ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي أعجب من فعل الله حيث لا ينجح ولا يفوز بالسعادة الكافرون لا في الدنيا ولا في الآخرة. وإلى هنا تنتهي قصة قارون وهي قصة الطغيان بالمال، بعد أن ذكر تعالى قصة الطغيان بالحكم والسلطان في قصة فرعون وموسى، ثم يأتي التعقيب المباشر في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ الإشارة للتفخيم والتعظيم أي تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدي - التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر - نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر والطغيان، ولا الظلم والعدوان في هذه الحياة الدنيا ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه، ويبتعدون عن عصيانه ويحذرون عقابه ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات فإن الله يضاعفها له أضعافًا كثيرة ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ومن جاء يوم القيامة بالسيئات فلا يجزى إلا بمثلها، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي إن الذي أنزل عليك يا محمد

---

(1) الكشاف ٣/ ١٩٤.

(2) الكشاف ٣/ ١٩٢ وهذا الذي قاله الزمخشري هو مذهب الخليل وسيبويه واختاره الجمهور، قال في الجلالين: «وي» اسم فعل بمعنى أعجب، والكاف بمعنى اللام، والمعنى أعجب لأن الله يبسط. ونقل الطبري عن قتادة أن معنى «ويكأن»: ألم تر أن، وأنها كلمة واحدة، وهو اختيار الطبري، والله أعلم.

القرآن وفرض عليك العمل به ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وهذا وعدٌ من الله بفتح مكة ورجوعه عليه السلام إليها بعد أن هاجر منها، قال ابن عباس: معناه: لرادك إلى مكة، وقال الضحاك: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجُحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه هذه الآية[1] ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ربي أعلم بالمهتدي والضال مني أنا أو أنتم، فهو جلّ وعلا الذي يعلم المحسن من المسيء، ويجزي كلاً بعمله، وهو جواب لقول كفار مكة: إنك يا محمد في ضلال مبين ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي وما كنت تطمع أن تنال النبوة، ولا أن ينزل عليك الكتابُ ولكن رحمك الله بذلك ورحم العباد ببعثتك، قال الفراء، وهذا استثناء منقطع والمعنى: إلا أن ربك رحمك فأنزله عليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي لا تكن عونًا لهم على دينهم، ومساعدًا لهم على ضلالهم، بالمداراة والمجاملة ولكن نابذهم وخالفهم، قال المفسرون: دعا المشركون الرسول إلى دين آبائه، فأمر بالتحرز منهم وأن يصدع بالحق، والخطابُ بهذا وأمثاله له عليه السلام، والمراد أمته لئلا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين، ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع ما أنزل الله إليك من الآيات البينات ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي وادع الناس إلى توحيد ربك وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي بمسايرتهم على أهوائهم، فإن من رضي بطريقتهم كان منهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي لا تعبد إلهًا سوى الله ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله تعالى، قال البيضاوي: وهذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين من مساعدته لهم[2] ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي كل شيء يفنى ويبقى ذاتُه المقدسة، أطلق الوجه وأراد ذات الله جل وعلا، قال ابن كثير: وهذا إخبار بأنه تعالى الدائم الباقي، الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، فعبّر بالوجه عن الذات كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي له القضاء النافذ في الخلق، وإليه مرجعهم جميعًا يوم المعاد لا إلى أحدٍ سواه.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التبكيت والتوبيخ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾؟ ومثل: ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ﴾؟

٢ - اللف والنشر المرتب ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ جمع الليل والنهار ثم قال: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ فأعاد السكن إلى الليل، والابتغاء لطلب الرزق إلى النهار، ويسمى هذا عند علماء البديع اللف والنشر المرتب، لأن الأول عاد على الأول، والثاني عاد على الثاني وهو من المحسنات البديعية.

(١) تفسير ابن الجوزي ٦/ ٢٤٩ ومختصر ابن كثير ٣/ ٢٩
(٢) البيضاوي ٢/ ٩٦

٣- جناس الاشتقاق ﴿لا تفرح ... الفرحين﴾ ومثله ﴿الفساد ... والمفسدين﴾.

٤- تأكيد الجملة بـ(إن) و(اللام) ﴿إنه لذو حظ عظيم﴾، لأن السامع شاك ومتردد.

٥- الكناية ﴿تمنوا مكانه بالأمس﴾ كنى عن الزمن الماضي القريب بلفظ الأمس.

٦- الطباق ﴿يبسط الرزق ... ويقدر﴾.

٧- المقابلة اللطيفة ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى ...﴾ الآية.

٨- المجاز المرسل ﴿إلا وجهه﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي ذاته المقدسة ففيه مجاز مرسل.

لطيفة: قال بعض الحكماء: من لم تنفعه القناعة لم يكفه ملك قارون وأنشدوا:

هي القناعة لا ترضى بها بدلاً ... فيها النعيم وفيها راحة البدن

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص.

سورة العنكبوت

بين يدي السورة

سورة العنكبوت مكية، وموضوعها العقيدة في أصولها الكبرى «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان وسنة الابتلاء في هذه الحياة، لأن المسلمين في مكة كانوا في أشد أنواع المحنة والشدة، ولهذا جاء الحديث عن موضوع الفتنة والابتلاء في هذه السورة مطولاً مفصلاً وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء.

* ابتدأت السورة الكريمة بهذا البدء الصريح ﴿الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾؟ وتمضي السورة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون الإيمان كلمة تقال باللسان، فإذا نزلت بهم المحنة والشدة انتكسوا إلى جحيم الضلال، وارتدوا عن الإسلام تخلصاً من عذاب الدنيا، كأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ...﴾ الآيات.

* وتمضي السورة تتحدث عن محنة الأنبياء، وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله، بدءاً بقصة نوح، ثم إبراهيم، ثم لوط، ثم شعيب، وتتحدث عن بعض الأمم الطغاة المتجبرين كعاد، وثمود، وقارون، وهامان، وغيرهم وتذكر ما حل بهم من الهلاك والدمار ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ...﴾ الآيات.

* وفي قصص الأنبياء دروس من المحن والابتلاء، تتمثل في ضخامة الجهد، وضآلة الحصيلة، فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله فما يؤمن معه إلا القليل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ وهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاول هداية قومه بكل وسيلة، ويجادلهم بالحجة والبرهان فما تكون النتيجة إلا العتو والطغيان ﴿قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ...﴾ الآيات.

* وفي قصة لوط يظهر التبجح بالرذيلة دون خجل أو حياء ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ الآيات وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء، تمضي السورة الكريمة تبين صدق رسالة محمد ﷺ فهو رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز، وهذا من أعظم البراهين على أنه كلام رب العالمين ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ وتنتقل السورة للحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية مبثوثة في هذا الكون الفسيح، ثم تختم ببيان جزاء الذين صبروا أمام المحن والشدائد وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي، ووقفوا في وجه المحنة

والإيذاء ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾

التسمية: سميت «سورة العنكبوت» لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المصنوعة، والآلهة المزعومة ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ...﴾ الآيات.

اللغة: ﴿فتنة﴾ الفتنة: الابتلاء والاختبار ﴿أثقالهم﴾ جمع ثقل وهو الحمل الثقيل الذي يجهد الإنسان، والمراد بالأثقال هنا الذنوب والأوزار ﴿لبث﴾ أقام ومكث ﴿إفكاً﴾ كذباً وزوراً ﴿تقلبون﴾ ترجعون وتردون.

سبب النزول: عن سعد بن أبي وقاص قال: «كنت رجلاً باراً بأمي فلما أسلمت، قالت: يا سعد ما هذا الدين الذي أحدثت يا سعد؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلي يا أماه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء أبداً. قال: فمكثت يوماً وليلة لا تأكل، فأصبحت وقد جهدت، ثم مكثت يوماً وليلة لا تأكل، فلما رأيت ذلك قلت تعلمين والله يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء أبداً، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت، فأنزل الله هذه الآية ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ...﴾ الآية»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (٣) أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون (٤) من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم (٥) ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين (٦) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون (٧) ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (٨) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين (٩) ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين (١٠) وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين (١١) وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون (١٢) وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون (١٣) ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون (١٤) فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين (١٥) وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ١٩٥ وفي بعض الروايات كانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها أي أدخلوا فيه عوداً ليفتحوه.

تعلمون ⑯ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ⑰ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ⑱ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ⑲ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ⑳ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ㉑ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ㉒ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ㉓ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ㉔ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ㉕ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ㉖ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾

التفسير: ﴿الم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن(١) ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾؟ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي أظنَّ الناس أن يُتركوا من غير افتتان لمجرد قولهم باللسان آمنا؟ لا ليس كما ظنوا بل لا بدَّ من امتحانهم ليتميز الصادق من المنافق. قال ابن جزي: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين، منهم «عمار بن ياسر» وغيره، وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، فضاقت صدورهم بذلك فآنسهم الله بهذه الآية ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى، والثبات على الإيمان، وأعلمهم أن تلك سيرته في عباده يسلط الكفار على المؤمنين ليمحصهم بذلك، ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب(٢) ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ أي ولقد اختبرنا وامتحنا من سبقهم بأنواع التكاليف والمصائب والمحن، قال البيضاوي: والمعنى أن ذلك سنة قديمة، جارية في الأمم كلها، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه(٣) ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ أي فليميزن الله بين الصادقين في دعوى الإيمان وبين الكاذبين فيه، وعبّر عن الصادقين بلفظ الفعل ﴿الذين صدقوا﴾ وعن الكاذبين باسم الفاعل ﴿الكاذبين﴾ للإشارة إلى أن الكاذبين وصفهم مستمر وأن الكذب راسخ فيهم بخلاف الصادقين فإن الفعل يفيد التجدد، قال الإمام الفخر: إن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر ورسوخه فيه، والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال: فلانٌ شرب الخمر، وفلانٌ شاربُ الخمر، فإنه لا

(١) انظر ما كتبناه عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.
(٢) التسهيل ٣/١٠٢ (٣) البيضاوي ٢/٨٧

المعذبين فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم: آمنا بالله فإذا أوذي أحدهم بسبب إيمانه ارتد عن الدين وجعل ما يصيبه من أذى الناس صارفاً له عن الإيمان كعذاب الله الشديد الذي يصرف الإنسان عن الكفر. قال المفسرون: ووجه الشبه ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ من حيث إن عذاب الله مانع للمؤمنين من الكفر، فكذلك المنافقون جعلوا أذاهم مانعاً لهم من الإيمان، وكان مقتضى إيمانهم أن يصبروا ويتشجعوا، ويروا في العذاب عذوبة، وفي المحنة منحة، فإن العاقبة للمتقين قال الإمام الفخر: أقسام المكلفين ثلاثة: مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده، وكافر مجاهر بكفره وعناده، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمر الكفر في فؤاده، فلما ذكر تعالى القسمين بقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ذكر القسم الثالث هنا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ واللطيفة في الآية أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر، وخسة المنافق الكافر، فقال هنالك: أوذي المؤمن في سبيل الله فترك سبيله ولم يتركه، وأوذي المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية[illegible] ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي ولئن جاء نصر قريب للمؤمنين، وفتح ومغانم فإن أولئك المذبذبين: إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم، فقاسمونا فيما حصل لكم من الغنائم قال تعالى رداً عليهم ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾؟ استفهام تقرير أي أوليس الله هو العالم بما انطوت عليه الضمائر من خير وشر، وبما في قلوب الناس من إيمان ونفاق؟ بلى إنه بكل شيء عليم، ثم أكد تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي وليظهرن الله لعباده حال المؤمنين وحال المنافقين حتى يتميزوا فيفتضح المنافق، ويظهر شرف المؤمن الصادق. قال المفسرون: والمراد ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ إظهار علمه للناس حتى يصبح معلوماً لديهم، وإلا فالله عالم بما كان، وما يكون، وما هو كائن لا تخفى عليه خافية، فهو إذاً علم إظهار وإبداء، لا علم غيب وخفاء بالنسبة لله تعالى، وقد فسر ابن عباس العلم بمعنى الرؤية[illegible] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي قال الكفار للمؤمنين اكفروا كما كفرنا، واتبعوا ديننا ونحن نحمل عنكم الإثم والعقاب، إن كان هناك عقاب قال ابن كثير: كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في عنقي[illegible]، فإن قيل ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ صيغة أمر، فكيف يصح أمر النفس من الشخص؟ فنقول: الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم، لأنه لا

---

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ٣٧.

(٢) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير في هذا الشأن ٣/ ٢٨ من المختصر.

(٣) ابن كثير المختصر ٣/ ٢٠.

يحمل أحد وزر أحد ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي وإنهم لكاذبون في ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي وليحملُنَّ أوزارهم وأوزار من أضلوهم دون أن ينقص من أوزار أولئك شيء كما في الحديث «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيء»[1] ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي وليسألن سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي عما كانوا يختلقونه من الكذب على الله عز وجل، ثم ذكر تعالى لرسوله ﷺ قصة نوح تسلية له عما يلقاه من أذى المشركين فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أي ولقد بعثنا نوحًا إلى قومه فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى توحيد الله جلَّ وعلا، وكانوا عبدة أصنام فكذبوه ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرُّون على الكفر والضلال قال أبو السعود: والطوفان: كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة، من السيل والريح والظلام، وقد غلب على طوفان الماء[2]، قال الرازي: وفي قوله: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ إشارة إلى لطيفة وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم ولهذا قال: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ يعني أهلكهم وهم على ظلمهم[3] ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ أي فأنجينا نوحًا من الغرق ومن ركب معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه المؤمنين ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وجعلنا تلك الحادثة الهائلة عظة وعبرة للناس بعدهم يتعظون بها ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مسدي لها غيره[4] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي عبادة الله وتقواه خير لكم من عبادة الأوثان إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتفرقون بينهما ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي أنتم لا تعبدون شيئًا ينفع أو يضر، وإنما تعبدون أصنامًا من حجارة صنعتموها بأيديكم ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي وتصنعون كذبًا وباطلًا، قال ابن عباس: تنحتون وتصورون إفكًا[5] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي إن هؤلاء الذين تعبدونهم لا يقدرون على أن يرزقوكم ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي فاطلبوا الرزق من الله وحده، فإنه القادر على ذلك ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي وخصوه وحده بالعبادة واخشعوا واخضعوا له، واشكروه على نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه لا إلى

---

(١) الحديث في الصحيحين. (٢) أبو السعود ٤/١٦٦.
(٣) تفسير الرازي ٢٥/٤٢. (٤) مختصر ابن كثير ٣/٣٢.
(٥) هذا هو الظاهر أنها من الخلق وهو قول مجاهد والحسن واختاره ابن جرير، وقيل: إنه من الاختلاق أي تختلقون وتقولون الكذب.

غيره ومرجعكم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد أي وإن تكذبوني فلن تضروني بتكذيبكم وإنما تضرون أنفسكم فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم فحلّ بهم عذاب الله، وسيحل بكم ما حل بهم (١) ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، وليس عليه هداية الناس قال الطبري: ومعنى ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي الذي يبين لمن سمعه ما يُراد به، ويفهم منه ما يعني به (٢) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الاستفهام للتوبيخ للمنكري الحشر أي أولم ير المكذبون بالدلائل الساطعة كيف خلق تعالى الخلق ابتداءً من العدم، فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر؟ قال قتادة: المعنى أولم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله الأجسام بعد الموت؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي سهل عليه تعالى فكيف ينكرون البعث والنشور؟ فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة، قال القرطبي: ومعنى الآية على ما قاله المفسرون: أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدًا، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدًا، وخلق من الولد ولدًا، وكذلك سائر الحيوان، فإذا رأيتم قدرته على الابتداء والإيجاد، فهو القادر على الإعادة؛ لأنه إذا أراد أمرًا قال له كن فيكون (٣) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ أي قل لهؤلاء المنكرين للبعث سيروا في أرجاء الأرض فانظروا كيف بدأ الله العظيم القدير خلق الخلق على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم الله، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله عز وجل! ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأة أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ومنه البدء والإعادة ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله الخلق والأمر، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي وإليه ترجعون يوم القيامة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي لا تفوتون من عذاب الله، وليس لكم مهربٌ في الأرض ولا في السماء، قال القرطبي: والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله كقوله ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (٤) ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لكم غير الله وليّ يحميكم من بلائه، ولا نصير ينصركم من عذابه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ أي كفروا بالقرآن والبعث ﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ أي أولئك المنكرون

---

(١) قال ابن كثير: والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتج به عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، وذهب الإمام الطبري إلى أن هذا من كلام الله تعالى لكفار مكة، قصد به تسلية النبي ﷺ وليس من كلام إبراهيم، وما ذهب إليه ابن كثير أظهر والله أعلم.

(٢) الطبري ٢٠/٨٩. (٣) القرطبي ١٣/٣٣٦.

(٤) نفس المرجع السابق ١٣/٣٣٧.

أنهم محرومون من رحمتي، قال ابن جرير: وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب(١) ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم عذاب موجع مؤلم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أي فما كان رد قومه عليه حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام إلا أن قال كبراؤهم المجرمون: اقتلوه لتستريحوا منه أو حرّقوه بالنار ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي فألقوه في النار فجعلها بردًا وسلامًا عليه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في إنجائنا لإبراهيم من النار لدلائل وبراهين ساطعة على قدرة الله لقوم يصدقون بوجود الله وكمال قدرته وجلاله ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي قال إبراهيم لقومه توبيخًا لهم وتقريعًا: إنما عبدتم هذه الأوثان والأصنام وجعلتموها آلهة مع الله ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي ثم في الآخرة ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة عداوةً وبغضاء حيث يقع التناكر ويتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة، لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الله ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي ومصيركم جميعًا جهنم وليس لكم ناصر أو معين يخلصكم منها ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ أي فآمن معه لوط وصدّقه وهو ابن أخيه وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي وقال الخليل إبراهيم: إني تاركٌ وطني ومهاجر من بلدي رغبة في رضى الله، قال المفسرون: هاجر من سواد العراق إلى فلسطين والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو العزيز الذي لا يذل من اعتمد عليه، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي وهبنا لإبراهيم - لما فارق قومه في الله - ولدًا صالحًا هو إسحاق وولد ولده وهو يعقوب بن إسحاق ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي خصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، وجعلنا الكتب السماوية نازلة على الأنبياء من بنيه، قال ابن كثير: وهذه خصلة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله إمامًا للناس، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبيٌّ بعد إبراهيم إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده يعقوب، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سوى النبي العربي عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي وتركنا له الثناء الحسن في جميع الأديان ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح، وهذا ثناء عظيم على أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾

---

(١) الطبري ٢٠/ ٩٠.

أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

التفسير: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكر رسولنا لوطًا عليه السلام حين قال لقومه ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي إنكم يا معشر القوم لترتكبون الفعلة المتناهية في القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي لم يسبقكم بهذه الشنيعة والفعلة القبيحة – وهي اللواطة – أحدٌ من الخلق، ثم فسر تلك الشنيعة فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي إنكم لتأتون الذكور في الأدبار وذلك منتهى القذارة والخسة قال المفسرون: لم يقدم أحد قبلهم عليها اشمئزازًا منها في طباعهم لإفراط قبحها حتى أقدم عليها قوم لوط، ولم ينزُ ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط[1] ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ أي وتقطعون الطريق على المارة بالقتل وأخذ المال، وكانوا قطاع الطريق قال ابن كثير: كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم[2] ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ أي وتفعلون في مجالسكم ومنتدياتكم ما لا يليق من أنواع المنكرات علنًا وجهارًا أما كفاكم قبح فعلكم حتى ضممتم إليه قبح الإظهار؟! قال مجاهد: كانوا يأتون الذكور أمام الملأ يرى بعضهم بعضًا، وقال ابن عباس: كانوا يحذفون بالحصى من مر بهم مع التفحش في المزاح، وحل الأزرار، والصفير وغير ذلك من القبائح ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي فما كان ردّ

(١) نقلاً عن البحر المحيط ١٤٩/٧. (٢) مختصر ابن كثير ٣٤/٣.

قومه عليه حين نصحهم وذكّرهم وحذّرهم ﴿إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء: ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تهددنا به من نزول العذاب. قال الإمام الفخر: فإن قيل إن الله تعالى قال ههنا: ﴿إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا﴾ وقال في موضع آخر ﴿إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ فكيف وجه الجمع بينهما؟ فنقول: إن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد، مكرّراً عليهم النهي والوعيد، فقالوا أولاً: ائتنا بعذاب الله، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنه قالوا أخرجوا آل لوط[1]، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة من الله ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي قال لوط: رب أهلكهم وانصرني عليهم فإنهم سفهاء مفسدون لا يرجى منهم صلاح، وقد أغرقوا في البغي والفساد، قال الرازي: واعلم أن نبيّاً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال، ولا يرجى منهم صلاح في المآل طلب لهم العذاب[2] ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ المراد بالرسل هنا «الملائكة» والبشرى هي تبشير إبراهيم بالولد، أي لما جاءت الملائكة تبشر إبراهيم بغلام حليم ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي جئنا لنهلك قرية قوم لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي لأن أهلها مستمرون في الظلم والفساد، طبيعتهم البغي والعناد. قال المفسرون: لما دعا لوط على قومه، استجاب الله دعاءه، وأرسل ملائكته لإهلاكهم، فمرّوا بطريقهم على إبراهيم أولاً فبشروه بغلام وذرية صالحة، ثم أخبروه بما أرسلوا من أجله، فجادلهم بشأن ابن أخيه لوط ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أي كيف تهلكون أهل القرية وفيهم هذا النبي الصالح «لوط»؟ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ أي نحن أعلم به وبمن فيها من المؤمنين، قال الصاوي: وهذه بعض المجادلة التي تقدمت في سورة هود ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ حيث قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا لا، إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيهم مؤمن واحد؟ قالوا لا فقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾[3] ثم بشروه بنجاة لوط والمؤمنين ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي سوف ننجيه مع أهله من العذاب، إلا امرأته فستكون من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم على الكفر، ثم ساروا من عنده فدخلوا على «لوط» في صورة شبان حسان ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ولما دخلوا على لوط حزن بسببهم، وضاق صدره من مجيئهم؛ لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف، فخاف عليهم من قومه، فأعلموه أنهم رسل ربه ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي لا تخف علينا ولا تحزن بسببنا، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي كانت من الهالكين الباقين في العذاب ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ

---

(١) التفسير الكبير ٢٥/٥٩ (٢) التفسير الكبير ٢٥/٥٩

(٣) حاشية الصاوي ٣/٢٣٦.

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي منزلون عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم المستمر، قال ابن كثير: وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد[1] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي ولقد تركنا من هذه القرية علامة بينة واضحة، هي آثار منازلهم الخربة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لقوم يتفكرون ويتدبرون ويستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار. ثم أخبر تعالى عن قصة شعيب فقال ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم مدين أخاهم شعيباً ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي فقال لهم واعظاً ومذكراً: يا قوم وحدوا الله وخافوا عقابه الشديد في اليوم الآخر ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تسعوا بالإفساد في الأرض بأنواع البغي والعدوان ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي فكذبوا رسولهم شعيباً فأهلكهم الله برجفة عظيمة مدمرة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة هائلة أخرجت القلوب من حناجرها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي فأصبحوا هلكى باركين على الركب ميتين ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود، وقد ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجر واليمن آيتنا في هلاكهم أفلا تعتبرون؟! ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي وحسّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصي حتى رأوها حسنة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي فمنعهم عن طريق الحق، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال، لكنهم لم يفعلوا تكبراً وعناداً ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ أي وأهلكنا كذلك الجبابرة الظالمين (قارون) صاحب الكنوز الكثيرة (وفرعون) صاحب الملك والسلطان، ووزيره (هامان) الذي كان يعينه على الظلم والطغيان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ولقد جاءهم موسى بالحجج الباهرة، والآيات الظاهرة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي فتكبروا عن عبادة الله وطاعة رسوله ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي وما كانوا ليفلتوا من عذابنا، قال الطبري: أي ما كانوا ليعجزونا بل كنا مقتدرين عليهم[2] ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ أي فكلاً من هؤلاء المجرمين أهلكناه بسبب ذنبه وعاقبناه بجنايته، قال ابن كثير: أي وكانت عقوبته بما يناسبه[3] ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً عاصفة مدمرة فيها حصباء وحجارة كقوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ أي ومنهم من أخذته صيحة العذاب مع الرجفة كثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أي خسفنا به وبأملاكه الأرض حتى غاب فيها كقارون وأصحابه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ أي أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون لهم ظالماً ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب

---

(1) مختصر ابن كثير ٣/٣٦ (2) الطبري ٢٠/٩٦
(3) مختصر ابن كثير ٣/٣٧

ودمار، ثم ضرب تعالى مثلاً للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله فقال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي مثل الذين اتخذوا من دون الله أصنامًا يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتًا لا يغني عنها في حر ولا برد، ولا مطر ولا أذى قال القرطبي: هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرًا ولا بردًا[1] ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت لضعفه وحقارته، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي هو تعالى عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو جل وعلا العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي وتلك الأمثال نبينها للناس في القرآن لتقريبها إلى أفهامهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي وما يدركها ويفهمها إلا العالمون الراسخون، الذين يعقلون عن الله عز وجل مراده ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحق الثابت لا على وجه العبث واللعب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن في خلقهما بذلك الشكل البديع، والصنع المحكم لعلامة ودلالة للمصدقين بوجود الله ووحدانيته ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي اقرأ يا محمد هذا القرآن المجيد الذي أوحاه إليك ربك، وتقرب إليه بتلاوته وترداده؛ لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي دم على إقامتها بأركانها وشروطها وآدابها، فإنها عماد الدين ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ أي: إن الصلاة الكاملة المستوفية لشروطها وأركانها المستوفية لخشوعها وأحكامها، إذا أداها المصلي كما ينبغي، وكان خاشعًا في صلاته، متذكرًا لعظمة ربه، متدبرًا لما يتلو، نهته عن الفواحش والمنكرات ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا، وهو أن تذكر عظمته وجلاله، وتذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك، وفي أمور حياتك، ولا تغفل عنه في جميع شئونك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم فيجازيكم عليها أحسن المجازاة. قال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال: الإخلاص، والخشية، وذكر الله؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله - القرآن - يأمره وينهاه فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة[2].

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التأكيد بعدة مؤكدات والإطناب بتكرار الفعل تهجينًا لعملهم القبيح وتوبيخًا ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ .. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ الآية.

٢- الاستهزاء والسخرية ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وجواب الشرط محذوف دل عليه السابق أي إن كنت صادقًا فائتنا به.

---

(١) القرطبي ١٣/٣٤٥ نقلاً عن الفراء. (٢) مختصر ابن كثير ٣/٤٨.

فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴿٤٧﴾ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴿٤٨﴾ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴿٤٩﴾ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴿٥٠﴾ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴿٥١﴾ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴿٥٢﴾ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴿٥٣﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿٥٤﴾ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴿٥٥﴾ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴿٥٦﴾ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴿٥٧﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴿٥٨﴾ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴿٥٩﴾ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴿٦٠﴾ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴿٦١﴾ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴿٦٢﴾ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴿٦٣﴾ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴿٦٤﴾ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴿٦٥﴾ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴿٦٦﴾ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴿٦٧﴾ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴿٦٨﴾ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾.

التفسير: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ أي لا تدعوا أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشوهم في أمر الدين إلا بالطريقة الحسنى كالدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه وبيناته ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي إلا من كان ظالماً، محارباً لكم، مجاهراً في عداوتكم، فجادلوهم بالغلظة والشدة. قال الإمام الفخر: إن المشرك لما جاء بالمنكر العظيم كان اللائق أن يجادل بالأخشن، ويبالغ في توهين شبهه وتهجين مذهبه، وأما أهل الكتاب فإنهم آمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام، فلمقابلة إحسانهم يجادلون بالأحسن إلا الذين ظلموا منهم بإثبات الولد لله، والقول بثالث ثلاثة فإنهم يجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم، وتبيين جهالتهم[1] ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ أي وقولوا لهم آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وبالتوراة والإنجيل التي أنزلت إليكم، قال أبو هريرة: كان أهل الكتاب

(١) التفسير الكبير ٢٥/٧٥.

محمد : إنما أمر هذه الخوارق والمعجزات لله وليست بيدي ، إن شاء أرسلها ، وإن شاء منعها ، وليس لأحدٍ دخلٌ فيها ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله ، وليس من شأني أن آتي بالآيات ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ؟ الاستفهام للتوبيخ أي أَلَم يكفِ المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي لا يزال يقرع أسماعهم؟ وكيف يطلبون آية والقرآن أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صحة نبوتك؟ قال ابن كثير : بيَّن تعالى كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد ﷺ ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة سورة منه ، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجلٌ أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب ، وجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى[1] ؟ ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في إنزال هذا القرآن لنعمةً عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة ، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعنت ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي قل لهم : كفى أن يكون الله جلَّ وعلا شاهدًا على صدقي ، يشهد لي أني رسوله ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد ، فلو كنتُ كاذبًا عليه لانتقم مني ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي والذين آمنوا بالأوثان وكفروا بالرحمن ، أولئك هم الكاملون في الخسران حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي يستعجلك يا محمد المشركون بالعذاب يقولون : ﴿أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وهو استعجال على جهة التكذيب والاستهزاء ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي لولا أن الله قدَّر لعذابهم وهلاكهم وقتًا محدودًا لجاءهم العذاب حين طلبوه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وليأتينهم فجأة وهم ساهون لاهون لا يشعرون بوقت مجيئه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ تعجب من قلة فطنتهم ومن تعنتهم وعنادهم والمعنى : كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطة بهم يوم القيامة كإحاطة السوار بالمعصم ، لا مفرَّ لهم منها؟ ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم بهم فقال : ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي يوم يجللهم العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، ومن جميع جهاتهم ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ويقول الله عز وجل لهم : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام وسيء الأعمال ، ثم لما بيَّن تعالى حال المكذبين الجاحدين ، أعقبه بذكر حال الأبرار المتقين فقال ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ خطاب تشريف للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام أي يا من شرفكم الله بالعبودية له هاجروا من مكة إن كنتم في ضيقٍ من إظهار الإيمان فيها ، ولا تجاوروا الظلمة فأرضُ الله واسعة ، قال

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/٤٦ .

﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي وإن الآخرة هي دار الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كان عندهم علم لم يؤثروا دار الفناء على دار البقاء، لأن الدنيا حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة[1] ولقد أحسن من قال:

تأمَّلْ في الوجود بعين فكر ... ترى الدنيا الدنيَّة كالخيال
ومَنْ فيها جميعًا سوف يفنى ... ويبقى وجه ربك ذو الجلال

﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ إقامة حجة ثالثة على المشركين أي دعوا الله عند الشدائد ثم يشركون به في حال الرخاء، والمعنى إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدعاء، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو، وفي لفظ ﴿مخلصين﴾ ضرب من التهكم ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ أي فلما خلَّصهم من أهوال البحر، ونجاهم إلى جانب البر إذا هم يعودون إلى كفرهم وإشراكهم، ناسين ربهم الذي أنقذهم من الشدائد والأهوال ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾ أمرٌ على وجه التهديد أي فليكفروا بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء من البحر، وليتمتعوا في هذه الحياة الدنيا بباقي أعمارهم، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم﴾ أي أولم ير هؤلاء الكفار رؤية تفكر واعتبار، أنا جعلنا بلدهم مكة حرمًا مصونًا من السلب والنهب، آمنًا أهله من القتل والسبي، والناسُ حولهم يُسبون ويُقتلون؟ قال الضحاك: ﴿ويتخطف الناس من حولهم﴾ أي يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا[2] ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ أي أفبعد هذه النعم الجليلة يؤمنون بالأوثان، ويكفرون بالرحمن؟ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بالحق لما جاءه﴾ أي لا أحد أظلم ممن عبد غير الله وكذب بالقرآن حين جاءه ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ ؟ أي أليس في جهنم مأوى وموضع إقامة للكافرين بآيات الله جزاء افترائهم وكفرهم؟ ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ أي والذين جاهدوا النفس والشيطان والهوى والكفرة أعداء الدين ابتغاء مرضاتنا لنهدينهم طريق السير إلينا ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ أي مع المؤمنين بالنصر والعون.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التحضيض ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾

٢ - الطباق ﴿آمنوا بالباطل وكفروا بالله﴾.

٣ - إفادة القصر ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي لا غيرهم

٤ - الإطناب بذكر العذاب مرات للتشنيع على المشركين ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى﴾ ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم﴾ ﴿يوم يغشاهم العذاب﴾ إلخ.

(١) في الحديث الشريف «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء».
(٢) القرطبي ١٣/٣٦٣.

بين يدي السورة

* سورة الروم مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية في إطارها العام، وميدانها الفسيح «الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء».

* ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدثٍ غيبي هام، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في الحرب التي ستقع قريباً بينهما، وقد حدث كما أخبر عنه القرآن، وبذلك تحققت النبوءة، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن أعظم معجزات القرآن.

* ثم تحدثت السورة عن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن، وحزب الشيطان، وأنها معركة قديمة قدم هذه الحياة، فالحرب لا تهدأ ما دام هناك حقٌّ وباطل، وخير وشرٌّ، وما دام الشيطان يحشد أعوانه وأنصاره لإطفاء نور الله، ومحاربة دعوة الرسل الكرام، وقد ساقت الآيات دلائل وشواهد على انتصار الحق على الباطل، في شتى العصور والدهور، وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

* ثم تناولت السورة الحديث عن الساعة والقيامة، وعن المصير المشؤوم لأهل الكفر والضلال في ذلك اليوم العصيب، حيث يكون المؤمنون في روضةٍ يُحبرون، ويكون المجرمون في العذاب محضرون، وتلك نهاية المطاف للأبرار والفجار، والعاقبة المؤكدة للمحسنين والمجرمين.

* وتناولت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية، والدلائل الغيبية، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته، لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان، الذي تخضع له الرقاب، وتعنو له الوجوه، وضربت بعض الأمثلة للتمييز بين من يعبد الرحمن، وبين من يعبد الأوثان.

* وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش، إذ لم تنفعهم الآيات والنذر، وعميت أبصارهم عن الآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، فلا يعتبرون ولا يتعظون، لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون، وكلُّ ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، والتصبر حتى يأتي النصر.

* التسمية: سُميت «سورة الروم» لذكر تلك المعجزة الباهرة، التي تدل على صدق أنباء القرآن العظيم ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ وتلك هي بعض معجزات القرآن.

قال الله تعالى: ﴿الم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٩).

اللغة: ﴿يَغْلِبُونَ﴾ يهزمون ويقهرون ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿السُّوأَى﴾ تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أن الحُسنى تأنيث الأحسن، والسُّوأى: العقوبة المتناهية في السوء ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسرُّون يقال: حبره إذا سرَّه سروراً تهلَّل له وجهه وظهر عليه أثره، قال الجوهري: الحَبْرة: السرور، ويُحبرون: يُنعَّمون ويُسَرُّون ﴿وَعَشِيًّا﴾ العشي: من صلاة المغرب إلى العتمة ﴿تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون وقت الظهيرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ۝ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

التفسير: ﴿الم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ أي هُزم جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ أي وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس وينتصرون عليهم ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ أي في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام، والبِضع: ما بين الثلاث إلى التسع، قال المفسرون: كان بين فارس والروم حرب، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فشق ذلك عليهم، وفرح المشركون بذلك، لأن أهل فارس كانوا مجوساً ولم يكن لهم كتاب، والروم أصحاب كتاب، فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ: إنكم أهل كتاب، والروم أهل

---

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من كتابنا هذا

كتاب، ونحن أُمِّيون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، فلنظهرنَّ عليكم! فقال أبو بكر: لا يُقرُّ الله أعينكم! فأنزل الله ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب، وغلبت الروم فارس وهزمتهم، وفرح المسلمون بذلك، قال أبو السعود: وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة، وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير، ووقع كما أخبر[1] وقال البيضاوي: والآية من دلائل النبوة؛ لأنها إخبار عن الغيب[2] ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ أي لله عز وجل الأمر أولاً وآخراً، من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة، فكل ذلك بأمر الله وإرادته، ليس شيء منهما إلا بقضائه، قال ابن الجوزي: المعنى: إن غلبة الغالب، وخذلان المغلوب بأمر الله وقضائه[3] ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي ويوم يهزم الرومُ الفرسَ ويغلبون عليهم، ويحقق ما وعده الله من غلبتهم يفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس، لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس، وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر، قال ابن عباس: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان، وعبدة النيران ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ينصر من يشاء من عباده، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه وأحبابه ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ أي ذلك وعدٌ مؤكد وعد الله به فلا يمكن أن يتخلف، لأن وعده حق وكلامه صدق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون ذلك لجهلهم وعدم تفكرهم ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي يعلمون أمور الدنيا ومصالحها وما يحتاجون إليه منها من أمور المعاش كالزراعة والتجارة والبناء ونحو ذلك، قال ابن عباس: يعرفون أمر معايشهم متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرسون، وكيف يبنون[4] ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أي وهم عميٌ عن أمر الآخرة، ساهون غافلون عن التفكر فيها والعمل لها، قال الإمام الفخر: ومعنى الآية أن علمهم منحصرٌ في الدنيا، وهم مع ذلك لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذُّها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارُّها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها، وهم عن الآخرة غافلون[5]، ولعل في التنكير بقوله ﴿ظَٰهِرٗا﴾ إشارة إلى أنهم عرفوا القشور، ولم يعرفوا اللباب فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم. ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي أولم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله العظيم الجليل ما خلق السموات والأرض عبثاً، وإنما خلقهما بحكمة بالغة لإقامة الحق لوقت ينتهيان إليه وهو يوم القيامة؟ قال القرطبي: وفي هذا تنبيه على الفناء، وعلى أن لكل مخلوق أجلاً، وعلى ثواب

---

(١) أبو السعود ٤/٢٦٦ — (٢) البيضاوي ٢/١٠٣

(٣) زاد المسير ٦/٢٨٨ — (٤) القرطبي ١٤/٨

(٥) التفسير الكبير ٢٥/٩٧.

المحسن وعقاب المسيء. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ أي وأكثر الناس منكرون جاحدون للبعث والجزاء ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي أولم يسافروا فيبصروا مصارع الأمم قبلهم كيف أهلكوا بتكذيبهم رسلهم فيعتبروا[1]! ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقوى منهم أجساداً، وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي وحرثوا الأرض بالزراعة، وحفروها لاستخراج المعادن، وعمروها بالأبنية الشاهقة، والمصانع الفريدة أكثر مما عمرها هؤلاء. قال البيضاوي: وفي الآية تهكم بأهل مكة من حيث إنهم مغترون بالدنيا، مفتخرون بها، وهم أضعف حالاً فيها، إذ مدار أمرها على التبسط في البلاد، والتسلط على العباد، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة، وهم ضعفاء ملجؤون إلى وادٍ لا نفع فيه[2] ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما كان الله ليهلكهم بغير جرم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب فاستحقوا الهلاك والدمار ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾ أي ثم كانت عاقبة المجرمين العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي لأجل أنهم كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا، استهزءوا بها ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي الله جل وعلا بقدرته ينشئ خلق الناس ثم يعيد حياتهم بعد موتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم إليه مرجعكم للحساب والجزاء ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويحشر الناس للحساب يسكت المجرمون وتنقطع حجتهم، فلا يستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة. قال ابن عباس ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ييأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. قال القرطبي: والمعروف في اللغة: أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته[3] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ أي ولم يكن لهم من الأصنام التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي تبرءوا منها وتبرأت منهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ كرر ذكر قيام الساعة لمزيد التهويل والتخويف، لأن قيام الساعة أمر هائل أي ويوم تقوم القيامة يومئذ يتفرق المؤمنون والكافرون، ويصبحون فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، ولهذا قال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي فأما المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي فهم في رياض الجنة يُسرّون وينعمون ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي وأما الذين جحدوا بالقرآن وكذبوا بالبعث بعد الموت ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي فأولئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي سبحوا الله ونزهوه عما لا يليق به من صفات النقص حين تدخلون في المساء

(١) المراغي ٢١/٢٩. (٢) البيضاوي ٢/١٢٣.
(٣) القرطبي ١٤/١٠.

مميزٌ للآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة[1]. ولقد أحسن من قال:

أَبُنَيَّ إنَّ من الرجالِ بهيمةً ... في صورةِ الرجلِ السميعِ المبصرِ
فطنٌ بكلِّ مصيبةٍ في مالهِ ... فإذا أصيبَ بدينهِ لم يشعرِ

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ... إلى ... سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٠).

المَنَاسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال الناس في الآخرة، وقدرته على البدء والإعادة، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية، في خلق البشر، واختلاف الألسنة والصور، وإحياء الأرض بالمطر، وفي قيام الناس ومنامهم، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق.

اللغَة: ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ جمع آية وهي العلامة على الربوبية والوحدانية ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ تتصرفون في شئون معايشكم ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ لتميلوا إليها وتألفوها ﴿قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون منقادون لإرادته ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الوصف الأعلى في الكمال والجلال ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿مُنِيبِينَ﴾ الإنابة: الرجوع بالتوبة والإخلاص.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ

(١) الكشاف ٣/ ٢١٨.

تعلمون ﴿٣٤﴾ أم أنزلنا عليهم سلطانًا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴿٣٥﴾ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴿٣٦﴾ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿٣٧﴾ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴿٣٨﴾ وما آتيتم من ربًا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴿٣٩﴾ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

التفسير: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أصلكم آدم من تراب، وإنما أضافه لخلق إلى الناس ﴿خلقكم﴾ لأن آدم أصل البشر ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ أي ثم أنتم تتحولون من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر عقلاء، تتصرفون فيما هو قوام معايشكم قال ابن كثير: فسبحان من خلقهم وسيّرهم وسخرهم وصرّفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة[1] ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا﴾ أي ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق لكم من جنسكم ونوعكم نساءً آدميات مثلكم، ولم يجعلهن من جنس آخر، قال ابن كثير: ولو أنه تعالى جعل الإناث من جنس آخر، من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل النفرة، وذلك من تمام رحمته ببني آدم[2] ﴿لتسكنوا إليها﴾ أي لتميلوا إليهن وتألفوهن ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أي وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة، قال ابن عباس: المودة: حب الرجل امرأته، والرحمة: شفقته عليها أن يصيبها بسوء ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي إن فيما ذكر لعبرًا وعظات لقوم يتفكرون في قدرة الله وعظمته، فيدركون حكمته البالغة ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على كمال قدرته، خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها، وخلق الأرض في كثافتها وانخفاضها، واختلاف اللغات من عربية وعجمية، وتركية، ورومية، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر، حتى لا يشتبه شخص بشخص، ولا إنسان بإنسان، مع أنهم جميعًا من ذرية آدم ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ أي لمن كان من ذوي العلم والفهم والبصيرة ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته: نومكم في ظلمة الليل، ووقت القيلولة بالنهار راحة لأبدانكم ﴿وابتغاؤكم من فضله﴾ أي وطلبكم لرزقه بالنهار ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ أي يسمعون سماع تفهم واستبصار ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفًا وطمعًا﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفًا من الصواعق، وطمعًا في الغيث والمطر، قال قتادة: خوفًا

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٠
(٢) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة

للمسافر، وطمعاً للمقيم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي وينزل المطر من السماء فينبت به الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة لا نبات فيها ولا زرع ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في ذلك المذكور لعبراً وعظات لقوم يتدبرون بعقولهم آلاء الله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته أن تستمسك السمواتُ بقدرته بلا عمد، وأن تثبت الأرض بتدبيره وحكمته فلا تتكفأ بسكانها ولا تنقلب بأهلها ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي ثم إذا دعيتم إلى الخروج من القبور، إذا أنتم فوراً تخرجون للجزاء والحساب، لا يتأخر خروجكم طرفة عين، قال المفسرون: وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ويقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمةٌ من الأولين والآخرين، إلا قامت تنظر(١) ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وله جل وعلا كل من في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن ملكاً وخلقاً وتصرفاً لا يشاركه فيها أحد ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي جميعهم خاشعون خاضعون منقادون لأمره تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي وهو تعالى الذي ينشئ الخلق من العدم، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي إعادة الخلق أهونُ عليه من بدئه قال ابن عباس: يعني أيسر عليه، وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هيّنة(٢) قال المفسرون: خاطب تعالى العباد بما يعقلون، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء في تقديركم وحكمكم، فمن قدر على الإنشاء كان البعث أهون عليه حسب منطقكم وأصولكم(٣) ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيه من الجلال والكمال، والعظمة والسلطان ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يصفه به من فيهما وهو أنه الذي ليس كمثله شيء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي القاهر لكل شيء، الحكيم الذي كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة، ثم وضّح تعالى بطلان عبادتهم للأوثان بمثل فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي ضرب لكم أيها القوم مثلاً واقعياً من أنفسكم ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي هل يرضى أحدكم أن يكون عبده ومملوكه شريكاً له في ماله الذي رزقه الله تعالى؟ فإذا لم يرض أحدكم لنفسه ذلك فكيف ترضون لله شريكاً له وهو في الأصل مخلوق وعبدٌ لله؟! ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ هذا من تتمة المثل أي لستم وعبيدكم سواء في أموالكم، ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم، وأنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم، فكيف رضيتم لله شريكاً في خلقه وملكه؟! ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح نبيّن الآيات لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ

(١) الطبري ٢١/٢٢. (٢) البحر المحيط ٧/١٦٨.
(٣) مختصر ابن كثير ٣/٤٤.
(٤) هذا قول، وذهب بعض المفسرين إلى أن أفعل التفضيل ليس على بابه فيكون معنى «أهون» أي وهو هين عليه.

بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (بل) للإضراب أي ليس لهم حجة ولا معقول في إشراكهم بالله بل ذلك بمجرد هوى النفس بغير علم ولا برهان، قال القرطبي: لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها، وتقليد الأسلاف في ذلك[1] ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يهدي من أراد الله إضلاله ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من عذاب الله منقذ ولا ناصر ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي أخلص دينك لله وأقبل على الإسلام بهمة ونشاط ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق وهو الإسلام ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي هذا الدين الحق الذي أمرناك بالاستقامة عليه هو خلقة الله التي خلق الناس عليها وهو فطرة التوحيد كما في الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه [illegible]»[2] الحديث ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير لتلك الفطرة السليمة من جهته تعالى، قال ابن الجوزي: لفظه لفظ النفي ومعناه النهي أي لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها[3] ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي ذلك هو الدين المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر الناس جهلة لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقًا معبودًا ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أقيموا وجوهكم أيها الناس على الدين الحق حال كونكم منيبين إلى ربكم أي راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل، وخافوه وراقبوه في أقوالكم وأعمالكم، وأقيموا الصلاة على الوجه الذي يرضي الله ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي ولا تكونوا ممن أشرك بالله وعبد غيره ثم فسّرهم بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي من الذين اختلفوا في دينهم وغيّروه وبدّلوه فأصبحوا شيعًا وأحزابًا، كلٌّ يتعصب لدينه، وكلٌّ يعبد هواه ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل جماعة وفرقة متمسكون بما أحدثوه، مسرورون بما هم عليه من الدين المعوج، يحسبون باطلهم حقًا قال ابن كثير: أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة - مما عدا أهل الإسلام - فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومذاهب باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء[4] ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي وإذا أصاب الناس شدةٌ وفقر ومرض وغير ذلك من أنواع البلاء ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي أفردوه تعالى بالتضرع والدعاء لينجوا من ذلك الضرر، وتركوا أصنامهم لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله تعالى، فلهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي ثم إذا أعطاهم السعة والرخاء والصحة وخلصهم من ذلك الضر والشدة، إذا جماعة منهم يشركون بالله ويعبدون معه غيره، والغرض من الآية التشنيع على المشركين، فإنهم يدعون الله في الشدائد ويشركون به في الرخاء ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أمرٌ على وجه التهديد أي ليكفروا بنعم الله،

---

(١) القرطبي ١٤/٣٢.
(٢) الحديث أخرجه الشيخان.
(٣) زاد المسير ٦/٣٠٢.
(٤) مختصر ابن كثير ٣/٥٥.

وليتمتعوا في هذه الدنيا فسوف تعلمون أيها المشركون عاقبة تمتعكم بزينة الحياة ونعيمها الفاني ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: هل أنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة قاهرة على شركهم، أو كتاباً من السماء فهو ينطق ويشهد بشركهم وبصحة ما هم عليه؟ ليس الأمر كما يتصورون، والمراد: ليس لهم حجة بذلك ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ أي وإذا أنعمنا على الناس بالخصب والسعة والعافية استبشروا وسروا بها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي وإن أصابهم بلاءٌ وعقوبة بسبب معاصيهم إذا هم ييأسون من الرحمة والفرج، قال ابن كثير: وهذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله، إذا أصابته نعمة بطر، وإذا أصابته شدة قنط وأيس[١] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي أولم يروا قدرة الله في البسط والقبض، وأنه تعالى يوسّع الخير في الدنيا لمن يشاء ويضيّق على من يشاء؟ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط من رحمته تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنّ في المذكور لدلالة واضحة على قدرة الله لقوم يصدقون بحكمة الخالق الرازق ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي فأعط القريب حقَّه من البر والصلة وكذلك المسكين والمسافر الذي انقطع في سفره أعطه من الصدقة والإحسان، قال القرطبي: لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق ويقدر، أمر من وسّع عليه الرزق أن يعطي الفقير كفايته، ليمتحن شكر الغني، والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأمته[٢] ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي ذلك الإيتاء والإحسان خيرٌ للذين يقصدون بعملهم وجه الله ويريدون ثوابه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ أي وما أعطيتم من أموالكم يا معشر الأغنياء على وجه الربا ليزيد مالكم ويكثر به، فلا يزيد ولا يزكو ولا يضاعف عند الله لأنه كسبٌ خبيثٌ لا يبارك الله فيه، قال الزمخشري: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ سواءً بسواء[٣] ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي وما أعطيتم من صدقة أو إحسان خالصًا لوجه الله الكريم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي فأولئك هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب، الذين تضاعف لهم الحسنات ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي الله جل وعلا هو الخالق الرازق للعباد، يخرج الإنسان من بطن أمه عُريانًا لا علم له ولا سمع ولا بصر، ثم يرزقه بعد ذلك المال والمتاع والأملاك ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم يوم القيامة، ليجازيكم على أعمالكم ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؟ أي هل يستطيع أحد ممن تعبدونهم من دون الله أن يفعل شيئًا من ذلك؟ بل الله تعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه جل وعلا وتقدس عن أن يكون له

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/٥٥. (٢) القرطبي ١٤/٣٥.
(٣) الكشاف ٣/٣٧٩

بمجازي المؤمنين بفضله ، والكافرين بعدله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته أن يرسل الرياح تسوق السحاب مبشرة بنزول المطر والإنبات والرزق ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي وليذيقكم من رحمته الغيث الذي يحيي به البلاد والعباد ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ أي ولتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ تسلية للرسول وتأنيس له بقرب النصر أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً كثيرين إلى قومهم المكذبين كما أرسلناك رسولاً إلى قومك ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الواضحات والحجج الساطعات الدالة على صدقهم ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كان حقًا واجبًا علينا أن ننصر المؤمنين على الكافرين ، والآية اعتراضية جاءت بين الآيات المفصّلة لأحكام الرياح تسلية للنبي عليه السلام ، قال أبو حيان : والآية اعتراض بين قوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ وبين قوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ جاءت تأنيسًا للرسول وتسلية له ، ووعدًا له بالنصر ، ووعيدًا لأهل الكفر[1] ثم ذكر تعالى الحكمة من هبوب الرياح وهي إثارة السحب وإخراج الماء منه فقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي يبعث الرياح تحرك السحاب وتسوقه أمامها ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفًا أو كثيفًا ، مطبقًا أو غير مطبق ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ أي ويجعله أحيانًا قطعًا متفرقة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي فترى المطر يخرج من بين السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي فإذا أنزل ذلك الغيث على من يشاء من خلقه إذا هم يسرون ويفرحون بالمطر ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين قانطين ، قال البيضاوي : والتكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم[2] ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تدبر واستبصار إلى ما ينشأ عن آثار نعمة الله بالمطر من خضرة الأشجار وتفتح الأزهار ، وكثرة الثمار ، وكيف أن الله يجعل الأرض تنبت بعد أن كانت هامدة جامدة ؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي إنَّ ذلك القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء ، لا يعجزه شيء ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع بعد خضرته ونموه ريحًا ضارة مفسدة فرأوا الزرع مصفرًا من أثر تلك الريح ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي لمكثوا بعد اصفراره يجحدون النعمة ، بشأنهم أنهم يفرحون عند الخصب ، فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا سابق نعمة الله عليهم ، ثم نبه

---

(١) البحر (٧/١٨٢) . (٢) البيضاوي (٢/١٠٧) .

تعالى أن هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصح ولا تذكير فقال: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي فإنك يا محمد لا تُسمع الأموات، ولا تسمع من كان في أذنيه صممٌ تلك المواعظ المؤثرة، ولو أن أصمَّ ولَّى عنك مدبراً ثم ناديته لم يسمع فكذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع، قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله للكفار فشبههم بالموتى وبالصم والعمي ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي ولست بمرشد من أعماه الله عن الهدى ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي وما تُسمع إلا من يصدق بآياتنا فهم الذين ينتفعون بالموعظة لخضوعهم وانقيادهم لطاعة الله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي والله الذي خلقكم أيها الناس من أصل ضعيف وهو النطفة، وجعلكم تتقلبون في أطوار (الجنين، الوليد، الرضيع، المفطوم) وهي أحوال في غاية الضعف، فصار كأن الضعف مادة خلقتكم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي ثم جعل من بعد ضعف الطفولة قوة الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ أي ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعف الهرم والشيخوخة ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يخلق ما يشاء من ضعف وقوة، وشباب وشيب ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ أي وهو العليم بتدبير الخلق، القدير على ما يشاء، قال أبو حيان: وجعل الخلق من ضعف لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفولته، ثم حال الشيخوخة والهرم، والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدرة الصانع وعلمه[1] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويبعث الناس للحساب يحلف الكافرون المجرمون بأنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعة، قال البيضاوي: وإنما استقلوا مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً منهم[2] ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي كذلك كانوا في الدنيا مصروفين عن الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي وقال العقلاء من أهل الإيمان والعلم رداً عليهم وتكذيباً لهم: لقد مكثتم فيما كتبه الله في سابق علمه إلى يوم البعث الموعود ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه، ولكنكم لم تصدقوا به لتفريطكم في طلب الحق واتباعه، قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي ففي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين اعتذارهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يقال لهم: أرضوا ربكم بتوبة أو طاعة؛ لأنه قد ذهب أوان التوبة ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بيّنا في هذا القرآن العظيم ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والأمثال والأخبار والعبر مما يوضح الحق ويزيل اللبس ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي ووالله لئن جئتهم يا محمد بما اقترحوا من الآيات كالعصا والناقة والله ليقولن المشركون من قومك لفرط عنادهم ما أنت وأصحابك إلا قوم مبطلون؛ تدجلون علينا وتكذبون ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ

---

(١) البحر (٧/١٨٠). (٢) البيضاوي (٢/١٠٨).

النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الم ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۞ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ .

التفسير: ﴿الم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز الذي أعجز العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية (ألف، لام، ميم) وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية، وهم عاجزون أن يؤلفوا منها كتابًا مثل هذا الكتاب بعد التحدي والإفحام، وهذا من أظهر الدلائل وأوضح البراهين على أنه تنزيل الحكيم العليم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه آيات الكتاب البديع، الذي فاق كل كتاب في بيانه، وتشريعه، وأحكامه ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي ذي الحكمة الفائقة، والعجائب الرائقة، الناطق بالحكمة والبيان، والإشارة بالبعيد عن القريب ﴿تِلْكَ﴾ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي هداية ورحمة للمحسنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا، وإنما خصّوا بالذكر لأنهم هم المنتفعون بما فيه، ثم وضّح تعالى صفاتهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بأركانها وخشوعها وآدابها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يدفعونها إلى مستحقيها طيبة بها نفوسهم ابتغاء مرضاة الله ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يصدقون بالدار الآخرة ويعتقدون بها اعتقادًا جازمًا لا يخالطه شك ولا ارتياب، وكرر الضمير (هم) للتأكيد وإفادة الحصر ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة على نور وبصيرة، ومنهج واضح سديد من الله العزيز الحميد ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، قال أبو حيان: وكرر الإشارة ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ تنبيهًا على عظم قدرهم وفضلهم [2]. ولما ذكر تعالى حال السعداء الذين اهتدوا بكتاب الله وانتفعوا بسماعه، عطف عليهم بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع الغناء والمزامير، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي ومن الناس من يشتري

انظر أسباب النزول للواحدي، وتفسير القرطبي، والبحر المحيط.

- البحر ٧/١٨٣.

ما يلهي عن طاعة الله ويصد عن سبيله مما لا خير فيه ولا فائدة فيه، قال الزمخشري: واللهو كل باطل ألهى عن الخير، نحو السمر بالأساطير، والتحدث بالخرافات المضحكة، وفضول الكلام وما لا ينبغي[1]. وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الآية فقال: والله الذي لا إله إلا هو يكررها ثلاثاً - إنما هو الغناء[2]، وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير[3] ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ليضل الناس عن طريق الهدى، ويبعدهم عن دينه القويم، بغير حجة ولا برهان ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي ويتخذ آيات الله المجيد سخرية واستهزاء، وهذا أدخل في القبح، وأعرق في الضلال ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي وإذا قرئت عليه آيات القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي أعرض وأدبر متكبراً عنها كأنه لم يسمعها، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام، ويجعل نفسه كأنها غافلة ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً يمنعانه من استماع آيات الله ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أنذره يا محمد بعذاب مؤلم مفرط في الشدة والإيلام، ووضع البشارة مكان الإنذار تهكم وسخرية. قال في البحر: تضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه: التولية عن الحكمة ثم الاستكبار عن الحق ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات، ثم الإيغال في الإعراض مشبهاً حال من لم يسمعها، لكونه لا يلقي لها بالاً ولا يلتفت إليها، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب[4]. وبعد ذكر ما أعده للكفار من العذاب الأليم، ذكر ما أعده للمؤمنين من جنات النعيم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وبين حسن النية وإخلاص العمل ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي لهم على إيمانهم واستقامتهم على شريعة الله جنات النعيم، يتنعمون فيها بأنواع الملاذ من المآكل والمشارب والملابس، والنساء والحور العين، وسائر ما أكرمهم الله به من الفضل والإنعام، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين في تلك الجنات، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعداً من الله قطعياً، كائناً لا محالة، لا خلف فيه لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء ليمنعه عن إنجاز وعده، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة. ثم نبه تعالى إلى دلائل قدرته، وآثار عظمته وجلاله لإقامة البراهين على وحدانيته فقال ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلق السموات في سعتها وعظمتها وإحكامها بدون دعائم ترتكز عليها، حال كونكم تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن تستند على شيء، ولا يمسكها إلا قدرة الله العلي الكبير ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي جعل فيها جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب بكم فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها،

---

(١) الكشاف. (٢) الطبري ٢١/٣٩.
(٣) ابن كثير ٣/٤٤٢ بتصرف وانظر أسباب النزول في مقدمة السورة الكريمة.
(٤) البحر المحيط ٧/١٨٤.

أو تهدم بيوتكم بتزلزلها، قال الإمام الفخر: واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح، ولو خلقها تعالى مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة، كما نرى الأراضي الرملية ينتقل الرمل الذي فيها من موضع إلى موضع، فهذه هي حكمة إرسائها بالجبال[1]. فسبحان الكبير المتعال ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي ونشر وفرق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب من مأكول ومركوب، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي فأنبتنا في الأرض من كل نوع من النبات، ومن كل صنف من الأغذية والأدوية ﴿كَرِيمٍ﴾ أي كثير المنافع، بديع الخلق والتكوين[2] ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي هذا الذي تشاهدونه وتعاينونه أيها المشركون هو من مخلوقات الله، فانظروا في السموات والأرض، والإنسان، والنبات، والحيوان، وسائر ما خلق الله ثم تفكروا في آثار قدرته، وبديع صنعه ﴿فَأَرُونِي﴾ ثم أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي أيَّ شيء خلقته آلهتكم التي عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المزعومة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الواضح، فقال: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي بل المشركون في خسران ظاهر، وضلال واضح ما بعده ضلال، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، فهم أضل من الحيوان الأعجم، لأن من عبد صنمًا جامدًا، وترك خالقًا عظيمًا مدبرًا، يكون أحط شأنًا من الحيوان.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - وضع المصدر للمبالغة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢ - الإشارة بالبعيد ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ عن القريب (هذه) لبيان علو الرتبة ورفعة القدر والشأن.

٣ - الإطناب بتكرار الضمير واسم الإشارة ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لزيادة الثناء عليهم والتكريم لهم، كما أن الجملة تفيد الحصر أي هم المفلحون لا غيرهم.

٤ - الاستعارة التصريحية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ شبه حالهم بحال من يشتري سلعة وهو خاسر فيها، واستعار لفظ يشتري لمعنى يستبدل بطريق الاستعارة التصريحية

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٥/ ١٤٣).

(٢) يقول سيد قطب رحمه الله في تفسيره الظلال: والنص القرآني يقرر أن الله أنبت النبات أزواجاً ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ وهي حقيقة ضخمة اهتدى إليها العلم قريباً جداً، فكل نبات له خلايا تذكير وخلايا تأنيث، إما مجتمعة في زهرة واحدة، أو في زهرتين في عود واحد، وإما منفصلة في عودين أو شجرتين، ولا توجد الثمرة إلا بعد لقاء وتلقيح بين زوج النبات، كما هو الشأن في الإنسان والحيوان على السواء.

العباد ، محمود على كل حال ، مستحق للحمد لذاته وصفاته، قال الرازي: المعنى أن الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفر الكافر ، فهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أم لم يشكروه[1]. ثم ذكر تعالى بعض نصائح لقمان لابنه وبدأ بالتحذير له من الشرك ، الذي هو نهاية القبح والشناعة فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي واذكر لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده حين قال له واعظًا ناصحًا مرشدًا: يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحدًا ، بشرًا أو صنمًا أو ولدًا ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي إن الشرك قبيح ، وظلم صارخ لأنه وضع للشيء في غير موضعه ، فمن سوّى بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله والصنم فهو - بلا شك - أحمق الناس ، وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة ، وحريٌّ به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي حملته جنينًا في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفًا على ضعف ، من حين الحمل إلى حين الولادة ، لأن الحمل كلما ازداد وعظم ، ازدادت به ثقلاً وضعفًا ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي وفطامه في تمام عامين ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ أي وقلنا له: اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان ، واشكر والديك على نعمة التربية ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي إليّ المرجع والمآب فأجازي المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته قال ابن جزي: وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ تفسير للوصية ، واعترض بينها وبين تفسيرها بقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ ليبين ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها ، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب[2] ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي وإن بذلا جهدهما ، وأقصى ما في وسعهما؛ ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف والإحسان إليهما - ولو كانا مشركين - لأن كفرهما بالله لا يستدعي ضياع المتاعب التي تحملاها في تربية الولد ، ولا التنكر للجميل ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي واسلك طريق من رجع إلى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مرجع الخلق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم ، والحكمة من ذكر الوصية بالوالدين - ضمن وصايا لقمان - تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقبيح أمر الشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فكأنه تعالى يقول: مع أننا وصينا الإنسان بوالديه، وأمرناه بالإحسان إليهما والعطف عليهما ، وألزمناه طاعتهما بسبب حقهما العظيم عليه، مع كل هذا فقد نهيناه عن طاعتهما في حالة الشرك والعصيان؛ لأن الإشراك بالله من أعظم الذنوب، وهو في نهاية القبح والشناعة . ثم رجع الكلام إلى وصايا لقمان فقال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/١٤٥) (٢) التسهيل (٣/١٢٦) .

صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة الخردل في الصغر ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي فتكن تلك السيئة - مع كونها في أقصى غايات الصغر - في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة الصماء، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض يحضرها الله سبحانه، ويحاسب عليها، والغرض التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي هو سبحانه لطيف بالعباد خبير أي عالم ببواطن الأمور ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي حافظ على الصلاة في أوقاتها وبخشوعها وآدابها ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي وأمر الناس بكل خير وفضيلة، وانههم عن كل شر ورذيلة ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ أي واصبر على المحن والبلايا، لأن الداعي إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه، قال أبو حيان: لما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك[1] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي إن ذلك المذكور مما عزمه الله وأمر به، قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره، وقال الرازي: معناه أن ذلك من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة، فالمصدر بمعنى المفعول[2] ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمل وجهك عنهم تكبراً عليهم، قال القرطبي: أي لا تمل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً، وتحقيراً لهم، وهو قول ابن عباس[3] ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي ولا تمش متبختراً متكبراً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تعليل للنهي أي لأن الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة لنفسه، ويتكبر على عباد الله، المتبختر في مشيته، والفخور الذي يفتخر على غيره، ثم لما نهاه عن الخلق الذميم، أمره بالخلق الكريم فقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي توسط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي اخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي إن أوحش الأصوات صوت الحمير فمن رفع صوته كان مماثلاً لهم، وأتى بالمنكر القبيح قال الحسن: كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم به الحمير، وقال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين «شكر» و «كفر».

٢ - صيغة المبالغة ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وكذلك ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ و ﴿فَخُورٍ﴾ لأن فعيل وفعول من صيغ المبالغة ومعناه كثير الحمد وكثير الفخر.

٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ وذلك لزيادة العناية والاهتمام بالخاص.

---

(١) البحر المحيط ١٨٨/٧. (٢) تفسير الكبير ١٤٩/٢٥.

(٣) القرطبي ٧٠/١٤.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلموا أيها الناس أن الله العظيم الجليل سخر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بها، وسخر لكم ما في الأرض من جبال وأشجار وثمار وأنهار وغير ذلك مما لا يحصى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي وأتم عليكم أيها الناس نعمه العديدة، الظاهرة المرئية كنعمة السمع والبصر والصحة والإسلام، والباطنة الخفية كالقلب والعقل والفهم والمعرفة وما أشبه ذلك، قال البيضاوي: أي أسبغ عليكم نعمه المحسوسة والمعقولة، ما تعرفونه وما لا تعرفونه(١) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي ومن الناس فريق يجحدون ويخاصمون ويجادلون في توحيد الله وصفاته بغير علم ولا فهم، ولا حجة ولا برهان، ولا كتاب منزل من عند الله، قال القرطبي: نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته(٢)، والمنير: الواضح البين المنقذ من ظلمة الجهل والضلال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل: اتبعوا ما

---

(١) البيضاوي (٢/١٩٠).

(٢) القرطبي (١٤/٧٤) وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، وأبي بن خلف وأشباههما الذين كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله وصفاته بغير علم عقلي ولا نقل شرعي.

أنزل الله على رسوله، وصدّقوا به فإنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي قالوا نسير على طريقة آبائنا ونقتدي بهم في عبادة الأوثان والأصنام ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي يتبعونهم ولو كانوا ضالين، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار المستعرة ذات العذاب الشديد؟ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ومن يقبل على طاعة الله، وينقاد لأوامره، ويخلص قصده وعبادته له ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مؤمن موحد، قال القرطبي: لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع[1]، ونظير الآية ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فلا بد من الإيمان والإحسان ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي تمسك بحبل لا انقطاع له، وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب قال صاحب الكشاف: هذا من باب التمثيل، مثّلت حال المتوكل بحال من تدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة، من حبل متين مأمون انقطاعه[2] وقال الرازي: أوثق العرى جانب الله، لأن كل ما عداه هالك منقطع، وهو باقٍ لا انقطاع له[3] ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي إلى الله وحده - لا إلى أحد سواه - مرجع ومصير الأمور كلها فيجازي العامل عليها أحسن الجزاء ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ تسلية للرسول ﷺ أي لا يهمنك يا محمد كفر من كفر، ولا ضلال من ضل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإنا سننتقم منهم إن عاجلاً أو آجلاً ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي إلينا رجوعهم، فنخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عليم بما في قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليه ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي نمتعهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب شديد هو عذاب النار، الفظيع الشاق على النفس، ثم لما بيّن تعالى استحقاقهم للعذاب، بيّن تناقضهم في الدنيا وهو اعترافهم بأن الله خالق السموات والأرض، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها ملك له وإنها مخلوقاته فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من كفار مكة: من خلق السموات والأرض؟ ليقولن - لغاية وضوح الأمر - الله خلقهن فقد اضطروا إلى الاعتراف به ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي قل لهم: الحمد لله على ظهور الحجة عليكم، وعلى أن دلائل الإيمان ظاهرة للعيان ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يفكرون ولا يتدبرون فلذلك لا يعلمون، ثم قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له جل وعلا ما في الكائنات ملكاً وخلقاً وتدبيراً ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي المستغني عن خلقه وعن عبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي لو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي وجعل البحر بسعته حبراً ومداداً وأمده

---

(١) القرطبي (١٤/٧٤). (٢) الكشاف (٣/٣٩٥).

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٥/١٥١).

سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي لانتهت وفنيت تلك الأقلام والبحار وما انتهت كلمات الله ، لأن الأشجار والبحار متناهية ، وكلمات الله غير متناهية ، قال القرطبي : لما ذكر تعالى أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض ، وأنه أسبغ النعم ، نبه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً ، والبحار لو كانت مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله ، الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب (١) وقال ابن الجوزي : وفي الكلام محذوف تقديره : فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله ، لتكسرت الأقلام ونفدت البحور ولم تنفد كلمات الله أي لم تنقطع (٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب لا يعجزه شيء ، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمر ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي ما خلقكم أيها الناس ابتداء ، ولا بعثكم بعد الموت انتهاء إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، لأنه إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، قال الصاوي : المعنى : أن الله لا يصعب عليه شيء ، بل خلق العالم وبعثه برمته كخلق نفس واحدة وبعثها (٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد ، بصير بأعمالهم ، ثم أشار تعالى إلى دلائل قدرته في الآفاق فقال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية أن الله العظيم الجليل يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار ، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل ، ويزيد في هذا وينقص من هذا حسب الحكمة الأزلية ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذللهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال ، وإتماماً للمنافع ، كل منهما يسير في فلكه إلى غاية محدودة هي يوم القيامة . ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وأنه تعالى عالم بأحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه خافية ، فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق ، والتدبير الفائق - لا يكاد يغفل عن كون صانعه جل وعلا محيطاً بكل أعماله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك الذي شاهدتموه من عجائب الصنع وباهر القدرة لتتأكدوا أن الله هو الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي وأن كل ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له كما قال لبيد : «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» فالجميع خلقه وعبيده ، ولا يملك أحد منهم تحريك ذرة إلا بإذنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي وأنه تعالى هو العلي في صفاته ، الكبير في ذاته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ تذكير بنعمة أخرى أي ألم تر أيها العاقل أن السفن العظيمة تسير في البحر بقدرة الله ، وبتسخيره ولطفه بالناس وإحسانه إليهم ، لتهيئة أسباب الحياة قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن ما

---

(١) القرطبي (١٤/٧٦) .

(٢) زاد المسير (٦/٣٢٦)

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/٢٠٩) .

جرت(١) . ولهذا قال بعده ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ أي ليريكم عجائب صنعه ، ودلائل قدرته ووحدانيته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إنّ في تسخير هذه السفن وما تحمله من الطعام والأرزاق والتجارات لآيات باهرة ، وعبرًا جليلة لكل عبدٍ صبور ، صابر في الضراء ، شكور في الرخاء . والصيغة ﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ مبالغة في الصبر والشكر ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي وإذا علا المشركين وغطاهم وهم في البحر موج كثيف كالجبال ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي أخلصوا دعاءهم لله حين علموا أنه لا منجي لهم غيره فلا يدعون لخلاصهم سواه ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ أي فلما أنقذهم من شدائد البحر ، وأخرجهم إلى شاطئ النجاة في البر ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ في الآية حذفٌ تقديره فمنهم مقتصد ، ومنهم جاحد ، ويدل عليه قوله ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ والمقتصد : المتوسط في العمل ، قال ابن كثير : وهذا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال ، والأمور العظام ، ورأى الآيات الباهرة في البحر ، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، والدءوب في العبادات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرًا(٢) ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي وما يكذب بآياتنا إلا كل غدار ، مبالغ في كفران نعم الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا﴾ أي اتقوا ربكم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ أي وخافوا يومًا رهيبًا عصيبًا لا ينفع والدٌ فيه ولده ، ولا يدفع عنه مضرة ، أو يقضي عنه شيئًا مما تحمله ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ أي ولا ولد يغني أو يدفع عن والده شيئًا أو يقضي عنه شيئًا من جنايته ومظالمه قال الطبري : المعنى : لا يغني ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل ، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا(٣) ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده بالثواب والعقاب ، والبعث والجزاء حق لا يتخلف ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي لا تخدعنكم الحياة الدنيا بمفاتنها وشهواتها فتركنوا إليها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان الماكر الذي يغر الخلق ويمنيهم بالأماني ويلهيهم عن الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ هذه هي مفاتح الغيب التي اختص الله بعلمها وهي خمس كما جاء في الحديث الصحيح «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» وتلا الآية(٤) أي عنده تعالى معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي وعنده معرفة وقت نزول المطر ومحل نزوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي من ذكر أو أنثى ، شقي أو سعيد ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي وما يدري أحد ماذا يحدث له في غده ، وماذا يفعل من خير أو شر ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي كما لا يدري

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/٦٩. (٢) مختصر ابن كثير ٣/٧٠.
(٣) الطبري ٢١/٥٥. (٤) أخرجه البخاري.

أحد أين يموت، ولا في أي مكان يقبر ﴿إن الله عليم خبير﴾ أي مبالغ في العلم، يعلم كل الأمور، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

الطباق بين قوله ﴿ظاهرة﴾ ... ﴿باطنة﴾ وكذلك بين لفظ ﴿الحق﴾ ... و﴿الباطل﴾.

الإنكار والتوبيخ مع التعجب ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان... إلخ.

- المجاز المرسل ﴿ومن يسلم وجهه﴾ أطلق الجزء وأراد الكل فهو مجاز مرسل.

التشبيه التمثيلي ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق حبل، وحذف أداة التشبيه للمبالغة.

- المقابلة بين ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن﴾ وبين ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ الآية.

الاستعارة ﴿عذاب غليظ﴾ استعار الغلظ للشدة لأنه إنما يكون للأجرام فاستعير للمعنى.

- تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي إليه لا إلى أحد غيره.

- صيغ المبالغة في التالي ﴿صبار شكور﴾ و﴿ختار كفور﴾ و﴿عليم خبير﴾ و﴿سميع بصير﴾ كما أن فيها توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع.

تم تفسير سورة لقمان ولله الحمد والمنة.

تفسير سورة السجدة

بين يدي السورة

* سورة السجدة مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الإيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل والبعث والجزاء» والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع «البعث بعد الفناء» الذي طالما جادل المشركون حوله ، واتخذوه ذريعة لتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام .

* تبتدئ السورة الكريمة بنفي الشك والارتياب عن القرآن العظيم ، المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل ، ومع وضوح إعجازه ، وسطوع آياته ، وإشراقة بيانه ، وسمو أحكامه ، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن ، واختلقه من تلقاء نفسه ، فجاءت السورة الكريمة ترد هذا البهتان بروائع الحجة والبرهان .

* ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ببيان آثار قدرة الله في الكائنات العلوية والسفلية ، على طريقة القرآن في لفت الأنظار إلى إبداع الواحد القهار .

* ثم ذكر القرآن شبهة المشركين السخيفة في إنكارهم للبعث والنشور ، ورد عليها بالحجج القاطعة ، والأدلة الساطعة ، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد ، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن ، وروائع الحجة والبيان .

* وتحدثت السورة بالحديث عن يوم الحساب ، وما أعد الله فيه للمؤمنين المتقين من النعيم الدائم في جنات الخلد ، وما أعده للمجرمين من العذاب والنكال في دار الجحيم .

التسمية : سميت (سورة السجدة) لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار ، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

□ □ □

قال الله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ... إلى ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من آية (١) إلى آية (١٧) .

اللغَة : ﴿افْتَرَاهُ﴾ اختلق القرآن من تلقاء نفسه ﴿يَعْرُجُ﴾ يصعد ويرتفع إليه ﴿يُدَبِّرُ﴾ التدبير : رعاية شئون الغير ﴿سُلَالَةٍ﴾ خلاصة [1] ﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيف حقير ﴿سَوَّاهُ﴾ قوّمه بتصوير أعضائه وتكميلها ﴿ضَلَلْنَا﴾ ضعنا وهلكنا وأصله من قول العرب : ضل اللبن في الماء إذا ذهب وضاع ﴿نَاكِسُوا﴾ مطرقو رءوسهم ، يقال : نكس رأسه إذا أطرقه ﴿الْجِنَّةِ﴾ الجن .

---

(١) انظر معنى السلالة بالتوضيح في سورة المؤمنون .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم ۝ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ۝ أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ۝ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ۝ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ۝ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ۝ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ۝ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ۝ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ۝ وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ۝ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ۝ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ۝ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ۝ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ۝ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ۝ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ۝ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ۝﴾

التفسير: ﴿الم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي هذا الكتاب الموحى به إليك يا محمد هو القرآن الذي لا شك أنه من عند الله عز وجل، تنزيل من رب العالمين ﴿أم يقولون افتراه﴾ الضمير يعود لكفار قريش و(أم) بمعنى بل والهمزة أي بل أيقول المشركون: اختلق محمد القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ لا، ليس الأمر كما يدعون ﴿بل هو الحق من ربك﴾ أي بل هو القول الحق، والكلام الصدق المنزل من ربك، قال البيضاوي: أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أنه تنزيل من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك، إنكاراً له وتعجباً منه، ثم بين المقصود من إنزاله[2] بقوله: ﴿لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ أي أنزله إليك لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد، قال المفسرون: هم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وقد جاء الرسل قبل ذلك كإبراهيم وهود وصالح، ولكن لما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله إليهم محمداً ﷺ لينذرهم عذاب الله، ويقيم عليهم الحجة بذلك ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي كي يهتدوا إلى الحق ويؤمنوا بالله العزيز الحميد.. ثم شرع تعالى في ذكر أدلة التوحيد فقال: ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة فنه هامة وكافية.
(٢) البيضاوي (٣/ ١٦١).

المولود. وأضاف الروح إليه تعالى تشريفًا للإنسان، وإيذانًا بأنه خلق عجيب، وصنع بديع، وأن له شأنًا جليلًا مناسبة إلى حضرة الربوبية(1) ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي وخلق لكم هذه الحواس: السمع لتسمعوا به الأصوات، والبصر لتبصروا به الأشخاص، والعقل لتدركوا به الحق والهدى ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي قليلاً شكركم لربكم و(ما) لتأكيد القلة ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وقال كفار مكة المنكرون للبعث والنشور: أئذا هلكنا وصارت عظامنا ولحومنا ترابًا مختلطًا بتراب الأرض حتى غابت فيه ولم تتميز عنه ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي سوف نُخلق بعد ذلك خلقًا جديدًا، ونعود إلى الحياة مرة ثانية؟ وهو استبعاد للبعث مع الاستهزاء ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ أي بل هناك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء، وهو كفرهم وجحودهم بلقاء الله في دار الجزاء ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي قل لهم ردًا على مزاعمهم الباطلة: يتوفاكم ملك الموت الذي وُكّل بقبض أرواحكم هو وأعوانه ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله يوم القيامة للحساب والجزاء. قال ابن كثير: والظاهر أن ملك الموت شخص معين، وقد سُمّي في بعض الآثار بـ(عزرائيل) وهو المشهور، وله أعوان - كما ورد في الحديث - ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت(2) وقال مجاهد: جُمعت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء(3). ثم أخبر تعالى بحال المجرمين يوم القيامة وما هم فيه من الذل والهوان فقال ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ولو ترى أيها المخاطب حال المجرمين يوم القيامة وهم مطرقو رؤوسهم أمام ربهم من الخجل والحياء لرأيت العجب العجاب. قال أبو السعود: وجواب (لو) محذوف تقديره لرأيت أمرًا فظيعًا لا يُقادر قدره من هوله وفظاعته(4) ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي يقولون: ربنا أبصرنا حقيقة الأمر وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل، وكنا عميًا وصمًا ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي فردّنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحًا ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي نحن الآن مصدقون تصديقًا جازمًا، وموقنون أن وعدك حق، ولقاءك حق، قال الطبري: أي أيقنا الآن وحدانيتك، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك، ولا ينبغي أن يكون رب سواك، وأنك تحيي وتميت وتفعل ما تشاء(5). قال تعالى ردًا عليهم: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ أي لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا ولكن ذلك ينافي حكمتنا؛ لأننا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي ولكن ثبت ووجب قولي بعذاب المجرمين، وتقرر وعيدي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأملأن جهنم بالعصاة من الجن والإنس جميعًا ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي يقال لأهل النار على

(1) أبو السعود (٤/١٩٦).
(2) مختصر ابن كثير (٣/٧٣).
(3) الطبري (٢١/٦٤).
(4) أبو السعود (٤/١٩٧).
(5) الطبري (٢١/٦٦).

سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا - بسبب نسيانكم الدار الآخرة وانهماككم في الشهوات - هذا العذاب المخزي الأليم ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي تركناكم اليوم في العذاب كما تركتم العمل بآياتنا ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وذوقوا العذاب الدائم الخالد في جهنم بسبب كفركم وتكذيبكم .. ثم لما ذكر حال الأشقياء وعاقبتهم الوخيمة، أتبعه بذكر حال السعداء وما أعده لهم من النعيم المقيم في دار الجزاء؛ ليظل العبد بين الرهبة والرغبة فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي إنما يصدق بآياتنا المؤمنون المتقون الذين إذا وُعظوا بآياتنا سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعظيمًا لآياته ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي وسبحوا ربهم على نعمائه وهم لا يستكبرون عن طاعته وعبادته ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي تتنحى وتتباعد أطرافهم عن الفرش ومواضع النوم، والغرض: أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة كقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال مجاهد: يعني بذلك قيام الليل ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي يدعون ربهم خوفًا من عذابه وطمعًا في رحمته وثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومما أعطيناهم من الرزق ينفقون في وجوه البر والحسنات ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي فلا يعلم أحد من الخلق مقدار ما يعطيهم الله من النعيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ثوابًا لما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾ .. إلى .. ﴿وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ من آية (١٨) إلى آية (٣٠) نهاية السورة.

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال المجرمين في الآخرة وحال المؤمنين المتقين وما أعده لهم من الكرامة في دار النعيم ذكر هنا أنه لا يتساوى الفريقان: فريق الأبرار وفريق الفجار لأن عدالة الله تقتضي التمييز بين المؤمن الصالح والفاسق الفاجر.

اللغَة: ﴿فَاسِقًا﴾ الفاسق: الخارج عن طاعة الله ﴿نُزُلًا﴾ ضيافة وعطاء والنزل: ما يهيأ للنازل والضيف، قال الشاعر:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

﴿الْجُرُزِ﴾ اليابسة الجرداء التي لا نبات فيها والجرز: القطع، قال الزمخشري: الجرز: الأرض التي جرز نباتها أي قطع إما لعدم الماء أو لأنه رعي وأزيل ولا يقال للتي لا تنبت كالسبخ: جرز[1] ﴿الْفَتْحُ﴾ الحكم، ويقال للحاكم: فاتح وفتاح لأنه يفصل بين الناس بحكمه ﴿يُنظَرُونَ﴾ يمهلون ويؤخرون.

---

(١) الكشاف (٣/٢٠٨).

سبب النزول: روي أنه كان بين (علي بن أبي طالب) و(الوليد بن عقبة بن أبي معيط) تنازع وخصومة، فقال الوليد بن عقبة لعلي: اسكت فإنك صبي، وأنا والله أبسط منك لسانًا، وأشجع منك جنانًا، وأملأ منك حشوًا في الكتيبة، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق فنزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[1].

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝﴾

التفسير: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؟ أي أفمن كان في الحياة الدنيا مؤمنًا متقيًا لله، كمن كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الله؟ ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ أي لا يستوون في الآخرة بالثواب والكرامة، كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾؟ قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عدله وكرمه، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنًا بآياته متبعًا لرسله، بمن كان فاسقًا أي خارجًا عن طاعة ربه، مكذبًا رسل الله[2]، ثم فصَّل تعالى جزاء الفريقين فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أما المصدقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي لهم الجنات التي فيها المساكن والدور والغرف العالية يأوون إليها ويستمتعون بها، قال البيضاوي: فالجنة هي المأوى الحقيقي، والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة[3] ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ضيافة مهيأة ومعدة لإكرامهم كما تهيأ التحف للضيف وذلك بسبب ما قدموه من صالح الأعمال ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي وأما الذين خرجوا عن طاعة الله فملجؤهم ومنزلهم نار جهنم ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي إذا دفعهم لهيب النار إلى أعلاها ردوا إلى موضعهم فيها، قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم[4] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ

---

(1) ذكره الصاوي على الجلالين (٣/ ٢٦٥)، وانظر القرطبي (١٤/ ١٠٥)، وزاد المسير (٦/ ٣٤٠).
(2) مختصر ابن كثير (٣/ ٧٦)
(3) البيضاوي (٢/ ١١٦)
(4) المختصر (٣/ ٧٦).

﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهربون منه، ثم توعدهم بعذاب عاجل في الدنيا فقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ أي ولنذيقنهم من العذاب الأقرب وهو عذاب الدنيا من القتل والأسر والبلايا والمحن، قال الحسن: العذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها مما يبتلى به العبد حتى يتوبوا، وقال مجاهد: القتل والجوع(1).

﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم وهو عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي.. ثم بعد أن توعدهم وهددهم بيَّن استحقاقهم للعذاب فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وُعظ وذُكِّر بآيات الرحمن، ثم ترك الإيمان وتناساها؟ ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي سننتقم ممن كذب بآياتي أشد الانتقام، ووضع الاسم الظاهر مكان الضمير لتسجيل الإجرام عليهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من تلقي القرآن(2) كما تلقى موسى التوراة، والمقصود: تقرير رسالته عليه السلام، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحي سماوي وكتاب إلهي ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي جعلنا التوراة هداية لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي جعلنا منهم قادة وقدوة يقتدى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا ويرشدونهم إلى الدين بأمرنا وتكليفنا ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي حين صبروا على تحمل المشاق في سبيل الله، وكانوا يصدقون بآيات الله أشد التصديق وأبلغه، قال ابن الجوزي: وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم وآمنتم جعلت منكم أئمة(3) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين المؤمنين والكافرين، فيميز بين المحق والمبطل يوم القيامة، ويجازي كلاً بما يستحق، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين، قال الطبري: فيما كانوا فيه يختلفون من أمور الدين والبعث، والثواب والعقاب(4). ثم نبه تعالى على آثار قدرته في مخلوقاته، وأقام الحجة على الكفار بالأمم السالفة الذين كفروا فأهلكهم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم يتبين لهم كثرة من أهلكناهم من الأمم الماضية الذين كذبوا رسل الله؟ ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي حال كون أهل مكة يمرون في ديارهم، ويشاهدون في أسفارهم منازل هؤلاء المهلكين أفلا يعتبرون؟ قال ابن كثير: أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك الظالمين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها

---

(1) قال المفسرون: أصاب أهل مكة القحط والجدب سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب.
(2) ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير يعود إلى موسى أي فلا تكن في شك من لقائك موسى، وما ذكرناه أرجح وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود.
(3) زاد المسير ٦/٣٤١.
(4) الطبري ٢١/٧٦.

ويسمعونها[١] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي إن في إهلاكهم لدلالات عظيمة على قدرتنا ، أفلا يسمعون سماع تدبر واتعاظ ؟ ثم ذكر تعالى دلائل الوحدانية فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي أولم يشاهدوا كمال قدرتنا في سوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها من شدة العطش لنحييها؟ ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ أي فنخرج بذلك الماء أنواع الزروع والثمار ، تأكل منه دوابهم من الكلأ والحشيش ، وأنفسهم من الحب والخضر والفواكه والبقول ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي أفلا يبصرون ذلك فيستدلون به على كمال قدرته تعالى وفضله ، ويعلمون أن الذي أحيا الأرض الميتة قادر على إعادتهم بعد وفاتهم ؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ويقول كفار مكة للمسلمين على سبيل السخرية والتهكم : متى ستنتصرون علينا ويكون لكم الغلبة والفتح علينا ؟ إن كنتم صادقين في دعواكم! قال الصاوي : كان المسلمون يقولون : إن الله سيفتح لنا على المشركين ، ويفصل بيننا وبينهم وكان أهل مكة إذا سمعوهم يقولون بطريق الاستعجال تكذيبا واستهزاء : متى هذا الفتح؟! نزلت[٢] ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخًا وتبكيتًا : إن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي الذي يفصل تعالى فيه بيننا وبينكم ، ولا ينفع فيه الإيمان ولا الاعتذار فلماذا تستعجلون ؟ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا هم يؤخرون ويمهلون للتوبة ، قال البيضاوي : ويوم الفتح هو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكافرين والفصل بينهم ، وقيل : هو يوم بدر[٣] ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء الكفار ولا تبال بهم ﴿وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي وانتظر ما يحل بهم من عذاب الله ، إنهم منتظرون كذلك ما يحل بكم ، قال القرطبي : أي ينتظرون بكم حوادث الزمان[٤] .

البــلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - جناس الاشتقاق مثل «تنذر» و «نذير» وكذلك مثل ﴿وَانتَظِرْ﴾ ... ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾

٢ - الطباق بين ﴿الْغَيْبِ﴾ ... ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وبين ﴿خَوْفًا﴾ ... ﴿وَطَمَعًا﴾ .

٣ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ والأصل «وجعل لهم» والنكتة أن الخطاب إنما يكون من الحي فلما نفخ تعالى الروح فيه حسن خطابه مع ذريته .

٤ - الاستفهام الإنكاري وغرضه الاستهزاء ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ؟ .

٥ - الإضمار ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي يقولون : ربنا أبصرنا وسمعنا

٦ - الاختصاص ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة .

٧ - حذف جواب لو للتهويل ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾ أي لرأيت أمرًا مهولاً

٨ - المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ﴿يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ .. ﴿إِنَّ

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ٧٧) .
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٢٢٦) .
(٣) البيضاوي (٢/ ١٦٣)
(٤) القرطبي (١٤/ ١١٢) .

﴿نسيناكم﴾ فإن الله تعالى لا ينسى وإنما المراد تركناكم في العذاب ترك الشيء المنسي.

٩ - المقابلة اللطيفة بين جزاء الأبرار وجزاء الفجار ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى﴾ .. ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ وهو من المحسنات البديعية.

١٠ - الكناية عن كثرة العبادة والتهجد ليلاً ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾

١١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿أولم يهد لهم﴾؟ ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء﴾؟ ﴿أفلا يسمعون﴾؟ ﴿أفلا يبصرون﴾ وكلها تفيد الزجر والتوبيخ.

١٢ - السجع مراعاة للفواصل ورؤوس الآيات مثل ﴿إنا موقنون﴾ ﴿وهم لا يستكبرون﴾ ﴿إنهم منتظرون﴾ ﴿أفلا تسمعون﴾ وهذا من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن الكريم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة»

بين يدي السورة

* سورة الأحزاب من السور المدنية، التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة، وبالأخص أمر الأسرة، فشرعت الأحكام بما يحقق للمجتمع السعادة والهناء، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل (التبني) و(الظهار)، واعتقاد وجود قلبين للإنسان، وطهرت من رواسب المجتمع الجاهلي، ومن تلك الخرافات والأساطير الموهومة التي كانت متفشية في ذلك الزمان.

* ويمكن أن نلخص المواضيع الكبرى لهذه السورة الكريمة في نقاط ثلاث:

أولاً: التوجيهات والآداب الإسلامية.

ثانياً: الأحكام والتشريعات الإلهية.

ثالثاً: الحديث عن غزوتي (الأحزاب وبني قريظة).

* أما الأولى: فقد جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كآداب الوليمة، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج، وآداب معاملة الرسول ﷺ واحترامه... إلى آخر ما هنالك من آداب اجتماعية.

* وأما الثانية: فقد جاء الحديث عنها في بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار والتبني والإرث، وزواج مطلقة الابن من التبني، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه، وحكم الصلاة على الرسول ﷺ، وحكم الحجاب الشرعي، والأحكام المتعلقة بأمور الطلاق قبل الزفاف.. إلى غير ما هنالك من أحكام تشريعية.

* وأما الثالثة: فقد تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الخندق التي تسمى (غزوة الأحزاب) وصورتها تصويراً دقيقاً بتألب قوى الشر على المؤمنين، وكشفت عن خبايا المنافقين، وحذرت من طرقهم في الكيد والتخذيل والتثبيط، وأفاضت الحديث عنهم في هذه السورة وفي فضحهم، حتى لم تبق لهم ستراً، ولم تخف لهم مكراً، وذكرت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم في رد كيد أعدائهم بإرسال الملائكة والريح، كما تحدثت عن غزوة بني قريظة ونقض اليهود عهدهم مع الرسول ﷺ.

التسمية: سميت سورة الأحزاب لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين، ولكن الله ردهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ... إلى... مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠).

اللغة: ﴿أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ جمع دعي وهو الولد المتبنى من أبناء الغير، قال في اللسان: والدعي: المنسوب إلى غير أبيه قال الشاعر:

دعي القوم ينصر مدعيه ليلحقه بذي النسب الصميم
أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل يقال: أقسط الرجل إذا عدل، وقسط إذا ظلم، والقسط: العدل ﴿مَسْطُورًا﴾ أي مسطرًا مكتوبًا لا يمحى ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين أو نحوه ﴿الْحَنَاجِرَ﴾ جمع حنجرة وهي نهاية الحلقوم مدخل الطعام والشراب ﴿يَثْرِبَ﴾ اسم المدينة المنورة وسماها رسول الله ﷺ طيبة ﴿عَوْرَةٌ﴾ خالية من الرجال غير محصنة، يقال: دار معورة إذا كان يسهل دخولها، قال الجوهري: العورة: كل خلل يتخوف منه في ثغر أو حرب[1] ﴿أَقْطَارِهَا﴾ جمع قطر وهو الناحية والجانب ﴿يَعْصِمُكُمْ﴾ يمنعكم ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين، مشتق من عاقه إذا صرفه.

سبب النزول

أ. روي أن رجلاً من قريش يدعى (جميل بن معمر) كان لبيبًا حافظًا لما يسمع فقالت قريش: ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان في جوفه فأنزل الله ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ...﴾[2] الآية.

ب. وروي أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالتجهز والخروج لها، فقال أناس: نستأذن آباءنا وأمهاتنا: فأنزل الله ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾[3] الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا

[1] المصباح مادة عور. [2] زاد المسير (٦/٣٤٩). [3] الألوسي (٢١/١٥١).

نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا ﴿٩﴾ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴿١٠﴾ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا ﴿١١﴾ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا ﴿١٢﴾ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارًا ﴿١٣﴾ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرًا ﴿١٤﴾ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولًا ﴿١٥﴾ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذًا لا تمتعون إلا قليلًا ﴿١٦﴾ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرًا ﴿١٧﴾ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلًا ﴿١٨﴾ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرًا ﴿١٩﴾ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلًا﴾

التفسير: ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ نداء على سبيل التشريف والتكريم لأن لفظ النبوة مشعر بالتعظيم والتكريم أي اثبت على تقوى الله ودم عليها، قال أبو السعود: في ندائه ﷺ بعنوان النبوة تنويه بشأنه، وتنبيه على سمو مكانه، والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه، فإن له بابًا واسعًا ومكانًا عريضًا لا ينال مداه[1] ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي ولا تطع أهل الكفر والنفاق فيما يريدونك إليه من اللين والتساهل، وعدم التعرض لآلهتهم بسوء، ولا تقبل آراءهم وإن أظهروا أنها نصيحة، قال المفسرون: دعا المشركون رسول الله ﷺ أن يرفض ذكر آلهتهم بسوء، وأن يقول إن لها شفاعة فكره ﷺ ذلك ونزلت الآية[2] ﴿إن الله كان عليمًا حكيمًا﴾ أي إنه تعالى عالم بأعمال العباد وما يضمرونه في نفوسهم، حكيم في تدبير شئونهم ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ أي واعمل بما يوحيه إليك ربك من الشرائع والأحكام، والأوامر والنواهي، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾ أي هو مطلع على أعمالكم لا تخفى عليه خافية من شئونكم، وهو مجازيكم عليها ﴿وتوكل على الله﴾ أي اعتمد عليه، والجأ في جميع أمورك إليه ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ أي وحسبك أن يكون الله حافظًا وناصرًا لك ولأصحابك، ثم رد تعالى مزاعم الجاهليين ببيان الحق الساطع فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ أي ما خلق الله لأحد من الناس أبدًا قلبين في صدره، قال مجاهد: نزلت في رجل من قريش كان يدعى (ذا القلبين) من دهائه، وكان يقول: إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد[3] ﴿وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾ أي وما

---

(١) أبو السعود ٤/٢٠٠
(٢) القرطبي ١٤/١١٥
(٣) انظر القرطبي ١٤/١١٦ وروح المعاني ٢١/١٤٧

محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط [١] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي فأرسلنا على الأحزاب ريحًا شديدة وجنودًا من الملائكة لم تروهم وكانوا قرابة ألف، قال المفسرون: بعث الله عليهم ريحًا عاصفًا وهي ريح الصبا في ليلة شديدة البرد والظلمة، فقلعت بيوتهم، وكفأت قدورهم، وصارت تلقي الرجل على الأرض، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم - ولم تقاتل - بل ألقت في قلوبهم الرعب [٢] ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي وهو تعالى مطلع على ما تعملون من حفر الخندق، والثبات على معاونة النبي ﷺ في ذلك الوقت ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي يعني من أعلاه قِبَل المشرق، ومنه جاءت أسد وغطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي ومن أسفل الوادي يعني أدناه قبل المغرب، ومنه جاءت قريش وكنانة وأوباش العرب، والغرضُ أن المشركين جاءوهم من جهة المشرق والمغرب، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم، وأعانهم يهود بني قريظة فنقضوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين، فاشتد الخوف، وعظُم البلاء ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي وحين مالت الأبصار عن سننها ومستوى نظرها حيرةً وشخوصًا لشدة الهول والرعب [٣] ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر، وهذا تمثيلٌ لشدة الرعب والفزع الذي دهاهم، حتى كأن أحدهم قد وصل قلبه إلى حنجرته من شدة ما يلاقي من الهول [٤] ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي وكنتم في تلك الحالة الشديدة تظنون الظنون المختلفة، قال الحسن البصري: ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون، وظنَّ المؤمنون أنهم يُنصرون [٥]، فالمؤمنون ظنوا خيرًا، والمنافقون ظنوا شرًا، وقال ابن عطية: كاد المؤمنون يضطربون ويقولون: ما هذا الخُلف للوعد؟ وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها، وأما المنافقون فتعجلوا ونطقوا وقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا [٦] ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في ذلك الزمان والمكان امتحن المؤمنون واختبروا، ليتميز المخلص الصادق من المنافق، قال القرطبي: وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال، والجوع والحصر والنزال [٧] ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي وحركوا تحريكًا عنيفًا من شدة ما دهاهم، حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم وتضطرب تحت أقدامهم، قال ابن جزي: وأصل الزلزلة شدة التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وتزعزعها [٨] ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي واذكر حين يقول المنافقون، والذين في قلوبهم مرض النفاق، لأن الإيمان لم يخالط قلوبهم ﴿مَّا

---

(١) أبو السعود (٤/ ٢٠٢).
(٢) الصاوي على الجلالين (٣/ ٢٧١).
(٣) تفسير الكشاف (٣/ ٤١٦).
(٤) قال القرطبي: وهذا القول منقول معناه عن عكرمة، والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه حتى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة. اهـ.
(٥) القرطبي (١٤/ ١٤٥).
(٦) نقلاً عن البحر المحيط (٧/ ٢١٧).
(٧) القرطبي (١٤/ ١٤٦).
(٨) التسهيل (٣/ ١٣٤).

﴿وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي ما وعدنا الله ورسوله إلا باطلاً وخداعاً! قال المفسرون: والقائل هو "معتب بن قشير" الذي قال: يعدنا محمد بفتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً، ما هذا إلا وعد غرور(١)، يعنيا به محمد ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي واذكر حين قالت جماعة من المنافقين وهم: أوس بن قيظي وأتباعه، وأبي بن سلول وأشياعه ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي يا أهل المدينة لا قرار لكم ههنا ولا إقامة ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي فارجعوا إلى منازلكم واتركوا محمداً وأصحابه ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ ويستأذن جماعة من المنافقين النبي ﷺ في الانصراف متعللين بعلل واهية ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي غير حصينة فنخاف عليها العدو والسُرّاق ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ تكذيب من الله تعالى لهم أي ليس الأمر كما يزعمون ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي ما يريدون بما طلبوا من الرسول ﷺ إلا الهرب من القتال، والفرار من الجهاد، والتعبير بالمضارع ﴿وَيَسْتَأْذِنُ﴾ لاستحضار الصورة في الذهن، فكأن السامع يبصرهم الآن وهم يستأذنون. ثم فضحهم تعالى وبين كذبهم ونفاقهم فقال: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي ولو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ أي ثم طُلب إليهم أن يكفروا وأن يقاتلوا المسلمين لأعطوها من أنفسهم ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي لفعلوا ذلك مسرعين، ولم يتأخروا عنه لشدة فسادهم، وذهاب الحق من نفوسهم، فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع(٢)، وهذا ذمٌ لهم في غاية الذم ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ أي ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق من قبل غزوة الخندق وبعد بدر ألا يفروا من القتال ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي وكان هذا العهد عهداً جديراً بالوفاء لأنهم سيُسألون عنه، وفيه تهديدٌ ووعيد. قال قتادة: لما غاب المنافقون عن بدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، قالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن(٣) ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين: لن ينفعكم الهروب من القتال خوفاً من الموت أو حرصاً على الحياة، إن فررتم لن يطول أعماركم ولن يؤخر آجالكم، ومن يدفع الموت عنكم أبداً ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولئن هربتم وفررتم فإنكم لا تمتعون بعده إلا زمناً يسيراً، لأن الموت مآل كل حي، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي من يستطيع أن يحميكم منه تعالى ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي إن قدّر هلاككم ودماركم، أو قدّر بقاءكم ونصركم؟ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي وليس لهم من دون الله مجير ولا مغيث، فلا قريب ينفعهم

(١) حاشية الصاوي (٣/ ٢٧٢).

(٢) هذا قول قتادة وابن زيد واختاره ابن جرير، قال القرطبي: وقال [illegible] الفتنة [illegible] المطالبة بالكفر (إلا قليلاً) حتى يهلكوا، والأول قول أكثر المفسرين وذلك لضعف يقينهم وفرط نفاقهم، فلو اختلط بهم الأعداء لأظهروا الكفر. اهـ القرطبي (١٤/ ١٥٠).

(٣) القرطبي (١٤/ ١٥٠).

ولا ناصر ينصرهم ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي لقد علم الله تعالى ما كان من أمر أولئك المنافقين، المثبطين للعزائم، الذين يعوّقون الناس عن الجهاد، ويصدونهم عن القتال ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي والذين يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق: تعالوا إلينا واتركوا محمدًا وصحبه يهلكوا ولا تقاتلوا معهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياءً وسمعة، قال الصاوي: لأن شأن من يثبط غيره عن الحرب ألا يفعله إلا قليلاً لغرض خبيث[1] وقال في البحر: المعنى: لا يأتون القتال إلا إتيانًا قليلاً، يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئًا قليلاً إذا اضطروا إليه، فقتالهم رياءٌ ليس بحقيقة[2] ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاء عليكم بالمودة والشفقة والنصح، لأنهم لا يريدون لكم الخير ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رعب لا مثيل لها، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذرًا وخوفًا قال القرطبي: وصفهم بالجبن، وكذا سبيل الجبان ينظر يمينًا وشمالاً محددًا بصره، وربما غُشي عليه من شدة الخوف[3] ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي فإذا ذهب الخوف عنهم وانجلت المعركة آذوكم بالكلام بألسنة سليطة، وبالغوا فيكم طعنًا وذمًا قال قتادة: إذا كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم يقولون: أعطونا أعطونا فإنا قد شهدنا معكم، ولستم أحق بها منا، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وأما عند الغنيمة فأشح قوم وأبسطهم لسانًا[4] ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي خاطبوكم بما خاطبوكم به حال كونهم أشحة أي بخلاء على المال والغنيمة ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء، لم يؤمنوا حقيقة بقلوبهم وإن أسلموا ظاهرًا ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم، لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي وكان ذلك الإحباط سهلاً هيناً على الله، ثم أخبر تعالى عنهم بما يدل على جبنهم فقال: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم أن الأحزاب - وهم كفار قريش ومن تحزب معهم - بعد انهزامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد انصرفوا ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ أي وإن يرجع إليهم الكفار كرة ثانية للقتال يتمنوا لشدة جزعهم أن يكونوا في البادية مع الأعراب - لا في المدينة معكم - حذرًا من القتل وتربصًا للدوائر ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أي يسألون عن أخباركم وما وقع لكم فيقولون: أهلك المؤمنون؟ أغلب أبو سفيان؟ ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو أنهم كانوا بينكم وقت القتال واحتدام

---

(1) حاشية الصاوي (3/273). (2) البحر (7/220)
(3) تفسير القرطبي (14/153) (4) زاد المسير (6/366)، والقرطبي (14/154)

المعركة ما قاتلوا معكم إلا قتالاً قليلاً لجبنهم وذلتهم وحرصهم على الحياة.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير لإفادة الاستغراق والشمول ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ﴾ وإدخال حرف الجر الزائد لتأكيد الاستغراق، وذكر الجوف ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ لزيادة التصوير في الإنكار.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

٣ - الطباق بين ﴿أَخْطَأْتُمْ ... وَمَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وبين ﴿سُوءًا ... رَحْمَةً﴾، لأن المراد بالسوء الشر وبالرحمة الخير.

٤ - التشبيه البليغ ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً، وأصل الكلام وأزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الاحترام والتعظيم، والإجلال والتكريم.

٥ - المجاز بالحذف ﴿أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ أي أولى بميراث بعض.

٦ - ذكر الخاص بعد العام للتشريف ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تنويهاً بشأنهم وتشريفاً لهم.

٧ - الاستعارة ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ استعار الشيء الحسي - وهو الغلظ الخاص بالأجسام - للشيء المعنوي وهو بيان حرمة الميثاق وعظمه وثقل حمله.

٨ - الالتفات ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ﴾ وغرضه التبكيت والتقبيح للمشركين.

٩ - الطباق بين ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ ... وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾.

١٠ - التشبيه التمثيلي ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

١١ - المبالغة في التمثيل ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ صور القلوب في خفقانها واضطرابها كأنها وصلت إلى الحلقوم.

١٢ - الكناية ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ كناية عن الفرار من الزحف.

١٣ - الاستعارة المكنية ﴿سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ شبه اللسان بالسيف المصلت وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق بمعنى الضرب على طريق الاستعارة المكنية، ولفظ ﴿حِدَادٍ﴾ ترشيح.

١٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ونحوه وهو يزيد في رونق الكلام وجماله، لما له من وقع رائع، وجرس عذب.

تنبيه: خاطب الله تعالى الأنبياء بأسمائهم فقال ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ

---

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية بإيجاز على سبيل المثال لا الحصر، لتذوق القارئ بعض الروائع البيانية وإلا فكلام الله معجز وبه من الصور البلاغية والأسرار البيانية ما يتذوقها الإنسان ويعجز عن وصفها اللسان

فأصبحت النيران صرعى ... وأصبحت نساء تميم يبتدرن الصياحيا[1]

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ متعة الطلاق، وأصل المتاع ما يُتبلَّغ به من الزاد، وسميت متعة المطلقة؛ لأنها تنتفع وتستمتع به[2] ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أطلقكنّ، وأصل التسريح في اللغة: الإرسال والإطلاق[3] ﴿تَبَرُّجَ﴾ تبرجت المرأة: أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب[4]، وأصله من الظهور ومنه سمي البرج لسعته وظهوره ﴿وَقَرْنَ﴾ الزمن بيوتكن من قولهم: قررتُ بالمكان أقرّ به إذا بقيت فيه ولزمته، والقرار: مصدر، وأصل (قرن) اقررن حذفت الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف[5] ﴿الرِّجْسَ﴾ في اللغة: القذر والنجاسة، وعُبِّر به هنا عن الآثام؛ لأن عرض المقترف للقبائح يتلوث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالنجاسات[6].

سبب النزول:

أ- أخرج ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك قال: غاب عمي (أنس بن النضر) عن قتال يوم بدر، فقال: غبتُ عن أول قتال مع رسول الله ﷺ؟ لئن أشهدني الله قتالاً ليرينّ الله ما أصنع؟ فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون -انهزموا- فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء -يعني المشركين- وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المسلمين- ثم مشى بسيفه فلقيه (سعد بن معاذ) فقال: أي سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد! ثم قاتل حتى قُتل، فقال سعد يا رسول الله: ما استطعت أن أصنع ما صنع، قال أنس بن مالك: فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه -رؤوس الأصابع- قال أنس: فكنا نتحدث أن هذه الآية ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾.. نزلت فيه وفي أصحابه[1].

ب- وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ -والناس ببابه جلوس- فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمنّ النبي ﷺ لعله يضحك، فقال يا رسول الله: لو رأيت ابنة زيد -امرأة عمر- سألتني النفقة آنفاً فوجأتُ عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: هنّ حولي يسألنني النفقة! فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان رسول الله ما ليس عنده؟ فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وأنزل الله آية التخيير ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ

(1) القرطبي (١٤/١٦١).
(2) المصباح المنير (٢/٢٣٣).
(3) المعجم الوسيط (١/٤٢٧).
(4) المصباح المنير (١/٤٨).
(5) القرطبي (١٤/١٧٨).
(6) الكشاف (٣/٤٢٥).
(1) تفسير ابن جرير الطبري (٢١/٨٦)، أسباب النزول للواحدي (٢٣٧).

بل عن وحي وتنزيل، فلذلك وجب عليكم تتبع نهجه، وسلوك طريقه ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أي لمن كان مؤمنًا صادقًا يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه ﴿وذكر الله كثيرًا﴾ أي وأكثر من ذكر ربه، بلسانه وقلبه. قال ابن كثير: أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته، ومجاهدته ومرابطته، ولهذا قال للذين تضجروا وتزلزلوا، واضطربوا يوم الأحزاب ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ والمعنى: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ؟[1] ثم حكى تعالى موقف المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب أثناء رؤيتهم جنود قريش ومن تحزب معهم، وما صدر عن المؤمنين من إخلاص ويقين، تظهر بوضوح روح الإيمان والتضحية فقال: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ أي ولما رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم، وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، قالوا: هذا ما وعدنا به الله ورسوله، من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء ﴿وصدق الله ورسوله﴾ أي صدق الله في وعده، ورسوله فيما بشر أتباعه، قال المفسرون: لما كان المسلمون يحفرون الخندق اعترضتهم صخرة عظيمة عجزوا عن تكسيرها، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء، وأخذ المعول، وضربها ثلاث ضربات أضاءت له منها مدائن كسرى، وقصور الروم، فقال أبشروا بالنصر، فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم قالوا: ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾[2] ﴿وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا﴾ أي وما زادهم ما رأوه من كثرة جند الأحزاب، ومن شدة الضيق والحصار، إلا إيمانًا قويًا عميقًا بالله، واستسلامًا وانقيادًا لأوامره ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ أي ولقد كان من أولئك المؤمنين رجال صادقون، نذروا أنهم إذا أدركوا حربًا مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ أي فمنهم من وفى بنذره وعهده حتى استشهد في سبيل الله كأنس بن النضر وحمزة ﴿ومنهم من ينتظر﴾ أي ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله ﴿وما بدلوا تبديلًا﴾ أي وما غيروا عهدهم الذي عاهدوا عليه ربهم أبدًا ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾ أي ليجزي الله الصادقين بسبب صدقهم وحسن صنيعهم أحسن الجزاء في الآخرة ﴿ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ أي ويعذب المنافقين الناقضين للعهود بأن يميتهم على النفاق فيعذبهم، أو يتوب عليهم فيرحمهم ﴿إن الله كان غفورًا رحيمًا﴾ أي واسع المغفرة رحيمًا بالعباد قال ابن كثير: ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى هي الغالبة لغضبه ختم بها الآية الكريمة[3] ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم﴾ أي ورد الله الأحزاب الذين تألبوا على غزو المدينة خائبين خاسرين، مغيظين محنقين، لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لم ينالوا خيرًا﴾ أي حال كونهم لم ينالوا أي خير لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل قد اكتسبوا الآثام في مبارزة الرسول عليه السلام وهمهم بقتله ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ أي كفاهم شر أعدائهم بأن

---

(1) مختصر ابن كثير (٣/٨٨).
(2) انظر حاشية الصاوي (٣/٢٠٠).
(3) مختصر ابن كثير (٣/٨٩).

أرسل عليهم الريح والملائكة حتى ولوا الأدبار منهزمين ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي قادرًا على الانتقام من أعدائه، عزيزًا غالبًا لا يُقهر، ولهذا كان عليه السلام يقول: «لا إله إلا الله وحده نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»[1] ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي وأنزل اليهود - وهم بنو قريظة - الذين أعانوا المشركين ونقضوا عهدهم وتقلبوا على النبي وأصحابه، أنزلهم من حصونهم وقلاعهم التي كانوا يتحصنون فيها ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي ألقى الله في قلوبهم الخوف الشديد حتى فتحوا الحصون واستسلموا، قال ابن جزي: نزلت الآية في يهود (بني قريظة) وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ فنقضوا عهده وصاروا مع قريش، فلما انهزم المشركون وانصرفت قريش عن المدينة حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة حتى نزلوا على حكم (سعد بن معاذ) فحكم بأن يُقتل رجالهم، ويُسبى نساؤهم وذريتهم[2] فذلك قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني الرجال، وقتل منهم يومئذٍ ما بين الثمانمائة والتسعمائة ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ يعني النساء والذرية ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي وأورثكم يا معشر المؤمنين أرض بني قريظة وعقارهم ونخيلهم ومنازلهم وأموالهم التي تركوها ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ أي وأرضًا أخرى لم تطئوها بعدُ بأقدامكم، وهي خيبر، لأنها أُخذت بعد قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادرًا على كل ما أراد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال أبو حيان: ختم تعالى هذه الآية ببيان قدرته على كل شيء، وكان في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة، فكما ملَّكهم هذه الأراضي فكذلك هو قادر على أن يملّكهم غيرها من البلاد[3] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ أي قل لزوجاتك اللاتي تأذيت منهن بسبب سؤالهن إياك الزيادة في النفقة ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي إن رغبتُنَّ في سعة الدنيا ونعيمها، وبهرجها الزائل ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي تعالين حتى أدفع لكنَّ متعة الطلاق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي وأطلقكُنَّ طلاقًا من غير ضرار ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي وإن كنتُنَّ ترغبن في رضوان الله ورسوله، والفوز بالنعيم الوافر في الدار الآخرة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جواب الشرط أي: فإن الله تعالى قد هيأ للمحسنات منكنَّ بمقابلة إحسانهن ثوابًا كبيرًا لا يوصف، وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال في البحر: لما نصر الله نبيه، وردَّ عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظنَّ أزواجه أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله: بناتُ كسرى وقيصر في الحُلِيِّ والحُلَل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق!! وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال،

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٣٦)، وانظر تفصيل القصة في زاد المسير (٦/ ٣٧٣).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٢٢٥).

وألا يعاملهنَّ بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهنَّ، وأزواجه إذ ذاك تسع زوجات[1] ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي من تعمل منكن كبيرة من الكبائر، أو ذنبًا يتجاوز الحدَّ في القبح، قال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق[2] ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي يكون جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة[3] ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي كان ذلك العقاب سهلاً يسيرًا على الله، لا يمنعه منه كونهنَّ أزواج ونساء النبي ﷺ. وفي الآية تلوين للخطاب، فبعد أن كانت المخاطبة لهن على لسان رسول الله ﷺ وجه الخطاب إليهنَّ هنا مباشرة، لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن، قال الصاوي: وهذه الآيات عتاب من الله لأزواج النبي ﷺ إظهارًا لفضلهن، وعظم قدرهن عند الله تعالى، لأن العتاب والتشديد في الخطاب مشعر برفعة رتبتهن، لشدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة، فبقدر القرب من رسول الله ﷺ يكون القرب من الله[4] ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ومن تواظب منكنَّ على طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي وتتقرب إلى الله بفعل الخير وعمل الصالحات ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي نعطها الثواب مضاعفًا ونثيبها مرتين: مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهنَّ رضاء رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي وهيأنا لها في الجنة - زيادة على ما لها من أجر - رزقًا حسنًا مرضيًا لا ينقطع، ثم أظهر فضيلتهنَّ على النساء فقال ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكنَّ أفضل وأشرف من غيركن، لكونكن زوجات خاتم الرسل، وأفضل الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فلستن كواحدة منكنَّ كانوا حدة من آحاد النساء ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله أي إن اتقيتن الله فأنتن بأعلى المراتب، قال القرطبي: بيَّن تعالى أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى، لما منحهن الله من صحبة رسوله سيد الأولين والآخرين[5]، وقال ابن عباس: يريد في هذه الآية: ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم إن اتقيتن، فشرط عليهن التقوى بيانًا أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي فلا ترققن الكلام عند مخاطبة الرجال ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي فيطمع من كان في قلبه فجور وريبة، وحبٌّ لمحادثة النساء ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي وقلن قولاً حسنًا عفيفًا لا ريبة فيه، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكن للرجال. قال ابن كثير: ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس

---

(1) البحر المحيط (٧/ ٢٢٧).
(2) زاد المسير (٦/ ٣٧٨).
(3) الكشاف (٣/ ٤٤٤).
(4) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٢٧٦).
(5) القرطبي (١٤/ ١٧٧).
(6) زاد المسير (٦/ ٣٧٨).

(١) أقول: هنا كان القرآن يمنع المرأة أن تلاين في كلامها مع الرجال الأجانب لئلا يطمع بها الفساق والفجار، فكيف بمن تثير الشهوات والنعومة بالغناء الماجن الذي كله ميوعة وانحلال، وتختلط فيه أصوات المغني مع المغنيات في

الذاكرين الله بألسنتهم وقلوبهم في كل الأوقات والأمكنة ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي أعد لهؤلاء المتقين الأبرار، المتصفين بالصفات الجليلة أعظم الأجر والثواب وهو الجنة، مع تكفير الذنوب بسبب ما فعلوه من الأعمال الحسنة.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الإطناب بتكرار الاسم الظاهر ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ كرر الاسم الكريم للتشريف والتعظيم.

٢- الاستعارة ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ النحب: النذر، واستعير للموت؛ لأنه نهاية كل حي، فكأنه نذر لازم في رقبة الإنسان[1].

٣- الجملة الاعتراضية ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ للتنبيه على أن أمر العذاب أو الرحمة موكول لمشيئته تعالى.

٤- المقابلة بين ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وبين ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾.

٥- التشبيه البليغ ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي كتبرج أهل الجاهلية حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فصار بليغًا.

٦- عطف العام على الخاص ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ فإن إطاعة الله ورسوله تشمل كل ما تقدم من الأوامر والنواهي.

٧- الاستعارة ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ استعار الرجس للذنوب، والطهر للتقوى؛ لأن عرض المرتكب للمعاصي يتدنس، وأما الطاعة فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر.

٨- الإيجاز بالحذف ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ حذف المفعول لدلالة السابق عليه أي والحافظات فروجهن.

٩- التغليب ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾ غلب الذكور وجمع الإناث معهم ثم أدرجهم في الضمير.

١٠- توافق الفواصل مثل ﴿خَبِيرًا﴾ ﴿قَدِيرًا﴾ ﴿كَثِيرًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ...﴾ إلى ... ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ من آية (٣٦) إلى نهاية آية (٥٢).

المناسبة: لما ذكر تعالى صفات المؤمنين وما أعده لهم من الدرجات الرفيعة، أعقبها ببيان أن طاعة الرسول من طاعة الله، وأمر الرسول من أمر الله، ثم ذكرهم تعالى بالنعمة العظمى وهي

---

(١) انظر البيضاوي (٢/٦/٢ : ١١١) والكشاف (٣/٤٢٣).

أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ .

التفسِير: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح ولا يليق بأي واحدٍ من المؤمنين والمؤمنات ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي إذا أمر الله عز وجل وأمر رسوله بشيءٍ من الأشياء، قال البيضاوي: ذكرُ اسم الله للتعظيم وللإشارة إلى أن قضاء رسول الله هو قضاء الله لكونه لا ينطق عن الهوى[1] ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي أن يكون لهم رأي أو اختيار، بل عليهم الانقياد والتسليم، قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيءٍ فليس لأحدٍ مخالفته، ولا اختيار لأحدٍ ولا رأي ولا قول[2]، ولهذا شدَّد في النكير فقال ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله فقد حاد عن الطريق السوي، وأخطأ طريق الصواب، وضلَّ ضلالاً بيناً واضحاً ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي اذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بنعمة الإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالتحرير من العبودية والإعتاق قال المفسرون: هو (زيد بن حارثة) كان من سبي الجاهلية اشترته (خديجة) ووهبته لرسول الله ﷺ فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبنَّاه[3] وزوَّجه ابنة عمته (زينب بنت جحش) رضي الله عنها ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي أمسك زوجتك زينب في عصمتك ولا تطلقها، واتق الله في أمرها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي وتضمر يا محمد في نفسك ما سيظهره الله وهو إرادة الزواج بها[4] قال في التسهيل: الذي أخفاه رسول الله ﷺ

(1) حاشية البيضاوي ٢/ ٢٧٨ . (2) ابن كثير ٣/ ٩٧ من المختصر .
(3) انظر قصة زيد في كتابنا «روائع البيان» ٢/ ٣٣٤ .
(4) يتشبث بعض أعداء الإسلام برواياتٍ ضعيفة واهية، لا زمام لها ولا خطام، للطعن في الرسول الكريم والنيل من مقامه العظيم، وجدت في بعض كتب التفسير!! من هذه الروايات الباطلة التي لفقها المستشرقون وتحدثوا فيها وزعموا أن الرسول ﷺ رأى (زينب) وهي متزوجة بزيد بن حارثة فأحبها ووقعت في قلبه فقال: «سبحان مقلب القلوب» فسمعتها زينب فأخبرت بها زيداً، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك... إلخ
وهذه روايات باطلة لا يصح فيها شيء كما قال العلامة أبو بكر بن العربي رحمه الله، والآية صريحة في الرد على هؤلاء

قال القرطبي: أي سنَّ لمحمد ﷺ التوسعة عليه في النكاح، سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان، فكان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة امرأة، عدا السراري[1] ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي قضاءً مقضياً، وحكماً مقطوعاً به من الأزل، لا يتغير ولا يتبدل، ثم أثنى تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين بقوله ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي هؤلاء الذين أخبرتك عنهم يا محمد، وجعلتُ لك قدوة بهم، هم الذين يبلّغون رسالات الله إلى من أُرسلوا إليه ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي يخافون الله وحده ولا يخافون أحداً سواه، فاقتدِ يا محمد بهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي يكفي أن يكون الله محاسباً على جميع الأعمال والأفعال، فينبغي أن لا يُخشى غيره، ثم أبطل تعالى حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية فقال ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ قال المفسرون: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب قال الناس: إن محمداً قد تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية[2]، قال الزمخشري: أي لم يكن أبا رجلٍ منكم على الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح[3] ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي ولكنه عليه السلام آخر الأنبياء والمرسلين، ختم الله به الرسالات السماوية، فلا نبيَّ بعده قال ابن عباس: يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ولداً يكون بعده نبياً[4] ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي هو العالم بأقوالكم وأفعالكم، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي اذكروا الله بالتهليل والتحميد، والتمجيد والتقديس ذكراً كثيراً، بالليل والنهار، والسفر والحضر ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي وسبحوا ربكم في الصباح والمساء، قال العلماء: خصهما بالذكر لأنهما أفضل الأوقات بسبب تنزل الملائكة فيهما[5] ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي هو جل وعلا يرحمكم على الدوام، ويعتني بأمركم، ويكفل ما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة، قال ابن كثير: والصلاة من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة، وقيل: الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار[6] ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة والإيمان ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي واسع الرحمة بالمؤمنين، حيث يقبل القليل من أعمالهم، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم، لإخلاصهم في إيمانهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أي تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقون ربهم السلام والإكرام في الجنة من الملك العلّام كقوله تعالى ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي وهيأ لهم أجراً حسناً وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم، قال ابن كثير: والمراد بالأجر الكريم الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والملاذّ

---

(1) القرطبي (١٤/ ١٩٥). (2) رواه الترمذي عن عائشة.
(3) الكشاف (٣/ ٤٣٠). (4) زاد المسير (٦/ ٣٩٣).
(5) حاشية الصاوي (٣/ ٢٨٤). (6) ابن كثير المختصر (٣/ ١٠٤).

والمتقين ، مما لا عين رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر [١] ، ثم لما بيَّن تعالى أنه أخرج المؤمنين من ظلمات الكفر والضلال إلى أنوار الهداية والإيمان ، عقبه بذكر أوصاف السراج المنير الذي أضاء الله به الأكوان فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ أي شاهدًا على أمتك وعلى جميع الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ أي مبشرًا للمؤمنين بجنات النعيم ﴿وَنَذِيرٗا﴾ أي ومنذرًا للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي وداعيًا للخلق إلى توحيد الله وطاعته وعبادته ، بأمره جل وعلا لا من تلقاء نفسك ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ أي وأنت يا محمد كالسراج الوهّاج المضيء للناس ، يُهتدى بك في الظلمات ، كما يُهتدى بالشهاب في الظلماء. قال ابن كثير : أي أنت يا محمد كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند [٢] وقال الزمخشري : شبَّهه بالسراج المنير لأن الله جلى به ظلمات الشرك ، واهتدى به الضالون ، كما يجلي ظلامَ الليل بالسراج المنير ويُهتدى به [٣] . وصفه تعالى بخمسة أوصاف كلُّها كمالٌ وجمالٌ ، وثناء وجلال ، وختمها بأنه صلوات الله عليه هو السراج الوضاء الذي بدّد الله به ظلمات الضلال ، فصلواتُ ربي وسلامه عليه في كل حين وآن ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين خاصة بأن لهم من الله العطاء الواسع الكبير في جنات النعيم ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أي لا تطعهم فيما يطلبونه منك من المساهلة والملاينة في أمر الدين ، بل اثبت على ما أُوحي إليك ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ أي ولا تكترث بأذيتهم لك ، وبصدّهم الناس عنك ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي واعتمد في جميع أمورك وأحوالك على الله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أي إن الله يكفي من توكل عليه في أمور الدنيا والآخرة ، قال الصاوي : وفي الآية إشارة إلى أن التوكل أمر عظيم ، فمن توكل على الله كفاه ما أهمّه من أمور الدنيا والدين [٤] . ولما كان الحديث عن نساء النبي ﷺ وقصة زيد وتطليقه لزينب ، جاء الحديث عن نساء المؤمنين والطريقة المثلى في تطليقهن فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدَّقوا بالله ورسوله إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي ثم طلقتموهنَّ من قبل أن تجامعوهنَّ ، وإنما خصَّ المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم ، للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخير لنطفته ، وألا ينكح إلا مؤمنة عفيفة [٥] ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ أي فليس لكم عليهن حق في العدة تستوفون عددها عليهن ، لأنكم لم تعاشروهن فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتبسوا المرأة من أجل صيانة نسبكم ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي فالواجب عليكم إكرامهن بدفع المتعة بما تطيب نفوسكم به من مال أو كسوة ، تطييبًا لخاطرهن ، وتخفيفًا لشدة وقع الطلاق

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ١٠٩) .
(٢) نفس المرجع السابق (٣/ ١٠٣)
(٣) الكشاف (٣/ ٤٣٦)
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٢٨٢)
(٥) انظر الكشاف (٣/ ٤٣٣)

فيما أردت ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي واسع العلم يعلم جميع ما تظهرون وما تخفون، حليمًا يضع الأمور في نصابها ولا يعاجل بالعقوبة، بل يؤخر ويمهل لكنه لا يُهمل. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما نزلت ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: (ما أرى ربك إلا يسارع في هواك) ثم قال تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ أي لا يحل لك أيها النبي النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي في عصمتك ﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أي ولا يحل لك أن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها أخرى ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي ولو أعجبك جمال غيرهن من النساء ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي إلا ما كان من الجواري والإماء فلا بأس في ذلك لأنهن لسن زوجات ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي مطلعًا على أعمالكم شاهدًا عليها، وفيه تحذير من مجاوزة حدوده، وتخطي حلاله وحرامه. قال المفسرون: أباح الله لرسوله أصنافًا أربعة: المهورات، والمملوكات، والمهاجرات، والواهبات أنفسهن، توسعة عليه ﷺ وتيسيرًا له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة، ولما نزلت آية التخيير ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ...﴾ الآية وخيرهن عليه السلام، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ أكرمهن الله تعالى بأن قصره عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التنكير لإفادة العموم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي ليس لواحد منهم أن يريد غير ما أراده الله ورسوله.

٢- الطباق بين ﴿تُخْفِي ... مُبْدِيهِ﴾ وبين ﴿الظُّلُمَاتِ ... النُّورِ﴾ وبين ﴿مُبَشِّرًا ... وَنَذِيرًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٣- جناس الاشتقاق ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

٤- طباق السلب ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾.

٥- التشبيه البليغ ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أصل التشبيه: أنت يا محمد كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد، حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا على حد قولهم: علي أسد، ومحمد قمر.

٦- الكناية ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ كنى عن الجماع بالمس وهي من الكنايات المشهورة، ومن الآداب القرآنية الحميدة؛ لأن القرآن يتحاشى الألفاظ البذيئة.

٧- الطباق بين ﴿بُكْرَةً ... وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿تُرْجِي ... وَتُؤْوِي﴾ وبين ﴿ابْتَغَيْتَ ... عَزَلْتَ﴾.

٨- توافق الفواصل مما يزيد في الجمال والإيقاع على السمع مثل ﴿ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ ... ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ومثل ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ... ﴿عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ ... ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهذا من خصائص القرآن العظيم، وهو من المحسنات البديعية.

ـ وعن عائشة أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البرُّ والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[1] الآية.

ـ عن السُّدّي أن الفساق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل، فإذا رأوا امرأة عليها قناع تركوها وقالوا: هذه حرة، وإذا رأوها بغير قناع قالوا: أمة فآذوها فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ..﴾[2] الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم، والآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم، والمعنى: لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا في حال الإذن الكريم منه عليه السلام، مراعاة لحقوق بيته، وحرصًا

---

(١) أخرجه البخاري.　　(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٦/ ٤٢٢).

على عدم إيذائه والإثقال عليه ، ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نضجه ، ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ أي ولكن إذا دعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أي ، فإذا انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا ، ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ، معطوف على ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ﴾ أي لا تدخلوا بيوته منتظرين للطعام ، ولا مستأنسين لحديث بعضكم بعضًا ، قال أبو حيان : نُهوا أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لحديث يحدثه به[1] ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ أي إن صنيعكم هذا يؤذي الرسول ، ويضايقه ويثقل عليه ، ويمنعه من قضاء كثير من مصالحه وأموره ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ أي فيستحيي من إخراجكم ، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصراف ، لخُلقه الرفيع ، وقلبه الرحيم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي والله جل وعلا لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وبيانه لكم ، قال القرطبي : هذا أدبٌ أدّب الله به الثقلاء ، وفي كتاب الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم[2] ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات فاطلبوه من وراء حاجز وحجاب ، ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي سؤالكم إياهن المتاع من وراء حجاب أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأطهر ، وأنفى للريبة وسوء الظن ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي وما ينبغي لكم ولا يليق بكم أن تؤذوا رسولكم الذي هداكم الله به في حياته ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ أي ولا أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته أبدًا ، لأنهن كالأمهات لكم ، وهو كالوالد فهل يليق بكم أن تؤذوه في نفسه أو أهله؟ ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إن إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم ، وذنب كبير لا يغفره الله لكم ، قال أبو السعود : وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمته حيًا وميتًا ما لا يخفى[3] ، ثم قال تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي إن تظهروا أمرًا من الأمور أو تخفوه في صدوركم ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي فإن الله عالم به ومجازيكم عليه ، قال البيضاوي : وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد[4] ، ثم لما أنزل تعالى الحجاب استثنى المحارم ، فقال : ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي لا حرج ولا إثم على النساء في ترك الحجاب أمام المحارم من الرجال ، قال القرطبي : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء لرسول الله ﷺ : ونحن أيضًا نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية[5] ، والمراد بـ ﴿نِسَائِهِنَّ﴾ نساء المؤمنين ، قال ابن عباس : لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن نساء المسلمات ، فلا يحل للمسلمة أن تُبدي شيئًا منها لئلا تصفها لزوجها

---

(١) البحر المحيط (٧/٢٤٧) .
(٢) تفسير القرطبي (١٤/٢٢٤) .
(٣) أبو السعود (٤/٢٤٨) .
(٤) البيضاوي (٢/١٢٠) .
(٥) القرطبي (١٤/٢٣٠) .

مُهِينًا﴾ أي وهيأ لهم عذابًا شديدًا، بالغ الغاية في الإهانة والتحقير. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جناية واستحقاق للأذى ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أي فقد حمَّلوا أنفسهم بهتان الكذب، والزور، والذنب الواضح الجلي، قال القرطبي: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيَّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبدًا، أما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه[1] ولما حرَّم تعالى الإيذاء، أمر نبيه الكريم أن يوجه النداء إلى الأمة جمعاء، للتمسك بالإسلام وتعاليمه الرشيدة، وبالأخص في أمر اجتماعي خطير وهو (الحجاب) الذي يصون للمرأة كرامتها، ويحفظ عليها عفافها، ويحميها من النظرات الجارحة، والكلمات اللاذعة، والنوايا الخبيثة لئلا تتعرض لأذى الفساق فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي قل يا محمد لزوجاتك الطاهرات - أمهات المؤمنين - وبناتك الفضليات الكريمات، وسائر نساء المؤمنين، قل لهن يلبسن الجلباب الواسع، الذي يستر محاسنهن وزينتهن، ويدفع عنهن ألسنة السوء، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية، روى الطبري عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينًا واحدة[2]، وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى[3] ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي ذلك الستر أقرب بأن يُعرفن بالعفة والتستر والصيانة، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد، وقيل: أقرب بأن يُعرفن أنهن حرائر، ويتميزن عن الإماء، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي إنه تعالى غفور لما سلف منهن من تفريط، رحيم بالعباد حيث راعى مصالحهم وشئونهم حتى الجزئيات. ثم هدَّد المولى جل وعلا كل المؤذين من جميع الأصناف بأنواع العقاب فقال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي لئن لم يترك هؤلاء المنافقون - الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر - نفاقهم، والزناة - الذين في قلوبهم مرض - فجورهم ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي والذين ينشرون الأراجيف والأكاذيب لبلبلة الأفكار، وخلخلة الصفوف، ونشر أخبار السوء ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنسلطنك عليهم يا محمد ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ثم يخرجون من المدينة فلا يعودون إلى مجاورتك فيها إلا زمنًا قليلًا، ريثما يتأهبوا للخروج، قال الرازي: وعد الله نبيه

---

(١) القرطبي (١٤/ ٢٣٨).

(٢) هذا النص عن ابن عباس صريح في وجوب ستر الوجه، وكذا رواية ابن كثير عن محمد بن سيرين، وغير هاتين الروايات الصحيحة والصريحة في وجوب ستر المرأة للوجه، فأين أقوال سلف الصالح وأئمة علماء التفسير الأجلاء، من أقوال أدعياء العلم في هذا العصر والزمان، الذين يبيحون للمرأة أن تكشف وجهها أمام الأجانب!! وانظر أقوال المفسرين في كتابنا «روائع البيان» [٢/ ٣٨٦].

(٣) ابن كثير (٣/ ٦١٦).

خلق الله عريانًا وأبرأه مما يقولون له الحديث[1] ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي وكان موسى ذا وجاهة ورفعة ومكانة عند ربه، قال ابن كثير: أي وله وجاهة وجاه عند ربه، لم يسأل شيئًا إلا أعطاه[2] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي اتقوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وقولوا قولاً مستقيمًا مرضيًا لله، قال الطبري: أي قولاً قاصدًا غير جائر، حقًا غير باطل[3] ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي يوفقكم لصالح الأعمال ويتقبلها منكم، قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يمحو عنكم الذنوب والأوزار ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ومن أطاع الله والرسول فقد نال غاية مطلوبه، ثم لما أرشدهم إلى مكارم الأخلاق، نبههم على قدر التكاليف الشرعية التي كلف الله بها البشرية فقال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي عرضنا الفرائض والتكاليف الشرعية على السموات والأرض والجبال الراسيات فأعرضن عن حملها وخفن من ثقلها وتبعتها، والغرض تصوير عظم الأمانة وثقل حملها، قال أبو السعود: والمعنى: أن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام - التي هي مثل في القوة والشدة - وكانت ذا شعور وإدراك على مراعاتها لأبين قبولها وأشفقن منها[4]، وقال ابن جزي: الأمانة هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات، وترك المعاصي، وقيل: هي الأمانة في الأموال، والصحيح العموم في التكاليف، وعرضُها بحتمل وجهين أحدهما: أن يكون الله خلق لها إدراكًا فعرضت عليها الأمانة حقيقة فأشفقت منها وامتنعت من حملها، والثاني: أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث لو عُرضت على السموات والأرض والجبال، لأبين من حملها وأشفقن منها، فهذا ضربٌ من المجاز كقولك: عرضتُ الحمل العظيم على الدابة فأبت أن تحمله، والمراد: أنها لا تقدر على حمله[5] ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي وتحملها الإنسان إنه كان شديد الظلم لنفسه، مبالغًا في الجهل بعواقب الأمور، قال ابن الجوزي: لم يرد بقوله (أبين) المخالفة، وإنما أبين للخشية والمخافة، لأن العرض كان تخييرًا لا إلزامًا[6] ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، قال ابن كثير: أي إنما حمل بني آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، والمشركين الذين ظاهرهم وباطنهم على الكفر ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي ويرحم أهل الإيمان، ويعود عليهم بالتوبة والمغفرة والرضوان ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة للمؤمنين حيث عفا عما سلف منهم، رحيمًا بهم حيث أثابهم وأكرمهم بأنواع الكرامات

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) البخاري، وانظر ابن كثير (٣/ ١١٦) من المختصر.

(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ١١٦)

(٣) الطبري (٢٢/ ٣٨)

(٤) أبو السعود (٤/ ٢٢١).

(٥) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٤٥).

(٦) زاد المسير (٦/ ٤٢٨)

١- الإضافة للتشريف ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ لأنها لما نسبت للنبي تشرفت.

٢- الطباق بين (ادخلوا .. وانتشروا) وبين ﴿تُبْدُوا .. تُخْفُوهُ﴾ وبين ﴿ثُقِفُوا .. وَأُخِذُوا﴾.

٣- طباق السلب ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.

٤- ذكر الخاص بعد العام ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ .. ﴿وَالْمُرْجِفُونَ﴾ والمرجفون هم من المنافقين، فعمم ثم خصص زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم.

٥- ذكر اللفظ بصيغة (فعول) و (فعيل) للمبالغة مثل ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ إلخ

٦- الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ ﴿وَلَن تَجِدَ .. تَبْدِيلًا﴾.

٧- التحسر والتوجع بطريق التمني ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾

٨- التشبيه ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل.

٩- الاستعارة التمثيلية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ مثّل للأمانة في ضخامتها وعظمها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال وهي من القوة والشدة بأعلى المنازل لأبت عن حملها وأشفقت منها، وهو تمثيل رائع لتهويل شأن الأمانة.

١٠- المقابلة اللطيفة بين ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ وبين ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع (رد العجز على الصدر) لأن بدء السورة كان في ذم المنافقين، وختامها كان في بيان سوء عاقبة المنافقين، فحسن الكلام في البدء والختام.

١١- الثناء على الرسول ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ورد بهذه الصيغة وفيه دقائق بيانية:

أ- جاء الخبر مؤكدًا بـ (إنّ) اهتمامًا به.

ب- وجيء بالجملة اسمية (إفادة الدوام).

ج- وكانت الجملة اسمية في صدرها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ فعلية في عجزها ﴿يُصَلُّونَ﴾ للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد وقتًا فوقتًا على الدوام، فتدبر هذا السر الدقيق.

١٢- مراعاة الفواصل لما له من الوقع الحسن على السمع مثل ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ .. ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .. ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: أشارت الآية الكريمة ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى لطيفة وهي أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله، وهذا هو السر في البدء بالخطاب الشرعي بنساء الرسول وبناته.

الرد على من أباح كشف الوجه
وطائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستره

١. قال ابن كثير: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب.

٢. وقال ابن الجوزي: في قوله تعالى ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي يغطين رؤوسهن ووجوههن ليعلم أنهن حرائر.

٣. وقال أبو السعود: ومعنى الآية أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعي.

٤. وقال الطبري: أي لا تتشبهن بالإماء في لباسهن إذا خرجن لحاجتهن فكشفن شعورهن ووجوههن لئلا يعرض لهن فاسق.

٥. وقال في البحر: والمراد بقوله ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي على وجوههن، لأن الذي كان يبدو منهن في الجاهلية هو الوجه.

٦. وقال الجصاص: وفي الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجنبيين لئلا يطمع فيها أهل الريب. فهذه جملة من أقوال أئمة التفسير في وجوب ستر وجه المرأة، والله يقول الحق ويهدي السبيل[1]

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب»

---

(١) انظر شروط الحجاب الشرعي وكيفيته والحكمة التشريعية منه في كتابنا روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن (٢/ ٣٨٧).

تفسير سورة سبأ

بين يدي السورة
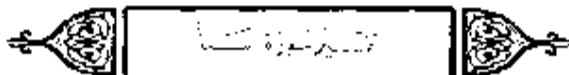
سورة سبأ من السور المكية، التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية، وتتناول أصول الدين، من إثبات الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور.

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد الله جل وعلا، الذي أبدع الخلق، وأحكم شئون العالم، ودبّر الكون بحكمته، فهو الخالق المبدع الحكيم، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وهذا من أعظم البراهين على وحدانية رب العالمين.

* وتحدثت السورة عن قضية هامة، هي إنكار المشركين للآخرة، وتكذيبهم بالبعث بعد الموت، فأمرت الرسول ﷺ أن يقسم بربه العظيم، على وقوع المعاد، بعد فناء الأجساد ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ...﴾ الآية.

* وتناولت السورة بعض قصص الرسل، فذكرت «داود» وولده «سليمان» عليهما السلام، وما سخّر الله لهما من أنواع النعم، كتسخير الريح لسليمان، وتسخير الطير والجبال تسبح مع داود، وشكرهما لفضل الله عليهما في ذلك العطاء الواسع.

* وتناولت السورة بعض شبهات المشركين، حول رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، فنفذتها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، كما أقامت الأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته.

* وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالواحد القهار، الذي بيده تدبير أمور الخلق أجمعين.

التسمية: سميت سورة «سبأ» لأن الله تعالى ذكر فيها قصة سبأ، وهم ملوك اليمن، وقد كان أهلها في نعمة ورخاء، وسرور وهناء، وكانت مساكنهم حدائق وجنات، فلما كفروا النعمة دمّرهم الله بالسيل العرم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

اللغة: ﴿يَلِجُ﴾ يدخل والولوج الدخول ومنه ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ﴿يَعْرُجُ﴾ يصعد ومنه المعراج لأنه صعودٌ إلى السموات ﴿يَعْزُبُ﴾ يغيب يقال: عزب عن عينه أي غاب عنها ﴿مِثْقَالُ﴾ وزن ومقدار ﴿جِنَّةٌ﴾ بكسر الجيم بمعنى الجنون وبضمها بمعنى الوقاية والحماية ﴿كِسَفًا﴾ قطعاً ﴿أَوِّبِي﴾ سبّحي والتأويب: الترجيع ﴿سَابِغَاتٍ﴾ واسعات كاملات يقال: سبغ الدرعُ والثوبُ إذا غطّى كل البدن وفضل منه شيء، قال أبو حيان: السابغات: الدروع وأصله الوصف بالسبوغ وهو التمام والكمال، وغلب على الدروع فصار كالأبطح قال الشاعر:

عليها أسودٌ ضارياتٌ لبوسهم ... سوابغُ بيضٌ لا يخرّقها النبلُ [1]

---

(1) البحر المحيط ٧/٢٥٥

﴿السَّرْدِ﴾ النسج، وهو نسج حلق الدروع، قال القرطبي: وأصله من الإِحكام قال لبيد:

صنع الحديد مضاعفاً أسراده ... لينال طول العيش غير مروم [1]

﴿القِطْرِ﴾ النحاس المذاب ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة ﴿الجَوَابِ﴾ جمع جابية وهي الحوض الكبير يجمع فيه الماء قال الأعشى:

نفى الذم عن آل المحلّق جفنةٌ ... كجابية الشيخ العراقي تفهق [2]

﴿مِنسَأَتَهُ﴾ المنسأة: العصا سميت بذلك؛ لأنه ينسأ بها أي يطرد ويزجر قال الشاعر:

إذا دببت على المنساة من كبر ... فقد تباعد عنك اللهو والغزل [3]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

التفسير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الثناء الكامل على جهة التعظيم والتبجيل لله الذي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته، وفي الآخرة لواسع رحمته ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي وله الحمد بأجمعه لا يستحقه أحد سواه، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ﴿وَهُوَ

(١) القرطبي ١٤/٢٦٩. (٢) القرطبي ١٤/٢٧٥.
(٣) البحر ٧/٢٥٥

﴿الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي الحكيم في صنعه، الخبير بخلقه، فلا اعتراض عليه في فعلٍ من أفعاله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ تفصيل لبعض معلوماته جلَّ وعلا أي يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز والأموات، وما يخرج من الأرض من الزروع والنباتات وماء العيون والآبار ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي وما ينزل من السماء من المطر والملائكة والرحمة، وما يصعد إليها من الأعمال الصالحات، والدعوات الزاكيات ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي الرحيم بعباده، الغفور عن ذنوب التائبين حيث لا يعاجلهم بالعقوبة، ثم حكى تعالى مقالة المنكرين للبعث والقيامة فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أي وقال المشركون من قومك: لا قيامة أبداً ولا بعث ولا نشور، قال البيضاوي: وهو إنكار لمجيئها أو استبطاء استهزاءً بالوعد به[1] ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة فإنها واقعة لا محالة قال ابن كثير: هذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوعها، والثانية في يونس ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ والثالثة في التغابن ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[2] ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو جلَّ وعلا العالم بما خفي من الأبصار، وغاب عن الأنظار، لا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ، والغرض أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو تعالى عالم أين ذهبت وتفرقت، ثم يعيدها يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أثبت ذلك في الكتاب المبين لكي يثيب المؤمنين الذين أحسنوا في الدار الدنيا بأحسن الجزاء ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق حسن كريم في دار النعيم ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي وأما الذين بذلوا جهدهم وجدّوا لإبطال القرآن مغالبين لرسولنا، يظنون أنهم يعجزونه بما يثيرونه من شبهات حول رسالته والقرآن ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي فهؤلاء المجرمون لهم عذاب من أسوأ العذاب، شديد الإيلام قال قتادة: الرجز: سوء العذاب. ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي ويعلم أولو العلم من أصحاب النبي عليه السلام ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ أي يعلمون أن هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد هو الحق الذي لا يأتيه الباطل ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي ويرشد من تمسك به إلى طريق الله الغالب الذي لا يُقهر، الحميد أي المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله. ثم ذكر تعالى أساليب المشركين في الصد عن دين الله، والسخرية برسول الله فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقال الكافرون من مشركي مكة المنكرون للبعث والجزاء ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي هل نرشدكم إلى رجل يحدثكم بأعجب الأعاجيب؟ يعنون محمداً ﷺ ﴿إِذَا

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٢.   (٢) ابن كثير المختصر ٣/ ١٢٠.

تسبح معه إذا سبّح، وكان إذا قرأ لم تبق دابةٌ إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه[1] ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي جعلنا الحديد ليِّناً بين يديه حتى كان كالعجين، قال قتادة: سخّر الله له الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضربه بمطرقة، وكان بين يديه كالشمع والعجين ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أي اعمل منه الدروع السابغة التي تقي الإنسان شر الحرب. قال المفسرون: كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل به ما يشاء، ويصنع الدرع في بعض يوم يساوي ألف درهم فيأكل ويتصدق[2]، والسابغات صفة لموصوف محذوف تقديره دروعاً سابغات، وهي الدروع الكوامل التي تغطي لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي وقدِّر في نسج الدروع بحيث تتناسب حلقاتها. قال الصاوي: أي اجعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها، ولا تثقل حاملها واجعل الكل بنسبة واحدة[3] ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً ولا تتكلوا على عز أبيكم وجاهه ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها وسأجازيكم بها. قال الإمام الفخر: ألان لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به، فأي عاقل يستبعد ذلك على قدرة الله[4] وهو أول من صنع الدروع حلقاً وكانت قبل ذلك صفائح ثقالاً كما قال تعالى ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾. ثم ذكر تعالى ما أنعم به على ولده سليمان من النبوة والملك والجاه العظيم فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للمسافر المجد، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر. قال المفسرون: سخّر الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات، تحمله مع جنده فتنقل به من بلدٍ إلى بلد، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار، وتروح به مسيرة شهر إلى آخر النهار، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي وأذبنا له النحاس حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض. قال المفسرون: أجرى الله لسليمان النحاس، كما ألان لداود الحديد، آية باهرة، ومعجزة ظاهرة ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عمّا أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي نذقه النار المستعرة في الآخرة، ثم أخبر تعالى عما كلف به الجنُّ من الأعمال فقال ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾ أي يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يريد من القصور الشامخة ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ أي والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج. قال الحسن: ولم تكن يومئذٍ محرمة، وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة لئلا تعبد من دون الله ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي وقصاع ضخمة تشبه الأحواض. قال ابن عباس:

---

(١) زاد المسير ٦/٤٣٦.
(٢) القرطبي ١٤/٢٦٦.
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٩٤.
(٤) التفسير الكبير ٢٥/٢٤٥.

«كالجواب» أي كالحياض ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ أي وقدور كبيرة ثابتات لا تتحرك لكبرها وضخامتها. قال ابن كثير: وقدور راسيات أي ثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها(١) ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض، واعملوا بطاعة الله شكرًا له على نعمه ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه. قال ابن عطية: وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله(٢) ثم أخبر الله تعالى عن كيفية موت سليمان فقال ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان بالموت ونزل به الموت ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ أي ما دل الجن على موته إلا تلك الحشرة وهي الأرضة السوسة التي تأكل الخشب، تأكل عصا سليمان ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ أي فلما سقط سليمان عن عصاه ظهر للجن واتضح أنهم لو كانوا يعرفون الغيب كما زعموا ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي ما مكثوا في الأعمال الشاقة تلك المدة الطويلة. قال المفسرون: كانت الإنس تقول: إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكئًا على عصاه فمات، ومكث على ذلك سنة والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته، حتى أكلت الأرضة عصا سليمان فسقط على الأرض فعلموا بموته، وعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب، لأنهم لو علموه لما أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنون أنه حي وهو عليه السلام ميت.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- تعريف الطرفين لإفادة الحصر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ومعناه لا يستحق الحمد الكامل إلا الله.

٢- الطباق بين ﴿يَلِجُ﴾ و﴿يَخْرُجُ﴾ وبين ﴿يَنزِلُ﴾ و﴿يَعْرُجُ﴾ وبين ﴿أَصْغَرُ﴾ و﴿أَكْبَرُ﴾.

٣- صيغة فعيل وفعول للمبالغة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

٤- المقابلة بين ﴿لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية وبين ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ فقد جعل المغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين، وجعل العذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين.

٥- الاستفهام للسخرية والاستهزاء ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ وغرضهم الاستهزاء بالرسول ولم يذكروا اسمه إمعانًا في التجهيل كأنه إنسان مجهول.

التنكير للتفخيم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي فضلًا عظيمًا، وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر.

٧- الإيجاز بالحذف ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر.

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/١٢٤. (٢) القرطبي ١٤/٢٧٧.

٨- التشبيه ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ .. إلى .. هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من آية (١٥) إلى نهاية آية (٣٣).

المناسبة: لما بيَّن تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان، بيَّن حال الكافرين لأنعمه بقصة سبأ، موعظةً لقريش وتحذيرًا وتنبيهًا على ما جرى من المصائب والنكبات على من كفر بأنعم الله، ثم ذكَّر كفار مكة بنعمه ليعبدوه ويشكروه.

اللغة: ﴿سَبَإٍ﴾ قبيلة من العرب سكنت اليمن سميت باسم جدهم سبأ بن يشجب بن قحطان ﴿الْعَرِمِ﴾ الحاجز بين الشيئين قال النحاس: وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مُسنَّاة - أي حاجز فهو العرم [1] ﴿خَمْطٍ﴾ الخمط: الشجر المر قال الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله فهو خمط وقال المبرد: هو كل ما تغيَّر إلى ما لا يشتهى، واللبن إذا حمض فهو خمط ﴿وَأَثْلٍ﴾ الأثل: شجر لا ثمر له قال الفراء: وهو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً، ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ والواحدة أثلة ﴿سِدْرٍ﴾ قال الفراء: هو السِّدر، وقال الأزهري: السدر نوعان: سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمرة عفصة لا تؤكل، وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول [2] ﴿ظَهِيرٍ﴾ معين ﴿الْفَتَّاحُ﴾ القاضي والحاكم بالحق.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۝ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا

(١) القرطبي ١٤/ ٢٨٦.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٦.

كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

التفسير: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد كان لقوم سبأ في موضع سكناهم باليمن آية عظيمة دالة على الله جل وعلا وعلى قدرته على مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فإن قوم سبأ لما كفروا نعمة الله خرّب الله مساكنهم، وشتت شملهم، ومزّقهم شرّ ممزّق، وجعلهم عبرة لمن يعتبر، ثم بيّن تعالى وجه تلك النعمة فقال: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار عن يمين الوادي بساتين ناضرة، وعن شماله كذلك. قال قتادة: كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار، تسرُّ الناس بظلالها، وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، فيتساقط من الأشجار ما يملؤه من غير كلفة ولا قطف لكثرته ونضجه[1]. وقال البيضاوي: ولم يرد بستانين اثنين فحسب، بل أراد جماعتين من البساتين، جماعة عن يمين بلدهم، وجماعة عن شماله سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة[2]. ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي وقلنا لهم على لسان الرسل: كلوا من فضل الله وإنعامه واشكروا ربكم على هذه النعم ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي هذه بلدتكم التي تسكنونها بلدة طيبة، كريمة التربة، حسنة الهواء، كثيرة الخيرات، وربكم الذي رزقكم وأمركم بشكره ربٌّ غفورٌ لمن شكره ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي فأعرضوا عن طاعة الله وشكره، واتباع أوامر رسله، فأرسلنا عليهم السيل المدمر المخرب الذي لا يطاق لشدته وكثرته، فخرّب بساتينهم ودورهم قال الطبري: وحين أعرضوا عن تصديق الرسل، ثقب ذلك السدّ الذي كان يحبس عنهم السيول، ثم فاض الماء على جناتهم فغرّقها، وخرّب أرضهم وديارهم[3] ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي وأبدلناهم بتلك البساتين الغناء، بساتين قاحلة جرداء، ذات أُكل مرٍّ بشع ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وشيء من الأشجار التي لا ينفع ثمرها كشجر الأثل والسِّدر. قال الرازي: أرسل الله عليهم سيلاً غرّق أموالهم، وخرّب دورهم، والخمطُ كلُّ شجرة لها شوك وثمرتها مرة، والأثل نوع من الطرفاء، ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات، يكون عليه

---

(1) مختصر ابن كثير ٣/١٢٦.

(2) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٨٥، والكشاف ٣/٤٥٤. (3) القرطبي ١٤/٢٨١.

ظنّه (١) ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فاتبعه الناس فيما دعاهم إليه من الضلالة إلا فريقًا هم المؤمنون فإنهم لم يتبعوه. قال القرطبي: أي ما سلم من المؤمنين إلا فريق، وعن ابن عباس أنهم المؤمنون كلهم فتكون ﴿مِّنَ﴾ على هذا للتبيين لا للتبعيض، وإنما علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب، لأنه لما نفذ له في آدم ما نفذ، غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته وقد وقع له تحقيق ما ظن (٢) ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي وما كان لإبليس تسلط واستيلاء عليهم بالوسوسة والإغواء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي إلا لحكمة جليلة وهي أن نظهر علمنا لعبادنا من هو مؤمن مصدّق بالآخرة، ومن هو شاك مرتاب في أمرها، فنجزي كلاً بعمله. قال القرطبي: أي لم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين (٣) وقال الحسن: والله ما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورًا وأماني دعاهم إليها فأجابوه (٤) ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي وربك يا محمد على كل شيء رقيب، لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، فهو الذي يحفظ عليهم أعمالهم، ويعلم نياتهم وأحوالهم. قال الصاوي: الشيطان سبب للإغواء لا خالق الإغواء، فمن أراد الله حفظه منع الشيطان عنه، ومن أراد إغواءه سلّط عليه الشيطان، والكل فعل الله تعالى (٥) ورتب سبق حكمته بتسليط الشيطان على الإنسان ابتلاءً ومحنةً ليميز الله الخبيث من الطيب، والمراد بقوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي لنظهر المتعلق علمنا، وإلا فالله تعالى عالم بما كان وما يكون ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ادعوا الذين عبدتموهم من الأصنام، وزعمتم أنهم آلهة من دون الله، ادعوهم ليجلبوا لكم الخير، ويدفعوا عنكم الضر. قال أبو حيان: والأمر بدعاء الآلهة للتعجيز وإقامة الحجة عليهم (٦) ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خير أو نفع أو ضر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في العالم العلوي أو السفلي، وليسوا بقادرين على أمر من الأمور في الكون بأجمعه ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي وليس لتلك الآلهة شركة مع الله لا خلقًا ولا ملكًا ولا تصرفًا ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي وليس له تعالى من الآلهة معينٌ يعينه في تدبير أمرهما، بل هو وحده الخالق لكل شيء، المنفرد بالإيجاد والإعدام، ثم لما نفى عنها الخلق والملك نفى عنها الشفاعة أيضًا فقال ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي لا تكون الشفاعة لأحد عند الله من ملك أو نبي حتى يأذن له في الشفاعة، فكيف يزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم؟ قال ابن كثير: أي أنه تعالى لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحدٌ أن يشفع عنده في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة

---

(١) الطبري ٢٢/٦٠.
(٢) القرطبي ١٤/٢٩٢
(٣) القرطبي ١٤/٢٩٣
(٤) مختصر ابن كثير ٣/١٢٨
(٥) حاشية الصاوي ٣/٢٩٥
(٦) البحر المحيط ٧/٢٧٦

ويفصل بالحق لأنه عادل لا يظلم ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي وبّخ أيضاً على إشراكهم وإظهار لخطئهم العظيم أي أروني هذه الأصنام التي ألحقتموها بالله وجعلتموها شركاء معه في الألوهية، لأنظر بأي صفة استحقت العبادة مع الذي ليس كمثله شيء؟ قال أبو السعود: وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم[1] ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ردع لهم وزجر أي ليس الأمر كما زعمتم من اعتقاد شريك له، بل هو الإله الواحد الأحد، الغالب على أمره، الحكيم في تدبيره لخلقه، فلا يكون له شريك في ملكه أبداً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي وما أرسلناك يا محمد للعرب خاصة وإنما أرسلناك لعموم الخلق، مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ هؤلاء الكافرين لا يعلمون ذلك فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغي والضلال ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي يقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية: متى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ والخطاب للنبي والمؤمنين ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لكم زمان معين للعذاب يجيء في أجله الذي قدّره الله له، لا يستأخر لطلبة أحد، ولا يتقدم لرجاء أحد، فلا تستعجلوا عذاب الله فهو آتٍ لا محالة، ثم أخبر تعالى عن تمادي المشركين في العناد والتكذيب فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لن نصدّق بالقرآن ولا بما سبقه من الكتب السماوية الدالة على البعث والنشور ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ولو شاهدت يا محمد حال الظالمين المكذبين للبعث في موقف الحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً ويرد بعضهم على بعض، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف للتهويل تقديره لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي يقول الأتباع للرؤساء: لولا إضلالكم لنا لكنا مؤمنين مهتدين ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾؟ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين: أنحن منعناكم من الإيمان بعد أن جاءكم؟ لا، ليس الأمر كما تقولون ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي بل أنتم كفرتم من قِبَل أنفسكم بسبب أنكم كنتم مجرمين راسخين في الإجرام. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: وقال الأتباع للرؤساء: بل مكركم بنا في الليل والنهار هو الذي صدَّنا عن الإيمان ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي وقت دعوتكم لنا إلى الكفر بالله، وأن نجعل له شركاء، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي أخفى كل من الفريقين الندامة على ترك الإيمان حين رأوا العذاب، أخفوها مخافة التعيير ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وجعلنا السلاسل في رقاب الكفار زيادة على تعذيبهم بالنار

---

(1) تفسير أبي السعود ٤/٢٢١.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها ولا يعاقبون إلا بكفرهم وإجرامهم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين لفظ ﴿يَمِينٍ﴾ و﴿وَشِمَالٍ﴾ وبين ﴿بَشِيرًا﴾ .. ﴿وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿تَسْتَقْدِمُونَ﴾ .. ﴿تَسْتَأْخِرُونَ﴾ وبين ﴿اسْتُضْعِفُوا﴾ .. ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٢- جناس الاشتقاق ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا﴾ فإن كلمة ﴿سِيرُوا﴾ مشتقة من السير.

٣- التهكم بدعاء الجماد الذي لا يسمع ولا يحس ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

٤- التوبيخ والتبكيت ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟

٥- حذف الخبر لدلالة السابق عليه ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي قل الله تعالى الرازق للعباد ودل على المحذوف سياق الآية.

٦- المبالغة بذكر صيغ المبالغة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإن فعّال وفعيل وفعول من صيغ المبالغة ومثلها ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

٧- حذف الجواب للتهويل والتفزيع ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حذف الجواب للتهويل أي لو ترى حالهم لرأيت أمرًا فظيعًا مهولاً.

٨- المجاز العقلي ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أسند المكر إلى الليل والمراد مكر المشركين بهم في الليل ففيه مجاز عقلي.

٩- الاستعارة ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ليس للقرآن يدان ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من عند الله.

١٠- مراعاة الفواصل لما لها من وقع حسن على السمع مثل ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إلخ.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ .. إلى .. إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ من آية (٣٤) إلى آية (٥٤) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة أهل سبأ وكفرهم بنعم الله، وما أعقب ذلك من تبديل النعمة إلى النقمة، ذكر هنا اغترار المشركين بالمال والبنين، وتكذيبهم لرسول الله عليه السلام، وختم السورة الكريمة ببيان مصرع الغابرين، تسلية لرسول الله ﷺ وتخويفًا وتحذيرًا للمشركين.

اللغة: ﴿مُتْرَفُوهَا﴾ المترفون: المتنعمون المتقلبون في الغنى والعز والجاه ﴿يَبْسُطُ﴾ يوسع ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق ﴿زُلْفَىٰ﴾ قربى ﴿إِفْكٌ﴾ كذب مختلق ﴿مِعْشَارَ﴾ المعشار: العشر قال الجوهري: ومعشار الشيء عشره[1]، فهما لغتان ﴿نَكِيرِ﴾ أصلها نكيري حذفت الياء لمراعاة الفواصل قال

(١) القرطبي ١٤/٣١٠.

الزجاج: النكير. اسم بمعنى الإنكار ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ بكسر الجيم أي جنون ﴿فَوْتَ﴾ نجاة ومهرب ﴿التَّنَاوُشُ﴾ التناول. قال الزمخشري: والتناوش والتناول أخوان، إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب [1]، ومنه المناوشة في القتال وذلك عند تداني الفريقين، قال ابن السكيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذه ناشه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

التفسير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي لم نبعث في أهل قرية رسولاً من الرسل ينذرهم عذابنا ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: إلا قال أهل الغنى والتنعم في الدنيا ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي لا نؤمن برسالتكم ولا نصدقكم بما جئتم به. قال قتادة: المترفون هم جبابرتهم وقادتهم ورؤساؤهم في الشر [2]، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء، والقصد بالآية تسلية النبي ﷺ على تكذيب أكابر قريش له ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي وقال مشركو مكة: نحن أكثر أموالاً وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي إن الله لا يعذبنا؛ لأنه راضٍ عنا، ولو لم يكن راضياً عنا لما بسط لنا في الرزق، فقاسوا أمر الدنيا على الآخرة، وظنوا

---

(١) الكشاف ٣/٤٦٨ .	(٢) القرطبي ١٤/٣٠٥ .

أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة. قال أبو حيان: نعى تعالى على المترفين؛ لأنهم أول المكذبين للرسل، لما شغلوا به من زخرف الدنيا، وما غلب على عقولهم منها، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة، بخلاف الفقراء فإنهم خالون من مستلذات الدنيا، فقلوبهم أقبل للخير ولذلك كانوا أكثر أتباع الأنبياء.[1] ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي قل يا محمد: إن توسعة الرزق وتضييقه ليس دليلاً على رضى الله، فقد يوسع الله على الكافر والعاصي، ويضيق على المؤمن والمطيع ابتلاءً وامتحاناً، فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد دليل المحبة والسعادة، بل هي تابعة للحكمة والمشيئة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر هؤلاء الكفرة لا يدركون الحقيقة، فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة، وكثيراً ما يكون للاستدراج[2] كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا أكَّد ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي ليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها وتتكاثرون هي التي تقربكم من الله قربى، وإنما يقرب الإيمان والعمل الصالح. قال الطبري: الزلفى: القربى، ولا يعتبر الناس بكثرة المال والولد[3]، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي لكن المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله، ويعلّم ولده الخير ويربيه على الصلاح فإن هذا الذي يقرب من الله[4] ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي تضاعف حسناتهم، الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ أي وهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل عذاب ومكروه، ولما ذكر جزاء المؤمنين، ذكر عقاب الكافرين، ليظهر التباين بين الجزاءين فقال ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي يسعون في الصدِّ عن سبيل الله، واتباع آياته ورسله، معاندين لنا يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي فهم مقيمون في العذاب، محضرون يوم القيامة للحساب ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي قل يا محمد: إن ربي يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه، ويقتِّر على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال التي رزقكم الله إياها. قال في التسهيل: كررت الآية لاختلاف القصد، فإنَّ القصد بالأول الكفرة، والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإنفاق[5] ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله قليلاً أو كثيراً فإن الله تعالى يعوِّضه عليكم إما عاجلاً أو آجلاً ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي هو تعالى خير المعطين[6]، فإنَّ عطاء غيره بحساب، وعطاؤه تعالى بغير حساب. قال المفسرون: لما بيَّن أن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرب العبد إلى ربه، ويكون مؤدياً إلى تضعيف حسناته، بيَّن أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا، بل الصالحون قد يبسط لهم الرزق

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٨.
(٣) التسهيل ٣/ ١٥٤.
(٤) البيضاوي ٣/ ١٦٦.
(٥) البيضاوي ٣/ ١٦٦.
(٦) زاد المسير ٦/ ٦٤٤.

في الدنيا ، مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأوفى والمثوبة الحسنى بمقتضى الوعد الإلهي[1] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي واذكر يوم يحشر الله المشركين جميعًا من تقدم ومن تأخر للحساب والجزاء ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين أي أهؤلاء عبدوكم من دوني وأنتم أمرتموهم بذلك؟ قال الزمخشري : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر «إياك أعني واسمعي يا جارة» ونحوه قوله تعالى : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ؟ وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى منزهون عما نُسب إليهم ، والغرض من السؤال والجواب أن يكون تقريع المشركين أشد ، وخجلهم أعظم[2] ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي تعاليت وتقدست يا ربنا عن أن يكون معك إله ، أنت ربنا ومعبودنا الذي نتولاه ونعبده ونخلص له العبادة ، ونحن نتبرأ إليك منهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي بل كانوا يعبدون الشياطين ؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة غير الله فأطاعوهم ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ قال الطبري : أي أكثرهم بالجن مصدقون يزعمون أنهم بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا[3] قال تعالى ردًّا على مزاعم المشركين ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم الحساب - لا ينفع العابدون ولا المعبودون بعضهم لبعض ، لا بشفاعة ونجاة ، ولا بدفع عذاب وهلاك ، قال أبو السعود : يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم عن نفع عابديهم وإظهارًا لخيبة رجائهم بالكلية ، ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض للمبالغة في المقصود ، كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة كنفع العبدة لهم[4] ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي : ونقول للظالمين الذين عبدوا غير الله ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي ذوقوا عذاب جهنم التي كذبتم بها في الدنيا فها قد وردتموها . ثم بيَّن تعالى لونًا آخر من كفرهم وضلالهم فقال : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا تُليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن واضحات المعاني ، بينات الإعجاز ، وسمعوها غضة طرية من لسان رسولنا محمد ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ ؟ أي ما هذا الذي يزعم الرسالة إلا رجلٌ مثلكم يريد أن يمنعكم عمَّا كان يعبد أسلافكم من الأوثان والأصنام ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي ما هذا القرآن إلا كذبٌ مختلق على الله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وقال أولئك الكفرة المتمردون لجراءتهم على الله ومكابرتهم للحقِّ النيِّر : ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح ظاهر لا يخفى على لبيب . قال الزمخشري : وفيه تعجيب من أمرهم بليغ ، حيث بتّوا القضاء على أنه سحر ، ثم تقرّه على أنه بيِّن ظاهر ، كل عاقل تأمله سمَّاه سحرًا . وفي قوله : ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ المبادهة بالكفر من

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٩٣ .
(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٣ .
(٣) الطبري ٢٢/ ٦٦ .
(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٤ .

غير تأمل (١)، ثم بيّن تعالى أنهم لم يقولوا ذلك عن بيّنة، ولم يكذبوا محمدًا عن يقين، بل عن ظنٍّ وتخمين فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي وما أنزلنا على أهل مكة كتابًا قبل القرآن يقرءون فيه ويتدارسونه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد رسولاً ينذرهم عذاب الله، فمن أين كذبوك؟ قال الطبري: أي ما أنزل الله على العرب كتابًا قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبيًّا قبل محمد ﷺ (٢) ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي وكذّب قبلهم أقوام من الأمم السابقين وما بلغ كفار مكة عشر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والمال وطول العمر، قال ابن عباس: ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي من القوة في الدنيا (٣) ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي وحيث كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم ما كانوا فيه من القوة، فكيف حال هؤلاء إذا جاءهم العذاب والهلاك؟ وفيه تهديدٌ لقريش ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلةٍ واحدة ثم فسّرها بقوله ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي هي أن تتحرّوا الحق لوجه الله والتقرب له مجتمعين ووحدانًا، أو اثنين اثنين وواحدًا واحدًا، قال القرطبي: وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق، لا القيام الذي هو ضدُّ القعود (٤) ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي ثم تتفكروا في أمر محمد لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون مُرسلاً من الجنون أو يكون مجنونًا، قال أبو حيان: ومعنى الآية: إنما أعظكم بواحدة فيها إصابتكم الحقَّ وهي أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، ثم تتفكروا في أمر محمد وما جاء به، وإنما قال: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من التفكر، كما يكون في الندوات التي يجتمع بها الجماعة، وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصاف وعرض كل واحد منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحقّ أن يعدوهما، وإن كان الواحد جيّد الفكر عرف الحق، فإذا تفكروا عرفوا أن نسبته عليه السلام للجنون لا يمكن، ولا يذهب إلى ذلك عاقل (٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي ما هو إلا رسول منذر لكم إن كفرتم من عذاب شديد في الآخرة ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا، قال الطبري: المعنى إني لم أسألكم على ذلك جعلاً فتتهموني وتظنوا أني إنما دعوتكم إلى اتباعي لمالٍ آخذه منكم (٦) ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله رب العالمين ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هو

---

(١) الكشاف ٣/٢٩٤.

(٢) الطبري ٢٢/٧٠ وهذه رواية قتادة.

(٣) مختصر ابن كثير ٣/١٣٥.

(٤) القرطبي ١٤/٣١١.

(٥) البحر المحيط ٧/٢٩٠ بشيء من الاختصار.

(٦) الطبري ٢٢/٧١.

تعالى رقيب وحاضر على أعمالي وأعمالكم، لا يخفى عليه شيء، وسيجازي الجميع، قال أبو السعود: أي هو مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي[1] ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يبيّن الحجة ويظهرها، قال ابن عباس: يقذف الباطل بالحق كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي هو تعالى الذي أحاط علمًا بجميع الغيوب التي غابت وخفيت عن الخلق ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي جاء نور الحق وسطع ضياؤه وهو الإسلام ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي ذهب الباطل بالمرة فليس له بدء ولا عودٌ. قال الزمخشري: إذا هلك الإنسان لم يبق له إبداء ولا إعادة، فجعلوا قولهم «لا يبدئ ولا يعيد» مثلاً في الهلاك والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[2]. ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن حصل لي ضلالٌ - كما زعمتم - فإن إثم ضلالي على نفسي لا يضر غيري ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي وإن اهتديت إلى الحق فبهداية الله وتوفيقه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي سميعٌ لمن دعاه، قريب الإجابة لمن رجاه، قال أبو السعود: يعلم قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما[3] ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ أي ولو ترى يا محمد حال المشركين عند فزعهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي فلا مخلص لهم ولا مهرب ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي أُخذوا من الموقف - أرض المحشر - إلى النار، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لرأيت أمرًا عظيمًا جسيمًا ترتعد له الفرائص ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي وقالوا عندما عاينوا العذاب آمنا بالقرآن وبالرسول ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي ومن أين لهم تناول الإيمان وهم الآن في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا صارت منهم بمكان بعيد؟ قال أبو حيان: مثّل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعد كما يتناوله الآخر من قرب[4] ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي والحال أنهم قد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل ذلك في الدنيا، فكيف يحصل لهم الإيمان بهما في الآخرة! ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة فيقولون: لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، قال القرطبي: والعربُ تقول لكل من تكلم بما لا يعرف هو يقذف ويرجم بالغيب، على جهة التمثيل لمن يرمي ولا يصيب[5] ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي وحيل بينهم وبين الإيمان ودخول الجنان ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كما فعل بأشباههم في الكفر من الأمم السابقة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وارتياب من أمر الحساب والعذاب، وقوله ﴿مُرِيبٍ﴾ من باب التأكيد كقولهم عجبٌ عجيب

---

(1) أبو السعود ٤/ ٢٣٥
(2) الكشاف ٣/ ٤٦٧ .
(3) أبو السعود ٤/ ٢٣٥
(4) البحر المحيط ٧/ ٢٩٣
(5) البحر المحيط ٧/ ٢٩٣ .

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يَبْسُطُ .. وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿نَفْعًا .. وَلَا ضَرًّا﴾ وبين ﴿مَثْنَى .. وَفُرَادَى﴾.

٢ - المقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ..﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾.

٣ - الالتفات من الغائب إلى المخاطب ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ والغرض المبالغة في تحقيق الحق.

٤ - أسلوب التقريع والتوبيخ ﴿أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾؟ الخطاب للملائكة تقريعًا للمشركين.

٥ - وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل جريمة الكفر عليهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ والأصل: وقالوا.

٦ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه أي ما أموالكم بالتي تقربكم ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا.

٧ - الاستعارة ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام الإنسان.

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره.

٩ - الاستعارة التصريحية ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ شبه الذي يتكلم بغير علم، ويظن ولا يتحقق، بالإنسان يرمي غرضًا بينه وبينه مسافة بعيدة فلا يكون سهمه صائبًا واستعار لفظ القذف للظن.

١٠ - توافق الفواصل لما له من جميل الوقع على السمع مثل ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ»

بين يدي السورة

* سورة فاطر مكية نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ، فهي تسير في الغرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسالة كل رسول، وهو قضايا العقيدة الكبرى «الدعوة إلى توحيد الله، وإقامة البراهين على وجوده، وهدم قواعد الشرك، والحث على تطهير القلوب من الرذائل، والتحلي بمكارم الأخلاق».

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع، الذي فطر الأكوان، وخلق الملائكة والإنس والجان، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث والنشور، في صفحات الكون المنظور، بالأرض تحيا بعد موتها، بنزول الغيث، وبخروج الزروع والفواكه والثمار، وبتعاقب الليل والنهار، وفي خلق الإنسان في أطوار، وفي إيلاج الليل في النهار، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية.

* وتحدثت عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر، وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور.

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة في اختلاف أنواع الثمار، وفي سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام، وفي اختلاف أشكال الجبال والأحجار، وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار.

* وتحدثت بعد ذلك عن ميراث هذه الأمة المحمدية لأشرف الرسالات السماوية، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائل كتب الله، ثم انقسام الأمة المحمدية إلى ثلاثة أنواع: «المقصِّر، والمحسن، والسابق بالخيرات».

* وختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم للأوثان والأصنام والأحجار.

التسمية: سميت «سورة فاطر» لذكر هذا الاسم الجليل، والنعت الجميل في طليعتها، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثال سابق، ولما فيه من التصوير الدقيق، المشير إلى عظمة ذي الجلال، وباهر قدرته، فهو الذي خلق الملائكة وأبدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب.

اللغة: ﴿فَاطِرِ﴾ الفاطر: الخالق، وأصل الفطر الشق يقال: فطره فانفطر أي انشق ومنه ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ وفطر الله الخلق: خلقهم وبرأهم ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون من الإفك بمعنى الكذب سُمّي إفكًا؛ لأنه مصروف عن الحق والصواب ﴿حَسَرَاتٍ﴾ جمع حسرة وهي الغم الذي يلحق النفس على فوات الأمر، وفي المختار: الحسرة أشد التلهف على الشيء الفائت[1]

(١) مختار الصحاح مادة حسر.

﴿النُّشُورُ﴾ مصدر نشر الميت إذا حيي قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر

﴿يَبُورُ﴾ يهلك ويفسد، بار يبور أي هلك وبطل، والبوار: الهلاك ﴿فُرَاتٌ﴾ حلو شديد الحلاوة ﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، قال في القاموس: أج الماء أجوجاً إذا اشتدت ملوحته[1] ﴿قِطْمِيرٍ﴾ القطمير: القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۞ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۞ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ۞ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ۞ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۞ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

التفسير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي الثناء الكامل، والذكر الحسن، مع التعظيم والتبجيل لله جلَّ وعلا، خالق السموات والأرض ومنشئها ومخترعها من غير مثال سبق، قال البيضاوي. ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما وموجدهما على غير مثال[2] ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي جاعل الملائكة وسائط بين الله وأنبيائه تبلغهم أوامر الله، قال ابن الجوزي: يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور[3] ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي أصحاب

(١) القاموس المحيط مادة أجج.
(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٩٨.
(٣) زاد المسير ٦/٤٧٣.

أجنحة، قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها إلى السماء[1] ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي يزيد في خلق الملائكة كيف يشاء، من ضخامة الأجسام، وتفاوت الأشكال، وتعدد الأجنحة، وقد رأى رسول الله ﷺ جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب[2] وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾: الملاحة في العينين، والحسنُ في الأنف، والحلاوة في الفم[3] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي تعالى قادر على ما يريد، له الأمر والقوة والسلطان، لا يمتنع عليه فعل شيء أراده، وصف تعالى نفسه في هذه الآيات بصفتين جليلتين تحمل كل منهما صفة القدرة وكمال الإنعام الأولى: أنه فاطر السموات والأرض أي خالقهما ومبدعهما من غير مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته، وشمول نعمته، فهو الذي رفع السماء بغير عمد، وجعلها مستويةً من غير أود، وزينها بالكواكب والنجوم، وهو الذي بسط الأرض، وأودعها الأرزاق والأقوات، وبث فيها البحار والأنهار، وفجّر فيها العيون والآبار، إلى غير ما هنالك من آثار قدرته العظيمة، وآثار صنعه البديعة، وعبّر عن ذلك كله بقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والثانية: اختيار الملائكة ليكونوا رسلاً بينه وبين أنبيائه، وقد أشار إلى طرف من عظمته وكمال قدرته جل وعلا بأن خلق الملائكة بأشكال عجيبة، وصور غريبة، وأجنحة عديدة، فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له ستمائة جناح، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، كما هو وصف جبريل عليه السلام، ومنهم من لا يعلم حقيقة خلقه وضخامة صورته إلا الله جل وعلا، فقد روى الزهري أن جبريل قال للنبي ﷺ: (يا محمد كيف لو رأيت إسرافيل! إن له لاثني عشر ألف جناح، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، وإن العرش لعلى كاهله)[4] ولو كشف لنا الحجاب لرأينا العجب العجاب، فسبحان الله ما أعظم خلقه، وما أبدع صنعه! ثم بيّن تعالى نفاذ مشيئته، ونفوذ أمره في هذا العالم الذي فطره ومن فيه، وأخضعه لإرادته وتصريفه فقال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي أي شيء يمنحه الله لعباده ويتفضل به عليهم من خزائن رحمته، من نعمةٍ، وصحةٍ، وأمنٍ، وعلمٍ، وحكمةٍ، ورزقٍ، وإرسال رسل لهداية الخلق، وغير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحيط بها عدّ، فلا يقدر أحدٌ على إمساكه وحرمان خلق الله منه. فهو الملك الوهاب الذي لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا

---

(١) القرطبي ١٤/٣١٩.

(٢) الحديث أخرجه مسلم عن ابن مسعود، قال الزمخشري: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح».

(٣) القرطبي ١٤/٣٢٠ والآية عامة تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وحصافة في العقل، وذلاقة في اللسان، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف.

(٤) الكشاف ٣/٤٧٠.

قديمة لا تكاد تزول فعادوه كما عاداكم ولا تطيعوه، وكونوا منه على حذر، قال بعض العارفين: يا عجبًا ممن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي إنما مقصده أن يغويكم ويوقعكم في نار جهنم المستعرة التي تشوي الوجوه والجلود، لا غرض له إلا هذا، فهل يليق بالعاقل أن يستجيب لنداء الشيطان اللعين؟ قال الطبري: أي إنما يدعو شيعته ليكونوا من المعذبين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها(١) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي الذين جحدوا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد لا يقادر قدره، ولا يوصف هوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي لهم عند ربهم عفو لذنوبهم، وأجر كبير وهو الجنة، وإنما قرن الإيمان بالعمل الصالح ليشير إلى أنهما لا يفترقان، فالإيمان تصديق وقول وعمل ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ الاستفهام للإنكار وخبره محذوف والتقدير أفمن زين له الشيطان عمله السيء حتى رآه حسنًا(٢) واستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان؟ ودل على هذا المحذوف قوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي الكل بمشيئة الله، فهو تعالى الذي يصرف من يشاء عن طريق الهدى، ويهدي من يشاء بتوفيقه للعمل الصالح والإيمان ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أي فلا تغتم يا محمد ولا تهلك نفسك حسرة على تركهم الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي هو تعالى عالم بما يصنع هؤلاء من القبائح ومجازيهم عليها، وفيه وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ أي والله تعالى بقدرته هو الذي يرسل الرياح مبشرة بنزول المطر ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي فتحرك السحاب وتهيجه، والتعبير بالمضارع عن الماضي ﴿فَتُثِيرُ﴾ لاستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة(٣) ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي فسقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى بلد مجدب قاحل ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فيه حذف تقديره فأحيينا به الأرض بعد جدبها ويبسها ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ أي كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء كذلك يحيي الله الموتى من قبورهم، روى الإمام أحمد عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: أما مررت بوادي أهلك ممحلًا، ثم مررت به يهتز خضرًا؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: فكذلك يحيي الله الموتى، وتلك آيته في خلقه(٤) قال ابن كثير: كثيرًا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل الله إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ كذلك الأجساد إذا أراد بعثها ونشورها(٥). ثم نبه

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٧٨.

(٢) انظر الكشاف ٣/٤٧٤.

(٣) أبو السعود ٤/٣٣٣.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

(٥) مختصر ابن كثير ٣/١٤٠.

تعالى عباده إلى السبيل الذي تنال به العزة فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي من كان يطلب العزة الكاملة، والسعادة الشاملة، فليطلبها من الله تعالى وحده، فإن العزة كلها لله جل وعلا، قال بعض العارفين: من أراد عز الدارين فليطع العزيز [1] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي إليه جل وعلا يرتفع كل كلام طيب من ذكر، ودعاء، وتلاوة قرآن، وتسبيح وتحميد ونحوه، قال الطبري: إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه عليه ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي والعمل الصالح يتقبله الله تعالى ويثيب صاحبه عليه، قال قتادة: لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، من قال وأحسن العمل قبل الله منه، نقله الطبري ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذا بيان للكلم الخبيث بعد بيان حال الكلام الطيب أي: والذين يحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي ومكر أولئك المجرمين هالك وباطل، لأنه ما أسر أحد سوءاً ودبره إلا أبداه الله وأظهره، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ قال المفسرون: والإشارة هنا إلى مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة وأرادوا أن يقتلوه، أو يحبسوه، أو يخرجوه كما حكى القرآن الكريم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [2] ثم ذكرهم تعالى بدلائل التوحيد والبعث، بعد أن ذكرهم بآيات قدرته وعزته فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم خلق ذريته من ماء مهين وهو المني الذي يصب في الرحم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي خلقكم ذكوراً وإناثاً، وزوج بعضكم من بعض ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضائها [3] قال الطبري: أي زوج منهم الأنثى من الذكور [4] ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي وما تحمل أنثى في بطنها من جنين، ولا تلد إلا بعلمه تعالى، يعلم أذكر هو أو أنثى، ويعلم أطوار هذا الجنين في بطن أمه، لا يخفى عليه شيء من أحواله ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي وما يطول عمر أحد من الخلق فيصبح هرماً، ولا ينقص من عمر أحد فيموت وهو صغير أو شاب إلا وهو مسجّل في اللوح المحفوظ، لا يزاد فيما كتب الله ولا ينقص ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي سهل هين؛ لأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن والكافر فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ أي وما يستوي ماء البحر وماء النهر [5] ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي هذا ماء حلو شديد الحلاوة يكسر وهج العطش، ويسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي وهذا ماء شديد الملوحة، يُحرق حلق الشارب لحرارته وشدة ملوحته، فكما لا يتساوى البحران: العذب، والملح، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر قال أبو السعود: هذا مثلٌ

---

(1) القرطبي ١٤/ ٣٢٩.
(2) انظر الكشاف ٣/ ٤٧٦.
(3) القرطبي ١٤/ ٣٣٢.
(4) الطبري ٢٢/ ٨١.
(5) سمي النهر بحراً من باب التغليب.

دعاءكم ولم يستجيبوا لندائكم ، لأنها لا تسمع ولا تفهم ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي ولو سمعوا لدعائكم - على الفرض والتسليم - ما استجابوا لكم ، لأنها ليست ناطقة فتجيب ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي وفي الآخرة حين ينطقهم الله يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ أي ولا يخبرك يا محمد على وجه اليقين أحد إلا أنا - الله - الخالق العليم الخبير قال قتادة : يعني نفسه عز وجل .

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾ شبه فيه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء ، وكذلك حبس النعم بالإمساك ، واستعير الفتح للإطلاق والإمساك للمنع .

٢ - الطباق بين ﴿يفتح .. ويمسك﴾ وكذلك بين ﴿يضل .. ويهدي﴾ وبين ﴿تحمل .. وتضع﴾ وبين ﴿يعمر .. وينقص من عمره﴾

٣ - المقابلة بين جزاء الأبرار والفجار ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ .. ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وكذلك بين قوله : ﴿هذا عذب فرات﴾ .. ﴿وهذا ملح أجاج﴾ وكل من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية إلا أن الأول يكون بين شيئين والثاني بين أكثر

٤ - حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ ؟ حذف منه ما يقابله أي كمن لم يزين له سوء عمله؟ ويدل على هذا المحذوف قوله : ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾

٥ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ .. ثم قال : ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ .

٦ - الكناية ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ كناية عن الهلاك ، لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان .

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم للإشعار بالعظمة ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾

٨ - السجع لما له من وقع حسن على السمع مثل : ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وأمثال ذلك وهو من المحسنات البديعية

المناسبة: لما عدد تعالى نعمه على العباد ، وأقام الأدلة والبراهين على قدرته وعزته وسلطانه ، ذكرهم هنا بحاجتهم إليه ، وبغناه جل وعلا عن جميع الخلق ، وضرب الأمثال للتفريق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، بالأعمى والبصير ، والظلام والنور ، فبضدها تتميز الأشياء .

اللغة: ﴿وزر﴾ الوزر : الجبل المنيع الذي يعتصم به ومنه ﴿كلا لا وزر﴾ ثم قيل للثقل وزر تشبيهاً له بالجبل ، ثم استعير للذنب لما فيه من إثقال كاهل الإنسان ﴿نذير﴾ تخويف والإنذار التخويف ﴿بالغيب﴾ ما غاب عن الإنسان ولم تدركه حواسه قال الشاعر :

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا ... يصلون للأوثان قبل محمد

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، ولا تعاقب بذنب غيرها كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بالجار، والقريب بالقريب [1] ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بالأوزار أحدًا ليحمل عنها بعض أوزارها لا يحمل منه ولو كان المدعو قريبًا لها كالأب والابن، فلا غياث يومئذ لمن استغاث، وهو تأكيد لما سبق في أن الإنسان لا يحمل ذنب غيره، قال الزمخشري: فإن قلت فما الفرق بين الآيتين؟ قلت: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفسًا بغير ذنبها، والثاني في أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث [2] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي إنما تنذر يا محمد بهذا القرآن الذين يخافون عقاب ربهم يوم القيامة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي وأدوا الصلاة على الوجه الأكمل، فضموا إلى طهارة نفوسهم طهارة أبدانهم بالصلاة المفروضة في أوقاتها ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن طهر نفسه من أدناس المعاصي فإنما ثمرة ذلك التطهير عائدة عليه، فصلاحه وتقواه مختص به ولنفسه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه تعالى مرجع الخلائق يوم القيامة فيجازي كلًا بعمله، وهو إخبار متضمن معنى الوعيد ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر [3] أي كما لا يتساوى الأعمى مع البصير فكذلك لا يستوي المؤمن المستنير بنور القرآن، والكافر الذي يتخبط في الظلام، ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ أي لا يتساوى كذلك الكفر والإيمان، كما لا يتساوى النور والظلام ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ أي وكذلك لا يستوي الحق ولا الباطل، والهدى والضلال كما لا يستوي الظل الظليل مع شدة حر الشمس المتوهجة قال المفسرون: ضرب الله الظل مثلًا للجنة وظلها الظليل، وأشجارها اليانعة تجري من تحتها الأنهار، كما جعل الحرور مثلًا للنار وسعيرها، وشدة أوارها وحرها، وجعل الجنة مستقرًا للأبرار، والنار مستقرًا للفجار كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ثم أكد ذلك فقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ أي كما لا يستوي العقلاء والجهلاء، قال أبو حيان: وترتيب هذه الأشياء في بيان عدم الاستواء جاء في غاية الفصاحة، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلًا للمؤمن والكافر، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر، وما عليه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مآلهما وهو الظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعب، ثم ذكر مثلًا آخر على أبلغ وجه وهو الحي والميت، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع بخلاف الميت، وجمع الظلمات؛ لأن طرق الكفر متعددة، وأفرد النور؛ لأن التوحيد والحق واحدٌ لا يتعدد، وقدَّم الأشرف في المثلين الأخيرين وهما «الظل»، و«الحي» وقدم الأوضح في المثلين الأولين وهما «الأعمى»، و«الظلمات» ليظهر الفرق جليًّا، ولا يقال ذلك لأجل السجع؛ لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ، بل في المعنى أيضًا فلله سر

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٢) الكشاف ٣/٤٧٩.
(٣) البحر المحيط ٧/٣٠٨.

القرآن (١). ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي إِنَّ الله يُسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق، فيجيبه بالإيمان ويشرح صدره للإسلام، وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون. قال ابن الجوزي: أراد بمن في القبور الكفار، شبههم بالموتى (٢)، أي فكما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله ويتعظ بمواعظه، فكذلك من كان ميت القلب لا ينتفع بما يسمع (٣) ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما أنت إلا رسول منذر، تخوف هؤلاء الكفار من عذاب النار ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بعثناك بالهدى ودين الحق، بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي ما من أمة من الأمم في العصور والأزمنة الغابرة إلا وقد جاءهم رسول ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تسلية للنبي ﷺ ليتأسى بالأنبياء في الصبر على تحمل الأذى والبلاء، قال الطبري: أي وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم الرسل بالمعجزات البينات والحجج الواضحات فكذبوهم وأنكروا ما جاءوا به من عند الله (٤) ﴿وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي وجاءوهم بالزبر أي الصحف المنزلة على الأنبياء، وبالكتب السماوية المقدسة المنيرة الموضحة وهي أربعة «التوراة، والزبور، والإنجيل، والفرقان» ومع ذلك كذبوهم وردوا عليهم رسالتهم فاصبر كما صبروا ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ثم بعد إمهالهم أخذت هؤلاء الكفار بالهلاك والدمار ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كانت عقوبتي لهم وإنكاري عليهم؟ ألم آخذهم أخذ عزيز مقتدر؟ ألم أبدل نعمتهم نقمة، وسعادتهم شقوة، وعمارتهم خرابًا؟ وهكذا أفعل بمن كذب رسلي. ثم عاد إلى تقرير وحدانية الله بالأدلة السماوية والأرضية فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي ألم ترَ أيها المخاطب أن الله العظيم الكبير الجليل أنزل من السحاب المطر بقدرته (٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنواع النباتات والفواكه والثمار، المختلفات الأشكال والألوان والطعوم، قال الزمخشري: أي مختلفًا أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها (٦) ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق المختلفة الألوان - وإن كان الجميع حجرًا أو ترابًا - فمن الجبال جدد - أي طرائق - مختلفة البياض، وحمر مختلفة في حمرتها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي وجبال سود

---

(١) البحر المحيط ٧/٣٠٦ بشيء من الإيجاز والتصرف.

(٢) تفسير ابن الجوزي ٦/٤٨٤ (٣) تفسير الطبري ٢٢/٨٥.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/٨٦.

(٥) في الآية تنبيه للبحث والتحري عن المطر في مجالات علمية نافعة، وآثار قدرته تؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله جل جلاله، ويؤدي العلم إلى خشيته وإذلال النفس لعظمته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ صفوة القرآن.

(٦) تفسير الكشاف ٣/٤٨١.

غرابيب أي شديدة السواد، قال ابن جزي: قدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر، وذلك لقصد التأكيد وكثيرًا ما يأتي مثل هذا في كلام العرب [١] والغرض بيان قدرته تعالى، فليس باختلاف الألوان قاصرًا على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ما هو أيضًا مختلف الألوان [٢] حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوان عجيبة، وفيه عروق تشبه المرجان، والأصباغ في صخور «المرمر» فسبحان القادر على كل شيء ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي وخلق من الناس، والدواب، والأنعام، خلقًا مختلفًا ألوانه كاختلاف الثمار والجبال، فهذا أبيض، وهذا أحمر، وهذا أسود، والكل خلق الله فتبارك الله أحسن الخالقين .. ثم لما عدّد آيات الله، وأعلام قدرته، وآثار صنعه، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي إنما يخشاه تعالى العلماء؛ لأنهم عرفوه حق معرفته، قال ابن كثير: أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر [٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي غالب على كل شيء بعظمته، غفور لمن تاب وأناب من عباده، ثم أخبر عن صفات هؤلاء الذين يخشون الله ويرجون رحمته فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدوها على الوجه الأكمل في أوقاتها، بخشوعها وآدابها، وشروطها وأركانها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي وأنفقوا بعض أموالهم في سبيل الله ابتغاء مرضاته في السر والعلن ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ أي يرجون بعملهم هذا تجارة رابحة، لن تكسد ولن تهلك بالخسران أبدًا ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم، وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال، ويزيدهم - فوق أجورهم - من فضله وإنعامه وإحسانه قال في التسهيل: توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب، والزيادة: التضعيف فوق ذلك أو النظر إلى وجه الله [٤] ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة لأهل القرآن، شاكر لطاعتهم. قال ابن كثير: كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال: هذه آية القراء [٥] ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي

---

(١) التسهيل ٣/١٥٥.

(٢) يقول شهيد الإسلام سيد قطب في تفسير الظلال: هذه لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب، تبدأ بإنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان، ثم تنتقل إلى ألوان الجبال. ففي الجبال الصخرية شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها، والالتفاتة إلى ألوان الصخور وتنوعها داخل اللون الواحد تهز القلب هزًّا، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي بما يستحق النظر والالتفات، ثم ألوان الناس - وهي لا تقف عند حد - وكذلك ألوان الدواب والأنعام، والدواب: كل حيوان، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز. ذات الألوان والأصباغ العجيبة، كلها معروضة للأنظار في الكتاب الكوني المفتوح الصفحات، العجيب في التكوين والتلوين.

(٣) مختصر ابن كثير ٣/١٤٦ (٤) التسهيل ٣/١٥٨

(٥) المختصر ٣/١٤٦.

والذي أوحينا إليك يا محمد من الكتاب المنزل - القرآن العظيم - هو الحق الذي لا شك فيه، ولا ريب في صدقه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي حال كونه مصدقًا لما سبقه من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور قال أبو حيان: وفي الآية إشارة إلى كونه وحيًا، لأنه عليه السلام لم يكن قارئًا ولا كاتبًا وأتى ببيان ما في كتب الله، ولا يكون ذلك إلا من الله[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي وهو جل وعلا خبير بعباده محيط ببواطن أمورهم وظواهرها، بصير بهم لا تخفى عليه خافية من شؤونهم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿ٱلْأَعْمَىٰ . . وَٱلْبَصِيرُ﴾ و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ . . وَٱلنُّورُ﴾ و﴿ٱلظِّلُّ . . وَٱلْحَرُورُ﴾ و﴿ٱلْأَحْيَآءُ . . وَٱلْأَمْوَٰتُ﴾ وبين ﴿بَشِيرًا . . وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿سِرًّا . . وَعَلَانِيَةً﴾.

٢- جناس الاشتقاق ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ ﴿حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾.

٣- الاستعارة التصريحية ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.. الآية شبه الكافر بالأعمى، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق وعدم الاهتداء على الكافر، ووضوح الرؤية والاهتداء للمؤمن، ثم استعار المشبه به ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ للكافر، واستعار ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ للمؤمن الاستعارة التصريحية.

٤- الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾ بدل فأخرج لما في ذلك من الفخامة ولبيان كمال العناية بالفعل، لما فيه من الصنع البديع، المنبئ عن كمال قدرة الله وحكمته.

٥- قصر صفة على موصوف ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فقد قصر الخشية على العلماء.

٦- الاستفهام التقريري وفيه معنى التعجب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً . .﴾ الآية.

٧- الاستعارة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ استعار التجارة للمعاملة مع الله تعالى لنيل ثوابه، وشبهها بالتجارة الدنيوية وهي معاملة الخلق بالبيع والشراء لنيل الربح ثم رشحها بقوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾.

٨- توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه ووقعه في النفس مثل ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ومثل ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وهكذا.

□ □ □

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٢.

والأحزان، قال المفسرون: عبر بالماضي ﴿وَقَالُوا﴾ لتحقق وقوعه، والحزن يعم كل ما يكدر صفو الإنسان من خوف المرض، والفقر، والموت، وأهوال القيامة، وعذاب النار وغير ذلك (١) ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي واسع المغفرة للمذنبين، شكور لطاعة المطيعين، وكلا اللفظين للمبالغة أي واسع الغفران عظيم الشكر والإحسان ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ أي أنزلنا الجنة وأسكننا فيها، وجعلها مقرًّا لنا ومسكنًا، لا نتحول عنها أبدًا، وكل ذلك من إنعامه وتفضله علينا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي ولا يصيبنا فيها إعياء ولا فتور قال ابن جزي: وإنما سميت الجنة ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾؛ لأنهم يقومون فيها ويمكثون ولا يخرجون منها، والنصب تعب البدن، واللغوب تعب النفس الناشئ عن تعب البدن (٢). ولما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار، وذكر حال الأشقياء الفجار فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله فإن لهم نار جهنم المستعرة جزاءً وفاقًا على كفرهم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت فيها حتى يستريحوا من عذاب النار ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أي لا يخفف عنهم شيء من العذاب، بل هم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع كقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي مثل ذلك العقاب الشديد الفظيع، نجازي ونعاقب كل مبالغ في الكفر والعصيان ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي وهم يتصارخون في جهنم ويستغيثون برفع أصواتهم قائلين: ربنا أخرجنا من النار وردنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحًا يقربنا منك، غير الذي كنا نعمله قال القرطبي: أي نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، ونمتثل أمر الرسل (٣). وفي قولهم ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ اعتراف بسوء عملهم، وتندم عليه وتحسر (٤)، قال تعالى ردًّا عليهم وتوبيخًا لهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي أولم نترككم ونمهلكم في الدنيا عمرًا مديدًا يكفي؛ لأن يتذكر فيه من يريد التذكر والتفكر؟ فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها؟ وما لكم تطلبون عمرًا آخر؟ وفي الحديث «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة» (٥) ومعنى «أعذر» أي بلغ به أقصى العذر ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي وجاءكم الرسول المنذر وهو محمد عليه السلام الذي بعث بين يدي الساعة، وقيل: ﴿النَّذِيرُ﴾ هو الشيب، والأول أظهر (٦) ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي فذوقوا العذاب يا

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٤/٤٥٣، والطبري ٢٢/٩١.
(٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/١٥٩. (٣) القرطبي ١٤/٣٤٦.
(٤) التسهيل في علوم التنزيل ٣/١٥٩.
(٥) أخرجه البخاري وترجم له بقوله «باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر إليه العمر» وذكر الآية. قال ابن كثير: وهذا هو الصحيح في مقدار العمر.
(٦) ترجم الإمام البخاري ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يعني الشيب، وروي هذا عن ابن عباس وعكرمة قال ابن كثير: وما روي عن قتادة أن النذير هو رسول الله محمد ﷺ هو الصحيح وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر.

معشر الكافرين، فليس لكم اليوم ناصر ولا معين يدفع عنكم عذاب الله قال الإمام الفخر والأمر أمر إهانة ﴿فَذُوقُوا﴾ وفيه إشارة إلى الدوام (١)، وإنما وضع الظاهر ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ موضع الضمير المكنى لتسجيل الظلم عليهم، وأنهم بكفرهم وظلمهم ليس لهم نصير أصلاً لا من الله ولا من العباد، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى العالم الذي أحاط علمه بكل ما خفي في الكون من غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شأن من شئونهما ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم جل وعلا مضمرات الصدور، وما تخفيه من الهواجس والوساوس، فكيف لا يعلم أعمالهم الظاهرة؟ قال المفسرون: والجملة لتأكيد ما سبق من دوام عذاب الكفار في النار؛ لأن الله تعالى يعلم من الكافر أنه تمكن الكفر في قلبه بحيث لو دام في الدنيا إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبده، فالعذاب الأبدي مساوٍ لكفرهم الأبدي، فلا ظلم ولا زيادة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ قال القرطبي: والمعنى في الآية علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (٢) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى جعلكم أيها الناس خلائف في الأرض، بعد عاد وثمود ومن مضى قبلكم من الأمم، تخلفونهم في مساكنهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي فمن كفر بالله فعليه وبال كفره، لا يضر بذلك إلا نفسه ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا طرداً من رحمة الله وبعداً وبغضاً شديداً من الله ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا هلاكاً وضلالاً وخسران العمر الذي ما بعده خسر وخسار!! قال أبو حيان: وفي الآية تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم، فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من المكذبين للرسل وما حلَّ بهم من الهلاك، ولا اعتبروا بمن كفر، ولا اتعظوا بمن تقدم، والمقت أشد الاحتقار والبغض، والخسار خسار العمر، كأن العمر رأس مال الإنسان فإذا انقضى في غير طاعة الله فقد خسره، واستعاض به بدل الربح سخط الله وغضبه، بحيث صار إلى النار المؤبدة (٣)، ثم وبخ تعالى المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع فقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ قال الزمخشري: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ معناها أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة (٤)، ومعنى الآية: قل يا محمد تبكيتاً لهؤلاء المشركين: أخبروني عن شأن آلهتكم - الأوثان والأصنام - الذين عبدتموهم من دون الله، وأشركتموهم معه في العبادة، بأي شيء استحقوا هذه العبادة؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أروني أي شيء خلقوه في هذه الدنيا من المخلوقات حتى عبدتموهم من دون الله؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي أم شاركوا الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك الشركة معه في الألوهية؟ ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي أم أنزلنا عليهم

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٣٠.
(٢) القرطبي ١٤/٣٥٥.
(٣) تفسير البحر المحيط ٧/٣٦٧.
(٤) تفسير الكشاف ٣/٤٨٧.

كتاباً ينطق بأنهم شركاء الله فهم على بصيرة وحجة وبرهان في الاتخاذ؟ ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ إضراب عن السابق وبيان للسبب الحقيقي أي إنما اتخذوهم آلهة بتغرير الرؤساء للأتباع بقولهم: الأصنام تشفع لهم، وهو غرور باطل وزور. قال أبو السعود: لما نفى أنواع الحجج أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تغرير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم يشفعون لهم عند الله[1]. ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي هو جل وعلا بقدرته وبديع حكمته، يمنع السموات والأرض من الزوال، والسقوط، والوقوع كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ قال القرطبي: لما بيّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض، بيّن أن خالقهما وممسكهما هو الله، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه[2] ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ أي ولئن زالتا عن أماكنهما - فرضاً - ما أمسكهما أحد بعد الله، بمعنى أنه لا يستطيع أحد على إمساكهما، إنما هما قائمتان بقدرة الواحد القهار ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه تعالى حليم لا يعاجل العقوبة للكفار مع استحقاقهم لها، واسع المغفرة والرحمة لمن تاب منهم وأناب ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها قال الصاوي: كانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله[3] ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي لئن جاءهم رسول منذر ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي ليكونن أهدى من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب، قال أبو السعود: بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم[4] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي فلما جاءهم محمد ﷺ أشرف المرسلين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى والحق وهرباً منه ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي نفروا منه بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وعتوهم وطغيانهم في الأرض، ومن أجل المكر السيئ بالرسول وبالمؤمنين؛ ليفتنوا ضعفاء الإيمان عن دين الله، قال أبو حيان: أي سبب النفور هو الاستكبار والمكر السيئ يعني أن الحامل لهم على الابتعاد عن الحق هو الاستكبار، والمكر السيئ وهو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له[5]، قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي ولا يحيط وبال المكر السيئ إلا بمن مكره ودبره كقولهم: «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها» ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا عادة الله وسنته في الأمم المتقدمة، من تعذيبهم وإهلاكهم بتكذيبهم الرسل؟ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

---

(1) تفسير أبي السعود ٤/٢١٦.
(2) تفسير القرطبي ١٤/٣٥٦
(3) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٦٥
(4) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٦
(5) تفسير البحر المحيط ٧/٣١٩.

أي لن تتغير ولن تتبدل سنته تعالى في خلقه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي ولا يستطيع أحد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم، قال القرطبي: أجرى الله العذاب على الكفار، فلا يقدر أحد أن يبدل ذلك، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره، والسنة هي الطريقة [1] ثم حضهم تعالى على مشاهدة آثار من قبلهم من المكذبين ليعتبروا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ أولم يسافروا ويسيروا في القرى المهلكة فيروا آثار دمار الأمم الماضية حين كذبوا رسلهم ماذا صنع الله بهم؟ ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي وكانوا أقوى من أهل مكة أجسادًا، وأكثر منهم أموالاً وأولادًا ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أنه سبحانه لا يفوته شيء، ولا يصعب عليه أمر في هذا الكون ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي بالغ العلم والقدرة، عالم بشئون الخلق، قادر على الانتقام ممن عصاه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ بيان لحلم الله ورحمته بعباده أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم ما ترك على ظهر الأرض أحدًا يدب عليها من إنسان أو حيوان، قال ابن مسعود: يريد جميع الحيوان مما دب ودرج [2] ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولكنه تعالى من رحمته بعباده، ولطفه بهم، يمهلهم إلى زمن معلوم وهو يوم القيامة فلا يعجل لهم العذاب ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أي فإذا جاء ذلك الوقت جازاهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، لأنه تعالى العالم بشئونهم المطلع على أحوالهم، قال ابن جرير: بصيرًا بمن يستحق العقوبة، وبمن يستوجب الكرامة [3]، وفي الآية وعيد للمجرمين ووعد للمتقين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي

١- الإطناب بتكرار الفعل ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ للمبالغة في انتفاء كل منهما استقلالاً، وكذلك الإطناب في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ لزيادة التشنيع والتقبيح على من كفر بالله

٢- التهكم في صيغة الأمر ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ مثل ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

٣- المبالغة مثل ﴿غَفُورٌ﴾ ﴿شَكُورٌ﴾ ﴿كَفُورٍ﴾ ومثل ﴿حَلِيمًا﴾ ﴿عَلِيمًا﴾ ﴿قَدِيرًا﴾ فإنها من صيغ المبالغة

٤- الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾؟ وكذلك ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾؟

٥- الاستعارة المكنية ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ شبه الأرض بدابة تحمل على ظهرها

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٦٠
(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٦١
(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٩٦

أنواع المخلوقات ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الظهر بطريق الاستعارة المكنية .

٦- السجع غير المتكلف ، البالغ نهاية الروعة والجمال مثل ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وهو من المحسنات البديعية

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر»

الفهرس

صفوة التفاسير ج٢ ص ٥٦٢